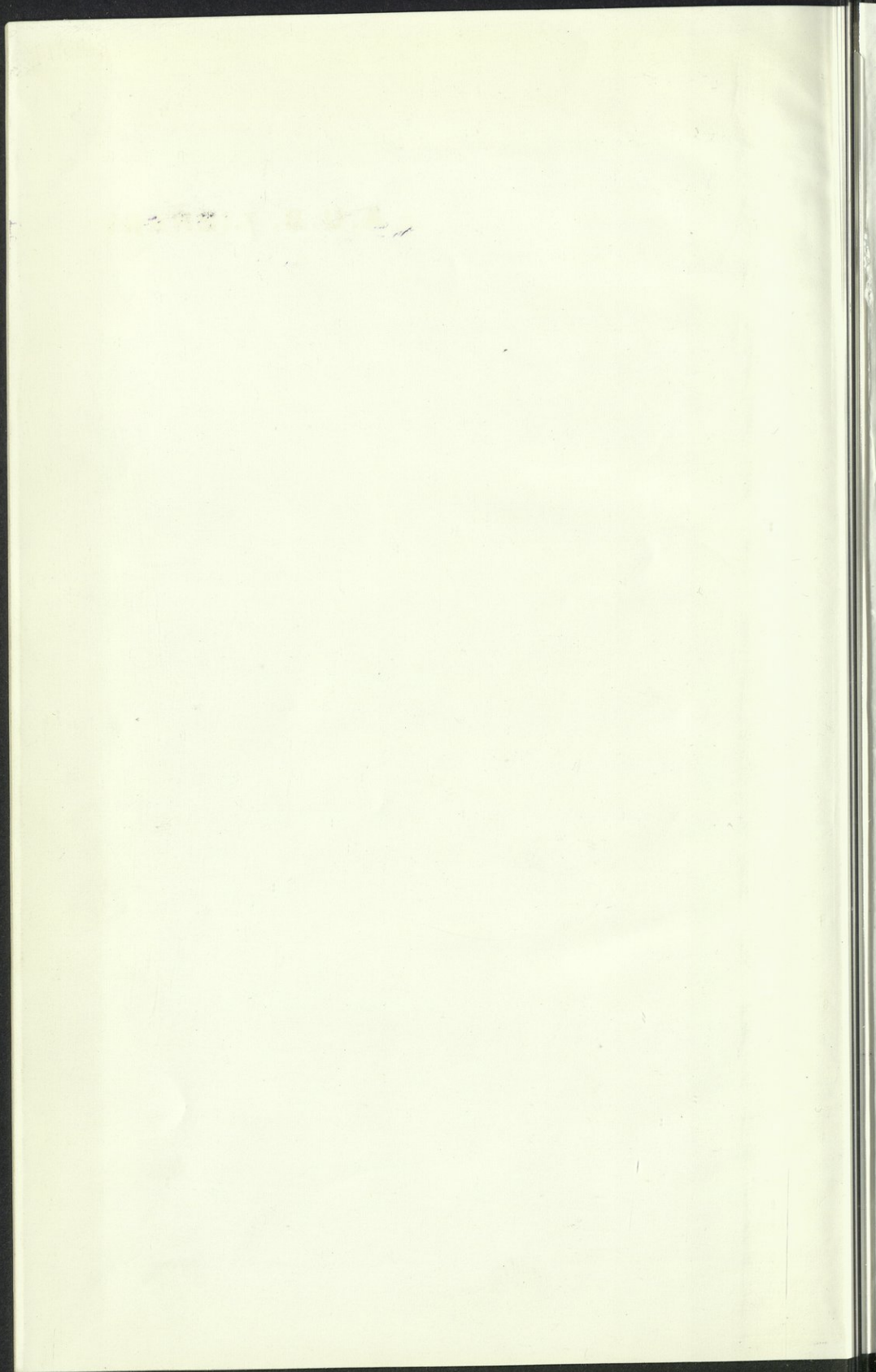


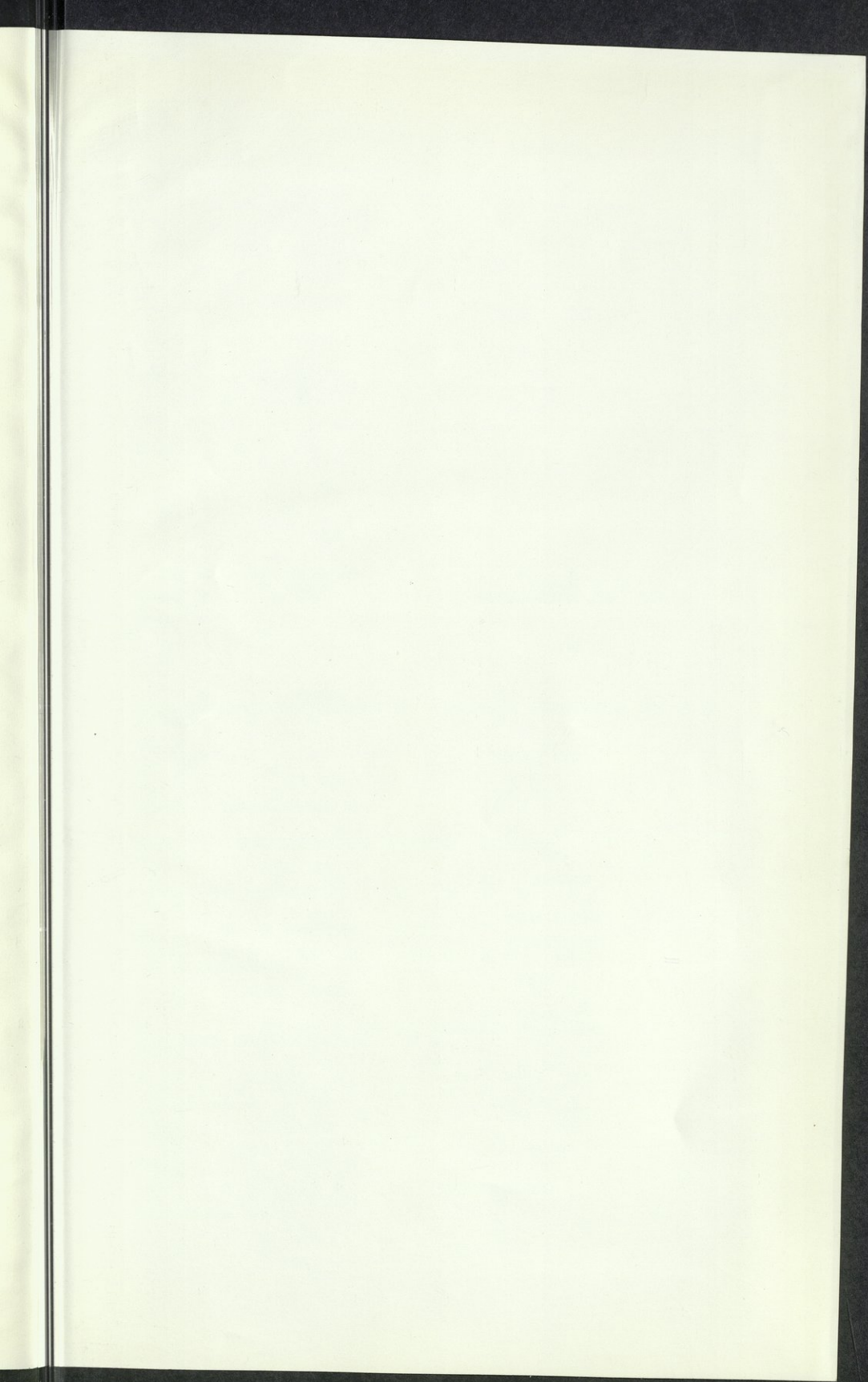
المجلد

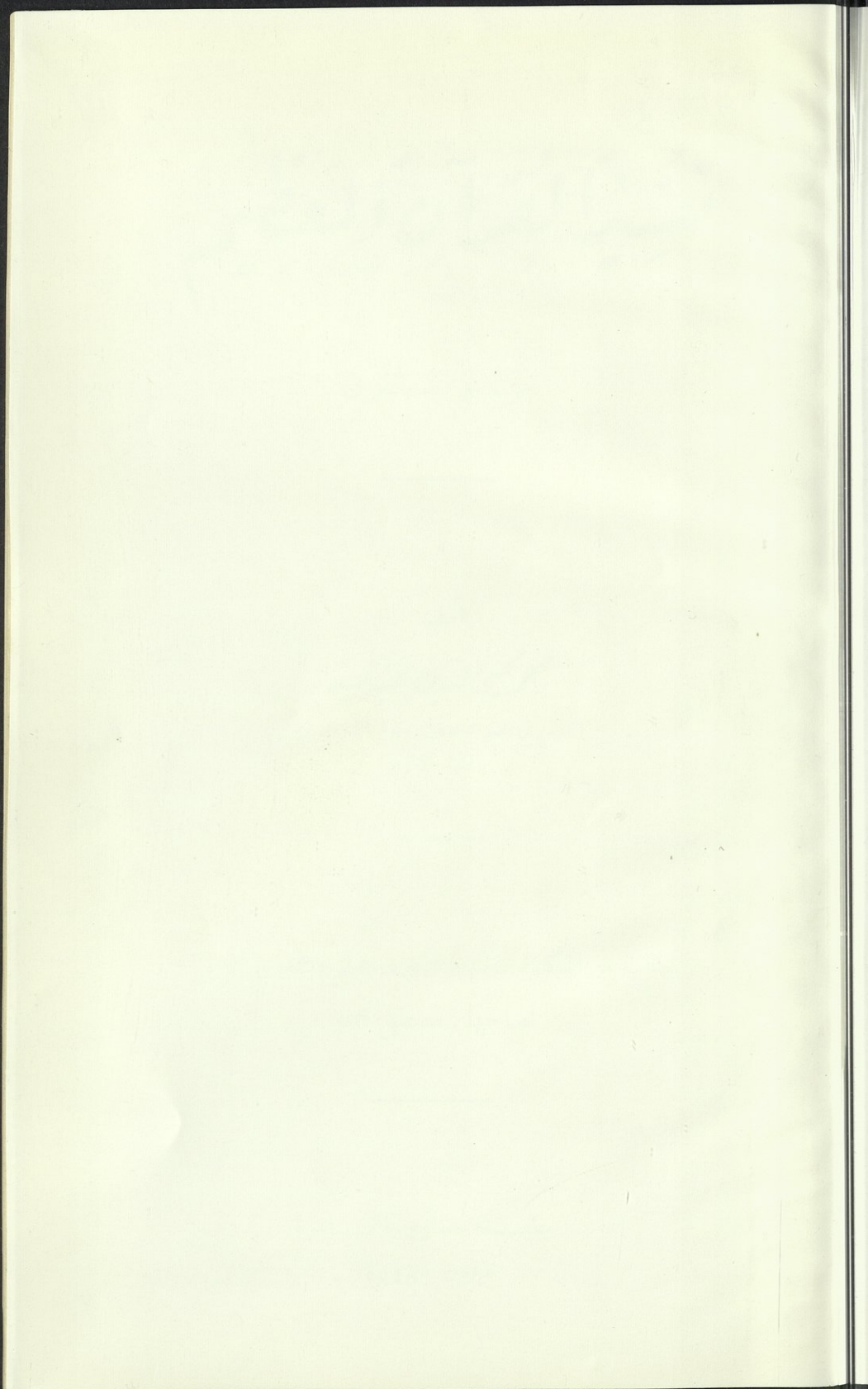
تاريخ
الدين
الاسلام

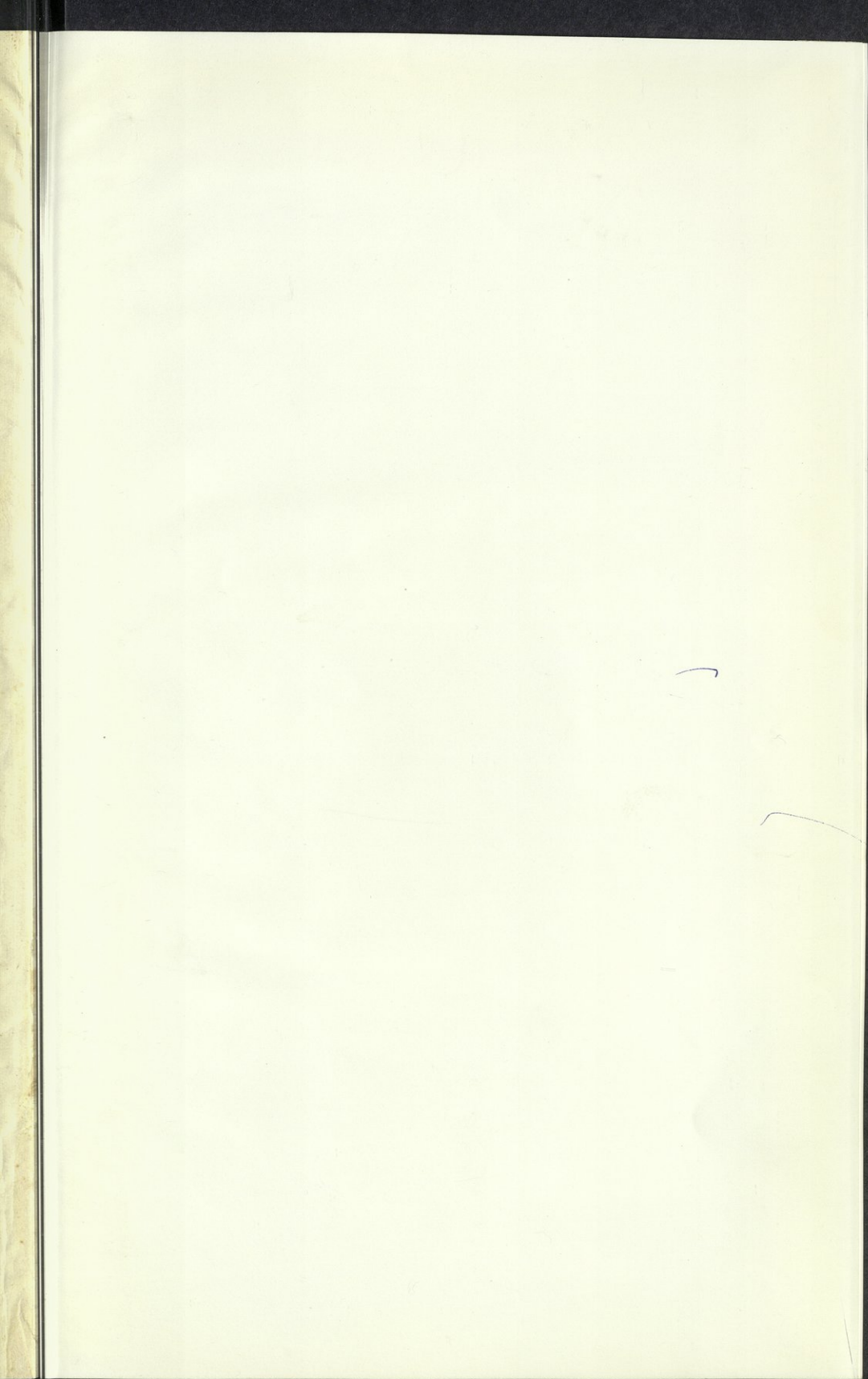
297
A13
C

A. U. B. LIBRARY









297.207
A1336A
C.I.

تفسير القرآن العظيم

جزء عم يتساءلون

تأليف:

محمد محيي الدين عبد الحميد

المدرس في قسم التخصص بكلية اللغة العربية
بالجامع الأزهر

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بشارع محمد علي بمصر

لصاحبها : مصطفى محمد

مطبعة حجازي بالقاهرة

تليفون ٥٥٤٨٠



[جميع حق الطبع محفوظ للمؤلف]

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عِوَجًا قِيمًا ؛ لينذر بأسًا شديدًا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا ما كثين فيه أبدا ، وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا ما لهم به من علم ولا لآبائهم ، كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ، إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا .

والحمد لله الذي بعث رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم وَالْعَرَبُ عَلَى شَرِّ دِينٍ وَفِي شَرِّ دَارٍ ، مَنِيخُونَ بَيْنَ حِجَارَةٍ خُشْنٍ وَحَيَاتٍ صُمٍّ ؛ يَشْرَبُونَ الْكَدِرَ ، وَيَأْكُلُونَ الْجَشَبَ ، وَيَسْفِكُ بَعْضُهُمْ دَمَاءَ بَعْضٍ ، الْأَصْنَامُ فِيهِمْ مَنْصُوبَةٌ مَعْبُودَةٌ ، وَالْآثَامُ بِأَعْنَاقِهِمْ مَعْصُوبَةٌ مَوْدُودَةٌ ؛ فَأَبْدَلَهُمُ اللَّهُ بِهِ خَيْرَ دِينٍ وَخَيْرَ دَارٍ ، وَهَدَاهُمْ بِهِ الصِّرَاطَ السَّوِيَّ وَالسَّبِيلَ الْوَاضِحَ ، وَجَعَلَهُمْ بِرِكَّةٍ اتَّبَاعَهُ خَيْرُ الْأُمَمِ ، وَالشُّهُودَ عَلَى النَّاسِ ، وَأَتَاهُمْ مِنْ كُلِّ مَسْأَلَةٍ .

والحمد لله الذي علم خفيات الأمور ، وشهدت بربوبيته أوضح الآيات ، الذي امتنع على عين البصير وظهرت آثاره في كل شيء ؛ فلا عين من لم يره تنسكركه ، ولا قلب من أثبتته يبصره ، والذي سبق في العلو فلا شيء أعلى منه ، وقرب في الدنو فلا شيء أقرب منه ، وما باعده علوه عن شيء من خلقه ، ولا ساواه قرب به بشيء منهم .

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد عبده ورسوله الذي أرسله بالدين والهدى والحكمة ؛ إِزَاحَةً لِلشُّبُهَاتِ ، وَاحْتِجَاجًا بِالْبَيِّنَاتِ ، وَتَحْذِيرًا بِالْآيَاتِ ، وَتَخْوِيفًا

بالمثلات ، فسارت به أعلام الدين ، وقام ببركته عمود اليقين ، ورفرفت بسببه بنود
الايان وارتفعت أعلام المسلمين ، وشمل بحدله وحلمه وهده الناس أجمعين

أما بعد ؛ فان كتاب الله تعالى هو البحر الزاخر ، والعلم الشامخ ، الذى تبلى
الأيام ولا تبلى عجائبه ، وينفذ المداد قبل أن يُمينَ بعضَ ما فيه كاتبةً ، وهو الحبل
المتين الذى من تمسك به نجا ، وهو المورد العذب الذى من شرب منه شربة لم
يظمأ بعدها أبداً ، فيه نبأ من قبلنا وحكم ما بيننا ، وهو الشاهد يوم القيامة لنا أو
علينا ، اللهم اجعلنا من حزبه ، وَبَصِّرْنَا بما فيه ، واجعله شاهداً لنا بين يديك
يارب العالمين .

وإني منذ مدة أفكر فى كتابة تفسير ثلاثة الأجزاء الأخيرة من القرآن
الكريم إذ كانت أكثر ما يحفظه ناشئة البلاد الاسلامية اليوم ، تفسيراً على قدر
استطاعة مثلى : لأزعم أنه متين التحقيق ، ولكن أقول سهلاً المأخذ قريب المنال ؛
وإني كنت كلما فكرت فى الأمر خشيتُ أن تزل القدم أو يطغى القلم فأقول
على الله تعالى ما ليس لى به من علم ، فيَهْوِلُنِي الأمر ، وَيَقْدَحُنِي الخطب ، فأحجم
ثانياً لعنان الفكر ، طالبا لنفسى النجاة من المزال والمزالق .

وما زال هذا الخاطر يعاودنى حتى تجاسرت واجترأت على الإقدام ، سائلاً
الله تعالى أن يوفقنى ويهدينى بقدر إخلاصى وحسن نيتى ؛ إنه لا يهدى إلى خير
العمل سواه

ثم رأيت أن أبداً بتفسير الجزء الثلاثين من القرآن الكريم الذين أوله سورة
(عمّ يتساءلون) لأنه أول ما يحفظه الناشئ من الكتاب العزيز ، وأنا أرجو
أن أكون قد وُفِّقْتُ إلى ما أردت ، وأن يتقبل الله منى هذا العمل
قبولاً حسناً .

ربنا لا تسكننا إلى أنفسنا ، ربنا ولا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمل

علينا إصرًا كما حملته على الدين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به . واعف
عنا واغفر لنا وارحمنا ، أنت مولانا ، فانصرنا على القوم الكافرين
ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة ، إنك أنت
الوهاب . ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه ، إن الله لا يخلف الميعاد .
ربنا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار .
رب هب من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء ؟
كتبه : أبو رجاء

محمد محي الدين عبد الحميد

القاهرة في :
المحرم ١٣٥٧
مارس ١٩٣٨

سورة النبأ *

[وهي مَكِّيَّة ، نَزَلَتْ بعد سورة المَعَارِج ، وآياتها أَرْبَعُونَ آيَةً ^(١)]

* وتسمى سورة « عم يتساءلون » وتسمى أيضا « سورة التَّسْأُل » وتسمى أيضا « سورة الْمُعْصِرَات »

(١) ويتال : إحدى وأربعون آية ، ذكره قوم منهم الزخشرى .

أرسل الله تعالى رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم بشيرا ونذيرا ، وداعيا إلى الله بأذنه وسراجا منيرا ، وأمره أن يبلغ الناس ما أرسله به إليهم ، وآتاه المعجزة الباقية على الدهر وهي القرآن الكريم ، وكلفه أن يتحدى به فُصَحَاءَهُمْ ، وأعلمه أنهم لا يأتون بمثله ولا بعشر سور منه ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا .

وقد أبلغ الرسول قومه ما أمره الله بإبلاغه ، وحَضَّهم على اتباعه والإيمان به ، وَسَفَّهَ ما كانوا عليه من عبادة غير الله تعالى ، وبَشَّرَ من آمن به جنات تجري من تحتها الأنهار يوم لا يحزى الله النبي والذين آمنوا معه يسمعون نورهم بين أيديهم ؛ وحذَّرَ من عصاه نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤْمَرُونَ ، يوم يَعِضُّ الظالم على يديه ويقول يا ويلتنا ليتنى لم آتخذ فلانا خليلا . وأعلمهم الرسول أن الخلق سيبعثون بعد موتهم ليلاقوا جزاء أعمالهم ، فأما من آمن وعمل صالحا في هذه الحياة الدنيا فإنه يأتي يوم البعث والعَرَضِ على الله مستبشرا فرحاً ، وأما من عصى الله ورسوله وأساء في هذه الحياة صنيعه فإنه مُلاقٍ أشد العقاب جزاء وفاقاً

فأما من هداه الله ووفقَه وكتب له السعادة فقد بادر إلى الإيمان وأطاع الله ورسوله فيما دُعِيَ إليه ، وأما من كتب الله عليه الشقاء وأعمى بصيرته فقد عصى

الله ورسوله وأنكر ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال : ما هي إلا حياتنا الدنيا وإن يبعث الله أحدا بعد الموت

وكان هؤلاء الكفار كلما اجتمعوا في نادٍ من نواديهم أخذوا يتحدثون في شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وما جاءهم به ، ويسأل بعضهم بعضا عن مقدار تصديقهم ما يسمعون منه ، يريدون بذلك أن يقوى بعضهم من عزائم بعض ، وأن يتواصوا على تكذيبه وجحد دلائل نبوته ، يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون

كانوا يتحدثون في شأن القرآن : أسحر هو أم شعر أم كهانة أم اختلاط الجنون ؟ فيقول كل واحد منهم ماشاء له الضلال البعيد أن يقوله ، والقرآن حجة الله البالغة إلى رسوله الأمين ، وهو النور الذي يهبر الأنظار سناه ، ولا ينكره إلا أعمى البصر سقيم الوجدان

وكانوا يتحدثون في شأن الرسول : أساحر هو أم شاعر أم كاهن أم اعتراه بعض آلهتهم بسوء ، فيزعم كل واحد منهم من ذلك مزعماً ومحمد بن عبد الله رسول الله الذي اجتباها واختاره لحمل أمانة النبوة وطهره من رذائل الجاهلية وأدرانها ، والله بالغ أمره وإن جحد أهل الزيف والبهتان

وكانوا يتحدثون في شأن البعث ويأخذ الجدل في أمره بينهم مأخذا عظيماً ؛ فمنهم من ينكر البعث إنكاراً كلياً ، ويزعم أنهم إذا ماتوا انقطع شأنهم ، وما هي إلا هذه الدنيا ، ومنهم من كان يزعم أنه إنما يبعث الله أرواحهم ، ولن يبعث أجسادهم بعد أن تأكلها الأرض وتعبث بها يدُ البلي

وَرُبَّمَا لَقِيَ أَحَدَهُمْ بَعْضُ مَنْ آمَنَ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَسْأَلُهُ عَنْ ذَلِكَ اسْتِهْزَاءً بِهِ وَسُخْرِيَةً مِنْهُ ، وَاللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمْدَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ

بسم الله الرحمن الرحيم

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ [١] عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ [٢] الَّذِي هُمْ فِيهِ

وفي هذا الشأن نزلت هذه السورة الكريمة ، ردّاً عليهم ، وتكذيباً لهم ، وإقامة للحجة على أن الله تعالى قادرٌ على أن يبعثهم بعد موتهم ، وإن صاروا تراباً ، وإن أكلتهم السباع ، وإن احتوتهم البحار فكانوا طعاماً للأسماك ، وإن حرقتهم النيران فطاروا مع الريح

(عَمَّ) أصل هذه الكلمة « عن ما » فأدغمت النون في الميم ، وحذفت ألف « ما » الاستفهامية ، كما تحذفها في نحو قولك « يَمَ اشتريت هذا الثوب » ونحو قولك « إلامَ أنتَ لآءٍ عن واجبك » وذلك للفرق بين الاستفهام والخبر في نحو قولك « سررت بما سررت به » أى بالذى سررت به ، ونحو قولك « سألتُ عمّاً سألتَ عنه » أى عن الذى سألتَ عنه (يتساءلون) أى : يسأل بعضهم بعضاً ، والمراد الكفار فانهم على ما قدمنا لك كانوا إذا اجتمعوا خاضوا في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم وعما جاء به ، وكان أهمُّ شيء يأخذون في الحديث عنه هو البعث . وقيل : المراد أن الكفار كانوا يسألون المؤمنين سؤال المستهزئ الساخر ، أو سؤال المنكر المتعنت (النبا) هو الخبر الذى يُعْنَى به وَيُهْتَمُّ له ، ويقال : هو الخبر مطلقاً (العظيم) وصف للنبا ، ووصفه تعالى بهذه الصفة لعظمة شأنه وتفخيم أمره ، والمراد بالنبا العظيم خبر البعث من القبور والعرض على مالك يوم الدين وجزاء الناس على ما عملوا في الحياة الأولى من الأعمال ، ويقال : المراد به القرآن ، ويقال : المراد به نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكلاهما بعيد عن السياق ، ثم وصف الله تعالى النبا ثانياً بقوله (الذى هم فيه مختلفون) فان جعلت الضمير فى قوله « يتساءلون » وقوله « هم » راجعاً إلى الكفار وحدهم كان معنى اختلافهم فى شأن البعث أن منهم من يحزم بانكاره

مُخْتَلِفُونَ [٣] كَلَّا سَيَعْلَمُونَ [٤] ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ [٥] أَلَمْ

ويؤكد أنه لا يكون ، ومنهم من يتردد في أمره ويشك فيما جاءهم به النبي عنه ؛
أو يكون معنى اختلافهم فيه أن منهم من يمجده بالكيفية ، ومنهم من يمجده
بعث الأجسام ولا ينكر بعث الأرواح فقد كان ذلك عقيدة لبعض الناس قبل
البعثة المحمدية . وإذا جعلت الضمير في قوله « يتساءلون » وفي قوله « هم »
راجعا إلى الكفار والمسلمين جميعا ، لأن الكفار كانوا يسألون المؤمنين علي ما قدمناه ،
كان معنى اختلافهم ظاهرا لأن المؤمنين يجزمون بحصوله تصديقا لخبر النبي عن ربه ،
والكفار يجزمون بعدم وقوعه تكذيبا للرسول واستبعادا للامر ؛ ويبعد أن تجعل
الضمير في « يتساءلون » راجعا إلى الفريقين ثم تجعل الضمير في « الذي هم فيه »
مختلفون « راجعا إلى الكفار وحدهم ، وكذلك العكس

ثم أخذ سبحانه وتعالى في الرد عليهم ، وبيان أنهم أخطأوا المَحَجَّةَ ،
وضأوا طريق الاستدلال ، وكان عليهم أن ينظروا في ملكوت السموات
والأرض ، ويتدبروا ما فيه من مظاهر القدرة ، والدلائل التي تنبئ عن عظمة
الخالق وقهره ، وشدة تمكنه من أن يفعل ما يريد ، وبدأ سبحانه هذا الردَّ
بزجرهم عما ذهبوا إليه من الجحود ، وتقريعهم على ما أهملوا من أعمال العقل
والرؤية ، فقال : (كلا) وهو حرف ردَّع وزَجَر ، أريد به ههنا ردُّهم
عن مزاعمهم الباطلة ، وقوله تعالى (سيعلمون) معناه سيعلمون حقيقة الحال إذا
معاينوا بأنفسهم وشاهدوا بأعينهم ما كانوا ينكرون وقوعه ، أو معناه سيعلمون
مقدار ما ينالهم من أليم العقاب على هذا الإنكار ، أو معناه سيعلمون أن الله تعالى
ينصر رسوله عليهم في هذه الدنيا فينالهم منه أذى شديد كالذي يؤذونه به أو أشد
فيكون على الوجه الأخير إنذارا لهم بما وقع عليهم من الهزيمة والقتل والأسر في

نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا [٦] وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا [٧] وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا [٨]

مغازى الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهذا الوجه بعيد . ثم أكد سبحانه وتعالى هذا الوعيد بقوله (ثم كلا سيعلمون) وصَدَّرَهُ بِثَمَّ للإشارة إلى أن الثانى أشد من الأول وأبعد منه فى الإيلام وإيصال الضرر والأذى إلى المنكرين الجاحدين .

ثم أخذ سبحانه يذكر بعض مظاهر قدرته الغالبة التى غفل عنها هؤلاء المنكرون مع أنها بين أعينهم فى كل وقت فقال : (ألم نجعل الأرض مهادا) والهمزة للاستفهام التقريرى ، والمراد بها حَمْلُ الخاطب على الإقرار بما بعد النفى : أى اعترفوا بأننا جعلنا الأرض مهادا ، لأن الدلائل فوق ما تستطيعون معه الانكار ، والمهاد — بكسر الميم — المكان الموطأ المهدى المذل ، ومثله المهد فى نحو قوله تعالى : « الذى جعل الأرض مَهْدًا » والأصل فى ذلك كله المهد ، وهو مأهياً للصبي لينام فيه (أوتادا) جمع وَتَد ، وهو قطعة من الخشب تدق فى الأرض ليربط إليه حَبْلٌ يشد الخيمة والبيت الذى يبنونه من الشعر ، والمراد أن الله جلت قدرته جعل الجبال بالنسبة للأرض كالأوتاد بالنسبة لبيوت الشعر والأخبية ؛ كى لا تميد الأرض بأهلها وتضطرب بسكانها فلا يتم كون الأرض مهادا لهم (أزواجا) جمع زوج ، وذلك مثل ثوب وأثواب ونوئل وأنوال ، والمراد بالزوج ههنا الذكر والأنثى ، كما يدل عليه قوله تعالى : « وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى » ويقال : المراد بالزوج كل شيئين متقابلين يضاد أحدهما الآخر ، مثل القبيح والحسن ، والطويل والقصير ، والأبيض والأسود ، كما يرشد إليه قوله تعالى : « ومن كل شيء خلقنا زوجين » والحكمة فى الامتنان علينا بذلك الإشارة إلى مواطن الدليل ، فان الضد ينبجلى أمره وينكشف حاله

وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا [٩] وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا [١٠] وَجَعَلْنَا النَّهَارَ
مَعَاشًا [١١] وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا [١٢] وَجَعَلْنَا سِرَاجًا

تمام الانكشاف إذا قورن بضده (سباتا) بضم السين — أصله القطع ، تقول :
سَبَتَ الرجلُ السَّيْرَ ، إذا قطعه ، وتقول : سبت الرجلُ شَعْرَهُ ، إذا حَلَقَهُ ،
والمراد أن الله تعالى جعل نومنا في الليل قطعاً للمتاعب التي نكابدها في النهار من
السَّعى لتحصيل الرزق ونحوه ، أو المراد أنه جعل النوم متقطعاً ولم يجعله دائماً
سَرَمَداً ، لأن دوام النوم من أضر الأشياء بالإنسان ، إذ الفرق بين الإنسان
والجماد إنما هو بالحركة ، فلا تظهر ميزة الإنسان على الحجر إلا باليقظة التي تكون
فيها الحركة ، فلما كان انقطاع النوم وحصوله آناً بعد آناً نعمةً جليلةً لاجرم ذكره
الله سبحانه في مظاهر قدرته ومَوْطِنَ تعداد نعمه (الليل لباساً) أصل اللباس الشيء
الذي يلبسه الإنسان ليستر به جسده ويغطيه ، ولما كان الليل بظلامه يستر
الناس ويغطي عليهم جُعلَ لباساً ، على التشبيه بالثوب ونحوه ، ووجه الامتنان
بذلك علينا أن الليل يُتيح الفرصة لمن يخاف عدواً أو نحوه أن يهرب من وجهه ،
وكما أن الإنسان بسبب اللباس يندفع عنه أذى الحر والبرد فكذلك هو بسبب
الليل وما يحدث فيه من النوم يندفع عنه أذى التعب البدني والفكري ، أفلمست
تري أن المريض إذا نام وجد برْدَ الراحة (النهار معاشاً) أي وقتاً لتحصيل أسباب
الحياة ، وذلك لأن الخلق إنما يمكنهم التقلب في حوائجهم ومكاسبهم في النهار ،
دون الليل (سبعاً شداداً) أي سبع سموات قوية محكمة التدبير ، لا يؤثر فيها
مَرُّ الْعَدَاةِ ولا كَرُّ الْعِشْيِ ، لا ترى فيها من فُطُور ولا تصدُّع . والشَّدَاد : جمع
شديدة (سراجاً وهاجاً) أصل السراج ما يضيء بفتيلة ودهن ، ويعبر به عن كل

وَهَاجًا [١٣] وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا [١٤] لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا
وَنَبَاتًا [١٥] وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا [١٦] إِنَّ يَوْمَ الْفُصْلِ كَانَ مِيقَاتًا [١٧]

مضى منير حسًّا كان كالمصباح والقمر والشمس ، أو معنى كما تقول : فلان سراج
هذه الأمة ، إذا كان جيد الرأي مُتَّبَعًا . والوهَّاج : صيغة مبالغة من الوهَّج ،
وهو حصول الضوء والحرارة من النار ونحوها . والمراد ههنا من السراج الوهاج هو
الشمس ، وهى بالغة أقصى الغايات من هذه الأوصاف ؛ فهى مضيئة إلى أبعد
غايات الاضاءة ، وهى بالغة أقصى الغايات فى الحرارة ، وقد جعل الله تعالى فى هذا
الكوكب العظيم سرَّ الحياة ، وأودع فيه من القُوَى المجددة للدم الطاردة للأمراض
مالا يقدر كنهه ولا يدرك مداه إلا من رأى كيف تفتك الأمراض بمن يعيش فى
مَنَآئٍ عن ضوء الشمس وحرارتها ، وعلم أن الجراثيم الطفيلية من عناصر الأوبئة
لا تتولد إلا حيث تحجب الشمس وهَجَّها ، وأنها تفر من وجه الشمس مثلها يفر الجبان
الرَّعْدِيْدَة من الشجاع الباسل (المعصرات) السحائب التى قاربت أن تُثيرها
الرياحُ فتُمْطر ، وقريب منه قولك : أعصرت الفتاة ، إذا دنا وقت حيضها ،
وقولك : أَحْصَدَ الزرع ، إذا قرب وقت حصاده (ثججا) كثير السيلان ،
عظيم الانصباب ، والمراد المطر ، ونزولُ المطر نعمة من نعم الله تعالى العظيمة النفع
الجلية الفائدة ، فهو الذى يُبَدِّلُ جذب الأرض خصبا ، ويشير ما كُنَ فيها من
الحيويَّة فيظهر النبات وتبدو به الأرض فى زينتها البديعة (حَبًّا) المراد به ما يكون
طعام الإنسان كالحنطة (ونباتا) المراد به الحشائش التى تكون طعاما لأنواع
الحيوان (جنات ألفافا) حدائق ملتفة الأغصان ، والألفاف : جمع لف - بكسر

اللام - مثل جذع وأجذاع ، والآف : صفة مشبهة ، وقد ورد هذا المفرد في نحو قول الشاعر :

جَنَّةٌ لِفٍّ ، وَعَيْشٌ مُعْدِقٌ ، وَنَدَامَى كُلُّهُمْ بَيْضٌ زُهُرٌ

وقيل : مفرد الألف لفيف ، مثل شريف وأشراف . وقد جمع الله تعالى في هذه الآيات جميع أنواع ما تنبته الأرض ، وذلك أن ما يخرج منها إما أن يكون ذا ساق وإما أن يكون بغير ساق ، وما يكون له ساق إذا اجتمع بعضه إلى بعض وكثر حتى التفت فهو الحديقة ، وما يكون بغير ساق إما أن تكون له أكام فيها حب ، وإما أن يكون بغير أكام ولا حب ، فالأول هو المراد بالحب والثاني هو المراد بالنبات ؛ والحكمة في تقديم الحب أنه الأصل في غذاء أشرف أنواع الحيوان وهو الانسان ، وعقبه بذكر النبات لأنه شارك الحب في كونه أصلا للغذاء ، وآخر ذكر الحقائق لأن الفاكهة التي هي نتاج الحقائق مما يستغنى عنه كثير من الناس فليست هي بمنزلة الحب في الحاجة إليه وعدم الاستغناء عنه .

ذكر الله جلّت قدرته في هذه الآيات تسعة أمور من مظاهر القدرة البالغة والحكمة الفائقة ، وكل هذه الأمور مما يشاهده كل أحد ، ولا يخفى أمره على إنسان مهما يكن من بساطة العقل وضعف التفكير ، فانبساط الأرض وتمهيدها وتذليلها لتصلح لسير الناس والأنعام ، وشموق الجبال صاعدة في الجو ، وتنوع الآدميين إلى ذكر وأُنثى أو تقابل المخلوقات وتضادها ، وكون النوم سببا في راحة الانسان من عناء الأعمال التي يزاولها عامة نهاره ، وكون الليل ساترا للخلق ، والنهار وقتا للحياة ، وارتفاع السموات فوقنا ارتفاعا يدل على عظمة الصانع ، ووجود الشمس المنيرة المتوهجة ، وزول المطر وما ينشأ عنه من أنواع النبات ؛ كل ذلك مما لا يغفل عنه ذهن ولا يستطيع أن ينازع فيه ذو بصيرة وسمع . ذكر الله تعالى

يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ قَتَاتُونَ أَفْوَاجًا [١٨] وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ

ذلك داعياً لهم أن يعترفوا بأنه من صنعه وأنه الموجد له ، وكأما قال لهم : هذه
لأُمُور التي ترونها وتشاهدونها هي من صنعتي وأنا الخالق لها على هذا النحو البديع
الذي يدل على سمو الحكمة وعظيم التدبير ، وإن من خلق ذلك لا يعجزه شيء ولا
تضعف قدرته أمام شيء .

ثم لما نبههم إلى هذه المظاهر الباهرة ، ولفت أنظارهم إلى آياته القاهرة ؛ أخذ
في بيان ما اختلفوا فيه ونازعوا في إمكان حصوله ، فبين لهم أنه بعلمه وحكمه
وتقديره ، وبين لهم بعض ما يكون فيه ؛ تخويفاً لهم من الاستمرار على التكذيب بعد
ما وضحت الدلالة وبانت الحججة ؛ فقال : (إن يوم الفصل) هو يوم القيامة ، وإنما
سمى بذلك لأن الله تعالى يفصل بين الناس فيه ؛ فيأخذ للمظلوم من ظلمه ، أو
لأن الناس يومذاك تميز وتكون طبقات على حسب أعمالهم في الدنيا ؛ ألا ترى
إلى قوله تعالى « وامتازوا اليوم أيها الجرمون » (ميقاتا) أى حدا تنتهى عنده
الدنيا ، وينتهى إليه الخلاق ؛ فيجتمعون ليرى كل واحد ما عملت يده ، وكيف
يجازى المحسن باحسانه ويعاقب المسيء على إساءته (يوم ينفخ في الصور) هو بدل
من « يوم الفصل » أو عطف ببيان عليه ، والصور في الأصل البوق الذي ينفخ
فيه فيحدث صوتاً ، وقد جرت عادة الناس إذا سمعوا ذلك أن يجتمعوا عند النافخ
ويهرعوا إليه ، ويجب على كل مسلم أن يؤمن بأُمُور الآخرة على ما وردت في
كتاب الله تعالى لأنها من الأمور التي لا تحيط العقول بكنهها ولا تتف على حقيقتها
وسرها ؛ وليس لأحد أن يناقش فيها ولا أن يستبطن ما أخفاه الله من تفصيلها (أفواجا)
جمع فَوْج ، وهو الجماعة : أى تجميعون جماعات من قبوركم (فتحت السماء) أى
انشقت وتصدعت ، ويدل عليه قوله تعالى « إذا السماء انشقت » وقوله « إذا

أَبْوَابًا [١٩] وَسِيرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا [٢٠] إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ

السماء انفطرت » والمراد أن هذا العالم الذى تشاهدونه يتغير يومذاك نظامه وتبديل هيأته (فكانت أبوابا) أى أنها لكثرة صدوعها صارت كالأبواب (سيرت الجبال) زالت من أماكنها وتفتت صخورها وذرتها الريح فى الهواء كالهباء (فكانت سرايا) أى أنها تشاهد فى الهواء على صورة الجبال وليست فى الحقيقة جبالا ، وإنما هى غبار تطاير وتراكم بعضه إلى بعض ، فمثلا عند الرأى الذى لا يحقق المرئى كمثل السراب يراه الانسان من بعيد فيحسبه بحرا وليس ببحر . وذلك كله تمثيل لاضطراب أمر هذه الكائنات يومئذ ، وأنها لا تكون على حالها الذى تراه اليوم « يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات »

ثم لما أبان لهم سبحانه وتعالى قدرته على خلق ما اختلفوا فيه وكذبوا رسوله من أجله ، وبين أن هذا اليوم الذى يكذبون به هو اليوم الذى يفصل بينهم وبين الرسول فيما كانوا فيه يختلفون ، وأنه اليوم الذى يبين فيه فضل الرسول ومن اتبعه ويظهر فيه حقارة شأن من خالفوه ولم يؤمنوا به ، وأنه يوم شأنه عظيم ، وأمر الكائنات فيه على غير ما هى عليه الآن ، بعد أن بين ذلك كله أخذ فى بيان منزلة المكذبين الذين جحدوا آيات الله واتخذوها سخرية وهزؤا ، فقال : (إن جهنم كانت مرصادا) والمرصاد : صيغة مبالغة ، مثل المطعان والمِعْطَار والمِعْمَار ، أى إن جهنم شديدة الترصد والانتظار والارتقاب للذين استأهلوها بنجيث أعمالهم تكاد تميز من الغيظ منهم والحق عليهم ، ويقال : المرصاد اسم مكان ، أى إن جهنم مكان يرتقب فيه خزنها المستحقين لها ، ويقال : اسم مكان يُرصد فيه الناس جميعا مؤمنهم وكافرهم ، فأما المؤمنون فيرصدهم خزنة النار ليدفعوا عنهم

مِرْصَادًا [٢١] لِلطَّاعِينَ مَثَابًا [٢٢] لِبَشِيرٍ فِيهَا أَحْقَابًا [٢٣] لَا يَذُوقُونَ
فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا [٢٤] إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَاقًا [٢٥] جَزَاءً وَفَاقًا [٢٦]

حرها ولفح نارها حين مرورهم بها ، وأما الكافرون فيرصدهم خزنة النار لينزلوهم في
منازلهم منها (الطاعين) الذين تكبروا على ربهم ، وطغوا في مخالفته ومعارضته
(مآباً) مصيرا ومقرا وموضعا يرجعون إليه و يصيرون فيه (لالبئين) مقيمين (أحقابا)
جمع حقب ، والحقب : جمع حقبّة ؛ والصحيح أن الحقبّة مدة من الزمان مبهمّة
والمراد أنهم ما كثون فيها دهوراً متلاحقة يتبع بعضها بعضاً ، كلما انقضى عليهم
زمن تجدد لهم فيها زمن آخر مثله ، وهكذا مادام الزمن « يريدون أن يخرجوا من
النار وما هم بخارجين منها ، ولهم عذاب مقيم » وليس المراد توقيت لبشيم فيها بمدة
ولو تطاول أمدّها . ويقال : الأحقاب جمع حقب — بفتح الحاء وكسر القاف —
والحقب : هو الذي مسّه الجذب وأصابه البؤس ، فيكون منصوباً على أنه حال
من الضمير المستتر في « لالبئين » وقوله تعالى (لا يذوقون فيها برداً) المراد به
أنهم لا يذوقون مع ما يجدونه من شدة الحر ما يكون فيه راحة : من ريح باردة ،
أو ظل يمنع لفح النار عنهم ، ويقال : البرد هو النوم ، ومن أمثال العرب « منع
البرد البرد » أي أصابه من شدة البرد ما منعه النوم (ولا شراباً) يسكن عطشهم
ويزيل الحرقه عن بواطنهم (الإحميا) الحميم : هو الماء الحار المغلي جداً (وغساقاً)
الغساق : هو ما يسيل من جلودهم من الصديد والقيح والعرق وسائر الرطوبات
المستقذرة (جزاء وفاقاً) أي أنه تعالى أنزل بهم عقوبة شديدة بسبب أنهم اتوا
بمعصية شديدة ؛ فيكون العقاب وفاقاً للذنب : لم يزد على قدر الاستحقاق ،
ولم ينقص عنه « وجزاء سيئة سيئة مثلاً » « ولا يظلم ربك أحداً » ، ثم لما بين على
طريق الإجمال أن هذا الجزاء الذي أعدّ لهم على وفق جرّهم شرح أنواع جرائمهم

إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا [٢٧] وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا [٢٨]
وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا [٢٩]

بعد الاجمال ، وبين أنها على نوعين : أولهما ما ذكره بقوله تعالى : (إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا) يعنى أنهم ما كانوا يخافون الحساب ، أو المراد أنهم ما كانوا يتوقعونه . وإنما ذكر هذا الذنب أولاً لأنه سبب ومنشأ ترتبت عليه سائر ذنوبهم ، وذلك لأن رغبة الانسان فى فعل الخيرات وترك المحظورات إنما تكون — فى الغالب الكثير من أحوال الناس — بسبب اعتقاده أنه ينتفع بذلك فى الآخرة ، فمن كان لأمر الآخرة منكراً لم يقدم على شيء مما يحسن عمله ، ولم يحجم عن شيء مما يقبح فعله ، والنوع الثانى من جرائمهم ما ذكره سبحانه بقوله : (وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا) والكذاب : التكذيب ، وانتصابه على أنه مفعول مطلق مؤكده لعمله ، والمراد أن هؤلاء الكفار قد بلغوا من رداءة الحال مبلغاً ليس بعده مزيد ، فانهم قد اعتقدوا أفسد العقائد ، وقد عملوا أقبح الأعمال ، وقد أشار إلى فساد أعمالهم بقوله « إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا » أى كانوا مقدمين على جميع القبائح والمنكرات غير راغبين فى شيء من الطاعات والخيرات ، تعبيراً بالملزوم عن اللزوم ، وأشار إلى فساد نظرهم وعقائدهم بقوله « وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا » أى كانوا منكرين بقلوبهم للحق مصرين على الباطل (وكل شيء أحصيناه كتاباً) تقدير الكلام أحصيناه إحصاءً ، فوضعت كلمة « كتاباً » موضع « إحصاء » فهو مفعول مطلق مؤكده لعمله ، وإنما عدل عن لفظة الإحصاء إلى لفظة الكتاب لأن الكتابة هى النهاية والغاية فى قوة العلم ، أو لست ترى أنك إذا أردت أن تحصى كلام متكلم لئلا يضيع عن ذهنك منه شيء فانك تكتبه ؟ فكأنه تعالى قال : وكل شيء أحصيناه إحصاءً مساوياً فى القوة والثبات والضبط لما يكتب . والمراد أننا علمنا كل شيء علماً ثابتاً لا يزول ولا يعتريه الخلل ولا التحريف ، فليس يمكنكم أن تجدوا ما تصنعونه

فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَ كُمْ إِلَّا عَذَابًا [٣٠] إِنَّ الْمُتَّقِينَ مَفَازًا [٣١] حَدَائِقَ
وَأَعْنَابًا [٣٢] وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا [٣٣] وَكَأْسًا دِهَاقًا [٣٤] لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا

في الحياة الدنيا عند ماترون ما أعددناه لكم من أنواع العقوبات لأننا قد علمنا ما فعلتم
وأحصيناه إحصاء لا يزول ولا يغيب عنا وإن زال عن أذهانكم ونسيتموه ،
وذلك مثل قوله تعالى : « أحصاه الله ونسوه »

وقوله تعالى (فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا) يدل على شدة عذابهم وأليم
ما يلاقونه جزاء لأعمالهم التي سبق ذكرها ، ألت ترى أنه جيء فيه بلن التي
تدل على تأكيد النفي ؟ وأنه عدل عن الحكاية عنهم على طريق الغيبة إلى مشافهتهم
وتوجيه الكلام إليهم ، وهذا يدل على كمال الغضب . ولاتنافى بين هذه الآية
وبين قوله تعالى : « ولا يكلمهم ولا ينظر إليهم » لأن النفي هو كلامهم الذي يكون
فيه نفع لهم ، ويدل على العناية بشأنهم .

ثم إنه تعالى بعد أن بين حال الكفار الذين كذبوا رسول الله وأعرضوا
عما جاءهم به ؛ بين حال المؤمنين وذكر أنهم سيفوزون يوم القيامة بعظيم
الأجر وينالون عند ربهم أكرم المثوبة ؛ لأن في ذلك استنهاضهم الشريفة العالية
بأن تتأخر على أعمال الخير ، وتزداد من البر والتقربات ، وفيه مع ذلك إيلاء لأنفس
المكذبين الضالين ، وقوله تعالى (مفازا) معناه الفوز ، وهو الظفر المطلوب وإدراك
ماتمليه النفس ، وقيل : الخلاص من العذاب والنجاة من أليم العقاب ، والأول
أولى (حدائق) جمع حديقة ، والحديقة كل بستان أحيط بسور ، والأصل في اشتقاقه
قولهم « أخذقوا به » ومعناه أحاطوا به (وأعنابا) جمع عنب ، وإنما خص هذا
النوع من الفاكهة بالذكر مع أنه مما يكون في الحدائق اهتماما بأمره ثم نكره دلالة
على تعظيم حاله ، والجمع لتعدد أنواعه (وكواعب) وهي جمع كاعب ، والكاعب
هي التي نهت ثديها وتكعب (أترابا) جمع ترب وهي التي سنّها من سن صاحبته
(وكأسا) هو إناء من باور (دهاقا) ممتلئة ، ويقال : متتابعة ، ويقال : صافية ،

لَغَوْاً وَلَا كِذَاباً [٣٥] جَزَاءُ مِّن رَّبِّكَ عَطَاءٌ حِسَابًا [٣٦] رَبِّ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُ مَنَّهُ خِطَابًا [٣٧]

(لا يسمعون فيها) هذا الضمير راجع إلى الكأس : أى لا يجرى بينهم حين يشربونها لغو الكلام وكاذبه ، كما يجرى بين الذين يشربون الخمر فى هذه الحياة ؛ وذلك لأن أهل الجنة إذا شربوا لم تتغير عقولهم ولم تفتأ أعصابهم « لا يصدَّعون عنها ولا هم ينزفون » ويقال : الضمير فى « فيها » راجع إلى الجنة نفسها : أى أنهم لا يسمعون شيئاً يكرهونه (ولا كذاباً) هو التكذيب ، واللغو والكذاب من أشد ما تتألم منه نفوس الصادقين الخالصين فلذا بين الله تعالى أنهم لا يسمعونهما (جزاء من ربك) على ما عملوا فى حياتهم الأولى من الأعمال الصالحة ؛ بمقتضى وعده إياهم أنه من عمل عملاً صالحاً يؤتاه أجره ولا يبخسه شيئاً (عطاء) منةً منه تعالى عليهم ، لأنه لا يجب عليه شئ . ولاتنافية بين كونه جزاء أعمالهم وكونه بمنه تعالى وكرمه ، على ما هو مختار أهل السنة والجماعة (حساباً) أى كافياً لهم ، تقول : أعطانى فلان حتى أحسبنى ، تريد أعطانى حتى كفىنى بمعطائه . ويقال : أى كثيراً ، ومنه تقول : أحسبتُ فلاناً ، إذا كثرت له العطية ، ومنه قول الشاعر :
وَيُعْفَى وَلِيدَ الْحَيِّ إِنْ كَانَ جَائِعًا وَيُحْسِبُهُ إِنْ كَانَ لَيْسَ بِجَائِعٍ
وقوله تعالى (رب السموات والأرض) معناه أنه سبحانه المالك لشؤونهما المدير لأمرهما المهيمن عليهما (لا يملكون) الضمير راجع إلى أهل السموات والأرض فإن أحداً من المخلوقين لا يملك مخاطبة الله تعالى ومكالمته ، ويقال : الضمير راجع إلى المؤمنين الذين ذكرت أحوالهم فى الآيات السابقة عليه ، ويقال : بل هو راجع إلى الكفار الذين مضى ذكر حالهم ، وهذا الأخير وجه بعيد من السياق (الروح

يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا [٣٨] ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ

والملائكة (وهى من مخلوقات الله تعالى التى غيبها عنا ولم يجعل لنا القدرة على رؤيتها ، فيجب علينا أن نؤمن بها وإن لم نرها ونصدق بكل ما جاء فى كتاب الله سبحانه من أوصافها غير باحثين عن حقيقتها (لا يتكلمون) إجلالا لربهم وخوفا منه وخضوعا له ووقوفا عند قدرهم (أذن له الرحمن وقال صوابا) المراد أنهم لا يتكلمون إلا عند حصول شرطين : الشرط الأول أن يأذن الله تعالى بالكلام ومثله قوله تعالى : « من ذا الذى يشفع عنده إلا باذنه » والشرط الثانى أن يكون ما يقولونه صدقا وصوابا ، والمراد أنهم يجتهدون غاية الاجتهاد فى أن يكون ما يتكلمون به صحيحا . وقد دلت هذه الآية الكريمة على أنهم مع قربهم من الله تعالى لا يستطيع أحد منهم أن يشفع لأحد أو يطلب منحة إلا بعد أن يأذن الله له ولا يأذن إلا لمن علم أنه سيجاب لكونه يقول الصواب .

ثم إنه سبحانه وتعالى بعد أن قرر أحوال المكلفين ، وبين أنهم على نوعين : نوع يستحق ما وصفه من العقاب ، ونوع يُجْزَى بما بَيْنَهُ بعد ذلك من الثواب ، وقرَّرَ بعد هذا عظمة شأن يوم القيامة ، قال بعد كل ذلك : (ذلك اليوم الحق) أى هو اليوم الذى يظهر فيه كل حق ويندفع فيه كل باطل ، فهو من باب الوصف بالمصدر على تقدير « ذو » أى هو صاحب الحق ، وذلك كما تقول : فلان خير كله ، إذا أردت أنه صاحب خير كثير . ويقال : الحق هو الثابت (فمن شاء اتخذ إلى ربه ما بآ) أى مرجعا ، أى يعمل عملا صالحا يقربه إلى ربه ويدنيه من كرامته وثوابه ويباعد بينه وبين عقوبته وعذابه ، ثم زاد سبحانه فى تخويف

مَتَابًا [٣٩] إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ
يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا [٤٠]

الكفار ما أنذرهم به فقال : (إنا أنذرناكم) خوفناكم وحذرناكم (عذابا قريبا) المراد به عذاب يوم القيامة ، وكل ما هو آت قريب ، أنظر إلى قوله تعالى : « كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها » ، ويقال : هو عذاب القبر ، وكل واحد من هؤلاء الكفار سيجد بعض جزائه في قبره متى مات ، وما تزال نفسه في ألم شديد حتى يبعث يوم القيامة فيجد جزاءه مُعَدًّا له حاضراً بين يديه (يوم ينظر المرء) المراد به كل إنسان : ذكر أو أنثى ، مؤمناً كان أو كافراً (ما قدمت يداه) ما صنعه في حياته الأولى من الأعمال ؛ فإن كان قد آمن بربه وعمل عمل الأبرار فطوبى له ، وإن كان قد كذب بالله ورسوله فالويل له وأليم العذاب ، ويقال : المراد بالمرء هنا المؤمن بخصوصه لأن الكافر سيذكر بعد ، ويقال : المراد به هو الكافر بخصوصه لأن المؤمن إنما ينظر إلى عفو الله ورحمته وعظيم ثوابه لا إلى ما قدمت يداه . والذي قدمناه أولى ، وتصديق ذلك قوله تعالى : « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً » ، ويحذركم الله نفسه ، والله رءوف بالعباد » وكأنه تعالى قد طوى في هذه الآية ذكر ما يكون على المؤمن من الاستبشار والسرور بما رآه لأن ذلك معلوم من السياق ، وهو معلوم فوق ذلك من ذكر حال مقابله ، وقوله تعالى (ويقول الكافر) المراد به كل من كفر بالله وبرسوله وبما جاءوا به من عند ربهم ، ويقال : المراد به إبليس (يا ليتني كنت تراباً) إن كان المراد بالكافر كل من جحد الله ورسوله فالمعنى أن كل واحد من هؤلاء يتمنى أنه لم يكن من المكلفين ، بل كان حجراً أو تراباً لا يجري عليه تكليف

فيتأقل عن القيام به فيعاقب بهذا العقاب ، أو معناه أنه يتمنى أن لو كان الله تعالى قد هداه في الحياة الدنيا فكان متواضعا ولم يتجبر ولم يتكبر على الإيمان بالرسول والانقياد لكل ما جاء به . وإن كان المراد بالكافر إبليس وهو قول فيه بعد فالمعنى أنه يومئذ يتمنى أن لو كان كآدم وذريته قد خلق من تراب ، ولم يكن من نار ، وذلك حين يرى ثواب الله تعالى الذي ينعم به المؤمنون من ذرية آدم والله سبحانه وتعالى أعلى وأعلم .

سورة النازعات *

[وهي مَكِّيَّةٌ ، نَزَلَتْ بعد سورة النبأ ، وآياتُها ست وأَرْبعُونَ آيةً] ^(١)

* وتسمى أيضا « سورة الطَّائِمَة » وتسمى أيضا « سورة السَّاهِرَة »

(١) لاختلاف في أن هذه السورة مكية . واختلاف في عدد آياتها : فقيل : ست وأربعون آيةً ، وقيل : خمس وأربعون آيةً .

صَدَّرَ اللهُ تعالى هذه السورة الكريمة بِالْحَتَافِ بأشياء من مخلوقاته على صحة ما جاء به رسوله الأمين صلى الله عليه وسلم من أمر البعث وعَرْضِ الخَلْقِ على ربهم لينال كل واحد منهم جزاء أعماله التي أزلها في حياته الدنيا . وقد جرت عادة الله سبحانه في كتابه العزيز أن يقسم بأشياء مما خلق وذرا ؛ على ما جرت به عادة العرب الذين نزل الكتاب بلغتهم من توكيد الأمر المُخْتَلَفِ فيه أو الذي هو بَصَدَدٌ أن يَخْتَلَفَ فيه لغرابته عن السامعين باليمين .

والأصل في الحامل على اليمين الرغبة في أن يُوثَّقَ للمتكلم الأمر ويؤكدده ويحمل الخطاب على تصديقه فيه وينفي عن نفسه خَلَجَاتِ الشك ، إن كان المحلوف عليه خبرا قد وقع قبل اليمين ، كما تقول : « والله لقد زارني محمد » ، أو الرغبة في أن يحمل المتكلم نفسه على إيقاع أمرٍ مَّا و يُلْزَمُهَا فعلاً لم يقع مخافة الحِنْثِ بيمينه فيناله من ذلك عقاب أَوْ مَسَبَّةٌ ، وهذا إن كان المحلوف عليه لم يقع قبل الكلام نحو قولك « والله لأزورنَّ عليا »

والأصل في المحلوف به أن يكون مُعْظَمًا عند المتكلم بحيث يخاف سطوته وعقابه أن ينزل به إذا هو كذب فيما خاف أنه قد حدث أو إذا هو حنث فيما حلف أنه سيفعله ،

وهذان الأصلان بالنسبة إلى الله جلت قدرته وتعالى كلمته محالان ؛ فلا يمكن أن يكون الحامل له سبحانه على القسم واحدا مما ذكرنا ، ولا يمكن أن المحلوف به — وهو من مخلوقاته الخاضعة لقهره وجبروته — بالمنزلة التى قدمنا بيانها

ولكننا نجد فى الكتاب العزيز أقساما بأشياء من مخلوقاته سبحانه فى أخذ بنا البحث والتفكير مأخذا ، ونحن لو تدبرنا أمر هذه الأيمان لوجدناه يرجع إلى أحد سببين : أولهما أن تكون هذه الأشياء المحلوف بها قد عظمّت فى أعين بعض الناس وقوى سلطانها على نفوسهم حتى عبدوها ودانوا لها واتخذوها آلهة من دون الله تعالى ، وفى مثل هذه الحال يذكر الله تعالى بجانب الحلف بها بعض صفاتها التى تدل على تغيرها وأنها بعرض الفناء والزوال ؛ لىكون أول الأمر داعيا إلى الاستماع والاصاحة إلى ما يذكر ، ويكون آخره قارعا للعقول ومُنَبِّهًا لها على ما هى عليه من الضلال وفساد النظر ؛ لأن الحقيق بالألوهية والجدير بالعبادة لا يحول أمره ، ولا يعتريه النقص ، ولا يشوبه الفساد ؛ انظر مثالا إلى قوله تعالى : « والشمس وضحاها ، والقمر إذا تالاها ، والنهار إذا جلاها ، والليل إذا يغشاها ، والسماء وما بناتها والأرض وما طحاها » ثم تدبر ما ذكرناه لك فانك ستجد أن الشمس قد وجدت من عقول بعض الناس غفلة حتى عبدوها ، ثم تجد أن الله تعالى قد ذكر بجوار الحلف بها ما يعترىها من التغير من حال إلى حال ، وما يطرأ عليها من الأقول والانتقال ، مما لا يكون من شأن الآلهة المستحقة للعبادة ؛ والأمر الثانى أن يكون المحلوف به فى الكتاب أمرا جليلا من مظاهر القدرة الالهية ، وقد غفل الناس عنه ، وأعرضوا عن التدبر فيه ، ولو أنهم تدبروا أمره ، وفكروا فيما هو عليه من جليل الصنعة وباهر الحكمة ، لاهتدوا به إلى معرفة خالقه ، ونعته بما هو له أهل من صفات الجلال والقدرة ، انظر إلى قوله تعالى : « والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى ، وما خلق الذكر والأنثى » وتدبر الأمر فضل تدبر ، فليس

ههنا تنديد بعقول قد غاب عنها رشدها بذكر صفاتٍ تدل على تحول الأحوال بالمقسم به واختلال شأنه بعد الكمال ، ولكنك تجد هنا لفتاً إلى مظاهر قدرة الخالق في هذا الخلق الذي أغفل مخاطبون تدبر شأنه والاستدلال به على عظمة صناعه ، ولو أنهم فكروا في ذلك لسهل قيادهم ، ولأن ما تحجّر من قلوبهم ، ولأسلسوا لطاعة داعيهم العنان

وإذا عرفت هذا فاعلم أنه سبحانه يقسم على أصول الإيمان التي يجب على الخلق معرفتها : تارة يقسم على التوحيد ، وتارة يقسم على أن القرآن حق ، وتارة يقسم على أن الرسول صادق فيما يحكيه عن ربه ، وتارة يقسم على الجزاء وأن الخلق مبعوثون إلى ربهم وكل واحد منهم مُلاقٍ جزاء أعماله ، وتارة يقسم على حال الإنسان . فمن حلقه سبحانه على التوحيد قوله تعالى : « وَالصَّافَاتِ صَفَا ، فَالْزَاكِاتِ زَكَا ، فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرَا ؛ إِنَّ إِلَهُكُمْ لَوَاحِدٌ »

ومن حلقه جل شأنه على أن القرآن حق قوله تعالى : « فَلَا أَقْسَمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ، وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ؛ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ » وقوله سبحانه : « حُمٌ ، وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ، إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا »

ومن حلقه تعالت كلماته على أن الرسول صادق فيما يحكيه عن ربه قوله تباركت أسماؤه : « يُسْ ، وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ؛ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » وقوله سبحانه وتعالى : « ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ، مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٌ » وقوله سبحانه : « وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ، مَاضٍ صَاحِبِكُمْ وَمَا غَوَى ، وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى عَلَيْهِ شَدِيدُ الْقُوَى »

ومن حلقه على الجزاء والوعد والوعيد قوله جل ذكره : « وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ، فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ، فَالْجَارِيَاتِ يَسْرًا ، فَالْمُقْسِمَاتِ أَمْرًا ؛ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٍ ، وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ »

ومن حلقه على أحوال الإنسان قوله تبارك وتعالى : « وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ، وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ، وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ، إِنْ سَعَيْكُمْ لَسِئَتِي »

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّزَعَتْ غَرْقًا [١] وَالنَّشِطُتِ نَشْطًا [٢] وَالسَّيِّحَاتِ سَبْحًا [٣]
فَالسَّبِقَاتِ سَبَقًا [٤] فَالْمُدَبَّرَاتِ أَمْرًا [٥] يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ [٦]

(والنازعات) المراد بهذه الصفة وما بعدها النجوم ونحوها من الكواكب كالشمس والقمر ، ومعنى كونها نازعاتٍ أنها جارياتٌ على سير مُقدَّرٍ وحد معين ؛ كما تقول : « نَزَعَتِ الْخَيْلُ » إذا جرت ، و (غَرْقًا) أى مُجِدَّةً فى سيرها ، مسرعة فى جريها ؛ لكى تقطع مسافة فلـكلها حتى تصل إلى أقصى الغرب ، ومعنى (الناشطات نشطا) أنها تخرج من بُرْجٍ إلى بُرْجٍ ، كما تقول : « نشط النور » إذا خرج ، ومعنى (السابحات سبحا) أنها تسبح فى أفلاكها ، والمراد أنها تسير فيها سَيْرًا هادئًا لا اضطراب فيه ولا اختلال ، وذلك على تشبيه مرورها فى جوها بالسَّيْحِ فى الماء ، ومثله قوله تعالى : « كُلُّ شَيْءٍ فَلَكَ يُسَبِّحُونَ » وقوله (فالسباقات سبقا) إشارة إلى أن بعضها أسرع سيرا من بعض ، وقوله (فالمدبرات أمرا) ليس المراد أنها تدبر أمر الخلوقات على نحو ما كان يعتقد الصابئة من عبدة الكواكب ، ولكن المراد أنه بسبب سيرها وحركاتها المختلفة يتميز عند الناس بعض الأوقات عن بعض ، فيعرفون بذلك مصالحهم الدينية والدنيوية . ويدل لهذا قوله تعالى : « يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج » وقوله تعالى : « لتعلموا عدد السنين والحساب » أفلمست ترى أنه بسبب حركة الشمس اليومية يختلف الوقت فى أغلب جهات الأرض من ليل إلى نهار وعكسه ، وأنه بسبب حركة القمر يتعرف الناس الشهور ، وبسبب شدة ضوءه فى بعض الليالى يتعرفون مصالح لهم ، وأنه بسبب حركة الشمس السنوية تختلف فصول السنة من

ربيع إلى صيف إلى خريف إلى شتاء ، وللناس في كل فصل من هذه الفصول مصالح ليست لهم في غيره من الفصول ، فإذا تدبرت ذلك أمكنك أن تدرك أن الناس إنما يعرفون أوقات عباداتهم من صوم وصلاة وزكاة وحج ، بسبب حركة هذه السكواكب ، أفلمست ترى أن أوقات الصلاة مرتبطة بحركة الشمس اليومية وأن أوقات الصيام مرتبطة بحركة القمر وبحركة الشمس اليومية أيضا ، وأن أوقات الزكاة وأوقات الحج كذلك . وكذلك أحوال الناس في معاشهم مرتبطة بأوثق الارتباط بهذه الحركات ، فالزراعة والنقطة من بلد إلى بلد وأداء الديون والأمانات ومعرفة صحة أزواجهم وطلاقهم وتوارثهم موقوفة شرعاً في بعض أحوالها على معرفة الشهر ، وغير ذلك من أحوال الناس ، كل أولئك مما له أشد الروابط بما ذكرنا ويقال : إن هذه الأمور صفات للملائكة ، فالنازعات هي التي تنزع نفوس بني آدم : فإذا نزعوا نفوس الكفار نزعوها بشدة فأغرقوا في نزعها وبالغوا في ذلك ، وإذا نزعوا نفوس المؤمنين جذبوها برفق وهوادة ، وهي الناشطات نشطا ، وأما السابحات فالملائكة التي تنزل من السماء بأمر ربها ، وأما السابحات فهم الذين إذا جاءهم أمر ربهم تسابقوا إلى تنفيذه فكان بعضهم أسبق إليه من بعض ، وأما المدبرات أمراً فأنما وصفهم الله بذلك لأنه قد وكل إلى كل طائفة من طوائف الملائكة تدبير أمر من الأمور والقيام عليه بما أمره الله به

ويقال : بل هذه صفات للغزاة في سبيل الله وآلات حربهم : فالنازعات أيديهم ؛ لأنها تنزع القوس وتغرق في نزعه لتستوفي مدّه ، والناشطات هي السهام ونشطها خروجها عن أيدي الغزاة ونفوذها في صدور أعدائهم ، والسابحات هي خيلهم ، وسبّحها جرّياً نحو العدو ، والمدبرات الأمور التي تأتي في أعقاب هذه الأفعال من النصر والفلاح على الأعداء وغنمهم الغنائم ونحو ذلك

وجواب القسم محذوف ، وتقدير الكلام « والنازعات غرقاً لتبعضن بعد الموت » ويدل لهذا أنه سبحانه حكى عنهم بعد ذلك قولهم « أنذا كنا عظاما

تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ [٧] قُلُوبُ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ [٨] أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ [٩]

نخرة « أى : أُنْبِغَتْ إِذَا صرنا كذلك ؟ . ويقال : تقدير الكلام « والنازعات غرقا إن يوم الفصل لواقع » ويدل لذلك مجيئه في مثل هذه العبارات في القرآن الكريم : قال الله تعالى : « والمرسلات عرفا ، فالعاصفات عصفا ، والناشرات نشرا ، فالفارقات فرقا ، فالملقيات ذكرا ، عذرا أو نذرا ، إن ما توعدون لواقع » وقال الله تعالى : « والذاريات ذروا ، فالحاملات وقرأ ، فالجاريات يسرا ، فالملقسات أمرا ؛ إن ما توعدون لصادق » ونحو ذلك

وقوله تعالى (يوم) يتعلق بذلك الجواب المحذوف ، وقوله (ترجف الراجفة) معناه تتحرك الأرض وتضطرب الجبال حتى يسمع لذلك صوت شديد ، و (الرادفة) التابعة التالية ، وكل شيء جاء بعد شيء فهو رادف له ، والمراد بالراجفة الأرض وما عليها من جبال وغيرها ، ويدل لذلك قوله تعالى : « يوم ترجف الأرض والجبال » والمراد بالرادفة السماء وما فيها من كواكب لأن السماء تنشق وتنتشر كواكبها على إثراضطراب الأرض وَمَيِّدَانَهَا . ومن قال المراد بالنازعات وما بعدها صفات الغزاة في الحرب وآلات حربهم ذهب إلى أن الراجفة والرادفة طائفتان من خيول المشركين ومحاربيهم ترجف قلوبهم وتضطرب أفئدتهم ويهوون إلى الموت وتتبع طائفة منهم في ذلك طائفة . وهذا بعيد . بل المراد وصف حال يوم القيامة وما يكون الناس عليه ، تخويفا لمن كذب رسول الله وتثبيتا لقلوب المؤمنين

وقوله تعالى (قلوب يومئذ واجفة) المراد به أن قلوب الكفار مضطربة قَلِقَةٌ خائفة فانهم بعد أن يعاينوا ما كان الرسول يذكره لهم ويشاهدوه بأبصارهم ولم يكونوا آمنوا به في دنياهم ؛ تضطرب قلوبهم مخافة ما يلاقونه ، وذلك شأن كل إنسان تهددته بنوع من العقوبة إن لم يقلع عن جرائمه متى شاهد بواذر التنفيذ وقوله تعالى : (أبصارها خاشعة) المراد أن أبصار الكفار حينئذ خاشعة خاضعة

يَقُولُونَ إِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ [١٠] إِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً [١١]
قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ [١٢]

ظهرت فيها الذلة ، ولكنه جعل الأبصار للقلوب فأضافها إلى ضميرها لأنه أراد من وجيف القلوب شدة الخوف الواقع بأربابها ؛ فالقلوب حينئذ كناية عنهم وقد حكى الله تعالى عن الكفار ثلاثة أقوال يقولونها : أولها ما ذكره بقوله : (يقولون أننا لمردودون في الحافرة) أى : أن نرُدُّ إلى أول حالنا وابتداء أمرنا فنصير أحياء كما كنا ، تقول : رجع فلان في حافرتي : أى في طريقه التي جاء منها فحفرها بقدمه وأثر فيها بمشيئه ، وهي في الحقيقة محفورة وليست حافرة ، ولكنها سميت حافرة على نحو قوله تعالى : « في عيشة راضية » وتقول لكل من كان في أمر ثم خرج منه ثم عاد إليه : قد رجع فلان إلى حافرتي ، تريد إلى أمره الذي كان عليه أولا . والقول الثاني من الأقوال التي حكاها الله تعالى عنهم قوله : (أنذا كنا عظاما نخرة) والعظام النخرة : هي البالية التي لو لمستها لتفتت ، ويقال : هي التي فرغت مما فيها من المخ حتى يحصل من هبوب الريح فيها صوت يشبه نخير النائم والمخنوق ؛ والقول الثالث من الأقوال التي حكاها الله تعالى عنهم قوله : (قالوا تلك إذا كرة خاسرة) والكرة : الرجعة ، وهي المرة من الكر بمعنى الرجوع ، والخاسرة هي التي يخسر أصحابها ، كقولك « هذه تجارة رابحة » أو « هذه تجارة خاسرة » فانه لا يمكن أن يتصور الريح والخسران واقعا من نفس التجارة ، وإنما هي وسيلة بها يربح أربابها أو يخسرون ؛ ولهذا ساغ نسبة الربح والخسران إليها والمعنى أنه إن صح ما يذكره الرسول من أننا نبعث يوم القيامة بعد أن نصير عظاما نخرة فنحن إذا خاسرون لأننا كذبنا بهذا ولم نعمل من الأعمال ما نثاب عليه .

فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ [١٣] فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ [١٤]

وحاصل القول الأول من هذه الأقوال الثلاثة استبعاد أمر البعث ، وحاصل القول الثانى إلقاء شبهة لهم ظنوا أنها تجعل أمر البعث محالا ، وأما القول الثالث فانما قالوه استهزاء بالرسول وبالمؤمنين ، وهو يتضمن مع ذلك الاستبعاد

وقد ردَّ الله تعالى عليهم قولهم الذى حكاه عنهم بقوله : (فانما هى زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة) أما الفاء التى فى أول هذا الكلام فانها مرتبطة بمحذوف ، وتقدير الكلام « لا تستبعدوا ذلك ولا تظنوه عسيرا شاقا علينا فانما هى زجرة الخ » وأما الزجرة فهى الصيحة ، تقول : زجر بغيره ، إذا صاح به ، والمراد من هذه الصيحة النفخة الثانية التى يبعث الله بها الموتى ، ويدل لهذا قوله تعالى : « وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق » . وأما الساهرة فهى الأرض البيضاء المستوية سميت بذلك لأن السراب يجرى فيها ، ويقال : إنما سميت ساهرة لأن شدة الخوف التى تعترىهم يومئذ تطير النوم عن أعينهم فلا يذوقون عليها نوما ؛ فهى ساهرة بمعنى ساهر من عليها

يقول سبحانه : لا تحسبوا أن هذه الرجعة التى أنكرتموها صعبةٌ علينا ليس فى قدرتنا فعلها ؛ فانها سهلة هينة لأمشقة فيها ولا صعوبة ، وليس أمر إعادتهم الذى ظننتموه صعبا إلا كأبسط ما نصنعه من مخلوقاتنا ، ولن نكابد فى ذلك عسرا ، بل إنا نأمر ملكا من ملائكتنا أن يصيح صيحة واحدة فاذا أنتم جميع لدينا محضرون لا يتخلف منكم أحد ولا يجسر على التخلف إن أراد

ثم إنه تعالى لما حكى عن كفار مكة الذين بعث إليهم رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم إصرارهم على إنكار البعث وتماديهم فى عتوهم على الله ورسوله وطغيانهم فى كفرهم حتى انتهى بهم الأمر إلى الاستهزاء بالرسول فيما حكاه الله عنهم من

هَلْ أَتَتْكَ حَدِيثُ مُوسَى [١٥] إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى [١٦]

قولهم « تلك إذا كرة خاسرة » وكان ذلك يشق على النبي صلى الله عليه وسلم ويصعب على نفسه ؛ ذكر له قصة موسى عليه السلام مع فرعون طاغية مصر وبين في هذه القصة أن فرعون قد بلغ في الجبروت والطفیان حدا لم يبلغه أحد من قوم النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فإنه استعلى إلى أن ادعى الألوهية ، وألب قومه على موسى ، وكان موسى عليه السلام — مع ذلك كله — يتحمل المشقات العظام في دعوة فرعون وقومه إلى الإيمان بالله وخدع عبادة غيره ؛ ليكون ذلك كله كالتسليّة للرسول صلى الله عليه وسلم ، ويرشد إليه قوله تعالى : « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل »

وشىء آخر يرشد إليه سياق هذه القصة ، وهو أن فرعون مع أنه كان أقوى من كفار قريش ، وأكثر أتباعا ، وأشد شوكة ، وأعظم سلطانا ، وأصعب شكيمة ، لما تمرد على موسى وعصى أوامره وطغى عليه أخذه الله نكال الآخرة والأولى ، ولم يعجزه أن يهلكه ويجعله لمن خلفه آية ؛ فهؤلاء الكفار مهما عظمت حالهم وقوى شأهم لن يبلغوا مبلغ فرعون ، فأخذهم أهون على الله تعالى منه ؛ فيكون المقصود بسياق هذه القصة تهديد الكفار وإنذارهم بأنهم إن لم يؤمنوا بالله ورسوله أصابهم مثل ما أصاب فرعون وقومه ، ويرشد إلى ذلك نحو قوله تعالى : « فان أعرضوا قتل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة ؛ فانا بما أرسلتم به كافرون ، فأماعاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة ، أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة ، وكانوا بآياتنا يمجحدون ، فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون »

اِذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ [١٧] فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَىٰ أَنْ تَزَكَّىٰ [١٨]
وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ [١٩] فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ [٢٠]

و (الوادي المقدس) المبارك المطهر ، يدل له قوله تعالى : « سبحان الذي أَسْرَى
بعبد له ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله » وقوله
(طوى) يجوز أن يكون اسم الوادي ، ويجوز أن يكون معناه مرتين ، أى
بالوادي الذي قدسه الله و بارك فيه مرة بعد مرة ، ويجوز أن يكون معناه الوقت الذي
بعد ساعة من الليل ، أى ناداه ربه بعد أن انقضى مقدار ساعة من الليل (طفى)
تجاوز الحد ، فتكبر على الله تعالى وكفر به ، وتكبر على بني إسرائيل واستعبد لهم
واستذلهم ، وكان في آخره أمره معهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم (هل لك إلى
أن تزكي) التزكية الطهارة من العيوب ، والمعنى هل ترغب في أن تطهر نفسك من
العيوب التي انغمست فيها ، وذلك بأن تعمل ما أدلك عليه من الخيرات وتجتنب
كل ما من شأنه أن يبعد بين العبد وربه ، وهذا استفهام يقصد منه العَرْضُ ، وهو
المناسب للطف والأدب واللين الذي أمر الله تعالى به موسى أن يصنعه مع فرعون حيث
يقول في سورة طه : « فقولاً له قولاً ليناً لعله يندكر أو يخشى » ، وذلك من قبل أنه
لو خاطبه بصيغة الأمر لم يمتثل فقد علم أن الأمر إنما يكون من الأعلى كما علم أن من
كان في منزلة فرعون من الطغيان والتمرد لم يكن ليخضع لموسى وقد رباه صغيراً وعرف
لنفسه عليه المنة

وقوله تعالى (وأهديك إلى ربك فتخشى) معناه أدلك على ربك فتؤمن به ، فإنك
مضى آمنت بربك وعرفت قدرته و بطشه خشيته وخفته ، ومتى خفت الله وخشيته عملت
بما يكلفك به من الطاعات ، ومتى عملت ذلك أمنت عقابه (فأراه الآية الكبرى) المراد أنه
أخذ يقيم له البراهين ويذكر له من الحجج ما فيه غناء لأنه لم يكن معانداً مُصِراً ، ولكنه
لم يقتنع بما أقامه له من الحجج فأراه الآية الكبرى والعلامة الدالة على صدق دعواه النبوة

فَكَذَّبَ وَعَصَى [٢١] ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى [٢٢] فَحَسَرَ فَنَادَى [٢٣] فَقَالَ
 أَنَارِبُكُمْ الْأَعْلَى [٢٤] فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى [٢٥]
 إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى [٢٦]

وهى انقلاب العصا حية ، ومع ذلك كله لم يؤمن ، بل كذب بدلالة هذه الآية
 على صدقه فى دعوى النبوة ، وعصاه فيما يدعوه إليه وأظهر تمرده عليه (فحسر)
 أى فجمع السحرة الذين فى بلاده وتحت سلطانه ، وذلك كقوله تعالى : « فأرسل
 فى المداين حاشرين يأتون بكل سحار عليم » وقوله تعالى (فأخذاه الله نكال
 الآخرة والأولى) يجوز فيه أمران : أولهما أن يراد بالأولى الدنيا وبالآخرة يوم القيامة ،
 ويكون إضافة نكال إليهما على معنى « فى » ، وعلى ذلك يكون معناه أن عذاب
 الله إياه ليس قاصرا على ما أنزل به فى الدنيا وهو الاغراق ، بل إنه يعذبه فى الآخرة
 عذابا شديدا أيضا ، ويرشد إلى هذا قوله تعالى : « مما خطيئاتهم أغرقوا فادخلوا
 نارا » وقوله تعالى « النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم القيامة أدخلوا آل فرعون
 أشد العذاب » ويكون قوله تعالى « الآخرة والأولى » على هذا الوجه اسمين بمعنى الدنيا
 والآخرة ، والأمر الثانى أن يكون معناه أن الله تعالى عذبه العذاب الذى تستحقه
 حالته الأولى وهى تكذيب الرسول والذى تستحقه حالته الثانية وهى طغيانه
 المتجاوز حده فى قوله « أنار بكم الأعلى » فإضافة نكال إلى الآخرة والأولى من
 إضافة المسبب إلى سببه ، والآخرة والأولى صفتان لموصوف محذوف ، والتقدير نكال
 الحالة الآخرة والحالة الأولى

ثم إنه سبحانه وتعالى بعد أن قص عليهم شأن موسى عليه السلام مع فرعون ،
 وأشار لهم بهذه القصة إلى أنهم لا يعجزون الله الذى أخذ فرعون ، ونكّل به ،
 وجعله ومن واقفه من قومه عبرة لمن يأتى بعدهم من الأمم ، وأشار بالقصة نفسها

ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا [٢٧]

إلى ما يُطْمَئِنُّ نَفْسَ الرُّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى لا يحزن لتكذيب قومه له ، ولا يجزع لعدم إيمانهم بما جاءهم به ؛ لأن هذا ذَابُ الأمم مع أنبيائهم : أن يكذبوهم ، ويعادوهم ، ويؤَلَّبُوا عليهم إن استطاعوا ، وقد جرت عادة الله تعالى أن ينتقم لرسله ويعاقب المُصِرِّين على تكذيبهم ، ولن يخلف الله عاقبته مع نبيه ؛ بعد أن انتهى سبحانه من ذكر هذه القصة بما تضمنته من التحذير والتخويف للمكذبين ، ومن التسلية والتخفيف عن رسوله ؛ أَخَذَ سبحانه في مخاطبة منكري البعث ، وَنَبَّهَهُمْ بما خاطبهم به إلى أمرٍ لا ينبغي لهم أن يجحدوه لأنه ظاهر بالمشاهدة ، وأقام لهم بهذا الأمر الدليل الواضح على أن أمرَ بَعْثِهِمْ هَيِّنٌ ليس فيه مشقة ولا إعجاز ، وبيانه أن خَلَقَ الإنسان يسيرُ هَيِّنٌ ، وبخاصة إذا أضيف إلى خلق هذه السموات العظيمة الشأن الجليلة الأحوال الدالة بحسن نظامها وجلالها على أن مُبْدِعَهَا وموجدها قادر عظيم القدرة حكيم واسع الحكمة ؛ فقال تعالى : (ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ) فمكانه سبحانه يقول لهم : إنكم قد خُلِقْتُمْ من ماءٍ مِهِينٍ وأنتم مع ذلك ضِعَافٌ عاجزون : لا تملكون لأنفسكم موتا ولا حياة ، وليس في مقدوركم أن تدفعوا عن أنفسكم الشر ولا أن تجلبوا لها النفع ، وأنتم مع ذلك كله قليلو الخطر ضعيفو الشأن ؛ وهذه السموات التي تَرَوْنَ حُسْنَ خَلْقِهَا وبديع تركيبها ، وتشاهدون عظمة شأنها ، أعْظَمُ منكم خَلْقًا ، وأدَلَّ على قدرة صانعها ، وقد خلقنا هذه السموات ولم نَعْجِزْ عن إبداعها ، فكيف تظنون أنا نَعْجِزْ عن إعادتك بعد موتك ؟ ويدل لهذا المعنى الذي بَيَّنَّاهُ قوله تعالى : « خَلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ » وقوله سبحانه : « أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ » ؟ وبعد أن أشار الله سبحانه وتعالى إلى عِظَمِ خلق السموات إجمالا أخذ في بيان ذلك تفصيلا فقال : (بناها ،

رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا [٢٨] وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا [٢٩]
وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا [٣٠]

رفع سمكها) أما البناء فأصله ضمُّ الأجزاء المتفرقة بعضها إلى بعض وربطها بما يسكنها حتى يحصل عن جميعها بنية واحدة ، وأما السمك فهو امتداد الشيء إذا أخذته من أسفله إلى أعلاه ، وبيان ذلك أنك إذا أردت أن تعرف امتداد جدار أو نحوه فإن قست من أعلى إلى أسفل سميت ذلك عمقاً ، وإن قست من أسفل إلى أعلى سميت ذلك سمكاً ، وقد صنع الله تعالى بالكواكب في خلقها وإبداعها ما يشبه البناء ، فقد وضع كل واحد منها على نسبة من الآخر ، وجعل لكل واحد ما يسكنه في مداره ، فكان من مجموع الكواكب بنية واحدة هي هذا العالم المحكم النظام البديع التركيب الذي نسميه بالسماء ، والمراد بقوله تعالى « رفع سمكها » الإشارة إلى شدة علوها ، وقوله تعالى (فسوّاها) معناه عدّلها فوضع كل جزء منها في موضعه الذي يستحقه ويحسن أن يكون فيه (وأغطش ليلها) أى : جعله مظلماً (وأخرج ضحاها) أظهره وأبرزه ، والمراد من الضحى النهار ، وإنما أطلق اسم هذا الجزء على ما هو كُـلُّه لأن الضحى أكمل أجزاء النهار في النور والضوء ، وهما المقصودان ههنا ؛ وأضاف الليل والنهار إلى السماء لأنهما يحدثان بسبب غروب الشمس وطلوعها ، وغروبها وطلوعها إنما يحصلان بسبب حركة الفلك ؛ ولما كان مكانه السماء ناسب أن يضيف الليل والنهار إلى السماء التي هي مقره ، ثم لما بين الله خلق السموات وما فيه من الدلالة على قدرة الصانع أخذ في بيان خلق الأرض فقال : (والأرض بعد ذلك دحّاها) ومعنى « دحّاها » بسطها ، ويدل لذلك قول زيد بن عمرو بن نفيل :

دَحَّاها فَأَمَّا رَأَاهَا اسْتَوَتْ عَلَى الْمَاءِ أَرْضِي عَلَيْهَا الْجِبَالُ

وقول أمية بن أبي الصلت :

دَحَوْتَ الْبِلَادَ فَسَوَّيْتَهَا وَأَنْتَ عَلَى طَيْبٍ قَادِرُ

ويقال : معنى «دحاها» مهدها وأزال ما فيها من اعوجاج لتصلح لسير الناس والأنعام وَيَسْهُلُ عليهم سكنها والاقامة فيها ، فان قلت : ظاهر هذه الآية يدل على أن خلق الأرض بعد خلق السماء لقوله تعالى « بعد ذلك » أى بعد خلق السماء ، وهذا يخالف قوله تعالى فى سورة السجدة : « قل أنتم كنتم تكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجمعون له أندادا ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسى من فوقها ، وبارك فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين ، ثم استوى إلى السماء وهى دُخَانٌ فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين » فان هذه الآية تدل على أن خلق السموات إنما كان بعد خلق الأرض . فالجواب عن ذلك أن آية السجدة التى تلونا عليك تدل على أن خلق السموات كان بعد خلق الأرض ، فأما هذه الآية التى نحن بصدددها فلا تدل على أن خلق الأرض كان بعد خلق السماء ، وإنما تدل على أن الله تعالى دحا الأرض وبسطها ومهدّها لسكنى الناس بعد أن خلق السماء ؛ فيكون الذى دلّ عليه الكتاب العزيز أن الله سبحانه خلق الأرض أولا ، ثم خلق السموات بعد ذلك ، ثم عاد إلى الأرض فمهدّها ودّلّها ودحاها ؛ فأية السجدة ونحوها حكاية لأول الخلق ومبدئه ، وهذه الآية حكاية للاصلاح الذى كان بعد الخلق ؛ فان قلت : فهذه الآية تدل على أن الأرض مبسوطة ، وقد قامت البراهين على أن الأرض كروية الشكل ؛ فالجواب عن ذلك أنه لا تنافى بين انبساطها وبين كونها كروية ؛ لأن انبساطها إنما هو فيما يظهر للرأى لعظم حجمها وكبير جرمها ، فأما إن قلنا إن معنى دحاها هيئها وأعدّها لاقامة الناس وأنواع الحيوان والنبات فلا محل لهذا السؤال . وقوله تعالى :

أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا [٣١] وَالْجِبَالَ أَرْسَبَهَا [٣٢] مَتَاعًا لَكُمْ
وَلِأَنْعَامِكُمْ [٣٣] فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى [٣٤]

(أخرج منها ماءها ومرعها) تفسيرٌ وبيان للدحو الذى هو التمهيد ، وذلك أنه لا بد لإمكان سكنى الأرض من تسوية أمر المشارب والمآكل وإمكان الاستقرار عليها ، وذلك يكون باخراج الماء ، وإنبات المرعى ، وإرساء الجبال وإثباتها لتكون أوتاداً للأرض فتمنعها من الاضطراب ، والمراد بقوله : « أخرج منها ماءها » العيون التى تتفجر من الأرض ، ونُسب الماء إلى الأرض وإن كان أصله من السماء لأن الأرض مكان استقراره وموطن استنباطه ؛ وقوله : « ومرعها » أراد به ما يعم جميع ما أخرجه الله تعالى من الأرض سواء أكان قوتا لبنى آدم كالحب والتمر أو قوتا للأنعام كالعشب ، وسواء أكان للاقتنيات أم للتروث أم للتداوى أم كان لغير هؤلاء جميعا ، يدل لذلك قوله تعالى : (متاعا لكم ولأنعامكم) والمعنى إنا إنما خلقنا هذه الأشياء مُتَعَةً ومنفعةً لكم ولأنعامكم

ثم بعد أن انتهى سبحانه وتعالى من ذكر كيفية خلق السموات والأرض وأشار بذلك إلى كونه قادرا حكيما عليما ، وأن حشر الخلائق وإعادة أجسامهم أمر هين على من أبدع هذا العالم بما فيه من عجائب وغرائب ؛ بعد أن انتهى من ذلك أخذ فى الإخبار عن وقوع الحشر والنشر وما يحدث يومذاك من الأحوال فقال : (فإذا جاءت الطامة الكبرى) وأصل الطامة فى لسان العرب الداهية الكبرى التى لا يستطيع احتمالها وينسى الإنسان بها جميع ما نزل به قبلها ، والمراد بها ههنا يوم القيامة ؛ لأن كل أحد يشاهد فيه من الموقف الهائل ، ومن الآيات الباهرة الخارجة عن العادة ؛ ما ينسى معه كل هول ، ووصف

يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى [٣٥] وَبُرَزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى [٣٦] فَأَمَّا
مَنْ طَغَى [٣٧] وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا [٣٨] فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى [٣٩]

الله تعالى ذلك اليوم بوصفين : أحدهما ماذكره بقوله : (يوم يتذكر الإنسان ماسعى) يعنى إذا رأى أعماله مدونة في كتابه وكان قد نسيها عاودته الذكري ، والوصف الثانى ما ذكره سبحانه بقوله : (وبرزت الجحيم لمن يرى) برزت : معناه أظهرت وكانت فى مكان بارز ظاهر فكل من له عينان يراها ، وهذا يفيد أن جميع الناس يرونها ، سواء فى ذلك المؤمنون والكفار ، غير أنها تكون مقراً ومأوى للكافرين ، وينجى الله الذين آمنوا ، فان قلت : قول الله تعالى فى سورة الشعراء « وأزلفت الجنة للمتقين ، وبرزت الجحيم للغاوين » يدل على أن إظهار النار وتبريزها لا يكون للناس جميعاً مؤمنهم وكافرهم لتخصيصه سبحانه وتعالى تبريزها فى سورة الشعراء بالغاوين ؛ فكيف قال هنا « لمن يرى » وكيف قلتم إن الناس عامة يرونها ، فالجواب أنه لا تنافى بين الكلامين ؛ لأن النار تُبرز وتُكشف للغاوين ليدخلوها وتكون لهم مستقراً ومكاناً ، والمؤمنون - مع ذلك - يرونها ، والله تعالى ينقذهم منها ويطهرهم أرواحاً . وجواب الشرط الذى هو قوله تعالى « فإذا جاءت الطامة » محذوف ، وتقدير الكلام إذا جاءت الطامة فصل الله تعالى بين الخلائق فأدخل الطائفتين الأبرار الجنة ، وأدخل الكفرة المتمردين النار ، ويدل لذلك قوله تعالى : (فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هى المأوى) وما بعده ، وذلك لأن هذا الكلام تفصيل وإيضاح لهذا الجواب المحذوف ، والمأوى : المكان الذى يأويه ويكون مسكنه ، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى فى هذه الآية وصفين يستحق بهما من كانا فيه القرار فى النار ، أحدهما ماذكره بقوله « طغى » ومعناه تكبر وعتا وتجاوز الحد ، وهو إشارة إلى فساد القوى العاقلة التى

وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ [٤٠] فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ
الْمَأْوَى [٤١]

بها يتهيأ للانسان حسن التفكير وجودة النظر ؛ والمراد أنه لم يعرف ربه حق معرفته ؛ لأن كل من عرف الله عرف حقارة نفسه وضآلة شأنه وأنه خاضع لجبروت الله تعالى وقهره فيعرف استيلاء قدرة الله عليه فلا يكون عنده أثارة من طغيان أو تكبر ، والوصف الثاني ما ذكره سبحانه بقوله « وآثر الحياة الدنيا » وهذا إشارة إلى فساد القوة العملية ، وذلك لأن الانسان إذا أحب الدنيا وجعلها أكبر همه وأعطاها كل التفاته - وهذا معنى « آثر » - فانه يرتكب كل موبقة ولا يتحاشى قبيحا ، وانظر إلى قوله عليه الصلاة والسلام « حُب الدنيا رأس كل خطيئة » تُذكر سر الكناية عن ارتكاب جميع الموبقات وإتيان جميع المعاصي وترك أعمال الآخرة بايثار الحياة الدنيا ؛ ومتى كان الانسان - والعياذ بالله سبحانه وتعالى - موصوفا بهذين الأمرين ، وهما طغيانه ومجاوزته حدود نفسه ، وارتكاب المعاصي ؛ كان بالغاً في الفساد أقصى الغايات ، لاجرم كانت الجحيم مأواه ومستقره الذي لا يزياله ولا يخرج منه ، وهذا إنما يكون بسبب الكفر ، فأما الفاسق الذي لا تبلغ حاله هذا المبلغ فانه لا يكون بهذه المنزلة من العذاب ، ولا تكون الجحيم له دار قرار . وقوله تعالى : (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى) بيان لحال السعداء بعد بيان حال الأشقياء ، وقد ذكر الله تعالى للسعداء وصفين يُضَادَّانِ الوصفين اللذين ذكرهما في بيان حال أهل الشقاء والعذاب ، فقوله تعالى : « وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ » ضد قوله « فَأَمَّا مَنْ طَغَى » وقوله سبحانه « وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ » ضد قوله في الحال السابقة « وآثر الحياة الدنيا » ومعنى « خاف مقام ربه » حذر قيامه ووقوفه بين يدي ربه يوم القيامة ، فإضافة

المقام إلى الرب لأدنى ملابسة ، وقد يقال : المعنى خشى الله تعالى ، وكلمة « مقام » على هذا الوجه صلة مثلها في قول الشَّامَخِ بنِ ضَرَّارِ الغطفاني : -

وَمَاءٌ قَدْ وَرَدَتْ لَوْصِلَ أَرْوِي عَلَيْهِ الطَّيْرُ كَلَوْرَقِ اللَّجِينِ
ذَعَرْتُ بِهِ الْقَطَا ، وَنَفِيتُ عَنْهُ مَقَامَ الذَّنْبِ كَالرَّجُلِ اللَّعِينِ

يريد ونفيت عنه الذنب ؛ واعلم أن الخوف من الله تعالى إنما يحدث لمن عرف الله تعالى وأدرك مقدار عظيمته سبحانه وقهره ، وغلبة جبروته وسطوته ، على ما أشار إليه جل ذكره بقوله « إنما يخشى الله من عباده العلماء » وإذا علم العبد ربه ، وعرف قدرته وعلمه ، وأدرك عظيم قهره وسطوته ؛ خشى عقابه ، وحذر جزاء عصيانه ؛ فكف نفسه عما تنزع إليه ، وجنبها الوقوع في محارم الله ، وباعد بينها وبين غضب الله ؛ ومن هنا تعلم أن الخوف من الله سبب لدفع النفس وزجرها عن هواها ، ولهذا ناسب في الكتاب الحكيم أن يُقدِّم الخوف من الله على نهْي النفس عن اتباع الهوى تقديمًا للسبب على المسبَّب ؛

واعلم أن المشركين كانوا يسمعون من النبي صلى الله عليه وسلم إثبات القيامة ووصفها بالأوصاف الشديدة الخيفة مثل أنها طامة وصاخة وقارعة وحاقة ؛ فيبهولهم ذلك ويخيفهم ، ثم تأخذهم حمية الجاهلية ؛ فيخشون على أتباعهم وضعافهم أن يتأثروا بذلك ، فتكج بهم الغواية ، ويشتد عتوهم على الله ورسوله فيطلبون إلى رسول الله أن يعجل بهذا اليوم ، استهزاءً به ، واستبعاداً لما يقول ، ويدل لهذا قوله تعالى : « يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها » ، وربما سألوه عن الوقت الذي تكون فيه ، استبعاداً لحصوله أيضاً ، فلما بين الله سبحانه وتعالى بالإشارة إلى البرهان العقلي أن الساعة أمرٌ ممكنٌ تتناوله قدرته سبحانه ، وبين بعد هذا وقوعها ، وذكر أحوالها العامة ، وذكر أحوال الناس فيها ؛ أخذ في بيان فساد ما يتعالمون به فقال :

يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا [٤٢] فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا [٤٣]
إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا [٤٤] إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مَّنْ يَخْشَاهَا [٤٥] كَانَهُمْ يَوْمَ
يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَسُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا [٤٦]

(يسألونك عن الساعة أَيَّانَ مُرْسَاهَا) والساعة : هى ساعة يبعث الله الخلائق من قبورهم ، والمراد يومُ القيامة ، ومعنى « أَيَّانَ مُرْسَاهَا » متى إرساؤها وإقامتها ، والمراد الاستفهام عن الزمن الذى تقع فيه وتحصل . وقوله تعالى : (فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا) معناه فى أى شىء أَنْتَ مِنْ أَنْ تَذَكِّرَ لِهَؤُلَاءِ القوم وقت حصولها وتبين لهم الزمان المعين لوقوعها . ويقال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم - لشدة رغبته فى هداية قومه ، وقُوَّة حرصه على أَنْ يُؤْمِنُوا به - يتمنى لو أَنَّ الله تعالى أعلمه بالوقت الذى تسكون فيه الساعة ليحييهم إلى ما سألوه ، فنهاه الله تعالى عن تمنى مالا مطمع فى حصوله ، وجاء بالنهى على صورة الاستفهام الانكسارى : فمعنى « فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا » ما هذه الذكري الدائمة ، وما هذا الاهتمام الذى جعلك لا تزال تذكروها وتساءل عنها . وروى عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها « لم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الساعة ويسأل عنها حتى نزلت هذه الآية » والمراد على هذا الوجه لا تَشْغَلْ نَفْسُكَ بهذا الأمر ، ولا تكلفها عناء البحث عنه واستكناه أسرارهِ وما حجبهِ الله عن خلقهِ ، من شأنهِ . ثم قال تعالى : (إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا) أى : أَنْ مُنْتَهَى علمهِ عنده سبحانه لم يُوْتِه أحدًا من خلقهِ ، ثم قال جلّت قدرته : (إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ مِّنْ يَخْشَاهَا) يعنى أَنَّكَ إِنَّمَا بَعَثْتَ لِلْإِنذَارِ والتخويف وتحذير الناس من المعاصى والقبائح ، وهذا المعنى لا يتوقف على علمك بوقت قيام الساعة وتخصيص الانذار بمن يخاف الساعة لأنه هو الذى ينتفع بالانذار ، وقوله تعالى : (كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَسُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا) العشيّة : طرف النهار من

آخره ، والضحى : طرف النهار من أوله ، وإضافة الضحى إلى ضمير العشية إشارة إلى أن العشية والضحى جميعا من يوم واحد ؛ فهم يحسبون أنهم لم يقيموا في هذه الدنيا إلا بعض يوم ، ومصدق ذلك قوله تعالى : « كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار » والمعنى المراد إن هذا الأمر الذى أنكروه ولجؤا فى إنكاره سيقع البتة وسيرونه بأعينهم ، فاذا عاينوه توهموا أنهم لم يلبثوا فى الدنيا إلا ساعة من نهار ثم انقضت فاذا هم فيما أنكروه . والمراد تقريب وقتها وتحقيق حصولها ليرتدع من له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد . والله سبحانه وتعالى أعلى وأعلم .

سورة عَبَسَ *

[وهى مكية ، وآياتها اثنتان وأربعون آية ، ونزلت بعد سورة

(١)
[النجم]

* وتسمى سورة الصاخة

(١) لاخلاف فى أن هذه السورة مكية ، واختلف فى عدد آياتها ؛ فقيل : هى اثنتان وأربعون ، وقيل : هى إحدى وأربعون ، وقيل : هى أربعون آية .

نزل صدرُّ هذه السورة فى شأن ابن أم مكتوم . وابن أم مكتوم هو عمرو بن قيس ، ويقال اسمه عبد الله بن عمرو ، ويقال اسمه عبد الله بن شريح بن مالك بن ربيعة الفهري ، أحد بنى عامر بن لؤى . وهو ابن خال خديجة بنت خويلد أم المؤمنين وزوج رسول رب العالمين . وأم مكتوم لقب أمه ، واسمها عاتكة بنت عبد الله الخزومية ، ويقال : أم مكتوم لقب أم أبيه . وكان ابن أم مكتوم أعمى ؛ فيقال : ولد أعمى ، ويقال : بل ولد بصيراً ثم عمى .

وكان من شأن ابن أم مكتوم أنه جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده صناديدُ قریش وأشرفهم وذُوُ الوجاهة والمكانة فيهم ، منهم عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو جهل بن هشام ، والعباس بن عبد المطلب ، وأممية بن خلف ، والوليد بن المغيرة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوهم إلى الاسلام ويذكرهم بأيام الله ، ويحذرهم بطش الله ورجه بروتة ، وَيَعِدُّهُمْ حُسْنَ المَثْوَى إن أسلموا ، وهو شديد الحرص على أن يجيبوا إلى ما يدعوهم ؛ لأنه يعلم أنه باسلامهم سيدخل فى دين الله كثير من الناس ؛ لأن بيدهم مقاداة العرب ؛ فكان رسول الله لذلك منصرفاً تمام الانصراف إليهم ، وفى هذه الحال يناديه ابن أم مكتوم قائلاً : اقرئنى يا رسول الله

وعلمني مما علمك الله ، يكرر ذلك ويعيده ، فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم قطعه لُكلامه ، وعَبَسَ في وجهه وأعرض عنه .

نزلت هذه الآيات عتاباً لرسول الله ، وَلَوْ مَّالَهُ عَلَى مَا يَوْهَهُ ظَاهِر هَذِهِ الْحَادِثَةِ من تقديمه الأغنياء وإيثاره إياهم بانصرافه نحوهم ، لما يورثه ذلك من انكسار قلوب الفقراء ، ونظير هذه الآية في الدلالة على أَنَّهُ مُطَالَبٌ بتأليف الفقراء قوله تعالى : « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي » وقوله تعالى : « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً »

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم - بعد نزول هذه الآيات - يكرم ابن أم مكتوم وَيُقْبَلُ عليه ، وَيَتَفَقَّدُهُ ، ويقول له إذا رآه : « أَهْلًا بِمَنْ عَاتَبَنِي فِيهِ رَبِّي » ويسأله « هل لك من حاجة ؟ » ، واستخلفه بعد الهجرة على المدينة مرتين ^(١) فان قال قائل : إن معاتبة الله تعالى رسوله على مجرد تعيسه في وجه ابن أم مكتوم وإعراضه عنه تدلُّ على تعظيم ابن أم مكتوم ، وإذا كان ذلك كذلك فكيف يليق أن يذكره باسم الأعمى ، مع أن ذكر الانسان بهذا الوصف يقتضى تحقير شأنه جداً ؟ ؟

فالجواب عن ذلك أن نقول : إن ذكره بلفظ الأعمى ليس لتحقير شأنه ،

(١) ويقال : استخلفه على المدينة ثلاث عشرة مرة في غزواته ؛ وابن أم مكتوم من المهاجرين الأولين ، وقيل : قتل شهيداً بالقادسية ، قال أنس ابن مالك : رأيته يوم القادسية وعليه درع ومعه راية سوداء ؛ والمنصف المتأمل في هذه الآيات يدرك تمام الإدراك كمال صدق رسول الله وأمانته فيما يبلغه عن ربه جل شأنه ، ربنا آمناً بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين

واللَّيْلَ مِنْهُ وَالزَّيَاةَ بِهِ ، بَلْ هُوَ لَدَى كَرِهُةٍ الَّتِي اقْتَضَتْ الْأَعْرَاضَ عَنْهُ وَالتَّعْبِيسَ فِي وَجْهِهِ ؛ فَكَأَنَّهُ قِيلَ : إِنَّهُ بِسَبَبِ عَمَاهُ كَانَ يَسْتَحِقُّ مَزِيدَ الرِّفْقِ وَالرَّأْفَةِ فَكَيْفَ يَلِيقُ بِكَ أَنْ تُخْصَهُ بِالْغَاظَةِ ، وَهَذَا كَمَا تَقُولُ لِرَجُلٍ جَاءَهُ رَجُلٌ فَقِيرٌ فَانْتَهَرَهُ وَأَذَاهُ : أَتَوْذَى هَذَا الْمُسْكِينِ الَّذِي يَسْتَحِقُّ كَامِلَ الشَّفَقَةِ وَمَزِيدَ الْحَنَانِ ؟ لَا تَقْصِدُ بِذَلِكَ أَنْ تَنَالَ مِنَ الْمُسْتَهَانَ بِهِ ، وَلَكِنَّكَ تَذَكَّرُ مَا يَسْتَوْجِبُ ضِدَّ مَا صُنِعَ بِهِ ؛

فَإِنْ قُلْتَ : إِنْ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ كَانَ يَسْتَحِقُّ فِي نَفْسِهِ التَّأْدِيبَ وَالتَّعْنِيفَ عَلَى عَلَى مَا أَقْدَمَ عَلَيْهِ مِنَ الْفِعْلِ ؛ فَكَيْفَ يَنْقَلِبُ الْأَمْرُ إِلَى هَذَا الْخِلْفِ فَيُعَابِ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ عَلَى تَعْيِيسِهِ فِي وَجْهِهِ ، فَأَمَّا اسْتِحْقَاقُهُ التَّأْدِيبَ فَلِأَنَّهُ كَانَ يَسْمَعُ مَخَاطَبَةَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَ مَنْ كَانَ مَعَهُ ، وَكَانَ يَسْمَعُ أَصْوَاتَ جَمِيعِهِمْ ، وَكَانَ يَعْرِفُ مِنْ ذَلِكَ شِدَّةَ اهْتِمَامِ النَّبِيِّ بِشَأْنِهِمْ ؛ فَاقْدَامُهُ عَلَى قَطْعِ كَلَامِ النَّبِيِّ وَإِقَاوِهِ بِرَغْبَاتِهِ فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ الْجَوَارِ إِذْءَاءَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَالْمُؤْمِنُونَ مَأْمُورُونَ بِأَلَّا يُؤْذُوهُ ، وَشَيْءٌ آخَرُ كَانَ يَنْبَغِي لِابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ أَلَّا يَجْهَلَ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْأَهَمَّ فِي طَبِيعَةِ جَمِيعِ النَّاسِ مُقَدِّمٌ عَلَى الْمَهْمِ ، وَهُوَ كَانَ قَدْ أَسْلَمَ وَتَعَلَّمَ مَبَادِيءَ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ أُمُورِ دِينِهِ ، فَأَمَّا هَؤُلَاءِ فَلَمْ يَكُونُوا أَسْلَمُوا ، وَكَانَ إِسْلَامُهُمْ دَاعِيًا عَظِيمًا إِلَى إِسْلَامِ كَثِيرٍ غَيْرِهِمْ ؛ فَيَكُونُ تَعَرُّضُ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ لِلنَّبِيِّ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ أَقْلُ مَا يَقَالُ فِيهِ إِنَّهُ قَطَعَ خَيْرَ عَظِيمٍ كَانَ يَنْتَظَرُ أَنْ يَجِيءَ لِلْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ ، فَوْقَ أَنَّهُ قَطَعَ لِلْخَيْرِ عَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَجَاهِدُهُمْ وَيَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ فَالْجَوَابُ عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ هُوَ مَا أَشْرْنَا إِلَيْهِ فِي صَدْرِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ مِنْ أَنَّ ظَاهِرَ الْوَاقِعَةِ قَدْ يَتَوَهَّمُ مِنْهُ بَعْضُ الْحَاضِرِينَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقْدَمُ الْأَغْنِيَاءُ وَيُؤْثَرُهُمْ ، وَفِي ذَلِكَ انْكَسَارُ قَلْبِ الْفُقَرَاءِ ، فَلَدَفَعَ أَمْثَالَ هَذَا التَّوَهُّمِ عَاتِبَ اللَّهِ رَسُولُهُ عَلَى ذَلِكَ . عَلَى أَنَّهُ يُمْكِنُ أَنْ يَقَالَ : إِنْ هَذَا الْعِتَابُ مِنْ بَابِ اعْتِبَارِ حَسَنَاتِ الْأَبْرَارِ سَيِّئَاتِ الْمُقَرَّبِينَ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّى [١] أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى [٢] وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهٗ
يَزْكَى [٣] أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى [٤]

(عبس) الْعُبُوسُ : قُطُوبُ الْوَجْهِ مِنْ ضَيْقِ الصَّدْرِ ، وَقُرِئَ « عَبَسَ »
بتشديد الباء - للدلالة على المبالغة (وتولى) معناه أعرض ، والتولى قد يكون
بالجسم ، وقد يكون معناه ترك الأضغاء (أن جاءه الأعمى) المصدر المنسبك من أن المصدرية
وما بعدها مجرور بحرف جر محذوف ، وتقدير الكلام عبس وتولى لحجىء الأعمى إياه ،
وهذا الجار والمجرور متعلق بأحد الفعلين السابقين : إما عَبَسَ ، وإما تَوَلَّى ، وفي ترجيح
تعلقه بأحدهما خلاف معروف بين البصريين والكوفيين ، وفي التعبير بعبارة الغيبة
في هاتين الجملتين من إجلاله صلى الله عليه وسلم والطف به ما لا يخفى ؛ لأن المشافهة
والخطاب والمواجهة بذكر الذنب أشد في العتاب واللوم ؛ وقوله تعالى (وما يدريك
لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى) معناه أى شىء يعلمك بحال هذا الأعمى ؟
لعله يتطهر بما يسمعه منك وما يتلقاه عنك ؛ فيزول عنه الجهل أو الأثم ، أو يتعظ
فتنفعه موعظتك . ويقال : الضمير فى « لعله » راجع إلى الكافر ، والمعنى أنك طمعت
فى أن يتزكى الكافر الذى أقبلت عليه ويتطهر بالاسلام ، أو يتذكر بمواعظك فتدنيه
الموعظة من الحق وتقر به إلى قبُولِهِ ، وما يُعْلَمُكُ أن هذا الذى طمعت فيه واقع
على ما طمعت . والاثنيان ههنا بالخطاب بعد أن أتى بعبارات الغيبة للقصد إلى الرفق
به ولَفَتِهِ أَوَّلًا إلى العمل فى ذاته ثم إذا التفت أقبل عليه عاتبًا لاثمًا ، وقوله تعالى :
(أما من استغنى فأنت له تصدى) اختلف العلماء فى معنى استغنى ؛ فقال بعضهم :

أَمَّا مَنْ اسْتَغْنَىٰ [٥] فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّىٰ [٦] وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ [٧]
وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَىٰ [٨] وَهُوَ يَخْشَىٰ [٩] فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ [١٠]

معناه أترى ، وإنما أخذ هذا المعنى من حال الذين ذكرنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحادثهم ويذكرهم ، ولكنه مع ذلك رأى فاسدا لا يصح التعويل عليه ؛ لأن إقبال النبي على هؤلاء لم يكن لثرائهم وكثرة مالهم ، حتى يلزم أن يكون المعنى أما من أترى فأنت تقبل عليه وتعرض له ، وقال عطاء : المعنى أما من استغنى عن الايمان ، وقال السكبي : أما من استغنى عن الله ، وهذان الوجهان مقبولان ، وتصدى : تعرض له وتميل إليه وتقبل عليه ، وأصله تصدى فحذفت إحدى التاءين ، وقرئ «تَصَدَّى» بتشديد الصاد والدال جميعا ، على أنه قلب التاء الثانية صاداً ثم أدغم إحدى الصادين في الأخرى .

وقوله تعالى : (وما عليك ألا يزكى) معناه أى شئ عليك فى ألا يتطهر هؤلاء الذين تدعوهم ، وهو استفهام معناه النفي ، فكأنه قال : لا شئ عليك فى ألا يسلم من تدعوه إلى الإسلام ، فما بالك يشتد بك الحرص على إسلامهم ، وأنت رسول ليس عليك إلا تبليغ ما أمرك الله بتبليغه ، والمراد نهيه صلى الله عليه وسلم عن شدة الحرص على قبولهم دعوته ودخولهم فى دينه : أى لا يبلغن بك الحرص على إسلامهم إلى أن تعرض عن الذين سبقت لهم الحسنى للاشتغال بدعوة هؤلاء وقوله تعالى : (وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى) يسعى : معناه يسرع فى طلب الخير ، مثل قوله تعالى : « فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع » معناه سارعوا إلى ذكر الله واتركوا ما أنتم مشغولون به من شؤون الدنيا ، ويخشى معناه يخاف ويحذر ، وقد حذف المفعول فاختلف المفسرون فى تقديره ؛ فقيل : المراد يخشى الله ويخافه ، وقيل : يخشى الكفار ويخاف أذاهم ، وقيل : يخشى الكبوة والتردى لأنه كان أعشى وليس له قائد ، والختار الوجه الأول لأنه مقابل

لقوله « أما من استغنى » وقد اخترنا أن معناه استغنى عن الله ، فيكون المراد وأما من خاف الله وخشيه فهو يريد أن يعرف ما أوجبه الله عليه ليعمل به ويعرف ما نهى الله عنه ليجتنبه ؛ وتلبي : معناه تتشاغل ، وأصله تتلبي ، فحذفت إحدى التاءين ، وقرئ تتلبي ، باثباتهما جميعا . وقد ذكر الله تعالى في هذه الآيات أن شأن الرسول صلى الله عليه وسلم في هذه الحادثة منحصر في أمرين : أما أحدهما فما ذكره بقوله « أما من استغنى فأنت له تصدى » وأما الثانى فما ذكره بقوله « وأما من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تلهى » والمعنى إن ماصدر عنك كان على هذا التفصيل ؛ فالذى استغنى بماله ووجاهته وقوته عن استماع النصيحة والاهتداء بالقرآن فأنت تتعرض له وتقبل عليه وتنصرف إليه ، وأما من جاءك يطلب الهداية وهو يخاف الله ويحذره ولم يدفعه إليك إلا حبه أن يظهر من جهالته ويستضى بضياء العلم فأنت تتلبي عنه وتتغافل عن إجابته إلى رغبته ، والمراد من ذلك كله على ما أسلفنا إنكار هذه الحال على الرسول ؛ لأن الرسول ليس عليه إلا البلاغ فمن غره ماله ، وظن أنه يغنى به عن هداية الله ، ورضى لنفسه أن يبقى في دس الكفر وأوضاره ؛ فليس على الرسول عيب ولا لوم في بقاءه على حالته التى رضىها لنفسه واختارها على كل ما سواها .

ثم لما ذكر الله تعالى هذه الحادثة ، وما كان من الرسول فيها ، أخذ في بيان قاعدة عامة فيها الإشارة إلى ما على الرسول من التذكرة والوعظ دون الحرص على إيمان من بُعث إليهم والشغف باجابتهم إياه ؛ وفيها بيان أن الهداية التى يسوقها الله إلى البشر على أسنة رسله ليست من الأمور التى يحتال لتقريرها فى النفوس وتدعيمها فى القلوب ، وإنما هى تذكرة يقصد بها تنبيه الغافل إلى ما جبل الله الخلق عليه وما غرز فى فطرهم من الخير ، فمن أعرض عن هذا فانه معاند يقاوم ما يدعوه إليه سره وتنازعه إليه نفسه ، فكأنه قيل : إن هذا القرآن قد بلغ من عظمة الشأن وجلال

كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ [١١] فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ [١٢] فِي صُحُفٍ
مُكْرَمَةٍ [١٣] مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ [١٤]

الخطر الحدد الذي لا يحتاج معه إلى التحايل على الناس لقبول دعوته والاقبال عليه فأى حاجة بك وبه إلى أن تلحف على هؤلاء الكفار ليتبعوه ويهتدوا به ، سواء أقبلوه أم لم يقبلوه ، لا تلتفت إليهم ، ولا تشغل قلبك بهم ، وإياك أن تعرض عن آمن به ، وفى هذا من تطيب قلوب الفقراء المؤمنين بالقرآن ما فيه ، وهذا هو المراد بقوله تعالى : (كلا إنها تذكرة — الخ) وكلا : حرف يقصد به ردعُ المخاطب عن الأمر الذى يعاتب عليه لتلا يعاوده . والضمير فى « إنها تذكرة » وفى « ذَكَرْهُ » يعودان إلى القرآن ، وكان من حق المرجع أن يقال : إنه تذكرة فمن شاء ذكره ، لكنه لما أخبر عن الضمير الأول بالتذكرة وهى مؤنثة ساغ أن يؤنث الضمير ، وذلك سائغ فى كل ضمير مرجعه يخالف الخبر عنه فى التذكير والتأنيث : إن شئت راعيت مرجعه ، وإن شئت راعيت الخبر ، والتذكرة : الموعظة ، والمعنى إن هذا القرآن تذكرة كبير ووعظ وتنبيه لمن غفل عن آياته ، فمن شاء ممن استمعته أن يتعظ به فليفعل ، ومن لم ينفعه تذكيره ووعظه فأنما جنى على نفسه . ثم إن الله سبحانه وتعالى وصف هذه التذكرة بأوصاف تدل على عظم شأنها : الوصف الأول ما يشير إليه قوله (فمن شاء ذكره) ومعناه إن هذه التذكرة بيضة ظاهرة فلو أن إنسانا أراد أن يتدبرها وَيَتَفَقَّهَ جليل معناها ويتعظ بها ويعمل بموجبها لقدّر على ذلك واستطاعه ، والوصف الثانى ما ذكره سبحانه بقوله (فى صحف مكرمة مرفوعة مطهرة) والمعنى إن هذه التذكرة مودعة فى صحف عالية شريفة مطهرة من النقص لا تشوبها شائبة الضلال ، والصُّحُف : جمع صحيفة ، وهى ما يكتب فيه ، وقوله (٣٠ - ٤)

بَأْيَدِي سَفَرَةٍ [١٥] كِرَامِ بَرَرَةٍ [١٦] قَتَلَ الْإِنْسَانَ مَا أَكْفَرَهُ [١٧]
مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ [١٨]

تعالى (بأيدي سفرة) السفرة : جمع سافر، وهو اسم فاعل من «سفر» والعرب تقول : سفر الرجل بين القوم ؛ إذا نصب نفسه وسيطاً بينهم ليُصلح من أمور صلاتهم ما فسد ، والمراد ههنا الملائكة والأنبياء ؛ لأنهم وسائط بين الله تعالى وبين خلقه في البيان عما يريد الله تعالى من عبادته وهدايتهم (كرام بررة) وهما وصفان للسفرة ؛ والكرام : جمع كريم ، والبررة : جمع بار ، والمراد أنهم كرام على الله تعالى ، كقوله تعالى : « بل عباد مكرمون » وأنهم أبرار أطهار لا يقارفون ذنباً ولا يأتون منكراً كقوله سبحانه « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون »

ولما انتهى الأمر إلى بيان حال القرآن وأنه كتاب الذكري والموعظة ، وأنه بالمنزلة العالية ، وأن شأنه من أرفع الشؤون وأعظمها ، وأن في استطاعة كل أحد أن ينتفع بهذه العظات البالغات لو أراد الاتعاظ ؛ أخذ سبحانه في بيان أنه لا يسوغ للإنسان مهما كثر ماله ونبه شأنه وعُلت منزلته أن يتكبر ويتعظم ويُعطى نفسه ما هو أهله لأنه لو عرف حال نفسه في ابتدائها وانتهائها لزجره ذلك عن التعالى والكبرياء ، وهذا هو المقصود بقوله سبحانه (قتل الإنسان ما أكفره) وقوله « قتل الإنسان » دعاء عليه ، وهذا الدعاء من أشنع ما يدعوه العرب ؛ لأن القتل غاية الغايات في شوائب الدنيا ، وقوله « ما أكفره » تعجب من إفراطه في كفران نعم الله عليه ، وفيه مع ما قبله التنبيه على أنهم اتصفوا بأعظم أنواع القبائح والمنكرات فاستحقوا أعظم أنواع العقاب ، وقوله تعالى : (من أي شيء خلقه) استفهام الغرض منه زيادة التقرير في تحقير الإنسان الذي هذا شأنه وقد

مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ [١٩] ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ [٢٠] ثُمَّ أَمَاتَهُ
فَأَقْبَرَهُ [٢١] ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ [٢٢] كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ [٢٣]

أجاب عن هذا الاستفهام بقوله : (من نطفة خلقه) والنطفة : الماء ، والغرض أن
من كان أصل خلقه من مثل هذا الشيء القليل الشأن فلا يليق به أن يتجبرأ ويتكبر ،
وقوله (فقدّره) معناه جعله أطوارا وأحوالا ، طَوْرًا بعد طور ، وحالا بعد حال ،
وقوله (ثم السبيل يسره) معناه جعله متمكنا من سلوك سبيل الخير أو الشر ؛
فأتاه قدرة العمل ، ووهبه العقل الذي يميز به بين الأعمال ، وعرفه عاقبة كل
عمل ونتائجه بما بعث إليه من الرسل مبشرين ومنذرين وبما أنزل معهم من الكتب
المشتملة على المواعظ الحسنة والدعوة إلى أنواع البر والتحذير من الشرور كلها ، وقوله
سبحانه (ثم أماته فأقبره ثم إذا شاء أنشره) إشارة إلى ضعف الانسان وعجزه وإلى
تمام قدرة الله تعالى عليه وسلطانه القاهر له ، وهو مع ذلك بيان لأحوال الانسان
التي تعرض له بعد انتهاء إقامته في حياته الدنيا ، وقد ذكر سبحانه ثلاثة أحوال
الحال الأول الذي عبر عنه بقوله « ثم أماته » والحال الثاني الذي عبر عنه بقوله
« فأقبره » ومعناه جعله مقبورا ، وإنما قال « أقبره » ولم يقل « قبره » لأن القابر
هو الذي يدفن الميت بيده ، وجعل الانسان من يقبر تحت التراب نعمة عظيمة من
نعم الله تعالى عليه ، فلم يجعله ممن يلقى إلى السباع والطيور ، والحال الثالث الذي
عبر عنه بقوله « ثم إذا شاء أنشره » والمراد منه الإحياء بعد الموت والبعث للحساب
والتواب أو العقاب ، وإنما قال في هذا الحال « إذا شاء » إشعارا بأن وقت البعث
غير معلوم إلا له سبحانه ؛ فهو الذي استأثر بعلمه ، وهو القادر على تقديمه وتأخيرهِ .
وقوله تعالى : (كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ) يتضمن ردّ ع الانسان عن تكبره وترفعه
أو عن كفره وإصراره على إنكار التوحيد وإنكار البعث والحشر والنشر ، ويتضمن

فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ [٢٤]

مع ذلك بيان أن هذا الانسان المتكبر لم يقض ما أمره الله به من التأمل في دلائل قدرته تعالى ، والتدبر في معالم هذا الكون المنبئة عن وحدانيته ، والتبصر في عجائب المخلوقات الناطقة بأن لها مُوجداً يستحق أن يُقصد وحده دون كل شيء ويستوجب أن يتوجه الخلاق إليه بالعبادة والخضوع والامتثال لما يأمر به . وكأنه سبحانه قد قال : إن هذا الانسان قد بلغ في جحده آيات خالقه مبلغاً لا يُقضى العجب منه ؛ لأنه بعد ما رأى في نفسه وفي السموات والأرض وسائر ما يحيط به من أجزاء العالم آيات ناطقة بوحدانية الخالق ، وبعد أن شاهد في هذا العالم صغيره وكبيره جليله ودقيقه ما كان خليفاً أن يُردّه إلى الصواب لو تأمله أدنى تأمل ؛ بعد ذلك كله لا يزال مستمرا على نكرانه نعمة الله عليه فإذا ذر لا يتذكر ، وإذا أرشد إلى الهدى لم يسلك سبيله الأقوم ، ولا يزال في غفلة عن ربه يدعو معه الأنداد والشركاء ، ويرتكب ما نهى عنه وأرشده إلى أن الخير في اجتنابه ، ويترك ما أمره به وأرشده إلى أن الفلاح كلّ الفلاح في الاتيان به ؛ وفي ذلك ما ينبىء عن العلة في الدعاء عليه بأشنع الدعاء في قوله سبحانه « قتل الانسان ما أكفره »

ثم لما ذكر سبحانه الدلائل الدالة على قدرته ، وهى كامنة في نفس الانسان عقبها بذكر الآيات الدالة على ذلك وهى مُنبئة في الآفاق فقال سبحانه : (فلينظر الانسان إلى طعامه) هذا الطعام الذى يعيش به ، أمره بالتدبر في شأنه ليدرك كيف دبر الله تعالى أمر هذا الطعام في إحداثه وتهيته ليكون غذاء صالحا تقوم به بنية الانسان ويجد في تناوله لذة تدفعه إليه ليحفظ بذلك قوته ومُنته . ولهذا الطعام الذى يتناوله الانسان حالتان : إحداهما سابقة على تناوله إياه ، والثانية متأخرة عن ذلك وهى تشمل الأمور التى لا بد منها في بدن الانسان حتى يحصل له الانتفاع

أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا [٢٥] ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا [٢٦] فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا [٢٧]
وَعِنَبًا وَقَضْبًا [٢٨] وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا [٢٩] وَحَدَائِقَ غُلْبًا [٣٠]

بالطعام ، وأطوار الحالة الأولى ظاهرة يستطيع التأمل فيها كلُّ أحدٍ ولا تحتاج إلى دقة ذهنٍ ، ولا إرهاف حِسٍّ ، فلا جرم فصلها الله تعالى في هذه الآيات تفصيلاً ، لأن الغرض من ذكر دلائل التوحيد في كتاب الله تعالى لا يتحقق إلا أن تكون بحيث ينتفع بها الخلائق كلهم أجمعون ، وقد فصل الله تعالى ذلك بقوله : (أنا صببنا الماء صبا) أنزلناه من المَزْنِ إنزالاً شديداً (ثم شققنا الأرض شقا) يريد أن الأرض بعد أن كانت متماسكة الأجزاء شققها شقا مشاهداً مرئياً لمن نظر إليها بعد نزول الماء عليها ، وإنما اقتضت حكمة الله تعالى أن تشقق الأرض ليدخل الهواء والضيء إلى جوفها فيحللان أجزائها ويهيئانها لتغذية النبات ، ثم فصل أنواع النبات بقوله (فأنبطنا فيها حباً) وهو كل ما حُصد كالحنطة والشعير والأرز وقدم هذا النوع لأنه الأصل في الأغذية (وعنباً) والعنب معروف ، وإنما ذكره بعد الحب لأنه غذاء من وجهٍ وفاكهة من وجه (وقضبا) وقد اختلف العلماء في المراد منه ؛ فقال قوم منهم ابن عباس ، والضحاك ، ومقاتل ، واختاره الفراء وأبو عبيدة والأصمعي : القَضْبُ : هو الرُّطْبَةُ ، وهى ما يؤكل من النبات غَضًّا ، وسمى بذلك لأنه يُقَطَّعُ مرة بعد مرة ، والقَضْبُ في الأصل القطع ، وقال قوم منهم الحسن واختاره البرد : القضب هو العلف بعينه (وزيتونا ونخلاً) وهما معروفان ، ومثافعهما كثيرة (وحدائق غُلْباً) الحدائق : جمع حديقة ، وهى البساتين ذات الأشجار المثمرة التى عليها حوائط تحيط بها ، والغلب : جمع غُلْبَاءُ ، وهى الضخمة العظيمة وعِظَمُ الحدائق قديكون بالتفاف أشجارها وكثرتها ، وقديكون بعظم كل شجرة فيها وغلظها وكبرها ، وذكر الحدائق بهذا الوصف ليشير إلى أن النعمة فى كل ما

الرُّطْبَةُ
الرُّطْبَةُ
الرُّطْبَةُ
الرُّطْبَةُ

وَفَاكِهَةً وَأَبًّا [٣١] مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ [٣٢] فَإِذَا جَاءَتِ
الصَّاعَةُ [٣٣]

تتضمن عليه الحديقة ؛ فالنعمة في الأشجار بجمالها ، وليست في ثمرها خاصة ، فإن من
أخشاب الأشجار ما يتخذ منه أرقى أنواع الأثاث ، وما يتخذ منه أدوات وآلات
للعمل بها في مختلف الحرف والصناعات ، وما يتخذ للوقود والاحراق لتدبير الطعام ،
ومن أوراق الاشجار ما تأكله الحيوانات ، وفي الحقائق نباتات مما يأكله
الناس أو ترعاه الماشية ، ولأن ذلك مقصود باستغلاله خصص الفاكهة بالذكر
بعد ذلك فقال (وفاكهة وأباً) والأب هو المرعى ، قال جار الله : سمي بذلك
لأن يُؤبُّ : أى يؤم ويُنْتَجَعُ ، ويقال : الأبُّ الفاكهة اليابسة سميت بذلك لأنها
تُؤبُّ لغير وقتها : أى تُعَدُّوْهُمْ . وقوله تعالى (متاعا لكم ولأنعامكم) معناه أن
الذى عدده سبحانه من نعمه منه ما يتمتع به الإنسان كالحب والفاكهة ، ومنه
ما يتمتع به الأنعام كبعض أنواع القصب وكالأب في بعض تفاسيره ، والأنعام :
الماشية وكل ما ينفع به الإنسان من أنواع الحيوانات . وانتصاب «متاعا» إماماً أنه
مفعول لأجله عامله أنبتنا والمعنى أنبتنا الحب والعنب وغيرها لأجل أن ننفعكم
ونمتعكم وأنعامكم به ، ومنهم من ذهب إلى أنه مفعول مطلق مؤكد لعامله الذى هو
أنبتنا كما تقول : أَحْبَبْتُ فلاناً مِقَّةً ، وكما تقول جلستُ قُعُودًا .

ثم لما عَدَّدَ الله سبحانه آلاءه على عباده وذكر من إحسانه لهم ما لا يليق
بالعقل إذا عرفه أن يستمر على التمرد عن طاعة صاحب هذه المنن الجسام ، ولا
أن يتكبر على أحد من خلقهم بآثره ؛ شرع في شرح أحوال القيامة وأهوالها لأن
الإنسان إذا سمعها خاف فإذا أخذه الخوف دعاه إلى التأمل فيما مضى من الدلائل ،
وإذا تأملها حقَّ التأمل بادر إلى الإيمان بما تدل عليه وهو وحدانية الله وقدرته
على كل شيء ، قال : (فإذا جاءت الصاخة) الصاخة في الأصل : اسم فاعل

يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ [٣٤] وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ [٣٥] وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ [٣٦]
لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ [٣٧]

من نحو قولك صَخَّ فلان رأس فلان بحجر ؛ إذا شدخه ؛ والصَّاحَةُ أيضا الصوت الشديد ؛ والمراد ههنا النفخة التي تقوم عنها القيامة ، سميت بذلك لأنها تُصَخُّ الأسماع وتُصَكِّها بشدة صوتها ، ومثل هذا تسميتها بالقارعة لأنها تقرر السمع ، وقوله تعالى : (يوم يفر المرء من أخيه) معناه يتباعد عنه ويتحرز منه ، والمراد أنه لا يواليه ولا يأخذ بناصره ، مثل قوله تعالى : « يوم لا يغني مولى عن مولى شيئا » أوالمراد أن الذين كان المرء يفر إليهم في الدنيا مستنصرًا بهم مستجيرًا بمكانتهم يكون في الآخرة غير راكن إليهم ولا مُعَوِّلٍ عليهم ؛ لأنه يشاهد عجزهم عن نصره أنفسهم وضعف مُنْتَبِهِم عن الدفاع ، وقد ذكر سبحانه الأولياء على الترتيب فكأنه قال : يفر من أخيه ، بل يفر من أبويه (أمه وأبيه) بل يفر من الذين يتعلق بهم قلبه أشد تعلق فيفر من (صاحبتة وبنيه) وصاحبة الرجل : زوجته ، ومنه قوله تعالى في سورة الجن : « وأنه تعالى جدُّ ربنا ، ما اتخذ صاحبة ولا ولدًا » ، وقوله تعالى : (اسكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه) قال ابن قتيبة : يغنيه يعني يُصْرِفُهُ وَيُصَدِّهِ عن قرابته ، ومثل ذلك قول الشاعر :

سَيُغْنِيكَ حَرْبُ بَنِي مَالِكٍ عَنِ الْفُحْشِ وَالْجَهْلِ فِي الْمَحْفِلِ
أى : سيُغْنِيكَ . وتقول العرب : أَغْنَى وَجْهَكَ غنى ، تريد اصرف وجهك عني وحَوِّله ناحيةً أخرى . وقال قوم : يغنيه ذلك الهم الذي ركبه بسبب نفسه خاصة وشغله حتى ملاً صدره فلم يَبْقَ فيه متسع لهم آخر فصار ذلك شبيهاً بالغنى في أنه قد اجتمع عنده منه الشيء الكثير .

وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ [٣٨] ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ [٣٩] وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ
عَلِيهَا غَبَرَةٌ [٤٠] تَرَهَقُهَا قَتَرَةٌ [٤١] أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ [٤٢]

ثم إنه سبحانه وتعالى بعد أن يَبَيِّنَ وَقُوعَ الْحُشْرِ، وأشار إلى أن الأهوال التي تعرض للناس في ذلك اليوم أكبر من أن يأتي عليها الوصف، وأشد من أن يتمكن معها أحد من مواساة أحد أو الالتفات إليه مهما يكن عطفه عليه واتصاله به وقربه منه، لأنه لا أحد أحب إلى الإنسان من نفسه يهتم بشأنها ويدفع عنها الأذى وَيَجْهَدُ في إيصال النفع والخير إليها؛ بعد أن يَبَيِّنَ سبحانه ذلك أخذ في بيان أن المكلفين يومئذ على قسمين فقال جلت كلمته : (وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة) وهذا بيان لحال الذين استجابوا لله وللرسول وقبلوا دعوة النبي وعملوا ما أمرهم به من الأعمال الصالحة . ومُسْفِرَةٌ : مضيئة متهللة مشرقة . تقول : أسفر الصبح ، إذا أضاء ، وذلك لأن الأعمال الصالحة وعمارة القلب بالاقبال على الله وإيثار ما أمر به عما تهواه النفس يضيء بها وجه الإنسان ، وقد روى « مَنْ كَثَرَ صَلَاتَهُ بِاللَّيْلِ حَسُنَ وَجْهُهُ بِالنَّهَارِ » . و « ضاحكة » : قال السكبي : يعني بالفراغ من الحساب ، و « مستبشرة » فرحة بما نالت من كرامة الله تعالى ورضاه . وقوله تعالى : (ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة أولئك هم الكفرة الفجرة) إشارة إلى النوع الثاني من الناس ، وهم الذين تردوا على الله ورسوله وأعرضوا عن قبول ما جاءهم به الرسول من عند ربهم ولم يعملوا ما أمرهم به من صالح الأعمال . والقبرة : ما يصيب الإنسان من الغبار . وترهقها : تدركها من قرب ، تقول : رهقت الجبل ، إذا وصلت إليه بسرعة . والرهق : عجلة الهلاك . والقترة : سواد كال دخان ، ولست ترى

أقبح من اجتماع الغبرة والسواد في الوجه . وكأن الله تعالى جمع في وجوههم بين السواد والغبرة لأنهم جمعوا بين الكفر والفجور . وقد يكون المراد بالغبار غبار الذل وبالسواد سواد الغم والحزن ، وذكر هذين ليقابل بهما الإسفار والاستبشار اللذين ذكرهما في جانب الفريق الأول ، ثم بين أن الذين استحقوا هذا النوع من الإذلال والإهانة هم الكفرة الفجرة ، وهم الذين قد خرجوا عن حدود شرائعه واجتروا السيئات في حياتهم الأولى

بين سبحانه أن الناس يوم تقوم الساعة ويتبدل حال هذا العالم سيتكشف لهم ما كان قد التبس عليهم في الحياة الأولى ، ويتضح لهم ما كان قد خفي عليهم فيها ، وسيعرفون أن الذين قضوا حياتهم يطلبون الحق لا يعدلون عنه ، وينظرون في الحجة لا يحجبهم عن الأخذ بها حجاب من غفلة وعناد ، ويعملون بما استقام لهم عليه الدليل ووضحت فيه الحجة : لا يثنونهم عن الأخذ به قلة الآخذين به ، ولا خول ذكرهم ، ولا قوة المعاندين له ونباهة شأنهم ؛ قد اطمانت قلوبهم وثلجت ببرد اليقين ، أولئك سيظمئون إلى ما أدر كوا ، وتسكن أنفسهم إلى ما عرفوا ، ويفرحون يوم تظهر الحقائق جليلة ناصعة فرحة الغائب عاد إلى وطنه بعد طول البين وامتداد أمد الفراق ، أو فرحة الأليف لقي أليفه بعد ما ضرب بينهما الدهر بنكباته وفرق بينهما بعواديته وصروفه ، فهم مُتَمَلِّئُو الوجوه ، ضاحكو السن ، تظهر على أسارير وجوههم سيماء الطلاقة والبشر . وأما الذين احتقروا عقولهم ، وأهملوا نعمة الله عليهم بالفكر ، وارتضوا الجهل ، وذكوا لقادتهم وكبرائهم ، وسلهوا ساداتهم المقادة ، وانصرفوا عن الاستدلال إلى اقتفاء آثار الآباء والأجداد ، غير مُبَالِين بما يقرع أسماعهم من دليل ناهض وحجة لا التواء فيها ولا لبس ، وظلموا على أهوائهم الباطلة وعقائدهم الضالة الزائفة وأعمالهم المهلكة المُرْدِيَةِ ، فانهم سيجدون — يَوْمَ تَتَجَلَّى الْأُمُورَ ، وينكشف

المستور ، ويدعو الربُّ سبحانه عباده للحساب — كلُّ شئٍ على خلاف ما كانوا يعرفون : يجدون الحق غير الذي كانوا يعتقدون ، والصالح من العمل غير الذي كانوا يعملون ، وحينئذ تظهر عليهم آثار الخيبة والفشل ؛ فتعلوهم الغبرة ، وتغشاهم القفرة ، لأنهم كانوا في حياتهم الدنيا الكفرة الفجرة . نسال الله تعالى أن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وأن يحشرنا يوم القيامة ووجوهنا مسفرة ضاحكة مستبشرة . آمين .

سورة التكوير

[وهي مَكِّيَّةٌ ، وآياتُها تسع وعشرون آيةً ، نَزَلَتْ بعد سورة

الْمَسَدِ] ^(١)

(١) لاخلاف في أن هذه السورة مكية ، وقد اختلف في عدد آياتها : فقليل

آياتها تسع وعشرون آيةً ، وقيل : ثمان وعشرون ،

استهلَّ اللهُ سبحانه وتعالى هذه السورةَ السَّكْرِيَّةَ بذكر أشياء تَحَدَّثُ عند قيام الساعة التي أشار في السُّورِ السابقة إلى الدلائل الدالة على تمام قدرته على إحداثها ، وأخبر أنها حادثة بلالريب ، ثم أخبر ههنا أنه عند وقوع هذه الأشياء تعلم كل نفس ما قدمته من عمل ، ويتبين لها ما كانت أرزقته من الخير أو الشر ، ويذهب عن كل واحد من الخلائق ما كان يعتريه من الشك والالتباس ، ويتضح المبهم ، وينكشف المستور ، وتظهر الحبيئات ، فلا ارتياب هناك ولا تردد ، ولا التباس ولا إغلاق ، فمن عمل في حياته الدنيا من الخير مثقال ذرة وجده مائلا أمامه ، ورأى ما أعده الله له من الجزاء الأوفى ، وتمنى أن لو كان قد ازداد من الخير خيرا . ومن عمل مثقال ذرة من الشر رآه منتظرا إياه ، وتبين له أن الوعيد الذي كان يسمعه على لسان الرسول في حياته الأولى كان وعيدا صادقا لا تهويل فيه ولا تضليل ، وحينئذ يتمنى أن يُرَدَّ إلى الحياة الدنيا ليعمل الخير ويزداد منه ، أو يتمنى أن يباعده الله بينه وبين عمله ، وما هو بمُجَابٍ إلى إحدى الأُمْنِيَّتَيْنِ .

فأما الأمور التي استهلَّ اللهُ تعالى بذكرها هذه السورة السَّكْرِيَّةَ فاثنا عشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ [١] وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ [٢] وَإِذَا
الْجِبَالُ سُيِّرَتْ [٣] وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ [٤]

أمرنا : أولها تكوير الشمس وهو ما ذكره سبحانه بقوله : (إذا الشمس كورت) ، وقد اختلف العلماء في بيان معناه ، فقال قوم : معناه استدارتها مثل تكوير العمامة وهو لفها ، والمراد منه على هذا اختفاؤها عن الأعين وذهاب ضوءها ؛ لأن الشيء إذا أُلْفِيَ يصير مختلفيا ، فهو تعبير بالملزوم مع إرادة لازمه . وقد اختلفت عبارة هؤلاء عن معنى تكويرها فقال جماعة : معنى «كورت» طُمِسَتْ ، وقال آخرون : معناه انكسفت ، وقال الحسن : معناه انحى ضوءها ، وكل هذا بيان للآزم النى قدمنا ذكره . وقال قوم : معناه أُلْقِيَتْ ورُميت عن فلَكها حتى تسقط ، مأخوذ من قولهم : ضرب فلان فلانا فأكوره ، إذا صرعه . والأمر الثانى انكدار النجوم وهو ما ذكره سبحانه بقوله (وإذا النجوم انكدرت) ، ومعناه انتثارها وتساقطها ، وذلك كقوله تعالى : «وإذا الكواكب انتثرت» والأصل فى الانكدار الانصباب ، قال الخليل : يقال : انكدر عليهم القوم ، إذا جاؤهم أرسالا فانصبوا عليهم ، والأمر الثالث تسيير الجبال وهو ما ذكره بقوله : (وإذا الجبال سيرت) ، ومعناه ذهابها عن وجه الأرض ، ومثل ذلك قوله تعالى : «وسيرت الجبال فكانت سرابا» ولما كانت الجبال فى هذه الأرض قد جعلت أوتادا تمسكها وتمنعها من الاضطراب كان تسييرها كناية عن مَيِّدَانِ الأرض وذهاب ما عليها ؛ والأمر الرابع تعطيل العشار وهو ما ذكره بقوله (وإذا العشار عطلت) ، وقد اختلف العلماء فى المراد منه : فذهب قوم إلى أنه عبارة عن تعطيل السحاب عن حَمَلِ الماء من مكان إلى مكان ، والعرب

وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ [٥] وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ [٦] وَإِذَا النُّفُوسُ
زُوجَتْ [٧]

تشبه السحاب بالhaml ، وقد جاء منه قوله تعالى : « فالحاملات وقرأ » وقال آخرون : العشار هي التي أتى على حملها عشرة أشهر من النوق ، وتعطيها : إهملها ، وإذا كان المعروف أن العشار أكرم أموال العرب وأعزها عليهم وأعلاها قيمة عندهم ، وكانوا أضن الناس بها ، وأخفهم بشأنها ؛ كان تعطيها كناية عن اشتداد الأمر عليهم ، وفداحة ما نزل بهم من الخطب ، حتى إنهم نسوا أكرم أموالهم وأهملوا شأنها . والأمر الخامس حُشِرُ الوحوش وهو ما ذكره بقوله : (وإذا الوحوش حُشِرَتْ) ، والحشر : الجمع من كل ناحية ، وكل شيء من دواب البر إذا لم يستأنس يسمى وحشا ، وقد ورد أن الله يحشر الوحوش كلها فيقتص للجماء من القرآن ، والمراد أنها تجتمع في موقف القيامة مع شدة نفرتها عن الناس في الدنيا وتبديدها في الصحارى ، فيدل ذلك على شدة الهول يوم حدوث هذه الكوائن . والأمر السادس تسجير البحار وهو ما ذكره بقوله : (وإذا البحار سجرت) وقد اختلف العلماء في بيان المراد منه ؛ فذهب قوم إلى أن تسجيرها معناه إيقادها واشتعال النيران فيها ، وقال آخرون : هو كناية عن جفافها وذهاب أمواها وبقائها كالأرض ، وقال آخرون : معناه فجرت واختلط ماء البحار بعضه ببعض ؛ لأن الله تعالى جعل بين كل بحر وما يجاوره من البحار حاجزا حتى لا يبغي بعضها على بعض ، فإذا أراد تغيير نظام هذا العالم وتبديل أحواله نزع هذا الحاجز ففاض بعضها في بعض وصارت البحار كلها بحرا واحدا ، وانظر إلى قوله سبحانه وتعالى : « مرج البحرين يلتقيان ، بينهما برزخ لا يبغيان » . والأمر السابع تزويج النفوس وهو ما ذكره بقوله (وإذا النفوس زوجت) . وقد اختلفوا في المراد منه أيضا : فذهب

وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ [٨] بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ [٩]

قوم إلى أن معناه اقتران الأرواح بأجسادها ، وقال الحسن : معناه أن الله تعالى :
 يميز الناس في الآخرة ويجمعهم ثلاثة أصناف بحسب أعمالهم في الدنيا : فصنف
 منهم السابقون ، وصنف منهم أصحاب الميمنة ، وصنف منهم أصحاب المشأمة ؛
 والمراد أنه تعالى يضم إلى كل صنف من الناس من كان في طبقته ، فالتزويج قرن الشيء
 بمثله ؛ فيضم المبرز في الطاعة إلى مثله ، ويقرن المتوسط مع مثله ، ويحمل أهل
 المعصية بعضهم مع بعض . وقال قوم : معناه زوحت نفوس المؤمنين بالخور العين
 وقرنت نفوس الكافرين بالشياطين ، وقال قوم : معناه قرنُ النفوس بأعمالها .
 والأمر الثامن ما حدث الله تعالى عنه بقوله : (وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ)
 الموءودة : المقتولة صغيرة ، وكان العرب في جاهليتهم على عادة في غاية الشناعة ، تدل
 على قسوة قلوبهم ، وتنبيء عن فساد تفكيرهم ؛ فقد كان الرجل منهم إذا ولدت
 له بنت تركها حتى تبلغ قامتها ستة أشبار ؛ فإذا بلغت قال لأُمها : طَيِّبِهَا وَزَيِّنِهَا
 حتى أذهب بها إلى أقاربها ، وقد حفر لها حفرة في الصحراء ، فيذهب بها إلى هذه
 الحفرة ، فيقول لها : أنظري إليها ، فإذا نظرت دفعها من خلفها فتتردى فيها ، فيُهيلُ
 عليها التراب حتى يسوى الحفرة بما حو لها من الأرض ، فجاء الله تعالى بالاسلام
 وأنزل عليهم القرآن وهم في هذه الضلالة ، فأحذهم بالأدب القويم ، وقوم ما عوجَّ
 من تفكيرهم ، وكان مما أنكره عليهم وأد البنات . وقد كان قوم منهم امتنعوا
 من وأدهن وحاولوا حمل الناس على امتناعهم ؛ ومن هؤلاء صعصعة بن ناجية
 جد الفرزدق الشاعر ، وقد افتخر به الفرزدق في قوله :

وَجَدَّيَ الَّذِي مَنَعَ الْوَائِدَاتِ فَأَخَى الْوَيْدَ فَلَمْ تُؤَادِ
 وَإِنَّمَا ارْتَكَبُوا ذَلِكَ خَوْفًا مِنْ لِحَاقِ الْعَارِ بِهِمْ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَمَارَعُوا ، أَوْ

وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ [١٠] وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ [١١] وَإِذَا الْجَحِيمُ
سُعِّرَتْ [١٢] وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ [١٣] عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أُخْضِرَتْ [١٤]

خشية الاتفاق عليهن فيصيبهم الفقر ، وعلى هذا جاء قوله تعالى : « ولا تقتلوا
أولادكم خشية إملاق » وإنما يحشر الله الموءودة ويسألها عن قتلها وعن ذنبها
الذي قتلت من أجله - مع أن الحقيق بتوجيه السؤال إليه إنما هو قاتلها - ليكون
سؤالها وجوابها تبكيًا لقاتلها وإشعارًا بأن لاجبة له يصح أن يسأل عنها ، وهذا
كتبكيك النصارى بسؤال نبيهم عيسى ابن مريم عليه السلام بقوله تعالى « أنت قلت
للناس اتخذوني وأمى إِلَهَيْنِ من دون الله ؟ قال : سبحانك ما يكون لى أن أقول
ما ليس لى بحق » الأمر التاسع ما ذكره الله تعالى بقوله : (وَإِذَا الصُّحُفُ
نُشِرَتْ) والمراد بها صحف الأعمال التى ينشرها الله تعالى عليه حين يقفه للحساب
بين يديه ، ويقال : معنى نشرت فرقت على أصحابها فأخذ كل امرئ صحيفته
يتأملها وينظر فيها ليعلم أن الله تعالى قد أحصى عليه ذنوبه كلها فلم يغادر صغيرة
ولا كبيرة إلا سَجَّلَهَا عليه . الأمر العاشر ما ذكره الله تعالى بقوله : (وَإِذَا السَّمَاءُ
كُشِطَتْ) ومعنى كُشِطَتْ كُشِفَتْ وأزيلت عما فوقها ، كما يكشط جلد الذبيحة
عنها . والأمر الحادى عشر ما ذكره جل شأنه بقوله : (وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ)
وتسعيورها : إيقادها إيقادًا شديدًا . والأمر الثانى عشر ما ذكره الله تعالى بقوله :
(وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ) ومعنى « أزلفت » أذنيت من أهلها وقربت لهم ، والمراد
أنها هيئت لهم وأعدت لنزولهم ، وهذا مثل قوله تعالى : « وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ الْمُتَّقِينَ
غَيْرَ بَعِيدٍ » وقوله تعالى : (عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أُخْضِرَتْ) هو جواب الشرط الذى هو
مجموع الأمور الاثنى عشر ، والمراد أن كل نفس تعلم يومئذ ما كان من عملها مبرورا
مُتَقَبَّلًا ، وما كان من عملها مَرْدُودًا عليها ؛ فكثير من الناس يظنون فى هذه

الحياة الدنيا أن ما يعملون من عمل هو خير لهم في عاجل أمرهم وآجله ، ولا يكون هذا العمل حقيقاً بالذى ظنوه فيه ، كما قال الله تعالى : « قل هل أنبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » ، ثم هؤلاء المنافقون الذين يعملون أعمالهم رياء الناس ، يريدون بذلك أن يحسن الحديث عنهم ، وأن يكسبوا السنة الناس ؛ ليس هؤلاء من عملهم إلا الجهد والمشقة ؛ وهؤلاء الذين غابت عقولهم وعزبت أحلامهم فصاروا يرون الشيء القبيح حسناً فيقبلون على عمله ويرون الحسن قبيحاً فينكرون عنه ، تمسحاً مع أهواء وضلالات حسبوها علماً أو مدنية أو ما أشبه ذلك ، أمثال هؤلاء الذين كانوا في الحياة الدنيا مغرورين بما تزين لهم الشياطين سيجدون أعمالهم يوم القيامة غير مقبولة ولا مرضى عنها ؛ وأنها ليست من أسباب قربهم إلى الله تعالى الذى يجازى الناس بأعمالهم ، بل هى مبعدة منه ، مستحقة لغضبه وعقابه ، وهذا كله لفت لعقول الناس ألا تفكر فى الأعمال إلا بحسب ما تشتمل عليه من الخير أو الشر ، وألا ينظروا إليها إلا بمنظار الشرع ، وألا يزنوا الأمور إلا بميزان الشرع ؛ لأن الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما وافق المعيار الذى أرسل به رسله وأنزل به كتبه ، والأعمال المقبولة عند الله ما صدرت عن قلب ملىء بالآيمان ، عامر بحب الله والرغبة فى رضاه ، حريص على أداء واجباته التى فرضها الله تعالى عليه ؛ فإن لم يكن المرء على هذه الصفات كلها لم تكن أعماله مقبولة

وبعد أن انتهى الكلام عن أحوال يوم القيامة ، وما يكون فيه من وقوف الناس على حقائق عملهم ؛ شرع سبحانه فى تحقيق أن هذا الذى يحدثهم الرسول صلى الله عليه وسلم به هو القرآن الذى أنزله عليه هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، ويبين لهم - مع ذلك - منزلة الرسول الذى أجوا فى عداوته ، واستمروا فى تمردهم عليه وعصيانه ، ورَمَوْهُ بكثير من المعاييب ، فقالوا مرة : ساحر ، وقالوا :

فَلَا أُقْسِمُ بِالْخَنَسِ [١٥] الْجَوَارِ الْكُنَسِ [١٦]

مجنون ، وقالوا : كذاب ، وقالوا : إنما يعلمه بشرٌ ، وقالوا غير ذلك مما هو براء منه ؛ فأراد الله تعالى أن يكذبهم في كل ما رموه به من هذه الافتراءات ، ويبين لهم حقيقة أمره ؛ فقال جلت كلمته : (فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس) « لا » هذه للنفي ، وهذه عبارة تَعَوَّدَ العرب أن يقولوها عندما يكون المراد الْقَسَمُ عليه ظاهراً أمراً ؛ كأنه تعالى يقول : أنا لا أقسم بهذه الأشياء على إثبات هذا المطلوب الذي أذكره بعد ؛ لأن إثباته أظهر وأجلى وأقوى من أن يحاول محاول إثباته بالقسم ، ويقال : معناه أنا لا أقسم بهذه الأشياء على إثبات المطلوب ؛ لأنه أعظم وأجلُّ وأكبر من أن يُقَسَمَ عليه بهذه الأمور الهينة الشان ، والغرض على هذا الوجه تعظيم الْمُقَسَمِ عليه وتقدير شأنه . وَالْخَنَسُ : جمع خانس ، وهو المنقبض المستخفي ؛ تقول : خنس هذا الرجل من بين القوم ، وانخنس أيضاً ، إذا انقبض واختفى . وفي الحديث « إن الشيطان يوسوس إلى العبد فإذا ذكر الله خنس » يريد انقبض واختفى هارباً . وَالْكَنَسُ : جمع كنس أو كانة ، وهو الختفي أيضاً . وأصله من قولهم : كَنَسَتِ الظبية ، إذا دخلت الكناس ، وهو مكانها ومأواها ، ومنه يقولون : تكنست المرأة ، إذا دخلت الْهُودَجَ ، يشبهون المرأة بالظبية فيجعلون الْهُودَجَ كالكناس . والمراد بالخنس الجوارى الكنس جميع السكواكب . وخنوسها عبارة عن غيبوبتها عن البصر في النهار ، وكنوسها عبارة عن ظهورها للبصر في الليل ، يعني أنها تظهر في أفلاكها كما تظهر الظباء في كناسها . ويقال : المراد بالخنس الجوارى الكنس السكواكب السَّيَّارة الخمسة ، وخنوسها : رجوعها ، وكنوسها : اختفاؤها تحت ضوء الشمس . ولا شك أن هذه حالة عجيبة تشتمل على أسرار غريبة وتدل على قدرة عظيمة باهرة ، وَأَقْسَمَ بهذه الدَّرَارِى أوبالسكواكب جميعها

وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ [١٧] وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ [١٨]

لِيُنَوِّهَ بِشَأْنِهَا مِنْ جِهَةٍ مَا فِي حَرَكَاتِهَا مِنَ الدَّلَائِلِ عَلَى قُدْرَةِ مُصَرِّفِهَا وَمُقَدِّرِهَا ،
وإِرشَادِ تِلْكَ الْحَرَكَاتِ إِلَى مَا فِي كَوْنِهَا مِنْ بَدِيعِ الصَّنْعِ وَإِحْكَامِ النِّظَامِ ، مَعَ نِعْمَتِهَا
فِي الْقِسْمِ بِمَا يُبْعِدُهَا عَنْ مَرَاتِبِ الْأُلُوْهِيَّةِ مِنَ الْخُنُوسِ وَالْكُنُوسِ ؛ تَقْرِيْعًا لِمَنْ
خَصَّهَا بِالْعِبَادَةِ وَاتَّخَذَهَا رَبًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : (وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ)
اِخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي بَيَانِ مَعْنَى « عَسْعَسَ » فَقَالَ قَوْمٌ : مَعْنَاهُ أَدْبَرَ ، كَمَا فِي قَوْلِ
الْعِجَاجِ :-

حَتَّى إِذَا الصُّبْحُ لَهَا تَنَفَّسًا وَانْجَابَ عَنْهَا لَيْلُهَا وَعَسْعَسَا

وَقَالَ قَوْمٌ : مَعْنَاهُ أَقْبَلَ ، مِثْلُ قَوْلِ الرَّاجِزِ :-

* مُدَّرِعَاتِ اللَّيْلِ لَمَّا عَسْعَسَا *

وَمَنْ قَالَ مَعْنَاهُ أَقْبَلَ ذَكَرَ أَنَّ الْحَمْلَ عَلَى هَذَا خَيْرٌ لِأَنَّ الْآيَةَ حِينَئِذٍ تَشْتَمِلُ عَلَى
الْقِسْمِ بِأَقْبَالِ اللَّيْلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : « وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ » وَبَادِرُهُ أَيْضًا فِي قَوْلِهِ سَبَّحَانَهُ :
« وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ » وَمَنْ قَالَ مَعْنَاهُ أَدْبَرَ قَالَ : الْآيَةُ إِشَارَةٌ إِلَى أَوَّلِ طُلُوعِ
الصُّبْحِ وَإِلَى تَكَامُلِ ضَوْئِهِ وَإِسْفَارِهِ ، وَمِثْلُهَا مِثْلُ قَوْلِهِ جَلَّ شَأْنُهُ : « وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ
وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ » . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : (وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ) الْمُرَادُ مِنْهُ إِذَا أَسْفَرَوْا
نُورَهُ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الصُّبْحَ إِذَا أَقْبَلَ جَاءَ بِأَقْبَالِهِ رُوحٌ وَنَسِيمٌ فَجَعَلَ ذَلِكَ نَفْسَالَهُ ،
وَمِنْهُ قِيلَ : تَنَفَّسَ الصُّبْحُ ، وَيُقَالُ : شَبَّهَ اللَّيْلَ الْمَظْلَمَ بِالسُّكْرَانِ الْحَزُونِ الَّذِي
قَبِيعٌ لَا يَتَحَرَّكُ فَاجْتَمَعَ الْحُزْنُ فِي قَلْبِهِ ، فَلَوْ تَنَفَّسَ لَوَجَدَ بَرْدَ الرَّاحَةِ ، فَلَمَّا طَلَعَ الصُّبْحُ
كَأَنَّهُ تَخَلَّصَ مِنْ هَذَا الْحُزْنِ فَجَبَّرَ عَنْهُ بِالنَّفْسِ ؛ فَقَبِي اللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ زَوَالَ تِلْكَ الْغَمَّةِ الَّتِي
تَغْمِرُ الْأَحْيَاءَ بِسَبَبِ انْسِدَالِ الظُّلَمَةِ وَتَكَاثُفِهَا ، لِأَسْيَا بَعْدَ انْسِدَادِ الْأَبْدَانِ نَشَاطِهَا
وَاتَّعَشَتْ مِنْ فُتُورِهَا ، وَفِي الصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ بَشَرِيٌّ لِلْأَنْفَسِ بِالْحَيَاةِ الْجَدِيدَةِ

إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ [١٩] ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ [٢٠]
مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ [٢١]

في النهار الجديد الذي تنطلق فيه الإرادات إلى تحصيل الرغبات وسد الحاجات واستدراك ما فات والاستعداد لما هو آت ؛ وقوله تعالى : (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ) هذا هو المراد الخلف عليه . والمراد أن هذا الذي أخبركم به محمد من أمر الساعة ليس بكنهية ولا ظن ولا افتعال ، وإنما هو قول نزل به عليه جبريل وحيا من عند الله تعالى ، وقد وصف سبحانه هذا الرسول بخمسة أوصاف : أولها أنه كريم ، ومن كرمه أنه يعطى أفضل العطايا ، وهى المعرفة والهداية والارشاد ؛ لأنه موصلها فساكنها منه . والوصف الثانى ما ذكره الله تعالى بقوله : (ذى قوة) واختلاف المفسرون فى المراد منه ؛ فذهب قوم إلى أن المراد أنه شديد الجسم ، وذهب آخرون إلى أن المراد به أنه قوى فى أداء الطاعات التى أمره الله بها فليس يُخل بشيء منها من أول الخلق إلى آخر الزمان ، وهو قوى - مع ذلك - فى معرفة الله تعالى ، وفى مطالعة جلاله الباهر . والوصف الثالث ما ذكره الله بقوله : (عند ذى العرش مكين) والمراد أنه ذو جاه ومنزلة عند رب يعطيه ما سأل ، تقول : قد مكن فلان عند فلان ، إذا كانت له عنده منزلة . وليس المراد بهذه العندية عندية المسكان ، ولا عندية الجهة ، بل المراد بها عندية الأكرام والتشريف والتعظيم . والوصف الرابع ما ذكره الله تعالى بقوله : (مُطَاعٌ ثَمَّ) والمعنى أنه عند الله مطاع فى ملائكته المقربين ، فهم يصدر عن أمره ويرجعون إلى رأيه . وكلمة « ثَمَّ » بفتح التاء المثناة - وهى اسم إشارة إلى المسكان . والوصف الخامس ما ذكره سبحانه بقوله : (أمين) والمراد أنه أمين على وحى الله تعالى ورسالاته ، قد عصمه الله سبحانه من الخيانة فيما يأمره به ، وجنبه الزلل فيما يقوم به من الأعمال .

وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ [٢٢] وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ [٢٣]

وقوله تعالى : (وما صاحبكم بمجنون) المراد بصاحبهم سيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وفي التعبير عنه بصاحبهم من الاستدلال عليهم وإقامة الحجة على كذبهم في دعواهم ؛ ما ليس يخفى ، فانه إذا كان صاحبهم وكانوا قد خالطوه وعاشروه وعرفوا عنه ما لم يعرفه أحد سواهم من استقامة الحال وصدق اللهجة وكمال العقل ووفور الحلم والتفوق على قرآنه في جميع صفات الخير والبر ، إذا كان منهم بهذه المثابة وكانوا قد عرفوا عنه كل ذلك لم يكن ادعائهم عليه ما يناقض هذا المتقرر إلا باطلا من القول وزورا ، وإنما نفى عنه الجنون لأن بعض قريش كان يرميه بذلك عندما يسمع منه غريب الأخبار عن اليوم الآخر وغيره مما لم يكن معروفا لهم ولا مألوفا عند عقولهم ، وقد حكى الله عنهم ذلك في قوله : « أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين ، ثم تولوا عنه وقالوا مُعَلَّمٌ مجنون » وحكى سبحانه أن جميع الأمم قد رَمَوْا أنبياءهم بالجنون في قوله سبحانه « كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون » وقد نفى عن رسوله ما رماه به قومه من قريش في غير ما آية من كتابة الكريم ؛ فقال سبحانه : « أو لم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة ، إن هو إلا نذير مبين » وقال جلت كلمته : « قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفردى ثم تفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد » . وقوله تعالى : (ولقد رآه بالأفق المبين) معناه أن محمدا صلى الله عليه وسلم قد رأى جبريل بالأفق الأعلى الواضح الظاهر ، وقد كانت هذه الرؤية بأن تمثل جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم في مثال يظهر ويُبَصِّرُ ، فظهر له وتجلي لعينيه وأُعْلِمَ أنه جبريل فعرفه . وتفسير هذه الرؤية قد ذكر في القرآن الكريم في سورة النجم بقوله تعالى : « والنجم إذا هوى ، ماضٍ صاحبكم وما غوى ، وما ينطق

وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ [٢٤] وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ [٢٥]
فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ [٢٦] إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ [٢٧] لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ
أَنْ يَسْتَقِيمَ [٢٨]

عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى ، علمه شديد القوى ، ذميرة فاستوى ، وهو بالأفق الأعلى ، ثم دنا فتدلى ، فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى إلى عبده ما أوحى ما كذب الفؤاد ما رأى ، أفتمارونه على ما يرى ، ولقد رآه نزلة أخرى ، عند سدرة المنتهى ، عندهاجنة المأوى ؛ إذ يغشى السدرة ما يغشى ، مازاغ البصر وما طغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى . وقوله تعالى : (وما هو على الغيب بضنين) معناه ليس محمد بمتهم على الغيب ، والمراد بالغيب هنا القرآن وما فيه من قصص وأنباء وأحكام . يريد أنه صلى الله عليه وسلم ثقة أمين لا يأتي به من عند نفسه ولا يبدل منه حرفا بحرف ولا معنى بمعنى . ويقرأ « وما هو على الغيب بضنين » بالضاد ، والمعنى أنه ليس ببخيل يأتيه غيب السماء وهو شيء نفيس جليل القدر فلا يبخل به ، بل يبينه ولا يكتمه كما يكتُم الكهان ويتمنعون من الإعلام به حتى يأخذوا عليه حلوًا . وقوله تعالى : (وما هو بقول شيطان رجيم) هذا نفى لقرينة أخرى كانوا يقولونها ؛ فقد كان منهم من يقول : إنَّ هذا الذى يتكلم به محمد إنما يحى به شيطان فيلقيه على لسانه . وقوله سبحانه : (فأين تذهبون) بيان لأنهم قوم قد ضلوا طريق التدبر وجهلوا سبيل العقل والحكمة ، والمعنى أى طريق تسلكونه وأى سبيل تسيرون فيه بعد أن قامت عليكم الحجة وبطلت جميع مفترياتكم فلم يبق لكم طريق إلا أخذناه عليكم . وقوله تعالى : (إن هو إلا ذكر للعالمين) بيان لحقيقة القرآن وأنه أى شيء هو ، والمعنى أنه بيانٌ وهداية للخلق أجمعين وقوله : (لمن شاء منكم أن يستقيم) بدل من العالمين ، والتقدير إن هو إلا ذكر

وَمَا تَشَاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ [٢٩]

لمن شاء منكم أن يستقيم ، وفائدة هذا الابدال أن الذين شاءوا الدخول في الاسلام - وهو المراد بالاستقامة - هم المنتفعون بالذكر فكأنه لم يوعظ به غيرهم ، والمعنى أن القرآن إنما ينتفع به من شاء أن يستقيم ، ثم بين أن مشيئة الاستقامة موقوفة على مشيئة الله تعالى فقال : (وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين) والمعنى أن إرادتكم الخير لا تحصل عندكم إلا بعد أن يخلقها الله تعالى فيكم بقدرته الموافقة لإرادته فهو سبحانه الذى يودع فيكم إرادة فعل الخير فتصرف هممكم إليه وتتوجه نوازعكم نحوه ، ولو شاء سبحانه لسلبكم هذه الإرادة وجعلكم كالحيوانات التى لا إرادة لها ، وقوله تعالى « رب العالمين » بيان للعلة فى الحكم : أى أنه لما كان رب العالمين أجمعين وكان هو مانحهم كل ما يتمتعون به من القوى ، وكان مع ذلك صاحب السلطان النافذ ، كانت إرادتكم مستندة إلى إرادته ، واعتزامكم خاضع لسلطانه وقهره ؛ فلو شاء أن يوجه إرادتكم إلى الخير لسكنتم أخيارا أبرارا أطهارا ، ولو شاء أن يجعل نزعاتكم متجهة نحو الشر لصرتم أشرا رانجاسا . نسأل الله تعالى أن يوفقنا إلى الخير ، وأن يجعلنا ممن اختار لهم البر وحسن العمل ؛ إنه ولى ذلك . آمين

سورة الْأَنْفِطَارِ *

[وهي مكية ، وآياتها تسع عشرة آية ، نزلت بعد سورة

النازعات] ^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ [١] وَإِذَا الْكُوَاكِبُ انْتَشَرَتْ [٢]

* وقد تسمى سورة « انْفَطَرَتْ »

(١) لاختلاف في أن هذه السورة مكية ، كما أنه لاختلاف في أن عدد آياتها

تسع عشرة آية .

افتتح الله سبحانه وتعالى هذه السورة بمثل ما افتتح به السورة السابقة من ذكر أشياء من الأمور التي تحدث عند تغير نظام هذا العالم ، كمقدمة ليوم العرض والحساب ، وهو يوم القيامة ، ويسمى يوم الدين أيضا ، كما يسمى يوم الجزاء ، وجعل جواب الشرط في هذه السورة قريبا من الجواب الذي جاء به في السورة السابقة ؛ والأمور التي ذكرها ههنا أربعة أمور : أمران منها يتعلقان بالعلويات ، وهما انفطار السماء ، وانتثار الكواكب ، وأمران منها يتعلقان بالسفليات ، وهما تفجير البحار ، وبعثرة القبور ؛ فأما الأمر الأول من العلويات فهو ما ذكره سبحانه بقوله : (إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ) ومعناه انشقت ، ومثله قوله تعالى : « وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ » وقوله : « إِذَا السَّمَاءُ انشقت » وقوله : « فَإِذَا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان » وقوله : « وفتحت السماء فكانت أبوابا » وقوله : « السماء منفطر به » وأما الأمر الثاني فهو ما ذكره سبحانه بقوله (وَإِذَا الْكُوَاكِبُ انْتَشَرَتْ) وهذا مترتب على ما قبله ؛ لأنه إذا انشقت السماء فانتقض تركيبها وبطل

وَإِذَا الْبِحَارُ مُفْجِرَتٌ [٣] وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ [٤] عَلِمْتَ نَفْسٌ
مَا قَدَّمْتُ وَأَخَّرْتُ [٥]

نظامها واختل حالها فلا بد من انتشار السكواكب وتفرقها ووجوبها على الأرض ،
وأما الأمر الأول من السفليات فهو ما ذكره سبحانه بقوله : (وإذا البحار فجرت)
وقد اختلف العلماء في بيان معنى ذلك ؛ فقال قوم : معناه أن بعض البحار ينفذ
مائه في بعض ، وذلك بسبب ارتفاع الحاجز الذي جعله الله تعالى برزخا وجعل
مهمته ألا يطنى بحر على بحر ، وحينئذ يصير كل البحار بحراً واحداً ، وإنما يرتفع
ذلك الحاجز إذا تزلزلت الأرض وتصدعت وذهب تماسكها ، وقال قوم : معنى
تفجير البحار تفرقها وذهاب مائها لأنها الآن مجتمعة متضامة ، وقال الحسن :
معناه أنها يبست وجفّ مائها ، والمراد على كل حال أن البحار تتغير عن صورتها
الأصلية ، التي هي عليها في هذا العالم ، وتزول صفاتها الثابتة لها ، وبعبارة أعم
من ذلك أن هذا العالم تزول صفاته وتتبدل أحواله ، يتغير نظامه ؛ فالأرض يومئذ غير
هذه الأرض ، والسماء غير هذه السماء ، وهكذا ، وانظر إلى قوله جلّت قدرته : « يوم
تبدل الأرض غير الأرض » وإلى قوله سبحانه : « ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها
ربى نسفا فينذرها قاعا صافصفا لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً » والأمر الثانى من الأمور
السفلية ما ذكره سبحانه بقوله : (وإذا القبور بعثرت) ومعناه أثيرت وقلب أسفلها
أعلىها وباطنها ظاهرها ، ثم اختلفوا في المراد منه ؛ فقال قوم : المراد أن القبور
تبعثر ليخرج من فيها من الموقى أحياء ، وقال آخرون : المراد أن الأرض تبعثر
لاخراج ما في بطنها من الذهب والفضة وسائر المعادن ، وذلك لأن من أشرط
الساعة أن تخرج الأرض أفلاذ كبدها من ذهبها وفضتها ونحوها والأول أقرب
لأن دلالة « القبور » عليه أتم . وقوله تعالى : (علمت نفس ما قدمت وأخرت)

يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ [٦] الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ
فَعَدَلَكَ [٧] فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ [٨]

هو جواب الشرط ، ومعناه أن في هذا اليوم يعلم كل أحد ما قدمه لنفسه من الأعمال
فلم يقصر فيه ، ويعلم ما أخره وأهمله وتكاسل في أدائه ، والمقصود منه الزجر عن
المعصية والترغيب في الطاعة .

ثم إنه سبحانه وتعالى بعد أن ذكر في صدر السورة وقوع الحشر والنشر ،
وأنه يبدل نظام هذا العالم ويغيره ، ويُصَيِّرُ الخلائق في عالم آخر ليسألهم عما قدمت
أيديهم ، ويحاسبهم على ما اقترفوا من الآثام ، وما ارتكبوا من الأوزار ،
وَيَقْرَعُهُمْ على التكاسل في أداء ما أمرهم بأدائه ، والتهاون فيما حثَّهم وحرَّضهم
على الإتيان به ، ويجزيهم أحسن الجزاء على ما عملوا من صالح الأعمال ؛ أخذ
في خطاب الانسان واستفساره عما دعاه إلى مخالفة خالقه ، والتمادى في فجوره
وطغيانه ، والاسترسال مع دواعي النفس الأمارة بالسوء وتواضعها ، مع أنه لو تدبَّر
نوع تدبَّر في نفسه وفي خلقه لوجد من شواهد ربوبية خالقه ما هو حقيق بأن
يحملة على الجادة ، ولو جد من آثار نعمته عليه ودلائل فضله ومنته ما هو خالق
بالشكران والاستدامة على الطاعات التي أمره بها ؛ فقال سبحانه وتعالى في ذلك
(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ
صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ) وإنما عَبَّرَ عنه بالانسان ولم يقل يَا أَيُّهَا الْعَبْدُ ، أو يَا أَيُّهَا
الْمَخْلُوقُ ، أو نحو ذلك ؛ لأن الكلام مُوجَّه إلى العقل الذي يُدْرِك أن جزاء
النعمة لا يكون بالجحد والنكران ، وإذا كان المطلوب إثبات الحجة وإقامة البرهان
على أن المنعم الذي تكررت آلاؤه وتعددت فواضله مستوجبٌ للحمد والشكر ،
كان التعبير بالانسان أليق ؛ لأنه اللفظ الدال على التفكير والتدبُّر وكمال الفهم ،

وقد اختلف العلماء في تحديد المراد من الانسان في هذه الآية ؛ فقال قوم : المراد به الكافر خاصة ، وقال آخرون : المراد به ما يشمل الكافر والعاصي جميعاً ، وهذا الأخير أولى وأحسن . والغرور في الأصل كل شيء دعا الانسان إلى ارتكاب ما لا يليق ارتكابه ، ومعنى الآية أى شيء خَدَعَكَ وَجَرَّأَكَ على عصيان ربك الذى أنعم عليك بنعمة الوجود والعقل والتدبر ، وأياديه عليك لاتزال تتوالى وتترادف ؟ فان قلت : هذا المقام مقام استنكار لما عليه الانسان من التماهى في المعصية وكفران النعم ، وهو بالتهديد أوفق وأنسب ، فكيف ذكر وصف « الكريم » وهلاً ذكر وصفاً من صفاته سبحانه يدل على الانتقام والقهر والغلبة مثل « القاهر » أو « المنتقم » أو « الجبار » ونحو ذلك لأن ذكر الكرم يدعو إلى الاعتماد عليه وترك العمل ارتكائاً على عظم جوده وواسع فضله . فالجواب عن ذلك أن ننبهك إلى أن معنى الكريم ههنا ليس هو المعنى الذى سبق إلى ذهنك وهو الذى يصفح عن أساء ويغفر لمن عصاه ، بل معناه العظيم الحكيم الذى يضع الأمور على حسب ما تقتضيه الحكمة والمصلحة ، ولا شك أن الحكمة والمصلحة لا يستوى عندهما الأولياء والأعداء ، ولا يتسا كل عندهما المطيعون والعصاة ؛ ألا ترى صديقك لو أعطاك شيئاً مما يهدى إلى الأصدقاء ثم رأيت أنه أعطى مثل هذا الشيء عدواً من أعدائه ، ألما كنت ترى فعله غير موافق للحكمة ، وكنت ترى منته عليك قد تلاشت وصنيعته إليك قد اضمحلت ، ولئن سلمنا أن الكريم ههنا بمعناه الذى تبادر إلى ذهنك فانا نقول لك : إن كثرة الكرم ، وتعدد المنح وتوالى المبرات عليك من ربك ؛ كل أولئك موجب عليك أن تتجهد في طاعته وتداب على العمل الذى طالبه منك ، وتوجب عليك أن تستحي من الاغترار والتواني ؛ لأن كرمه إن بلغ إلى حيث لا يمنع عن العاصي عوائد لطفه وبره فهو لا يترك الانتقام للمظلوم من ظالمه ؛ فكونه كريماً يقتضى الخوف الشديد وترك

الجرأة والاعتزاز ، ثم إنه تعالى لما وصف نفسه بالكرم عقبه بذكر أمور تدل
أوضح الدلالة على الكرم ، فأولها الخلق ، وهو الذى ذكره بقوله « الذى
خلقك » ولا شك أن إيجاد الانسان فى هذه الحياة كرمٌ عظيم من موجد سبحانه
وجودٌ فوق كل جود ؛ فان الحياة خير من الموت ، والوجود خير من العدم ، وقد
أمتن الله تعالى على عباده بذلك فقال : « كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا
فأحياكم » والأمر الثانى ما ذكره سبحانه بقوله « فسواك » ومعناه جعلك سويًا
سالم الأعضاء ، وجعل لك السمع والبصر والفؤاد ، وقد ذكر الله تعالى هذا
الوصف فى معرض الامتنان فى قوله سبحانه : « أكفرت بالذى خلقتك من تراب
ثم من نطفة ثم سواك رجلا » والأمر الثالث ما ذكره سبحانه بقوله « فعَدَلَك »
ومعناه عدل خلقتك فى العيين والأذنين واليدين والرجلين فلم يجعل أحد النظيرين
مخالفاً للآخر فى شكله ولا فى حجمه ، وقد حدث علم التشريح أنه سبحانه ركب
جانبي جثة الانسان على التساوى ؛ فلا تفاوت بين نصفيه فى العظام ، ولا فى
أشكالها ، ولا فى الأوردة والشرايين والأعصاب النافذة فيها والخارجة منها ،
ويقال : معنى عدلك جعلك قائماً معتدلاً ولم يجعلك تمشى على أربع كالبهائم
ونحوها من الحيوانات ، ويقال : معنى عدلك جعلك مستعداً لقبول العقل والقدرة
والفكر ، وصيرك بسبب ذلك مستولياً على جميع الخلائق من حيوان ونبات وجهاد ،
ووصلك من السكال بما لم يصل به شيئاً من أجسام هذا العالم ، وقوله تعالى :
« فى أى صورة ما شاء ركبك » معناه صورك وخلقك على الصورة التى اقتضتها
إرادته من بين الصور المختلفة بحسب الطول والقصر والحسن والقبح والذكورة
والأنوثة . ولا شك أن فى ذلك من الدلالة على قدرة الصانع وإرادته ومشيتته ما لا

كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ [٩]

يستطاع معه الانكار والجحد ، أفلا ترى أن النطفة جسم متشابه الأجزاء وتأثير الأبوين فيه على السواء ، فلو أن المؤثر أمر طبيعي لم تكن النتائج إلا على نمط واحد وصورة واحدة ؛ فلما اختلفت الآثار والصفات دل هذا الاختلاف على أن المدبر لهذا الأمر هو القادر المختار ؛ انظر إلى قوله جلت قدرته في سورة الروم « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ؛ إن في ذلك لآيات للعالمين » . ومن اختلاف الصور مجيء الإنسان على شبه أبيه أو أمه أو أحد أقاربه من جهة أبيه أو من جهة أمه قريبا كان أو بعيدا ، ومنها اختلاف الناس في الاستعداد للخير وقبوله والعمل به ، فلا شك أن تكوين الولي الحليم لهداية رب العالمين غير تكوين العدو اللدود ؛ فمن الناس من صورّه الله ليستخلصه لنفسه ، ومنهم من صورّه ليشغله بغيره ويسلط الشياطين على قلبه . والأوفق أن تجعل ذلك كله وأضرابه مما تشمله الآية الكريمة فإن النصّ لم يخص نوعاً دون نوع ، و « ما » في قوله تعالى « ما شاء » صلة : أى ربك في أى صورة شاءها ، ويقال : ما شرطية ، وشاء : فعل الشرط ، وربك : جواب الشرط ، و « في أى صورة » متعلق على هذا بعدلك . والأول أولى . وقوله تعالى : (كَلَّا) حرف للردع والزجر عن الاغترار ، و (بل) حرف وضع في اللغة لنفي شيء قد تقدم وتحقيق شيء غيره ، وكأنه سبحانه قال لهم : إنكم لا تستقيمون على توجيه نعمي التي أنعمت بها عليكم ولا تقومون بشكرها ولا تعملون بارشادي لكم ، بل تكذبون بالدين ، ومن الناس من قال : المنفى الذي قد تقدم هو الارتداد الذي يستلزمه الردع المدلول عليه بكلا ، وكأنه قال : ارتدعوا عن الاغترار بكرم الله تعالى ، وإنكم لا ترتدعون بل (تكذبون بالدين) والدين

وَإِنَّ عَلَيْكُمْ حَافِظِينَ [١٠] كَرَامًا كَتَبِينَ [١١] يَعْلَمُونَ
مَا تَفْعَلُونَ [١٢]

هو الجزء ، كما في قوله تعالى : « أَرَأَيْتَ الَّذِي يَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ » أو هو الاسلام كما أخبر الله تعالى بقوله : « إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ » ومعنى تكذيبهم بالاسلام عدم تصديقهم بتعاليمه التي جاء بها الرسول وأخبرهم خبرها وتلا عليهم القرآن الذي أنزل عليه ليبيّنها ، ومعنى تكذيبهم بالجزء أنهم لا يؤمنون باليوم الذي يبعث الله فيه الخلائق للفصل بينهم وجزاء كل واحد منهم على ما عمل في حياته الأولى . وقوله تعالى : (وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ كَرَامًا كَاتِبِينَ) هذه الجملة حالية الغرض منها تقرير الانكار وتحقيق أنهم يكذبون بالدين ، فكأنه قال : إنكم تكذبون بيوم الدين وهو يوم الحساب والجزاء والملائكة الموكلون بكم يحصون عليكم ذلك ويكتبونه . ويجب على كل مسلم أن يعتقد بأن الله تعالى حفظة وكلمهم باحصاء أعمال الانسان من خير وشر ، ولا ضير عليه في ألا يراهم ولا يعرف حقيقة حالهم ، ألا يعرف طريقة إحصائهم ، أو كيفية كتابتهم ، فإن ذلك كله من الأمور المغيبة عنا التي يجب علينا التصديق بها على النحو الذي أخبر عنه الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم . وقد ذكر الله تعالى أمرهم في غير آية من كتابه الكريم ؛ فمن ذلك قوله تعالى « عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ » ومن ذلك قوله تعالى : « وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً » وقد وصفهم الله تعالى في الآية التي نحن بصدد هابأربعة أوصاف ؛ أولها كونهم حافظين ، وثانيها كونهم كراما ، وثالثها كونهم كاتبين ، ورابعها كونهم يعلمون ما تفعلون . ومعنى قوله تعالى : (يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ) أنهم يعلمون الأفعال التي نفعلها فهم يكتبونها ؛ لأن كتابتهم شهادة علينا بها ، والشهادة لا تكون

إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ [١٣] وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ [١٤].

إلا بالعلم ، ووصفهم بهذه الأوصاف يدل على عظيم شأنهم ، وفي تعظيم شأنهم مالا يخفى من تعظيم أمر الجزاء على الأعمال التي يحصونها على الخلاق ، فذلك دليل على أن الجزاء على الأعمال من جلائل الأمور ، ولولا ذلك لما وَكَّلَ الله تعالى بضبط الأعمال التي يكون الحساب من أجلها هؤلاء الحفظة الموصوفين بهذه الصفات ثم إنه سبحانه بعد أن ذكر ما يدل على أن غفلة الانسان عن اليوم الآخر ، وتهاونه في شأنه ، وَعَدَمَ الاعتداد به ، وَتَرَكَ التَّهْيُؤَ للعرض على خالق الخلاق ومدبر الأكوان ؛ لا يكون شيء من ذلك إلا بسبب التكذيب والعناد ؛ بعد ذلك أخذ في سبيل الإخبار عن هذا اليوم وما يكون فيه إخبارا مؤكدا لينفي عن قلوبهم الريب الذي ساورها ، ويزيل من رؤسهم العناد الذي ركبها ؛ فقال سبحانه : (إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ، وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ) والأبرار جمع برّ ، والبرّ هو الذي يعمل البرّ ، الذي أمر الله تعالى بالتعاون عليه في قوله : « وتعاونوا على البر والتقوى » وقد فسر الله تعالى البر في سورة البقرة ، بقوله : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » وفسره مرة أخرى بقوله : « ولكن البر من اتقى » والفجّار : جمع فاجر ، وهو الذى شق ستر الديانة ، وهو أيضا الذى يميل عن أمر الله تعالى ويتركه ، وأصله الفجور وهو الخروج عن الحدود التي وصفها الشرع وأمر بالوقوف عندها ، والجحيم : اسم من أسماء النار التي أعدها الله تعالى للعصاة جزاء عصيانهم وللكفار

يَصْلُونَهَا يَوْمَ الدِّينِ [١٥] وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ [١٦] وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ
الدِّينِ [١٧]

جزاء كفرهم . وأصل الجحمة شدة تأجج النار والتهابها ، وتقول : جَحِمَ وجهه من شدة الغضب ، وذلك إذا ثارت حرارة القلب فالتهب وجهه ، استعارة من جَحْمَةِ النار التي سلف ذكرها ، وقوله تعالى (يَصْلَوْنَهَا) معناه يقاسون حرها ، و (يوم الدين) هو يوم القيامة ، سمي بذلك لأنه اليوم الذي يجازى فيه كل إنسان بعمله ، والدين الجزاء على ماسبق قريباً . وقوله تعالى : (وما هم عنها بغائبين) معناه أنهم لا يفارقون هذه الدار ولا يغيبون عنها بل هم ملازمون لها لأنها مأواهم ومستقرهم بسبب كفرهم ، وهذا ظاهر كل الظهور ، لأن الفجار في هذه الآية هم الكفار ، وقد سبق في السورة الماضية وصفهم بقوله : « أولئك هم الكفرة الفجرة » فان أريد من الفجار ما يعم الكفار والعصاة ، وذلك بعيد ، كان معنى قوله تعالى « وما هم عنها بغائبين » أنهم ليسوا غائبين عن استحقاق دخولها والعذاب فيها ، وذلك أعم من أن يظلو فيها أبداً أو يخرجوا منها بعد التعذيب فيها على قدر الاستحقاق .

وقوله تعالى : (وما أدراك ما يوم الدين) يقال : هو خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ، والأحسن من ذلك أنه خطاب للإنسان الذي كان الخطاب معه قبل ذلك في قوله تعالى : « يأيتها الإنسان ما غرك بربك الكريم - الآيات » والمراد به التعجب من حاله وزجره عن التغاضي عن ذلك اليوم وإهمال شأنه والارتكان على عفوره وكرمه وصفحه ، وكأنه قيل له : إن أمرك أيها الإنسان لعجيب غاية العجب ، وإن حالتك لحالة خليفة بأن يَضْحَكَ منها ؛ فأنت لاه عن يوم الجزاء ، غير مبالي به ، وكنت خليفاً بأن تتعرف حقيقته وتبين حقيقة ما يكون فيه ؛ لتأخذ لنفسك الحيلة وتدبر شأنها ، والتكرير في قوله سبحانه :

ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ [١٨] يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا

(ثم ما أدراك ما يوم الدين) لتعظيم شأن هذا اليوم ، وتأكيده أن الإنسان ما عرف كنهه على الوجه الذي ينبغي أن يعرفه عليه ؛ لأنه لو عرفه على ذلك الوجه للانتقائه وسلس قياده ورجع إلى ربه تائباً وعارده مستغفراً طالبا الصفح عما قدمته يده ، ثم عكف على الطاعات وداوم على إرضاء بارئ السمات مُبدع الأرض والسموات . وقوله تعالى : (يوم ^(١) لا تملك نفس لنفس شيئا) بيان لحقيقة ذلك اليوم ببيان حال الناس فيه ، وأنهم يومئذ مشغولون بأنفسهم ؛ فليس هناك خلة ولا صداقة ، ولا يسأل حميم حميا ، وذلك كقوله تعالى : « واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا » وكقوله سبحانه في سورة الصاخة : « يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ؛ لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه » فهو اليوم الذي لا محابة فيه ولا مواساة ، ولا تنفع فيه خلة ولا صداقة ولا قرابة ولا مودة لا يجد المرء فيه ما يعول عليه أو يركن إليه إلا عمله الذي قدمته يده ؛ فأما من عمل الصالحات وآمن برب البرية وصدق رسوله إلى الناس كافة فهو في جنات النعيم ؛

(١) قرئ في قوله تعالى : « يوم لا تملك نفس لنفس شيئا » برفع « يوم » وهو ظاهر فيعرب بدلا من « يوم » في قوله « ما يوم الدين » أو خبر مبتدأ محذوف ، وتقدير الكلام : هو يوم لا تملك نفس لنفس شيئا . وقرئ بالنصب ، فاختلاف المفسرون فيه : فقال قوم : هي حركة إعراب وانصابه على الظرفية لأجل محذوف ، وتقدير الكلام : يدانون يوم لا تملك ، أو اذكروا يوم لا تملك ، وقال قوم : هي فتحة البناء ، وهو مبنى على الفتح في محل رفع إما على البدل أو على أنه خبر مبتدأ محذوف كوجهي قراءة الرفع . والظرف إذا أضيف إلى الفعل المعرب قد يبنى ، وإن لم يكن البناء هو الأكثر في اللسان العربي في مثل هذه الحالة . فافهم ذلك .

وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ [١٩]

وأما من عمل السيئات وجحد خالقه وعاند رسوله فهو في نار جهنم خالدا فيها ؛
 يحفوه ألياًؤه ، ويتبرأ منه سادته وكبرأؤه ، ويخذه شفعاؤه ، ولا يدنو منه
 أقرباؤه . وأما قوله تعالى : (والأمر يومئذ لله) فهو تقرير وتأكيده لما فهم من
 الجملة السابقة ، والمعنى أن الأمر في ذلك اليوم لله القاهر فوق عباده وحده
 لا وزير له ولا مشير عليه ، وليس هناك أحد يحمي أحدا ، ولا يغني أحد عن أحد
 شيئا ، وإست هناك نصرة لأحد كما تكون في الدنيا ، وقد حذر الله تعالى وأوعد ،
 كما أنه سبحانه قد مَنَّى ووعد ، بما أنزله على لسان رسله من الآيات والحكمة ،
 وهو الصادق في وعده العدل الحكيم في وعيده ؛ فليس لأحد من حُجَّة يحتاج
 بها هناك ، ولا تعللة يتعلل بها ؛ كما أنه لا مهرب لعامل من الجزاء الذي أعد له
 على عمله ، استأثر الله تعالى بالأمر كله ، ويبيده وحده تصريف الأمور ، هو مالك
 يوم الدين المهيمن على عباده أجمعين ، ربنا آتينا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة
 وقننا عذاب النار ، ربنا وعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم
 الكافرين ، ربنا وآتينا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف
 الميعاد . والله سبحانه وتعالى أعلى وأعلم .

سورة الْمُطَفِّينَ *

[وهي مَكِّيَّة في قول كثيرين ، وعندهم أنها آخر سورة نزلت بمكة ، وآياتها ست وثلاثون آية ، وقد نزلت بعد العنكبوت ^(١)]

* وقد يقال لها « سورة التطفييف »

لاخلاف في عدد آي هذه السورة ؛ فكل العلماء على أن عدد آياتها ست وثلاثون آية ، وقد اختلفوا في مكان نزولها : والمروى عن ابن مسعود والضحاك أنها مكية ، والمروى عن الحسن وعكرمة أنها مدنية ، واختلفت الرواية عن ابن عباس : فروى عنه أنها آخر منازل بمكة ، وروى عنه أنها أول منازل بالمدينة ، وروى عنه أنها مكية إلا ثمان آيات من آخرها . ويقال : إنها مدنية إلا ست آيات من أولها . ومن الناس من قال : إنها نزلت بين مكة والمدينة .

التَّطْفِيفُ : تقليل نصيب المكيل له وعدم إيفائه حقه . وأصله مأخوذ من الطَّفِيف ، وهو الشيء النَّزْرُ القليل الذي لا يعتد به ، وذلك لأن الذي يكيل ويمسك السكيل ولا يوفيه إنما يطلب الغنى بالطفييف البخس .

كان التجار يطففون المسكيل ويبخسونه ولا يؤفون حق المشتري ، كما كانت لهم يئومات تشبه القمار ؛ ويروى أنه كان بالمدينة رجل يقال له أبوجهينة ، وكان لهذا الرجل كيلان أحدهما صغير والآخر كبير ، وكان يشتري من أصحاب الزروع والحبوب والثمار ، ويبيع للناس في المدينة ؛ فكان إذا أراد أن يشتري اكتال لنفسه بالسكيل الكبير ، وإذا باع كال للمشتري بالسكيل الصغير ،

هذا الرجل وأمثاله ممن امتلأت نفوسهم بالطمع واستولى عليهم الشره

والجشع وحُبُّ النفس ، فراحوا يستغلُّون حاجة الناس ويتميزون فيهم الفِرَصَ
وَيَتَحَيَّنُونَ الأوقات التي يستطيعون فيها أن يأخذوا أموالهم بغير حق ولا وجه
مشروع ، أولئك هم المقصودون بهذا الوعيد الشديد والتبكيث اللاذع والتقريع
المؤلم ؛ وأولئك هم الذين أمر الله تعالى رسوله الأمين أن يذكركم بما عند الله من
العذاب العظيم إن استلأنوا ما هم عليه واستمروا في طريقهم غير مبالين ولا خائفين ،
وأولئك هم الذين توعدَّهم النبي صلى الله عليه وسلم وتهدهم بقوله : « خمسٌ
بِخمسٍ : ما نَقَضَ قوم العهدَ إلا سَلَطَ اللهُ عليهم عدوَّهم ، وما حكموا بغير ما أنزل
الله إلا فشا فيهم الفقر ، وما ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت ، ولا طففوا
السكريلَ إلا مَنَعُوا النباتَ ، ولا مَنَعُوا الزكاةَ إلا حُبِسَ عنهم المطرُ »

وقد بين الله تعالى عمل المطففين الذي استحقوا عليه هذا الوعيد بقوله :
« الذين إذا كُتِلُوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون »
يعنى أنهم إذا كان لهم عند الناس حق في شيء من المكيلات فأرادوا أخذه
منه لم يقبلوا أن يأخذوه إلا وافيًا كاملاً غير منقوص منه شيء ، وإذا كان لأحد
من الناس عندهم شيء فطالبهم بأدائه ثم أرادوا أن يؤدوه له أعطوه حقه ناقصاً
غير وافيٍ

وقوله تعالى : « كالوهم » أصله كالوا لهم ؛ فحذف حرف الجر وأوصل الفعل
إلى المفعول بنفسه ، وهذا هو المسمى بالحذف والايصال ، وله أمثلة كثيرة في شعر
العرب ، من ذلك قول الشاعر :

وَلَقَدْ جَنَيْتُكَ أَكْمَوْا وَعَسَاقِلًا وَلَقَدْ نَهَيْتُكَ عَنْ بَمَاتِ الْأَوْبَرِ

يريد : ولقد جنيت لك ، فحذف اللام ثم أوصل الفعل إلى الضمير بنفسه . وقد
يكون على تضمين كال معنى أعطى ؛ فإن الفعل قد يُضْمَنُ معنى فعل آخر ليتعدى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ [١] الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ [٣]
وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ [٣]

ولا تتوهمَنَّ أن التطفيف لا يكون إلا في الكيل أو الميزان ، وأن الوعيد المستحقَّ عليه لا يكون إلا لمن بنَّسَ الكيل والميزان ؛ فان هذا جار في كل شيء يتحقق فيه هذا المعنى ؛ فالرجلُ الذي إذا استأجر عاملاً ليعمل له وقف أمامه يراقبه ويطالبه بتجويد عمله وأن يقضى وقته كله مشغلاً به ، ثم إذا كان هو أجيـراً لم يراقب ربه في العمل ولم يَقم به على الوجه الذي تشارط عليه والذي ينبغي أن يقوم به . مثل هذا الرجل واقع تحت طائلة هذا الوعيد ، مستوجب لأليم عذاب الله تعالى ، غير خارج من توبيخ الله ورسوله ، مهما يكن عمله : عظيماً كان أو حقيراً جليلاً أو دقيقاً ؛

(ويل) الوَيْلُ في الأصل العذابُ الأليم ، ويقال : هو الحزن ، ويقال : هو الهلاك ، ويقال : هو الشر الشديد . وقيل : سُمِّيَ به وادٍ في جهنم (المطففين) هم الذين يَبَخْسُونَ في الكيل أو الوزن ، وقوله تعالى : (الذين إذا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ، وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ) صفة كاشفة لحال الذين نزلت فيهم هذه الآية ، وبيان لما كانوا يصنعونه ، والمعنى أنهم إذا أخذوا من أحد شيئاً بشراء أو نحوه فإن كان مكيلاً أخذوه وافياً وافراً وإذا أخذ منهم أحد شيئاً فكالوا له أو وزنوا ينقصونه حقه ، ولا يؤدونه كاملاً ، وكلمة «على» في قوله تعالى : «إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ» بمعنى مِنْ ، يعني إذا اكْتَالُوا مِنْهُمْ ، ووُضِعَتْ على مكان من إما لتضمين «اكتالوا» معنى استولوا ، وإما للإشارة بها إلى أن هذا الاكتيال

أَلَا يَظُنُّ أَوْلَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ [٤]

مُضِرٌ مُّجْهِفٌ بالناس واقع شرُّه عليهم ، فان قلت : إذا كان معنى الصفة الأولى أنهم إذا أخذوا حقوقهم من الناس أخذوه وافيًا وافرًا فما معنى ذمهم على ذلك ؟ وهل يُطلب من الإنسان أن يأخذ حقه من غيره ناقصًا ؟ وأن يتساهل في حقوق نفسه حتى لا يكون مَكُومًا أو مُعَذِّبًا ؟ قلنا : إن اللوم والوعيد إنما جرى على هؤلاء الناس لا باعتبار كل صفة على أفرادها سببًا ، بل باعتبار مجموع الصفتين معًا ، ولا شك أن من تمام شناعة الصفة الثانية ذكر الصفة الأولى ؛ لبيان أنهم ما كانوا يخسرون الكيل والميزان لأن ذلك من دأبهم وديدهم في كل ما يكيلون أو يزنون ، وإنما كان ذلك منهم إذا همُّوا باعطاء الناس حقوقهم ، فأما إذا أرادوا أن يأخذوا حق أنفسهم فحينذاك يعرفون وفاء الكيل والميزان ، وقد يقال في جواب ذلك إن هؤلاء ما كانوا يكتفون بإفناء أنفسهم حقها ، بل كانوا يحاولون بأنواع الخُدَع أن يزدوا فيه بكَبْسِ المكيل ودعدة المكيال ونحو ذلك ؛ وعلى هذا يكون الذم والوعيد على كل صفة من الصفتين باستقلالها . ولعل الاختصار على الاكتيال في الصورة الأولى وذكر الكيل والوزن جميعا في الصورة الثانية للإشارة إلى أنهم كانوا لا يأخذون حقوقهم إلا بالكيل سواء في ذلك أكانت مما يكال أم يوزن لأنهم يتمكنون بالكيل تمام التمكن من الزيادة ، وأنهم حين يؤدون إلى الناس كانوا يؤدون بالكيل تارة ، وبالوزن تارة أخرى ؛ لتمكنهم من النقص في النوعين جميعاً . وقوله تعالى : (أَلَا يَظُنُّ أَوْلَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ) معناه أن من يعمل هذا العمل الشديد الشناعة لا يمكن أن يكون مُعْتَقِدًا أن للناس مَرَجًا يرجعون فيه إلى ربهم العالم بخبيئات الأمور المطلع على ماتكبه الصدور المحصى على خلقه جميع ما يعملون ، لأن من اعتقد هذه العقيدة منعه من ارتكاب هذا وما

هو أدنى منه ضررا ؛ فهذا الكلام استئناف ورد لتحويل ما كانوا يرتكبون من
تطفيف السكيل والوزن ، والهمزة للإِنكار ، وتدل مع ذلك على التعجيب من
حالهم ، و« لا » التي بعدها نافية وليست « ألا » كلمة واحدة مثلها في قوله تعالى :
« ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » وقوله تعالى : « ألا إنهم هم
السفهاء » فان « ألا » في الآيتين السكريتين كلمة واحدة ، وهى حرف يُسْتَفْتَحُ
به الكلام ، و« يظُنُّ » فى الآية التى نحن بصددِها ، قد تكون بمعنى يعتقد ،
وقد تكون بمعنى يُدْرِكُ كونِ الراجح من الطرفين ، وهذا أبلغ ^(١) ؛ فإن المعنى عليه
إن هؤلاء الناس لو كانوا يظنون أن الله تعالى باع الخلقَ ومجازيهم لما أقدموا
على عملهم هذا ، فإذا اعتقدوا أن الله يبعث الخلقَ ويحاسبهم كان تركهم لهذا
الفعل أولى . وقوله تعالى « أولئك » إشارة إلى المطففين ، وكان مقتضى الظاهر
أن يقول : ألا يظنون أنهم مبعوثون ، فيعبر بالضمير ، ولكنه وضع اسم الإشارة
موضع الضمير للاشعار بأنهم مقصودون مع وصفهم الذى وُصِفُوا به فيما سبق من الكلام
والذى يؤدي هذا المقصد إنما هو اسم الإشارة لا الضمير ، وأيضا ليؤذن الاتيان باسم
الإشارة بأنهم ممتازون بهذا الوصف القبيح عن الناس جميعا ، وأنهم متفردون به
أكمل تفرد مشهورون به ظاهرون للناس حتى ليشار إليهم إشارة حسية ، ثم للدلالة
على أنهم بعيدون عن رحمة الله ورضوانه بما فى اسم الإشارة من دلائل البعد ،
وقوله تعالى : « ليوم عظيم » إنما وصف هذا اليوم بالعظم لعظم ما فيه من العرض على
الله ، وحساب الخلائق على ما كان منهم ، والفصل بينهم ، وإنزال كل واحد
منهم منزلته التى تليق بعمله . ومن الناس من قال : الكلام على حذف مضاف ،

(١) عن الزمخشري أنه سبحانه هؤلاء جعل أسوأ حالا من الكفار ، لأنه
نفى عن هؤلاء الظن بالبعث ، مع أنه أثبت الظن للكفار فى قوله سبحانه عن لسان
الكفار : « إن نظن إلا ظنا »

يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ [٦]

وتقدير الكلام : ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون لحساب يوم عظيم .
وقوله تعالى : (يوم ^(١) يقومُ الناسُ لرب العالمين) معناه هذا اليومُ العظيمُ هو اليومُ الذي يقف الناس فيه للعرض على خالقهم ، ويطول بهم الموقف إجلالا لعظمة ربهم ، وإكبارا لجلاله ، وإعظاما لمقامه جلّت عظمته ؛ ليحكم الله تعالى فيهم حكمه ، ويقضى فيهم قضاءه ، وفي هذا الكلام من البيان البليغ لعظم الذنب وتفاقم إثم التطفيف ما ليس يخفى على متدبر ، انظر إلى اعتباره سبحانه المطففين كمن لا يظن أنه يُبعث ويُعرض على بارئه ، ثم انظر إلى الاتيان باسم الإشارة الدال على بعد درجتهم في الشر وبلوغهم فيه المبلغ العظيم ، ثم انظر إلى وصف

(١) قرىء في قوله تعالى « يوم يقوم الناس لرب العالمين » برفع « يوم » وبجره ، وبنصبه ، فأما الرفع فقراءة منسوبة إلى زيد بن علي ، ومجازها على أنه خبر مبتدأ محذوف ، والتقدير هو (أى اليوم العظيم) يوم يقوم الناس . وأما قراءة الجر فهي قراءة حكاها أبو معاذ ، ووجهها أنه بدل من يوم في قوله سبحانه « ليوم عظيم » وأما قراءة النصب فهي قراءة الأكثرين ، وقد اختلف العلماء فيها : فمنهم من ذهب إلى أن هذه حركة إعراب ، وأنه منصوب بفعل محذوف ، وقدره بعضهم أعنى ، وقدره آخرون اذكروا ، ومنهم من ذكر أن هذه فتحة بناء ، ثم اختلف هؤلاء في محله : فذهب قوم منهم إلى أن محله رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف كوجه قراءة الرفع ، ومنهم من ذهب إلى أن محله جر على أنه بدل من اليوم المجرور السابق كما هو قراءة الجر ، وقد قدمنا لك مثل هذا الخلاف في القراءة وفي التخريج في سورة الانقطار (ص ٨٠) وبيننا لك أن الظرف قد يبنى إذا أضيف إلى فعل معرب ، وأن بناءه في مثل هذه الحالة ليس هو الوجه الكثير في العربية . فاعرف ذلك .

كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ [٧] وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ [٨]
كِتَابٌ مَرْقُومٌ [٩]

يوم القيامة بالعظم ، ثم انظر إلى وصفه تعالى نفسه برؤية العالمين ؛ فإذا نظرت إلى ذلك كله أدركت المراد وفهمت طرق الدلالة على أن هؤلاء قد ارتكبوا أعظم الأوزار وحملوا أثقل الآصار . وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنه أنه كان يمر بالبائع فيقول له : اتق الله تعالى وأوف الكيل فان المطففين يُوقَفُونَ يوم القيامة لعظمة الرحمن حتى إن العرق ليُلْجِمُهُمْ ؛ وعن عكرمة أنه كان يقول : أشهد أن كلَّ كيال ووزَّان في النار ؛ فقيل له : إن ابنك كيال ووزان ، فقال : أشهد أنه في النار . وإنما أراد المبالغة لعله بأن أكثرهم من المطففين . وقوله تعالى : (كلا) ردع عما كانوا عليه من التطفيف والغفلة عن البعث والحساب . وقوله سبحانه (إن كتاب الفجار لفي سجين) هو تعليل لردعهم أو تعليل لوجوب الارتداد عليهم ، فكانه قال : إنه لا يقيم على ما أنتم عليه من التطفيف إلا من ينكر ما أوعده الله به من البعث والعرض عليه وعذاب الكفار والعصاة ، أو مَنْ عنده مُتَمَسِّك يتمسك به ليدفع عن نفسه العقاب ، فكفوا عما أنتم عليه ، وارجعوا إلى الله القادر على كل شيء لأن الفجار يُحَاسِبُونَ على أعمالهم ، وقد أعد الله تعالى لهم كتاباً أحصى فيه جميع أعمالهم فلم يترك منها صغيراً ولا كبيراً إلا سَجَّلَهُ عليهم ليحاسبهم به ، والفجار : جمع فاجر ، وهو الخارج عن حدود الشريعة ، وقد اختلف في المراد به ههنا ؛ فقيل : المراد به الكفار خاصة ، وقيل : المراد به ما يعم الكفار والعصاة ؛ وسجِّين - بكسر السين وتشديد الجيم - المختار أنه عَلِمَ على الديوان الجامع الذي دُوِّنَ فيه أعمال الفجرة من الثقلين وقوله سبحانه (وما أدراك ما سجين) كتابٌ مرقوم (يدل على ما ذكرنا ، وهو أن سجِّينا اسمٌ للكتاب الذي دُوِّنَتْ فيه أعمال هؤلاء وأمثالهم ، وارتقاع

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ [١٠] الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ يَوْمَ الدِّينِ [١١]
وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ [١٢] إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ
أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ [١٣]

« كتاب » إما على أنه بدل من « سجين » وإما على أنه خبر مبتدأ محذوف .
و « مَرْقُومٌ » اسم مفعول مأخوذ من « رقم الكتاب » إذا جعل له علامة ، والعلامة
تسمى رَقْمًا ، والمعنى أنه كتاب قد جُعِلَتْ له علامة يعلم بها كُلُّ من رآه أنه لا
خير فيه . وعن ابن عباس والضحاك أن معنى « مرقوم » مختوم ، وأن هذه لغة
حمير ، ويستعمل « مرقوم » في معنى مكتوب . وقوله تعالى : (ويل يومئذ للمكذبين)
المراد بالمكذبين الذين لهم الويل المكذبون بذلك اليوم العظيم كما بيّنه قوله
سبحانه (الذين يكذبون بيوم الدين) والدين كما مضى ذكره الجزء ، ثم إنه
سبحانه أخبر عن صفة من يكذب بيوم الدين فقال : (وما يكذب به إلا كل
مُعْتَدٍ أَثِيمٍ إذا تُتْلَى عليه آياتنا قال أساطير الأولين) ومعناه أنه لا يكذب بيوم
القيامة إلا من كان موصوفا بهذه الصفات الثلاثة : فأولى هذه الصفات كونه
معتديا ، ومعنى ذلك أنه متجاوز منهج الحق . وثانية هذه الصفات أنه أثيم ،
والأثيم : هو الذي يكثر من ارتكاب الآثام ، وهى المعاصي ، والصفة الثالثة
من صفات المكذب بيوم الدين هى التى ذكرها سبحانه فى قوله « إذا تُتْلَى
عليه آياتنا قال أساطير الأولين » ومعناه إذا قرئ عليه القرآن قدح فى كونه
مُنْزَلًا من عند الله إلى رسوله صلى الله عليه وسلم ، وزعم أنه أخبار الأولين أخذها النبي
عن بعض الناس ، كما ذكر ذلك فى قوله جل شأنه : « وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك
افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ، فقد جاءوا ظلما وزورا ، وقالوا أساطير الأولين
اكتتبها فىهى تُمَلِّى عليه بُكْرَةً وَأَصِيلًا ، قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات

كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ [١٤]

والأرض إنه كان غفوراً رحيماً . وقال قوم : معنى قولهم « أساطير الأولين » أنها أباطيل أُلقيت على آبائهم الأولين فكذبوها ولم تجز عليهم ، فلسنا أول من يكذب بها حتى تزعموا أن تكذيبنا بها يُعتبر عَجَلَةً وخروجاً عن طريق الحزم والأخذ بالأحوط ؛ لأننا إنما تأسَّينا في تكذيبها بآبائنا الذين سبقونا بذلك والمعنى الأول أولى بالاعتداد به . وقوله تعالى (كَلَّا) رَدْعٌ لكل معتدٍ ثم عما يقوله من الزور والبهتان ، وقوله سبحانه (بل رَانَ على قلوبهم ما كانوا يكسبون) بيانٌ للسبب الذي أدَّى بهم إلى هذا القول وإنكار أن القرآن كلام الله أوحى به إلى رسوله الأمين ، فكأنه يقول : ليس الأمر كما يقولون من أن هذا الكلام أساطير الأولين ؛ بل إنما جرَّهم إلى هذا القول وجرَّأهم عليه أفعالهم التي درَّبوا عليها واعتادوها فصارت سبباً لحصول الرِّين على قلوبهم فالتبست عليهم الأمور ، وعُميت عليهم وجوه الرأي ؛ فهم لا يميزون بين الأسطورة والحجة الدامغة ، ولا يفرقون بين الكذب والصدق الواضح ، ولا يدركون وجوه الاختلاف بين الحق الذي لا شبهة فيه والباطل الذي لا ثبوت له . . والرِّينُ : الغلبةُ ، تقول : رَانَ على قلبه ، إذا غلب عليه ، وتقول : رَانَتْ الحُرَّ على عقل السكران ، وتقول : رَانَ الموتُ على فلان فذهب به ، وقد ورد في القرآن العزيز الرِّينُ ، والطَّبَعُ ، والإِقْفَالُ ، وعُديت كلها إلى القُلُوبِ ، فأما الرِّينُ ففي هذه الآية ؛ وأما الطَّبَعُ ففي آيات كثيرة منها في سورة النساء قوله تعالى : « فيما تقضهم مثاقفهم وكُفِّرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غُلْفٌ ، بل طبع الله عليها بكفرهم ، فلا يؤمنون إلا قليلاً » وقوله تعالى في سورة النحل : « أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون » وقوله

تعالى في سورة محمد : « ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا ؟ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم » وقوله جل ذكره في سورة الأعراف : « أولم يَهْدِ للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون » وأما الإقفال ففى قوله تعالى في سورة محمد : « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » قال أبو معاذ النحوى : الرِّين أن يَسْوَدَّ القلب من الذنوب ، والطَّيْع أن يطبع على القلب ، وهو أشد من الرين ، والإقفال أشد من الطبع وهو أن يُقْفَلَ على القاب . وقال الزجاج : ران علم قلوبهم بمعنى غُطِّي على قلوبهم ، يقال : ران الذنب على قلبه . رَيْنٌ رَيْنًا ، إذا غشيته ، والرین كالصدأ يَغْشِي القلب ، ومثله الغَيْنُ . وقد رُوي أن العبد كلما أذنب ذنبا حصلت في قلبه نكته سوداء حتى يسودَّ القلب كله ، وإيضاح ذلك أن الانسان إذا واطب على عمل من الأعمال وجعله دِيْدَنَه فإنه يصبح بعد ذلك عادة له قلما يستطيع التخلص منها ، ثم تتمكن منه هذه العادة حتى تصير خُلُقًا وطَبْعًا ؛ فإذا استمر امرؤ على إتيان نوع من الذنوب حصلت عنده ملكة نفسية تحمله على الاتيان بذلك الاثم من غير تدبُّر ولا رويَّة . ولا شك أن كل ما يشغل العبد عن ربه فهو ذنب ، وكل ذنب ظُلْمَةٌ ، فالذنوب كلها ظُلماتٌ وَسَوَادٌ ؛ ولا شك أن لكل مَرَّةٍ من المرات التي قارَفَ العبدُ فيها الذنبَ قبل أن يُصْبِحَ ذلك ملكةً عنده مَدْخَلًا في تكوين هذه الملكة ، فهذا معنى أنه كلما أذنب ذنبا حصلت في قلبه نكته سوداء ؛ ثم ليس هناك من رَيْنٍ في أن بعض الطبائع أو ما يصير طبائع يمكن ببعض العلاج النفسى تغييره ، وبعضها يكون محتاجا إلى علاج أقوى وزمن أطول ، وبعضها يكون مُسْتَعَصِيًا ؛ فملكه الذنب التي تزول ببعض العلاج النفسى هي التي تسمى رَيْنًا ، وملكة الذنب التي تحتاج إلى طول مِرَاسٍ وشدة معالجة ودوام رياضة هي التي تسمى طَبْعًا ،

كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ [١٥] ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا
الْجَحِيمِ [١٦] ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ [١٧]

وملكة الذنب التي يستعصى علاجها ويشق استئصالها ويصعب تغييرها هي التي تسمى قَفْلاً ، فتدبر ذلك وافهمه ، ثم انظر إلى قول القاضى : ليس المراد من الرين أن قلبهم قد تغير وحصل فيه منع ، بل المراد أنهم صاروا لإيقاع الذنب حالا بعد حال متجرئين عليه ، وقويت دواعيهم إلى ترك التوبة وترك الإقلاع ، فاستمروا وصعب الأمر عليهم ، ولذلك يَبَيِّنُ سبحانه وتعالى أن علة الرين كسبهم .

ثم إنه سبحانه وتعالى بعد أن بين منزلة الفجار والمكذبين بيوم القيامة ، وبعد أن شرح سبحانه صفات هؤلاء المكذبين ، وأوضح العلة التي حَجَبَتْهُمْ عن فهم ما جاءت به آيات الكتاب المبين ، وأنها تلك الملكات السيئة والعادات القبيحة المرذولة التي اكتسبوها بسبب أعمالهم الخبيثة حتى ضريت أنفسهم على القبيح واعتادت فعله ؛ أخذ جَلَّ ذكره في دَحْضِ فِرْيَةٍ أُخْرَى من مُفْتَرَيَاتِهِمْ كانوا يقولونها ويكثرون من ترادها ، وحاصلها أنهم سيكونون يوم البعث ، إن كان ما يحدثُ به النبي صحيحا ، في المنزلة العليا والدرجة الرفيعة ، وقد حكى الله تعالى هذه الفرية في سورة فَصَّلَتْ فقال : « لا يسأم الانسان من دعاء الخير ، وإن مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَوْسُقَنْ قَنُوط ، ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي ، وما أظن الساعة قائمة ، ولئن رُجِعت إلى ربِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى ، فلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمَلُوا ، وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ » ؛ وقد بَيَّنَّ الله جلَّت قدرته في الآية التي نحن بصددنا منزلة هؤلاء الكفار عنده يوم القيامة فقال : (كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ، ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ، ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ) فقلوه

كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ [١٨] وَمَا أَذْرَاكَ مَاعِلِيَّيُونَ [١٩]
كِتَابٌ مَرْقُومٌ [٢٠] يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ [٢١]

سبحانه « كلاً » معناه ارتدعوا عما تقولون من أنكم يوم القيامة تكونون من المقربين إلى الله تعالى . ومعنى قوله « إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون » أنهم يومئذ لا يجدون رَحْمَتَهُ ولا ينالون رضاه ولا يُدْرَكُونَ ما زعموا لأنفسهم من القربى والدرجة العالية الرفيعة ، وهذا هو المراد بقوله جل ذكره : « ولا يكلمهم الله ، ولا ينظر إليهم ، ولا يزكّيهم » ومعنى قوله تعالى « ثم إنهم لصالوا الجحيم » أنهم لما صاروا محجوبين في عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ عن الدنو من الله وإدراك أمانهم التي كانوا يتمتعونها فعند ذلك يؤمر بهم إلى النار فيدخلونها وَيَصْلَوْنَ سَعِيرَهَا وَيَجِدُونَ حَرَّهَا وَلَهيبها ، ثم إذا أُدْخِلُوا النار أقيت عليهم ملائكة العذاب يوبخونهم بتكذيبهم بالبعث والجزاء ، ويقولون لهم ما حكاه سبحانه بقوله « هذا الذي كنتم به تكذبون » أى هذا العذاب والجزاء الحق الذي كنتم إذا سمعتم خبره من الرسول الصادق كذبتموه وزعمتم أنكم لن تبعثوا ، وأنكم إذا بُعِثْتُمْ كنتم فى أرفع الدرجات وأعلى المنازل ، وقد رأيتم الآن حقيقة الأمر وعأيذتكم بأنفسكم أن ما كان يقوله النبي هو الحق ؛ فذوقوا العذاب الذي كذبتكم خبره

ثم إنه سبحانه لما ذكر حال الفجار والمطففين ، وبين منزلتهم عند الله يوم القيامة أتبعه بذكر حال الأبرار الذين آمنوا بربههم ورسوله وصدقوا بما جاء عن خالقهم وعملوا الخير فى الحياة الدنيا ؛ فقال سبحانه : (كلاً إن كتاب الأبرار لفي عِلِّيِّينَ ، وما أدراك ما عِلِّيُّونَ ، كتاب مرقوم يشهده المقربون) وقد اختلف العلماء فى المراد بعِلِّيِّينَ كما اختلفوا فى المراد بسجّين فى بيان حال الفجار ، والذي نريد أن ننبهك إليه وأن تَنفَعَكَ عليه هو أن العلو والفسحة والضياء والطهارة يراد بها فى لسان

إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ [٢٢] عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ [٢٣] تَعْرِفُ
فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ [٢٤]

العرب السعادة وحسن الحال ، وأن السفلى والضيق والظلمة ونحو أولئك مما يراد به عند العرب الشقاوة وسوء الحال ؛ فعلى هذا المقصود من وضع كتاب الفجار في أسفل السافلين وفي سجين وفي أضيق المواضع إذلال الفجار وتحقير شأنهم ؛ فكتاب أعمال الفجار مودع في أسفل السافلين ، والمراد من وضعه في هذا المكان إذلال أصحابه وامتيازهم وبيان حقارة شأنهم وأنهم لا يستحقون أن يؤبه لهم أو يُعنى بأمرهم ، وكتاب الأبرار مودع في أعلى الأمكنة وهو بحيث يشهده المقربون من الملائكة ، والمراد من جعله في هذا المكان إجلالهم وتعظيم شأنهم وبيان أنهم بالمنزلة التي يُعنى بأمر أصحابها . واعلم أن سجيناً وعلين مكانان عند الله أولهما في نهاية السفلى وضعة المنزلة وثانيهما في غاية العلو ورفعة المنزلة ، كما يشهد بذلك كتاب الله تعالى ، وليس لك أن تبحث فيما وراء ذلك مما ستره الله عنك وعلم أن الخير لك في ألا تدرك كنهه على وجهه الذي هو عليه ، ولو علم أن في ذكر تفاصيل أحواله خيراً لك لبيّنه ، فأمن به على الوجه الذي حدّه الكتاب الكريم ولا تحاول الوصول إلى ما فوق هـذا القدر فنزل قدمك ويدحض عملك .

ثم إنه سبحانه وتعالى بعد أن بين منزلة كتاب الأبرار وعظم من شأنه ، وذلك يدلُّ — كما ذكرنا — على رفعة منزلة هؤلاء الأبرار وعلو درجتهم ؛ أخذ في تفصيل حالهم الذي أشعر به ذكر منزلة كتابهم ، فقال : (إن الأبرار لفى نعيم ، على الأرائك ينظرون ، تعرف في وجوههم نضرة النعيم ،

يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ [٢٥] خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ
الْمُتَنَافِسُونَ [٢٦]

يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك ، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ، ومزاجه من
تسليم ، عينا يشرب بها المقربون) والنعيم : كل ما فيه لذة وخفص ودعة وراحة ،
وليس فيه ألم ولا عناء ، وضده البؤس . والأرائك : جمع أريكة ، وهى السرير
فى الحجلة ، والحجلة شبه القبة ، ولا يسمى السرير أريكة إلا إذا كان كذلك .
وقال الحسن : كنا لاندري ما الأريكة حتى لقينا رجلاً من أهل اليمن أخبرنا
أن الأريكة عندهم ذلك ، ومعنى قوله تعالى « ينظرون » أنهم ينظرون إلى
ربهم ، على حسب مقال سبحانه : « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة » .
وأما قوله سبحانه « تعرف فى وجوههم نضرة النعيم » فمعناه أنك إذا نظرت
إليهم أدركت أنهم أهل نعمة بسبب ما ترى فى وجوههم من القرائن الدالة على
ذلك ؛ فضحك وجوههم واستبشارهم يدلان الناظر إليهم على ذلك ، وقد قال
سبحانه : « وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة » والرحيق فى قوله تعالى :
« يسقون من رحيق مختوم » هو الخمر الذى لاغش فيه ولا يصيب شاربه خمار
ولا يناله منه أذى ، وهو الذى وصفه الله تعالى بقوله : « لافيه غول ولا هم عنها
ينزفون » وقد وصف الله سبحانه هذا الرحيق بثلاثة أوصاف : الوصف الأول
قوله سبحانه « مختوم » ومعناه أنه قد ختم عليه تكريماله وصوناله من الابتذال ،
على ما جرت به العادة من ختم الانسان وإغلاقه على ما يكرم ويصان . وهذا
لا ينافى ما قد ذكره الله تعالى بقوله « وأنهار من خمر لذة للشاربين » لأنه لا مانع
من أن يكون هناك نوعان من الخمر : أحدهما مختوم عليه ، والآخر يجرى فى
الأنهار لاختم عليه ، ويكون الثانى مع كونه لذة للشاربين أقل من الأول .

وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ [٢٧] عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ [٢٨]

والوصف الثاني من أوصاف الرحيق ما ذكره سبحانه بقوله « ختامه مسك » ومعناه أن الذي يختم به رأس قارورة هذا الرحيق هو المسك ، عوضا عن الطين الذي يختم به رؤوس القوارير في الدنيا ، ويقال : معناه أن عاقبة شر به أن تظهر من شاربه ريح المسك ، والمراد لذادة المقطع وذكاء الرائحة وأرجحها مع طيب الطعم ، وهذا في مقابل ما يكون من الريح السكرية والطعم المرالبشع وصعوبة المَسَاغ في الدنيا وقوله تعالى « وفي ذلك فليتنافس المتنافسون » المراد منه في ذلك النعيم فليغرب الراغبون بالمبادرة إلى طاعة ربهم وَالْجَزَى على مقتضى أمره ؛ وأما قوله سبحانه وتعالى : (ومزاجه من تسنيم) فالْمِزَاجُ : الشيء الذي يمزج بغيره ، ويقال له مِزْج أيضا ، والمِزْجُ خاط أحد الشيئين بالآخر ، وأصل التَّسْنِيم مصدر قولك : تَسَنَّمْتُ الشيء ، إذا رَفَعْتَهُ ، وهذه المادة تدل على العلو والارتفاع ؛ فمن ذلك تَسَنَّمَ البعير ، لأعلى شيء فيه ، ومن ذلك قولك : تَسَنَّمْتُ الحائط ؛ إذا علَوْتَهُ ، وقد ذكر المفسرون أن في الجنة عَيْنًا يقال لها تسنيم ، وأنها سميت بذلك لأن ماءها أرفع شراب في الجنة ، أو لأنها تأتيهم من فوق ، أو لأنها تعلو على كل شيء تمر به لكثرة ماؤها وسرعته ، ويدل لما ذكره قوله تعالى : (عينا يشرب بها المقربون) فإن « عينا » منصوب بفعل مقدر ، وأصل الكلام عنيت عينا يشرب بها المقربون ، وقد اعتاد أهل الدنيا إذا شربوا الخمر أن يمزجوها بالماء ونحوه ، فذكر لهم الله تعالى أنهم في الآخرة يشربون رحيقاً موصوفاً بما ذكره من الصفات ، ثم بين لهم أنهم يمزجون هذه الخمر بما تجميعهم به العينُ العاليةُ القدرُ إذا ما شاءوا أن يمزجوه ؛ فهذا كلام يجري مجرى ما تعارفه أهل الدنيا ، وإن تكن الأشياء في

إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ [٢٩]
وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ [٣٠] وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ

الآخرة أرقى وأكمل وأفضل ، وليس يدانيها شيء مما في هذه الحياة الدنيا ، ولا تشاكل بين ما هنا وما هناك إلا في التسمية ؛ فأما الخصائص والأعراض والصفات فالفرق بينهما بعيد ، والبون شاسع ؛ واعلم أن الله سبحانه وتعالى قد وصف النعيم الذي أعدّه للأبرار في دار كرامته بما تتطلع إليه النفوس وتتوَّثَّب إلى الحصول عليه ونعمته بالنعوت التي تدفع سامعها إلى التشوُّف إليه والرغبة فيه ؛ ليكون ذلك الوصف حصّاً للذين يعملون الصالحات على الاستزادة من أعمالهم والاستدامة عليها ، ويكون مع ذلك حثّاً لهم المُقَصِّرِينَ ، واستنهاضاً لعزائمهم ، وتنشيطاً لهم على أن يدأبوا ويواصلوا ويحرصوا على التزوّد من صالح الأعمال ليكون لهم مثلُ ما لهؤلاء الذين استحقوا هذه المنزلة ، وفي هذا من تحزين العصاة المُصِرِّين على عصيانهم والابلاغ في إيلاَم أنفسهم ما فيه ؛ فإن العدو يسوءه أن يرى عدوّه في نعمة أو يسمَعَ أن النعمة تنظره . وانظر إلى قوله سبحانه « وفي ذلك فليتنافس المتنافسون » وإيقاعه هذه العبارة اعتراضاً بين أوصاف الرّحيق تُدرك ما تحمله هذه الآيات من الترغيب فيما عدّه سبحانه من أنواع النعيم .

ثم إنه سبحانه وتعالى بعد أن ذكر النعيم الذي هيأه للذين آمنوا به وبرسوله وعملوا ما كلفهم به من أعمال البر ، ذكر ما أعدّ للفجار جزاءً على ما اجتروه من السيئات ؛ أخذ سبحانه يبين ما كان الكفار يقابلون به المؤمنين في هذه الحياة الدنيا ، وما سيقابل به المؤمنون الكفار يوم القيامة مُقَابِلَ ما صنعوه معهم ؛ فقال سبحانه في بيان ما كان يصنعه الكفار مع المؤمنين : (إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون ، وإذا مروا بهم يتغامزون ، وإذا انقلبوا إلى أهلهم

انقلبوا فَكَهِنَ [٣١] وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُونَ [٣٢]

انقلبوا فَكَهِنَ ، وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُونَ (والمراد من الذين أجزموا
أ كابر المشركين : كَأَبِي جَهْل ، والوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل السهمي ،
وشيبة بن ربيعة ، وعتبة بن ربيعة ، وأمّية بن خلف ، وأضرابهم ممن كانوا يؤذون
رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، ويستهزئون بهم ؛ ويجرضون عليهم سفهاءهم
وعلمائهم ، وقد روى أن علي بن أبي طالب رضى الله تعالى عنه جاء في نفر من
المسلمين فرآه بعض هؤلاء الكفار فسخروا منه ومن معه ، وضحكوا عليهم ،
وتغامزوا بهم ، ثم رجعوا إلى بقية شيعتهم من أهل الشرك فخذلهم عما صنعوا بعلی
وأصحابه ، ففهم نزلت هذه الآيات ، وأعلم أن الله تعالى قد حكى عن الكفار
أربعة أشياء من معاملاتهم القبيحة للمسلمين : الأول ما ذكره سبحانه بقوله « إن
الذين أجزموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون » والمراد به أنهم كانوا يسخرون منهم
ويستهزئون بهم وبدنيهم ، والثاني ما حكاه سبحانه بقوله « وإذا مرّوا بهم يتغامزون »
وَالْغَمْزُ معناه الإشارة بالجنف وبالحاجب بقصد الهزء والسخرية ، وقد يطلق الغمز على
الغيب فقد تقول : غمز فلان فلانا ، إذا عابه وذكّره بسوء ، ويقولون : فلان لا غمز
فيه ، يريدون أنه ليس عنده سبب يعاب به ، ويقولون أيضا : ليس في فلان غمزة ،
يريدون أنه ليس عنده ما يعاب به . والمراد أن الكفار كانوا يعيبون المسلمين
ويذكرونهم بالسوء ، ويشيرون إليهم استهزاء ؛ والأمر الثالث ما ذكره سبحانه
بقوله « وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين » والمعنى أنهم كانوا يرجعون إلى
أهلهم مُعْجَبِينَ بما هم عليه من الشرك والضلالة والعصيان والاثم ، ويقال : المراد
أنهم كانوا يتفكّهون بذكر المسلمين والنقص منهم وَنَيْلُ أَعْرَاضِهِمْ بالسوء ؛ والأمر
الرابع ما ذكره الله تعالى بقوله « وإذا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُونَ » والمراد أنهم

وَمَا أَرْسَلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ [٣٣] فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ
يَضْحَكُونَ [٣٤] عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ [٣٥]

يَرَوْنَ المسلمين على ضلالٍ بتركهم النعم بما يحضرهم من أسباب النعيم ابتغاء ثواب لا يُصدّقون به ، ولا يتيقنونه ، وذلك لغفلتهم وسوء تفكيرهم وفساد عقولهم ، ولأنهم لا يتدبرون في آيات الله تعالى التي نَصَبَهَا لتدل عليه وترشد إليه وتبين للغاوين مَهْجَ الحق وسبيل اليقين ؛ ثم أخذ سبحانه في الرد على هؤلاء الكفار فقال سبحانه : (وما أرسلوا عليهم حافظين) يعني أن الله تعالى لم يرسل هؤلاء الكفار رُقَبَاءَ على المؤمنين يَتَقَدَّوْنَهُمْ ويباشرون أعمالهم وَيَرَوْنَ ما يصنعون ، وأعطاهم سُلْطَةً محاسبتهم على أفعالهم وبيان صحيحها من باطلها ، فلا يسوغ لهم أن يعيبوا عليهم ما يعتقدونه ضلالاً بمحض عقولهم الفاسدة . وإنما كلفهم الله أن ينظروا في شؤون أنفسهم فيعدلوا منها ما عوج ، ويسيروا من أمرها ما تَأَوَّد ، فإذا أصلحوا أمر أنفسهم كانوا قد قاموا بما عليهم في هذه الحياة ، فأما أن يتركوا أنفسهم وهي أولى بالعلاج ثم يسيئوا التصرف في أمور غيرهم بعيب ما هو صلاحٌ ومنفعة وتبحيح ما هو المنتهى في الحسن وجمال العقاب ؛ فذلك ما لا ينبغي لهم أن يفعلوه . ثم أخذ سبحانه في بيان ما يكرن يوم القيامة من المؤمنين بالنسبة إلى الكفار مُقَابِل ما كانوا يصنعونه بهم في الدنيا ، وفي ذلك من تسلية المؤمنين على ما ينالهم من الإيذاء ، وتقوية قلوبهم ، وشدّ عزائمهم على التدرع بالصبر ؛ ما ليس يخفى ، فقال سبحانه : (فالיום الذين آمنوا من الكفار يضحكون على الأرائك ينظرون) والمعنى إن الكفار كانوا في الدنيا يضحكون من المؤمنين بسبب ما يرونه عليهم من آثار الفقر والبؤس ، ففي الآخرة يضحك المؤمنون من الكفار بسبب ما هم فيه من الضر والجهد والبلاء والعذاب الأليم ، وَيَرَى المؤمنون يومئذ أنهم قد باعوا الفاني من

سورة الانشقاق *

[وهي مكية ، وآياتها خمس وعشرون آية ، ونزلت بعد سورة

الانفطار] (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ [١] وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ [٢]

وقد يقال لها « سورة انشقت »

(١) قيل : لاختلاف في أن هذه السورة مكية ، كما أنه لاختلاف في عدد آياتها وأنها خمس وعشرون آية ، قال ذلك العلامة الشهاب ، لكن قال الألوسي : « وآياتها ثلاث وعشرون آية في البصري والشامي ، وخمس وعشرون في غيرها » اهـ (إذا السماء انشقت) معناه تَشَقَّقُ بالغمام ، كما روى عن ابن عباس ، وكما يشهد له قوله تعالى : « وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ » والتعبير ههنا بانشقت يدل على كمال انقيادها لقدرة الله تعالى وطواعيتها لما يريد منها ، حتى كأنها مستغنية عن الشَّقِّ ، وذكر الزجاج أنها تنشق من هَوَلٍ يوم القيامة وعظيم ما يقع فيه من الأحوال التي يَنْفَعِدُ معها الصبر ويقلَّ عندها الْقَرَارُ ، وقوله تعالى : (وأذنت لربها) معناه استمعت له وانتادت لتأثير قدرته حين أراد أن يحصل لها الانشقاق ، وفي هذه العبارة تقرير لمعنى الْمُطَاوَعَةِ الذي أرشدناك إليه في قوله سبحانه « انشقت »

ومجيء أَذِنَ بمعنى استمع كثير في العربية ؛ فمنه قول قعنب بن أم صاحب :
صُمُّ إِذَا سَمِعُوا خَيْرًا أَذْكَرْتُ بِهِ وَإِنْ ذُكِرْتُ بِشَرٍّ عِنْدَهُمْ أَذِنُوا
ومنه قوله أيضاً :

إِنْ يَأْذِنُوا رَيْبَةً طَارُوا بِهَا فَرَحًا وَمَاهُمْ أَذِنُوا مِنْ صَالِحٍ دَفَنُوا
والتعبير عن الانقياد والطوعية والمبادرة إلى الامتثال والخضوع لتأثيرات

وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ [٣]

قدرته تعالى وإرادته بأذن مجاز . وقوله تعالى : (وَحُقَّتْ) معناه أنها حقيقة بأن تنقاد لإرادة الله سبحانه ، جديرة بأن تخضع من غير ممانعة ولا إباء ، وذلك لأنها جسم ، وكل جسم فهو ممكن لذاته ، وكل شيء كان ممكناً لذاته فإن الوجود والعدم بالنسبة إليه سواء ، ولا يمكن ترجيح أحد الأمرين إلا بسبب يقتضى ذلك الترجيح ؛ فحيث توجهت إرادة الله جل شأنه إلى أحد الطرفين وجب أن يترجح على صاحبه ؛ والمراد أنه لم يوجد في جرم السماء ما يمنع من تأثير قدرة الباري جل وعلا في شقها وتفريق أجزائها ، وأنها كانت في قبول ذلك كالعبد الطائع الذي إذا ورد عليه أمر من جهة مالكة وسيدة أنصت له وأذعن ولم يمتنع ، وهو بسبب ما فيه من خصال الطاعة والقبول جدير بأن يفعل ؛ ودلالة هذه الآية الكريمة على ما ذكرنا كدلالة قوله سبحانه : « فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ أُنْتِمَا طَوْعاً أَوْ كَرْها قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ » وقوله تعالى : (وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ) اختلاف العلماء في تفسيره ؛ فذهب جماعة إلى أن معناه زوال ما فيها واختلاف حالها ، وذلك بأن تزال جبالها إذ ينسفها الله تعالى ، كما قال سبحانه : « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا » والمراد أن يجعل ظهر الأرض مستوياً كما قال : « فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا » وقد ذهب إلى هذا المعنى ابن عباس رضى الله عنه فقال : « تُمَدُّ الْأَرْضُ مَدَّ الْأَدِيمِ الْعَكَظِيِّ ، والأديم : الجلد ، وإذا مَدَّ الجلد زال كل ما فيه من عوج وانثناء ؛ وذهب قوم إلى أن معنى ذلك أن الله سبحانه يزيد في مساحة الأرض ويمدّها حتى تتسع لوقوف الخلائق عليها — للحساب والعرض عليه ، وذلك أمر لا مندوحة عنه ؛ لأن جميع الناس أوّلهم وآخرهم يقفون بين يدي خالقهم في وقت واحد . والذي يتجه عندنا أنه لا خلاف بين هذين الوجهين ؛ لأن في إزالة الجبال ونسفها وتسوية الأرض وتعبيدها وجعلها كالأديم

وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَحَلَّتْ [٤]

العكاظي لا انشاء فيها ولا عوج ، كل أولئك امتداد لسعتها وتكثير لمساحتها ، ولا ريب عندنا في أن المراد من هذه الآيات على وجه الاجمال هو وصف أحوال لهذا العالم تقع في يوم القيامة يوم يقوم الناس لرب العالمين ، وأن الغرض بيان أن حال هذا العالم يكون على غير حاله الذي هو عليه في هذه الحياة الدنيا ؛ فتبدل الأرض غير الأرض ، والسماء غير السماء ، وَيَبْرُزُ النَّاسُ لِلْحِسَابِ على ما قدموا في حياتهم من عمل ؛ فيجازيهم الله تعالى على الإحسان إحساناً وجنت تجري من تحتها الأنهار ، أكلها دائم وظلها ، لهم فيها ما تشتهى أنفسهم ولهم فيها ما يدعون ، ويجازيهم على الإساءة سوءاً ناراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عليها ملائكة غلاظ شداد لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ، ليس لهم فيها طعام إلا من ضريع لَا يُسَمِّنُ وَلَا يَغْنَى مِنْ جُوعٍ ، كلما نضجت جلودهم بدلهم منها جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب ، جزاءً وفاقا ، ولا يظلم ربك أحداً ؛ وعلينا أن نؤمن بذلك كله ، وأن نؤمن بأن السماء يومئذ تنشق وأن الأرض تُمددُ ، وعلينا أن نكل علم حقيقة ذلك وكنهه إلى الله تعالى القادر الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء وقوله تعالى : (وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا) معناه أنها لما مُدَّتْ رَمَتْ بما في جوفها من الناس والكنوز ، وأخرجت كل ذلك إلى ظاهرها ، وهذا مثل قوله سبحانه : « إذا زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها » ومثل قوله سبحانه : « وإذا القبور بُعْثِرَتْ » على ما سبق بيانه ، ومثل قوله : « وبعث ما في القبور » وأما قوله سبحانه (وَتَحَلَّتْ) فمعناه أنها بانغت في إخراج ما في بطنها والتخلي عنه كما يفعل من يتكلف شيئاً من الأشياء ؛ إذ يبالغ فيه ويجهد نفسه ألا يترك من سمات أهله وأفعالهم شيئاً حتى يبلغ الغاية التي ليس وراءها زيادة لمستزيد ؛ ولا بد أن تعلم

وَأَذِنْتَ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ [٥] يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ
كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ [٦]

أن الله تعالى هو الذى يخرج ما فى باطن الأرض إلى ظهرها بباهر قدرته ؛ وهو
الذى يُخْلِ جَوْفَ الأرض مما يكون فيه ، ولكن نسبة ذلك إلى الأرض نفسها
توسّع ؛ لأنها مظهر هذه القدرة ومكان بروز آثارها ؛ وقوله سبحانه : (وَأَذِنْتَ
لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ) يدلُّ على ما ذكرنا من أنها مظهر للقدرة ومكان لبروز آثارها ،
وقد بيّنا معنى هذه العبارة قريباً ، وليس فى هذا تكرير ؛ لأن السماء مظهر من
مظاهر القدرة والأرض مظهر آخر من مظاهرها ، وإذا اختلف الوجه الذى انبنى
عليه الكلام لم يكن من التكرار فى شيء . وجواب « إذا » الذى صُدِّرت به
السورة محذوفٌ : إما ليذهب الوهم إلى كل شيء ؛ فيكون السبب فى الحذف
إرادة التهويل على المخاطب ، وإما للاكتفاء بجواب « إذا » فى السورة السابقة
فكأنه لما تكرر هذا المعنى فى القرآن ، والأسلوبُ نظير الأسلوب ، اكتفى بدلالة
أحدهما على الآخر . وقال بعض المفسرين : الجواب مذكور بعد ذلك ، ثم اختلفوا
فى تعيينه : فقال الكسائى : الجواب هو قوله سبحانه وتعالى « فأما من أوتى
كتابنا الخ » وقال بعضهم : الجواب هو قوله تعالى « فملاقية » وقال القاضى : المذكور
هو دليل الجواب وهو قوله سبحانه « إنك كادح » فكأنه سبحانه قال : إذا
كان كذا وكذا ترون ما عملتم فاكدح لذلك اليوم أيها الإنسان لتفوز بالنعيم .
والذى ترجحه هو القول بأن الجواب محذوف لدلالة نظائره عليه .

وقوله سبحانه وتعالى : (يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ)
أما الكدح فهو العمل والاجتهاد فيه وإجهاذ النفس لبلوغ الغاية فى العمل ،

والكدح : اسم فاعل منه ، وانظر إلى قول ابن مقبل :

وَمَا الدَّهْرُ إِلَّا تَارَتَانِ ؛ فَمَهُمَا

أَمُوتَ ، وَأُخْرَى أَبْتَغَى الْعَيْشَ أَكْدَحُ

وانظر إلى قول الشاعر :

وَمَضَتْ بِشَاشَةً كُلَّ عَيْشٍ صَالِحٍ وَبَقِيَتْ أَكْدَحُ لِلْحَيَاةِ وَأَنْصَبُ

فانك تدرك منهما أن الكدح يدل على جهْد النفس في العمل حتى يبين على المرء أثر هذا الكدح ، واختلف في المراد من العمل الذي يكدح الانسان فيه بناءً على الاختلاف في المراد بالانسان ، فنقرر لك أولاً ما ذكره في المراد بالانسان ثم نبين لك بعد ذلك المراد من العمل ؛ فاعلم أن من العلماء من ذهب إلى أن المراد بالانسان ههنا جنس الانسان لسببين : أولهما أن حملة على ذلك أكثر فائدة وأدل على قوة النظم الكريم ، وثانيهما أنه تعالى قال بعد ذلك : « فأما من أوتي كتابه بيمينه » وقال « وأما من أوتي كتابه بشماله » وذلك بيان لنوعين يتنوع إليهما جنس الانسان بسبب كدحه وعمله ، ومن العلماء من ذهب إلى أن المراد بالانسان واحد من الناس بخصوصه ، وهؤلاء اختلفوا في بيان هذا الشخص فمنهم من قال : هو النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، ومنهم من قال : المراد به واحد من الكفار ، وهو أبي بن خلف ؛ فأما من قال المراد جنس الانسان فذكر أن المعنى على هذا يأيها الانسان إنك عامل في هذه الحياة أعمالاً فبالغ في هذه الأعمال ومجدد فيها ومُتعب نفسك في تحصيلها ؛ فان كانت هذه الأعمال خيراً كانت عاقبتك خيراً ، وإن كانت هذه الأعمال شراً كانت عقبك شراً وبالا ، وأما من قال المراد بالانسان النبي صلى الله عليه وسلم فالمعنى عليه يأيها الانسان إنك تكدح في إبلاغ رسالات الله تعالى إلى عباده وتجتهد في إرشاد الناس وتتحمل الضرر من المشركين الذين يؤذونك ، وأما من زعم أن المراد من الانسان أبي بن خلف فالمعنى عليه يأيها

فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ يَمِينَهُ [٧] فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا [٨]
وَيَنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا [٩]

الانسان إنك تجتهد في تحصيل الدنيا وتُضَيِّفُ نفسك في الصَّدِّ عن سبيل الله وتوَلَّى الكفار والمشركين على رسول الله . وأحسن هذه الوجوه أن يكون المراد الانسان الجنس ، وأن يكون العمل المراد بالكدر عامًا يتناول الخير والشر ، وقوله تعالى « إلى ربك » معناه إلى لقاء ربك ، فالكلام على حذف المضاف ، والمراد زمن لقاء ربه ، وهو الموت ، وكلمة « إلى » على هذا بمعنى انتهاء الغاية الزمانية ، والمعنى يأيها الانسان إنك عامل في هذه الحياة ومجتهد في عملك ومبالغ في إدراك الغاية إلى أن تنتهي حياتك ، ويجوز أن يكون المعنى إنك كادح ومجتهد من أجل أمر ربك الذي كلّفك بتكاليف تقتضى العمل ، أو يكون المعنى إنك كادح من أجل لقاء ربك مخافة أن تلقاه بلا عمل ؛ فالكلام على تقدير مضاف وكلمة « إلى » على الوجهين الآخرين بمعنى لام التعليل وقوله سبحانه « فلاقه » الضمير البارز يعود إلى الكدر ، والمعنى عليه فلاق هذا العمل يوم تعرض على ربك ، والمراد أنك ملاق جزاءه ، ويجوز أن يكون هذا الضمير عائداً إلى الرب والمعنى إنك كادح إلى ربك كدحاً فلاق ربك يوم القيامة ليجزى بك على هذا الكدر بما تستحقه ، وقوله تعالى : (فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ يَمِينَهُ فسوف يحاسب حساباً يسيراً وينقلب إلى أهله مسروراً) معناه أمان أعطى كتاب أعماله يمينه فانه يحاسب أيسر الحساب ، وذلك بأن تعرض عليه أعماله ، ويُعرَفُ بطاعاته على أنها طاعات ، وبمعاصيه على أنها معاصٍ ، ثم يثاب على ما كان منها طاعة ويُتجاوز له عما كان منها معصية ؛ فهذا هو المراد بالحساب اليسير ، كما ورد عن عائشة أم المؤمنين رضى الله تعالى عنها أنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اللهم حاسبني حساباً يسيراً » قلت :

وما الحساب اليسير؟ قال: «يُنْظَرُ في كتابه، وَيُتَجَاوَزُ عن سيئاته؛ فأما من
نوقش الحساب فقد هلك» وبيان ذلك أنه متى طُلب بذنوبه وسُئِلَ عن دواعي
اقترافها لم يجد له عُذْرًا ولم تستقم له حجة؛ لأن الله قد أُرْسِلَ الرُّسُلُ مُبَشِّرِينَ
ومُنْذِرِينَ، ولأن الرسل قد بلغت أوامر الله إلى خلقه، وَخَدَّتْ لهم تكاليفه،
ومنعتهم معاصيه، وَذَكَرَتْ ما أَعَدَّ اللهُ لِلْعُصَاةِ مِنَ الْعِقَابِ؛ فإذا لم يتجاوز الله تعالى عما
أَزْلَفَ من صغائر الذنوب وحاسبه عليهم لم يكن بُدٌّ من عقابه، ويوضح ذلك أتم توضيح
ماروى عن عائشة أيضا قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ نوقش
الحساب عُدِّبَ» وفي رواية «من نوقش الحساب فقد هلك» فقلت: يا رسول
الله، إن الله تعالى يقول: (فَأَمَّا مَنْ أَوْقَى كِتَابِهِ، يَمِينَهُ فسوف يحاسب حسابا
يسيرا) قال: «ذَلِكَ الْعَرَضُ؛ ولكن من نوقش الحساب عُدِّبَ»، ثم إن
هذا النوع من الناس عند هذا الحساب اليسير يرجع كل واحد منهم إلى أهله مسرورا
فائرا بالثواب آمن من العذاب والعقاب، والمراد بأهله إما أهل الجنة الذين جعلهم الله
له أهلا من الحور والولدان، وإما أهله الذين كانوا أهله في الدنيا من زوجته وأولاده^(١)
وسائر ذريته إن كانوا مؤمنين، والمراد من هذه الآية أن الله تعالى أَعَدَّ لهذا النوع من
الناس - وهم الذين كانوا يعملون الصالحات في حياتهم الدنيا: آمنوا بالله ورسوله،
وَأَدَّوْا ما أمرهم الله به، واجتنبوا ما نهاهم عنه، ولم يقتربوا من الآثام ما تقسوه
قلوبهم وتتججر بسببه عواطفهم؛ فإن من قست قلوبهم من أهل النار - ثوابا
فوق كل ثواب، وأعدَّ لأهله الذين قَفَّوْا منهجه من الثواب ما يليق بهم، وفي انقلابه
إلى أهله مسرورا ما يدل على أن تمام مسرة الإنسان وكمال تمتعه بالنعيم إنما يكونان
إذا كان بين أهله بحيث يشاهدون ما هو عليه

(١) ويقال: المراد بأهله إخوانه المؤمنون الذين هم رفقائه في الجنة

وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ [١٠] فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا [١١]
وَيَصْلَى سَعِيرًا [١٢] إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا [١٣] إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ
يَحُورَ [١٤]

وقوله تعالى : (وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا وَيَصْلَى سَعِيرًا ؛ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ، إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ) بيان لحال الفريق الثاني من الناس ، وهم الذين أكثروا من ارتكاب الآثام واجترأوا السيئات ، الذين قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَجَدَّتْ أُنْفُسُهُمْ وَتَحَجَّرَتْ عَوَاطِفُهُمْ ، وقد اختلف المفسرون في بيان المراد من إيتائهم كتابهم من وراء ظهورهم ؛ فقال الكلبي : يأخذ كتاب أعماله بيده الشمال من خلف ؛ لأن يده اليمنى يومئذ مغلولَةٌ إلى عنقه ، ويده اليسرى مَحْوَلَةٌ إلى ظهره ؛ وقال مجاهد : تجعل يده اليسرى من وراء ظهره ؛ وقال قوم : يتحول وجهه في قفاه فيقرأ كتابه كذلك . ولا ينافي ما في هذه الآية ما ذكره الله تعالى في سورة الحاقة من قوله : « فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بَشْمَالَهُ » حيث لم يذكر الظهر ؛ لأنه يحتمل أن يكون يُوتَى كتابه بَشْمَالَهُ من وراء ظهره كما هو قول الكلبي ؛ فيكون هنا بيان لبعض شأنه وفي سورة الحاقة بيان لبعضه الآخر هكذا قال المفسرون ، وأنت لو تَدَبَّرْتَ بعض التدبر لأدركت أن العرب تعبر عن القُوَّة ونَفَاز السُّلْطَان ، وعن الغلبة والقهر ، باليمين ، وذلك ظاهر لأن أعمال أغلب الناس بها ، وإذا كانت اليمين عبارة عن القوة وما ذكرنا معها كانت الشمال عبارة عن الضعف وما يتصل به من أضداد صفات اليمين ؛ فليس هناك ما يمنع من أن يكون المعنى في آيات المؤمنين أما من أُوتِيَ كتاب أعماله فأقبل على أخذه بقوة ونشاطٍ واقدام لأنه كان من الذين يقبلون على طاعات الله ويتركون معاصيه ، والمراد في آيات

الكفار أما من عُرِضَ عليه كتاب أعماله فأحجم عن أخذه وَضَعَفَ عن التقدم إليه وفترت قواه عن الاقبال عليه لأنه كان فاتر العزم في طاعة الله ضعيف الايمان، ويكون التعبير بأخذه من وراء ظهره أقوى في الدلالة على الضعف والتكاسل عن الاقدام على كتاب أعماله ، فإنه يدل على الاعراض عنه والازورار بجانبه منه ؛ فهو أبلغ ؛ ولا شك أنا نشاهد في هذه الحياة الدنيا المؤمنين المتقين الذين يخافون ربهم وحده ولا يبالون ما يصيبهم في سبيل الله ؛ نشاهدهم يقبلون على المخاطر إقبال الآمن المطمئن الواثق بحسن العاقبة ، ويزى غيرهم على نوعين : أما أحدهما فقوم يقيمون في منتصف الطريق لا يقبلون ولا يعرضون ، وهؤلاء هم مَرْضَى القلوب ، وأما الثاني فقوم يُؤَلِّقُونَ الحَقَّ وَيَتَوَكَّلُونَ عنه ولا يقدمون على عمل يتصورون فيه ولو على سبيل التوهم ضررا ؛ وأولئك هم القاسية قلوبهم ، وويل للقاسية قلوبهم من النار ، فشان الناس يوم القيامة بالنسبة إلى كتاب أعمالهم شأنهم في الحياة الدنيا بالنظر إلى جلائل أعمال الإيمان التي يبتلى الله تعالى بها عباده ليميز الخبيث من الطيب وليظهر الفرق بين الثابت إيمانه الوثيق اتصال قلبه بخالقه والضعيف إيمانه الذي قطع ما بينه وبين الله أن يُوصَلَ ؛ على أنا نختتم لك هذه الكلمة الموجزة بأن ننبهك إلى ما تعددت إشارتنا إليه بأنا إنما نذكر ما يحتمله اللفظ العربي من الوجوه، وتترك ما وراء ذلك إلى خالقِ القُوى والقُدَر ، سبحانه ما أعظم شأنه وما أَقْبَرُ سلطانه ، هو الذي يعلم ما في السماوات وما في الأرض ، وما وراء هذا الكون على حقيقته وكنهه ، لا علم لنا إلا ما علمنا إنه علامُ الغيوب . وقوله تعالى « فسوف يدعو ثبورا » يعني ينادى قائلا : « اثْبُورَاهُ ، وَاثْبُورْ : الْهَلَاكُ ، فَكَأَنَّهُ يَقُولُ : يَا هَلَاكُ أَقْبَلْ عَلَيَّ فَإِنِّي لَا أُرِيدُ أَنْ أَبْقَى حَيًّا ، لَعَلَّهُ أَنْ بَقَاءَهُ دَاعٍ إِلَى طَوْلِ عَذَابِهِ ، فَهُوَ كَقَوْلِ الْكَافِرِ « يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا » وقوله سبحانه : « وَيَصْلِي سَعِيرًا » معناه أنه يدخل النار ويذوق حرَّها ، وذلك كقوله تعالى : « وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا » وقوله « وَنُصِّلِهِ

جهنم » وقوله « جهنم يَصْلَوْنَهَا » وقوله « إلا من هو صالٍ الجحيم » وقوله « لا يَصْلَاهَا إلا الأَشْقَى الذي كذب وتوَلَّى » . وقوله سبحانه « إنه كان في أهله مسرورا » بيان للعلة التي استحق بها العذاب في الآخرة ، والمعنى إنه كان في أهله في حياته الدنيا منعماً مستريحاً لا يؤدي ما فرض الله تعالى عليه من العبادات ولا يحتمل مشاقَّ الفرائض من الصلاة والصوم والجهاد ، وكان يُقَدِّم على المعاصي حاسباً أن لذتها لا تعقب الحسرة والندامة ولا تورث الهلاك والتردد في نار الجحيم ، كان آمناً من حساب الله ، غير مُبَالٍ بعقابه ، فلم يكن يرتدع عن معصية ، ولا وازع له يزجره عن الإثم ، فأبدله الله تعالى بهذا النعيم الذي تنعم به أياما قليلة ثم ذهب عنه آلاما لا تنقطع وعذابا لا ينتهى أمدُه ولا ينفد ، ويقال : معنى « إنه كان في أهله مسروراً » أنه كان معجباً في الدنيا بما كان عليه من الكفر وذلك كقوله تعالى في سورة التطهيف : « إن الذين أجمعوا كانوا من الذين آمنوا يضحكون ، وإذا مروا بهم يتغامزون ، وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين » . وقوله سبحانه : « إنه ظن أن لن يحور » بيان للعلة التي دعت به إلى الكفر والتماذى على العصيان ومخالفة الخالق ؛ ومعنى « يحور » يرجع ، وكان ابن عباس يقول : ما كنت أدري ما معنى الحور حتى سمعت أعرابية تقول لابتها « حورى » أى ارجعى ، والمعنى إن هذا الفريق من الناس قد ظن أنه لن يرجع إلى ربه ، وأن الله تعالى لن يبعث الخلق لحسابهم على ما قدموا ، ويقال : الحور خاص بالرجوع إلى خلاف ما كان عليه ، فإذا صح هذا كان معنى الآية إن هذا الفريق من الناس كان في حياته مسروراً دائماً السرور لأنه ظن أن حالته هذه لن تتبدل ولن ترجع إلى عكس ما هى عليه ، ولو علم أن الله يُبَدِّلُ سروره همّاً وفَرَاحَه حزنًا ونعمته بؤساً وغماً لأقلع عما هو عليه وترك هذا السرور العاجل السريع الفناء وطلب من السرور ما يبقى ما بقيت الجنة التي لا يفنى نعيمها ولا يزول

بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا [١٥] فَلَا أَقْسَمُ بِالْشفقِ [١٦] وَاللَّيْلِ
وَمَا وَسَقَ [١٧] وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ [١٨] لَتَرَنَّ كَيْبًا طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ [١٩]

سرور أهلها . وقوله سبحانه : (بلى) هو ردٌ عليهم في ظنهم الفاسد ، فعلى الوجه الأول يكون المعنى بلى لتبعثن ، وعلى الوجه الثاني يكون المعنى بلى إن الله تعالى يبدل سروره بغم لا ينقطع وتنعمه ببلاء لا ينتهى ولا يزول . وقوله تعالى (إن ربه كان به بصيراً) معناه إن ربه كان عالماً بما يعمل من الكفر والعصية فلم يكن يجوز في حكمته أن يهمله فلا يعاقبه على سوء أعماله ، وهذا زجر لكل المكلفين عن جميع المعاصي .

وقوله تعالى : (فلا أقسم بالشفق والليل وما وسق والقمر إذا اتسق لترنن كيباً طَبَقًا عن طَبَقٍ) «لا» في قوله سبحانه «فلا أقسم» نافية ، وقد أعتاد العرب أن يأتوا بمثل هذه العبارة عندما يكون القسم على أمر ظاهر لا يحتاج إلى التوكيد أو هو بهذه المنزلة عند المتكلم ؛ فكأنه سبحانه يقول : أنا لا أقسم بهذه الأشياء على إثبات ما أذكره لكم لأن أمره ظاهر وثبوته غير محتاج إلى الحلف عليه . ويقال : بل هذه العبارة إنما تستعمل عند الحلف على أمر جليل القدر عظيم الشأن لا يكفي القسم لإثباته ، خصوصاً إذا كان القسم بما لا يُخشى أذاه ولا يُخاف منه الضرر ؛ فكأنه سبحانه يقول : أنا لا أقسم بهذه الأشياء على إثبات المطالب ؛ لأن إثباته أعظم وأجلُّ وأكبر من أن يُقسم عليه بهذه الأمور الهينة الشأن ، والغرض على هذا الوجه تعظيم المُقسم عليه وتقخير شأنه ، وقد سميت لنا هذه المسألة في تفسير سورة التكويد ^(١) . والشفق : الأثر الباقي من الشمس في الأفق بعد الغروب

وذهب مجاهد إلى أن الشفق هو النهار ، وأصل الشفق رقة الشيء ، ومنه قولهم :
ثوب شفق ، لأنه لا تماسك فيه لرقته ، والشفقة : رقة القلب . وقوله تعالى
« والليل وما سَقَ » وسَقَ في اللغة بمعنى جَمَعَ ، وَسَمَوْا الطعام المجتمع بَعْضُهُ إلى
بعض وَسَقًا ، والمراد بما سَقَ ما يجمعه الليل من كل شيء ؛ فانه تظهر فيه النجوم
مجمعة ، وفيه يجتمع الناس لامتناعهم بسبب ظلمته عن الانتشار في الأرض
والسعى للرزق ، وقوله تعالى « والقمر إذا اسَّقَ » معناه استوى واجتمع وتكامل
وتمَّ واستدار ، وذلك من ليلة ثلاثة عشر إلى ليلة ستة عشر ؛ ومع أن الله سبحانه
وتعالى قد ذكر هذه الأشياء التي من تدبرها حق تدبرها استدللَّ بجلالها وعظمتها
شأنها على قدرة مبدعها وخالقها ؛ فقد ذكر معها أوصافا وسمات تدلُّ من جهة
ثانية على أنها لا تصلح أن يتخذها الناس أربابا وآلهة يعبدونها من دون الله ؛
فإنها تتحوَّل من حال إلى حال ، وتتبدَّل من شأن إلى شأن ، والتحوُّل ليس من
أوصاف الآلهة ، وقوله سبحانه وتعالى : « لتركبن طبقا عن طبق » هو جواب
القسم ، والمعنى لتركبن أيها الناس أمورا وأحوالا ، أمرا بعد أمر ، وحالا بعد حال
ومنزلا بعد منزل ، إلى أن يستمرَّ الأمر على ما يُقْضَى به على الإنسان من جنة أو
نار ؛ وحينئذ يستقر الأمر ، ويكون الخلود والدوام إما في دار الثواب وإما في دار
العقاب ، ويدخل في هذه الجملة جميع أحوال الإنسان والأطوار التي مرت به منذ
كان نطفة في بطن أمه إلى أن صار شخصا ، وما يمر به في حياته الأولى من طفولة
وشباب وشيخوخة ، وموته ثم حَشْرُهُ للحساب ، ونقله بعد الحساب إما إلى الجنة
وإما إلى النار ؛ ويقال : المراد بهذه الآية أن الناس يَلْقَوْنَ يوم القيامة أحوالا
وشدائد ، حالا بعد حال ، وشدة وراءها شدة ، إلى أن يفرغ من حسابهم فيصير
كل واحد إلى ما أُعِدَّ له وما استحقه بسبب عمله في الدنيا : إما إلى جنة وإما إلى
نار ؛ ويقال : بل المراد أن الناس يوم القيامة طبقات ، وليست طبقاتهم في الآخرة

فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ [٢٠]

على مثال طبقاتهم في الحياة الأولى ؛ لأن المنزلة العالية والدرجة الرفيعة هناك إنما ينالها العبد بصالح عمله الذي قدمه في حياته الأولى ؛ فكم من وضع في الدنيا يصير رفيعا في الآخرة ، وكم من رفيع يصير وضعيا ، وكم من متنع في الدنيا سيدشقى في الآخرة أشد الشقاء ، وكم من عاش في الأولى على شظف وبؤس ونال أشد الشقاء سيصير متنعا في أرغد نعيم وأهنئه ، ولعل هذا المعنى الأخير قريب متصل تمام الاتصال بقوله تعالى قبل هذه الآية « إنه كان في أهله مسرورا ، إنه ظن أن لن يحور » و « عن » في قوله تعالى « طبقا عن طبق » بمعنى بعد ، كما هو ظاهر من تقرير المعاني التي ذكرناها ، ومثل ذلك قول الشاعر :

مَازِلْتُ أَقْطَعُ مَنَهْلًا عَنْ مَنَهْلٍ حَتَّى أَتَخْتُ بَيْابَ عَبْدٍ الْوَاحِدِ

وقوله سبحانه وتعالى : (فما لهم لا يؤمنون) هو استفهام معناه الانسكار ، وذلك لظهور الحجة عليهم ، وزوال ما يتمسكون به من الشبهات ، أما تراهم سبحانه قد أقسم بتغيرات واقعة في الأفلاك على تغير أحوال الخلق ، وهذا يشير إلى الدليل القاطع على صحة القول بالبعث ، وكأنه يقول : إن القادر على تغيير الأجرام العلوية والسفلية من حال إلى حال ومن صفة إلى صفة ، والذي يفعل ذلك كله بحسب المصالح ؛ لا بد أن يكون في نفسه قادرا على جميع الممكنات علما بجميع المعلومات ، وإذا كان كذلك كان لا محالة قادرا على بعث الناس للحساب ، فلما كان ما قبل هذه الآية كأنه دلالة عقلية قاطعة على صحة البعث لاجرم قال لهم على طريق الاستبعاد وإنكار ما هم عليه « فما لهم لا يؤمنون » والمعنى أى شئ ثبت لهم حتى جحدوا الله وأنكروا قدرته ، وكل شئ أمامهم ينادى بقدرته ، ويرشد إلى سلطانه القاهر ، والمراد أنه لاشبهة لهم يصح أن يتمسكوا بها على إنكارهم بعث الله الخلق للحساب ، وقوله

وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ [٢١] بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا
يُكَذِّبُونَ [٢٢] وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ [٢٣] فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ [٢٤]

سبحانه: (وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون) معطوف على قوله «لا يؤمنون»
والمعنى أى شىء ثبت لهؤلاء الناس حتى جعلهم إذا قرئ عليهم القرآن لا يعترفون
بإعجازه وبلوغه الغاية التى لا يمكن للبشر أن يصلوا إليها ، والمراد التعجب من
حالمهم وإنكاره عليهم ، فكأنه سبحانه يقول : إن أمر هؤلاء الناس لهجيب
فانهم كما يدعون أهل اللسن وأرباب الفصاحة وذوو البراعة والبلاغة ؛ وهذا
يقتضى البتة أن يعلموا أن هذا القرآن مُعْجَزٌ ، ومتى علموا إعجازه أدركوا صحة
نبوة الرسول الذى جاء به ووجبت عليهم طاعته ، ولكنهم لم يعملوا بما تقتضيه
فطرتهم التى فطرهم الله عليها ، فهم لا يخضعون لبلاغة القرآن ، ولا يستكينون
لاعجازه ، مع أنه أخرس ناطقهم ، وأعجز مقاولهم ، وخير فصحاءهم . وقوله تعالى :
(بل الذين كفروا يكذبون) كالتعليل لعدم إيمانهم ولعدم خضوعهم للقرآن مع قيام
الدليل الموجب عليهم أن يؤمنوا وأن يخضعوا ، والمعنى إن الدلائل الموجبة للإيمان
جلية واضحة لا تحتاج إلى أكثر من لفت النظر ، ولكنهم يعاندون ويصرون
على التكذيب : إما لأنهم يأتون أن يخالفوا ما وجدوا عليه آباءهم من عقائد فاسدة ،
وإما لأنهم يحسدون الرسول صلى الله عليه وسلم على ما أتاه الله من فضله ، وإما
لخوفهم من أنهم لو آمنوا لفاتتهم مناصبهم الدنيوية ، وقوله تعالى : (والله أعلم بما
يُوعُونَ) معناه أنه سبحانه مُطَّاع على ما فى قلوبهم من أسباب الإصرار على الشرك
ودواعي العناد والاستمرار فيما هم عليه ، وقوله سبحانه (فبشرهم بعذاب أليم)
يدل على أنه مجازيهم على تكذيبهم وإصرارهم بالعذاب الأليم فى الآخرة ،

إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ [٢٥]

وقوله جل شأنه (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) يحتمل أن يكون الاستثناء منقطعاً ، والمعنى لكن الذين آمنوا بالله ورسوله وخضعوا للقرآن الكريم وعملوا بما جاء فيه فأولئك لهم أجر غير ممنون ، ويحتمل أن يكون الاستثناء متصلاً . والمعنى عليه بشر هؤلاء الكفار بعذاب أليم إلا من تاب منهم وآمن بربه وعمل الصالحات ، وكل ما فيه أنه وضع الفعل الماضي في مكان الفعل المضارع ، وكأنه قال إلا الذين يؤمنون ويعملون الصالحات ، وقوله سبحانه : (لهم أجر غير ممنون) معناه أن لهم ثواباً لا من فيه ولا أذى ، ألا ينتقطع مدده ، ألا ينغص عليهم بالخوف ونحوه . والله سبحانه أعلى وأعلم

سورة البروج

[وهي مكية ، وآياتها اثنتان وعشرون آية ، ونزلت بعد سورة الشمس] ^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ [١]

(١) لا خلاف في أن هذه السورة مكية ، كما أنه لا خلاف في أن آياتها اثنتان وعشرون آية

اعلم أن المقصود من هذه السورة تسلية النبي صلى الله عليه وسلم وتسلية أصحابه وتشجيعهم على احتمال أذى الكفار والصبر على ما يُلَاقُونَهُمْ به ، وذلك لأنه سبحانه وتعالى بيّن أن جميع الأمم قد كان منهم مثل ذلك فأذوا أنبياءهم وأعتوا من آمن بهم ، مثل أصحاب الأخدود ، ومثل فرعون وقومه ، ومثل ثمود ، بل إنه ما من أمة إلا كذّبت رسولها ، وأرهقت من أمره عسرا

قوله تعالى : (والسّماء ذات البروج) البروج : جمع بُرْج ، وأصل البرج في اللغة الأمر الظاهر ، ثم نُقل إلى القصر العالى لكونه معلوّه ومُؤَوَّقه ظاهرا باديا للناظر ، ويقال لسور المدينة بُرْج أيضا لظهوره ، وبروج السّماء اثنا عشر بُرْجًا ، وسنذكر لك عنها كلمة ، وإِنَّمَا حَسُنَ الْقَسْمُ بها لما فيها من عجب الحكمة وباهر الصنعة ، أفما ترى سَيْرَ الشمس يكون فيها ، وهل من شك في أن مصالح العالم ومنافع الناس في هذه الحياة الدنيا مرتبطة بسير الشمس ؛ فهي من هذه الناحية دالة على أن لها صانعا حكيمًا ، ويقال : البروج هي منازل القمر ، وإذا صحَّ ذلك فهي

وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ [٢] وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ [٣]

أيضا من عجيب صنع القادر الحكيم ، وم في سير القمر وحركته من آثار ليس يخفي أنها تدل على قدرة المبدع الجليل ، ويقال : البروج هي عظام الكواكب وإنما سميت برؤوسها لكونها ظاهرة بادية للرأى . والقول الأول أشهر هذه الأقوال . واعلم أن البروج الاثني عشر منها ستة في شمال خط الاستواء والستة الأخرى في جنوب خط الاستواء ؛ فأما التي في شمال خط الاستواء فهي : الحمل ، والثور ، والجوزاء ، والسرطان ، والأسد ، والسنبلة ؛ وأما التي في جنوب خط الاستواء فهي : الميزان ، والعقرب ، والقوس ، والجدي ، والدلو ، والحوت ؛ وتقطع الشمس الثلاثة الأولى وهي الحمل والثور والجوزاء في ثلاثة أشهر أولها اليوم العشرون من شهر مارس ، وهذه المدة فصل الربيع ، وتقطع الثلاثة الثانية وهي السرطان والأسد والسنبلة في ثلاثة أشهر أيضا أولها اليوم الحادي والعشرون من شهر يونيو ، وهذه مدة فصل الصيف ، وتقطع الثلاثة الثالثة وهي القوس والعقرب والقوس ، وهي الميزان والعقرب والقوس ، في ثلاثة أشهر أيضا أولها اليوم الثاني والعشرون من شهر سبتمبر ، وهذه المدة فصل الخريف وتقطع الثلاثة الرابعة وهي الثلاثة الثانية من الجنوبية ، وهي الجدي والدلو والحوت ، في ثلاثة أشهر أيضا أولها اليوم الثاني والعشرون من شهر ديسمبر ، وهذه المدة فصل الشتاء .

وقوله تعالى : (واليوم الموعود) هو يوم القيامة ، لأن الله تعالى وعده به ، وإنما حسن القسم بيوم القيامة للتنبيه على القدرة والقهر ؛ إذ كان هو يوم الفصل والجزاء وهو اليوم الذي تقرر الله تعالى فيه بالملك والحكم .

وقوله سبحانه : (وشاهد ومشهود) قد اختلف العلماء في المراد من الشاهد ومن المشهود ؛ فيقال الشاهد هو الانسان والمشهود هو التوحيد والاقرار لله بالتفرد

بالألوهية ، لأن الله تعالى أشهد الناس على ذلك ، وفي ذلك يقول سبحانه « وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى » فالإنسان شاهد والتوحيد والاقرار بالربوبية مشهود عليه ، ويقال : الشاهد الإنسان والمشهود يوم القيامة فأما كون الإنسان شاهدا فظاهر فيما تلونا عليك ، وأما كون يوم القيامة مشهودا فاما لكون جميع الناس يشهدونه : أى يحضرونه ، وإما لكونه مشهودا عليه أيضا ، ويدل على ذلك قوله تعالى : « أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين » وعندى أن خير آمن هذا ومن كل ما ذكره أن يقال : المراد بالشاهد والمشهود جميع ما خلق الله تعالى في هذا العالم ، فان فى كل شىء خلقه الله تعالى شاهداً على جليل قدرته وعظيم حكمته كما قال أبو العتاهية :

وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد

ثم إن كل ما خلق الله مشهود لكل ذى عينين ولكن الناس يتفاوتون ؛ فمنهم من يتدبر ويستفيد من النظر ، ومنهم من لا يستفيد ، وقد اختلف العلماء فى بيان جواب القسم الذى صدرت به السورة ، فذهب الزجاج إلى أن الجواب هو قوله تعالى فيما بعد « إن بطش ربك لشديد » وهذا الكلام محكى عن ابن عباس وعن قتادة ، وذهب قوم إلى أن جواب القسم هو قوله سبحانه : « إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات — الآيات » وما بين القسم والجواب من قوله تعالى « قتل أصحاب الأخدود — الآيات » اعتراض ؛ وذهب الأخفش إلى أن جواب القسم هو قوله سبحانه « قتل أصحاب الأخدود » وقال جماعة : جواب القسم محذوف ، ثم اختلف هؤلاء فى تقديره : فقال قوم يدل عليه قوله تعالى : « قتل أصحاب الأخدود » وتقدير الكلام على هذا : والسماء ذات البروج لقد قتل قريش ولعنوا كما قتل أصحاب الأخدود ، وهذا تقدير جار الله فى الكشف ، وقال قوم : تقدير الكلام والسماء ذات البروج إن الأمر الذى أحذركم عنه وهو أمر البعث والنشور لحق ، لأن ذلك قد كثر مجيء

قَتَلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ [٤] النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ [٥]

مثله في الكتاب العزيز ، وقد سبق بيان مثل ذلك ^(١)

وقوله جل شأنه : (قَتَلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ) فالأخدود هو الشَّقُّ في الأرض يحفر مستطيلاً ، وجمعه أخاديد ، وتقول : خَدَّ الْأَرْضَ يَخْدُهَا خَدًّا ، إذا شقها ، وتقول : تَخَدَّدَ لَحْمُهُ ، إذا تشقق وكانت فيه هو طرائق كالشقوق . ومعنى « قتل » قد سبق ذكره في سورة عبس في تفسير قوله تعالى : « قتل الإنسان ما أ كفره » ^(٢) وكان من قصة أصحاب الأخدود على ما حكاه المفسرون والمؤرخون أنه قد وقع إلى نجران رجلٌ ممن كانوا على دين عيسى ابن مريم عليه السلام ، وأنه دعا أهل نجران إلى دينه — وكانوا من اليهود — وأعلمهم أن الله تعالى بعث عيسى ابن مريم بشريعة ناسخة لشريعتهم ، فأمن به قومٌ منهم ، وبلغ ذلك ذا نُوَاسٍ وكان يتمسك باليهودية ، فصار إليهم بجنود من حمير ، فلما أخذهم خيرهم بين اليهودية والاحراق بالنار ، وحفر لهم حفرة ثم أضرم فيها النار ، وصار يؤتى بالرجل منهم فيخيره ؛ فمن جزع من النار وخاف العذاب بها رجع عن دينه ورضى اليهودية ، فتركه ، ومن تمسك بدينه ولم يُبالِ العذاب الدنيوي لوثوقه بأن الله يجزيه أحسن الجزاء ألقاه في النار ، وقوله تعالى (النار) يقرأ بالجر على أنه بدل من الأخدود ، فيقال : هو بدل اشتمال والرابط محذوف ، وتقدير الكلام النار فيه ، ويُقال : هو بدل كل من كل ، وأصل الكلام قتل أصحاب الأخدود أخدود النار ، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ، والوجه الأول أحسن ، وقوله تعالى (ذات الوقود) وصف للنار يدل على أنها بلغت غاية عظيمة في ارتفاع اللهب لأنها جعلت

(١) أنظر (ص ٢٨) في تفسير سورة النازعات

(٢) أنظر (ص ٥٠)

إِذْهُمْ عَلَيْهِمْ قُعُودٌ [٦] وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ [٧]

كالمالكة للوقود الذى يكون منه اللهب ، وقد عُرِّفَ الوقود بأل الدالة على الاستغراق ، فإذا كانت النار كالمالكة لكل وقود ينشأ عنه اللهب لا جرم يكون حريقها عظيما ولهبها متطيرا ، وقوله تعالى : (إذ هم عليها قعود) أما « إذ » فظرف لما مضى من الزمان ، وهو متعلق بقتل ، والمراد أنهم لعنوا فى ذلك الوقت ، و « هم » ضمير يعود إلى أصحاب الأخدود ، الذين هم ذونوايس وشيعته فيما قصصنا عليك من نبئهم ، والضمير فى « عليها » راجع إلى النار ، ومعنى قعودهم عليها التفافهم حولها وجلووسهم قريبا منها بحيث يُشرفون على المؤمنين وهم يُعذَّبون بها ويُحرقون فيها ، وليس المراد جلوسهم فوق النار ، فإن العرب يقولون : جلست على النار ، ووقفت على النار ، وهم إنما يريدون الجلوس قريبا منها ، والوقوف عندها بحيث تراها ؛ أنظر إلى قول الأعشى :

تُشَبُّ لِمَقْرُورَيْنِ يَصْطَلِيَانِهَا وَبَاتَ عَلَى النَّارِ النَّدَى وَالْمُحَلَّقُ

وقوله تعالى : (وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شُهُودٌ) يحتمل معنيين : أحدهما أن يكون المراد من قوله سبحانه « شُهُودٌ » أنهم حُضور شاهدوا عذاب المؤمنين والمعنى حينئذ أن أولئك الجبابرة الذين أمرُوا باحراق المؤمنين كانوا حُضورا عند تعذيبهم يشاهدون ما يفعله بهم أتباعهم ، وفى ذلك إشارة إلى قسوة قلوبهم ، وتمكن الكفر منهم ، مع ما فيه من الإشارة إلى قوة اضطبار المؤمنين ، وشدة جلدتهم ، وورابة جأشهم ، واستمسكهم بحقهم ، والوجه الثانى أن يكون المراد من « شُهُودٌ » جمع شاهد بمعنى الذى يثبت الدعوى بشهادته ، والمعنى حينئذ إما أن بعضهم يشهد لبعض عند الملك بأنه لم يقصر فى التنكيل بالمؤمنين ، أو يكون المعنى أنهم سيشهدون على أنفسهم يوم القيامة بما فعلوا بالمؤمنين من العذاب ، يشهد بعضهم

وَمَا تَقْمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ [٨] الَّذِي لَهُ مُلْكُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ [٩]

على بعض بذلك يوم تشهد عليهم أيديهم وألسنتهم وقلوبهم وسائر جوارحهم بما كانوا يفعلون ، وقوله جل ذكره (وما تقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد) فتقموا معناه أنكروا ، ويقال تقموا معناه أنكروا وعاقبوا على الفعل الذي ينكرونه ، والمراد من «يؤمنوا» أن يستديموا على إيمانهم ويستمروا ثابتين عليه ؛ لأن تعذيبهم لم يكن على إيمانهم الذي مضى ، بل كان على ما يأتي ، ألا ترى أنهم كانوا يتركون من رجع إلى دينهم وترك ما كان عليه ، ومن هنا تعلم سر التعيير بالفعل المضارع ، والمعنى إن هؤلاء الكفار أصحاب الأخدود لم ينكروا على المؤمنين ولم يعاقبواهم إلا على شيء لا يجوز العقاب عليه ، بل ينبغي لكل أحد أن يكون عليه ويدعو غيره إلى التمسك به ، وهو الإيمان بالله تعالى العزيز الغالب الذي يخشى عقابه وتهاب صولته الحميد المنعم الذي يرجى ثوابه وترتقب نعمائه ، وانظر إلى سر النظم العجيب حيث وصف الله تعالى نفسه بوصفين ينذر بأحدهما الكفار سطوته وعقابه ويخوفهم به بأسه وانتقامه على ما يفعلون بالمؤمنين من الأيذاء ، وَيَعِدُ بثنائيهما المؤمنين ثوابه ونعماءه ويمنيهم به ما عنده من عظيم الأجر على احتمال ما يلاقونه من الكفار من الجهد والأذى ؛ ثم انظر إلى قوله جل ذكره (الذي له مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) تَدْرِكُ تمام الإدراك أنه سبحانه ما وصف نفسه بهذين الوصفين إلا ليشعر بأن مناط إيمان المؤمنين به والسر في شدتهم العزائم على الدوام على وصف الإيمان ، وعدم خوفهم من تهديدات الكفار وإيعاداتهم ؛ هو أنهم عرفوا أن مالك الأمر كله هو الله ، وأن ما يلاقونه ليس إلا من الامتحان والابتلاء الذي يمحص الله به أهل طاعته ليبلوهم أيهم أحسن عملا ، وتذكر أيضا

إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ
وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ [١٠]

أن السر في الوصف الثاني وهو قوله سبحانه « والله على كل شيء شهيد » الاشارة
بتهديد الكفار وإبعادهم على أنهم سيلاقون جزاء ما يفعلون بالمؤمنين ؛ لأنه
سبحانه إذا كان شهيدا على كل شيء فهو شهيد على ما يفعله هؤلاء الفجار بأهل
طاعة الله ، وإذا كان مطالعا شهيدا على أفعالهم لم يكن من حكمته العالمة أن يترك
لهم ذلك فلا يحاسبهم عليه

ثم لما انتهى سبحانه وتعالى من ذكر أصحاب الأخدود وما فعلوه من الإيذاء
والتنكيل بالمؤمنين ، وَذِيلَ ذَلِكَ بما يدلُّ على أنه لو شاء لمنع بعزته وجبروته أولئك
الجبارة من تعذيب أهل مودته وأوليائه ، ولأطفا نيرانهم ، وجعلها برداً وسلاما ،
كما ذيله بما يشير إلى أن المعتبر عنده عواقب الأمور ، وأنه — وإن أمهل هؤلاء
الفجرة — لم يهملهم ، بل آخر عقابهم ليوم تشخص فيه القلوب والأبصار ، وهو
اليوم الذي يوصل فيه الثواب إلى المؤمنين ويوقع العقاب على الكفرة المجرمين ،
بعد ذكره هذه القصة أتبعها بما يتفرع عليها من أحكام الثواب والعقاب فقال سبحانه :
(إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ
الْحَرِيقِ) و « فتنوا » معناه ابتلواهم وامتحانهم ، وقد كان الكفار في كل أمة
من الأمم يمتحنون المؤمنين ويبتلونهم بصنوف من الأذى ؛ فأصحاب الأخدود
قد عرضوا المؤمنين على النار وأحرقوهم بها ، وكفار قريش قد فتنوا المؤمنين بالكثير
من الإيذاء ، فكم عَذَّبُوا آلَ يَاسِرٍ ، وكم عذبوا بلالا ، وكم آذوا أكبر المؤمنين
كأبي بكر ، حتى لقد آذوا الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم وأعنتوه وشقَّوا
عليه ورَمَوْهُ بالحجارة حتى أَدَمَوْهُ ، وفعلوا أكثر من ذلك فخرجوا بخيلهم

ورجلهم وخيلائهم وكبرياتهم يقاتلونه وأصحابه ويتمنون لو يتمكنون منه ليقتلوه ،
ولكن الله تعالى يمنعه منهم ، والله بالغ أمره ، يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ،
ويأبى الله إلا أن يتم نوره ، ولو كره الكافرون . وقوله سبحانه « ثم لم يتوبوا »
يدل على أنهم لو تابوا لعفا الله عنهم وغفر لهم ما قدموا قبل تلك التوبة ، وهذه العبارة
ترجع أن المراد بهذه الآية غير أصحاب الأخدود ، لأن أصحاب الأخدود حين نزول
القرآن كان قد ثبت أنهم ماتوا كفارا بغير توبة ، فأى معنى حينئذ إلى ذكر « ثم لم يتوبوا »
وقوله سبحانه : « فلهم عذاب جهنم و لهم عذاب الحريق » اختلف المفسرون في المراد
منه ؛ فقال قوم : كلا العذابين يحصلان في الآخرة ، وأحدهما وهو عذاب جهنم
يحصل لهم بسبب كفرهم ، وثانيهما وهو عذاب الحريق يحصل لهم بسبب فتنتهم
المؤمنين وإيذائهم ، وقال آخرون : عذاب جهنم هو عذاب الآخرة الذى يعاقبهم
الله به على كل ما صنعوه من الآثام فى الدنيا ، وعذاب الحريق عذاب الدنيا فى
مقابل ما يفعلونه بالمؤمنين ، ويقال : عذاب جهنم هو عذاب الحريق ،
وعطف الثانى على الأول كما تعطف التفسير على ما تريد أن تفسره ، والمراد من ذلك
تهويل أمرهم وتقطيع حالهم وزيادة تخويفهم حتى كأنهم لا يعذبون عذابا واحدا
كما يعذب سائر المذنبين ، بل يعذبون عذابين ، وذلك كما تقول لمن أجرم جرما
شنيعا : سأعاقبك عقابا شديدا وسأدخلك السجن ، وأنت تريد بالعذاب الشديد
الذى ذكرته أولا إدخاله السجن الذى ذكرته ثانيا ، ولكنك جمعت بالكلام
على صورة عقابين تريد أن تزيد فى تحذيره وتخويفه

ثم إنه سبحانه وتعالى بعد أن انتهى من ذكر الكفار ويبين ما أعد لهم من
العذاب الأليم جزاء لهم على ما اجتاحت أيديهم من السيئات التى منها إيذاء المؤمنين ؛ أخذ
فى بيان حال المؤمنين وما أعد لهم من جميل الثواب وحسن الجزاء فقال سبحانه وتعالى :

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ [١١]

(إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير) فإن من تمام المناسبة أن يُذكر بعقيب ما أُعدَّ للأعداء من النكال الأليم والعذاب الدائم ذلك النعيم المقيم الذي أُعدَّ للأولياء والأنصار؛ ليكون ذلك أنسكى في إيلاام الأعداء وأشد في غيظهم وأبعث للأسى والحزن إلى نفوسهم، وقد جرى أسلوب القرآن الكريم على ذلك؛ فقلها تقرأ فيه آية يذكر الله تعالى فيها الكفار وما سيلاقونه يوم القيامة من الجزاء إلا قرأت بعدها وصف المؤمنين وما هيأه سبحانه لهم من الثواب، والجنات: تطلق على الأشجار الملتفة الكثيرة الأغصان الوارفة، وقد تطلق على الأرض التي تكون فيها هذه الأشجار، وقد تطلق على مايعم الأرض والأشجار؛ فإن أريد منها ههنا الأشجار وحدها كان جريان الأنهار من تحتها ظاهراً؛ لأن الماء يجري من تحت الأشجار؛ وإن أريد منها مايعم الأرض والعُرس كان معنى جريان الأنهار من تحتها أنها تجري من تحت بعضها الذي هو الشجر، لكن إن أريد بها الأرض وحدها وجب تقدير مضاف قبل الضمير: أى تجري من تحت أشجارها الأنهار، وقوله تعالى «ذلك» إشارة إلى الجنات التي أُعدَّها الله لهم، وإِنما جىء باسم الإشارة الذي للذكر لتأويل الجنات بالنعيم، وأُلحقت لام البعد باسم الإشارة للدلالة على بُعد المنزلة وعلو الدرجة ورفعها وأنها أبعد من أن تتصورها العقول؛ وقوله تعالى «الفوز العظيم» معناه هو الفوز الذي تصغر عنده الدنيا بما فيها من الرغائب، وأصل الفوز النجاة من الشر والظفر بالخير.

ثم إنه سبحانه وتعالى بعد أن ذكر وعيد الذين فتنوا المؤمنين ولم يتوبوا من

إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ [١٢] إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ [١٣] وَهُوَ الْغَفُورُ
الْوَدُودُ [١٤] ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ [١٥] فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ [١٦]

عملهم ، ووَصَفَ جزاءهم الذي أُعِدَّ لهم في الآخرة على ذلك ، وبعد أن عَقَبَهُ
بذكر حال الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ووَصَفَ ثوابهم العظيم على حُسْنِ
أعمالهم ؛ أَرَدَفَ ذلك كله بما يدل على تمام قدرته وعظيم جَبَرُوتِهِ ؛ ليكون ذلك
بمثابة تأكيد أنه فاعِلٌ مَسْبُوقٌ ذكره من الوعد والوعيد فقال سبحانه : (إن بطش
ربك لشديد ، إنه هو يبدىء ويعيد ، وهو الغفور الودود ذو العرش المجيد فعال لما يريد
واللام ، ثم انظر إلى الاتيان بالجملة الاسمية ، تدرك أنه سبحانه يريد أن يقتلع
ماعلق بنفوس هؤلاء الكفار من الإنكار لظهوره وغلبته وتام سيطرته ونفوذاً رادته ،
والبطش : هو الأخذ بالعنف والشدة ، فاذا وُصِفَ مع ذلك بأنه شديد كان ذلك
دالاً على تضاعفه وتفاقم أمره ، وقوله سبحانه عقيب ذلك « إنه هو يبدىء
ويعيد » معناه إنه يخلق خلقه ابتداءً ثم يفتنيهم ثم يعيدهم أحياء مرة ثانية ليجازيهم
على ما عملوه في حياتهم الأولى ، وكأنه يقول : إن مرجعكم إلىّ فاذا لم آخذ منكم
ولم أعاقبكم في هذه الحياة على ما تعملونه مع أوليائي وأنصار رسولى فلا تظنوا أن
ذلك إهمال منى لأمرهم وأمركم أو تقصير في شأنهم ؛ لأن لكم يوماً ترجعون فيه
إلىّ ، وهذا اليوم هو الذى قَدَّرْتُ الأخذ فيه ، ثم ذكر عقيب ذلك خمسة أوصاف
من صفات الرحمة والجلال والكبرياء : أولها « الغفور » ومعناه الذى يعفو ويستر
عباده بمغفرته ، وهو سبحانه يغفر مادون الشرك لمن شاء من عباده كما قال : « إن
الله لا يغفر أن يُشْرَكَ به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » والوصف الثانى « الودود »
ومعناه الذى يُحِبُّ أوليائه ويتودّد إليهم بالعفو عن صغار ذنوبهم وزيادة درجاتهم عنده

أو هو الذى يحبه أولياؤه لإدراكهم كمال عظمته وجلال قدره وعظيم تفرده فى ذاته وصفاته وأفعاله ، أو هو بمعنى الحليم ، وأنوصف الثالث « ذو العرش » ومعناه ذو الملك والسلطان والقدرة النافذة والأمر الذى لا يُرَدُّ ، والوصف الرابع « المجيد » ومعناه المتعالى صاحب الجلال ، ويُقرأ بالجر ^(١) فلا يكون من أوصاف الله تعالى ههنا ، بل يكون وصفا للعرش ، ولا يمتنع وصف غير الله تعالى بالمجيد ؛ فقد وصف الله سبحانه القرآن به فقال « بل هو قرآن مجيد » وقد وصف الله تعالى العرش بالكريم ؛ فلا يبعد وصفه بالمجيد ، والوصف الخامس قوله سبحانه « فعال لما يريد » وفعالٌ : خبر مبتدأ محذوف : أى هو فعال لما يريد ، والمعنى أنه سبحانه لا يمتنع عليه ما يريد من أفعاله وأفعال غيره ، فإن العبارة دالة على العموم ومثبتة أنه سبحانه قادر على جميع ما يريد ؛ فهو سبحانه لو أراد أن يؤمن هؤلاء الكفار أو أن يتوب هؤلاء المذنبون العُصاة ، لما بقى واحد منهم على حالته التى هو عليها ، وقد قال سبحانه « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة » ويدل هذا الوصف على أنه سبحانه يفعل ما يريد على ما يراه أوفق بالحكمة وأليق بالسداد ؛ لا يعترضه معترض ولا يغلبه غالب ؛ فهو يدخل أولياء الجنة لا يمنعه من ذلك مانع ، وهو يدخل أعداء النار لا يحول دونه حائل ولا ينصرهم منه ناصر ، وهو يُمهل العصاة على ما يشاء إلى أن يأخذهم متى شاء لا يناقشه أحد ولا يعارضه معارض ، وإن شاء عاجل بعضهم بالعقوبة فأخذه أخذ العزيز المقتدر وجعله نكالا وعبرة لمن بين يديه ولمن خلفه ، وهو يعذب من شاء منهم فى الدنيا وفى الآخرة ؛ ليس لإرادته حذ ولا لمشيئته منازع ، هو وليُّ الدنيا والآخرة ومدبر أمرها ومالك شأنهما ، ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن .

(١) هذه قراءة حمزة والكسائى ، ومجد العرش معناه علوه وعظمته ، والعرش مما يجب الايمان به وترك علم حقيقته وكنهه إلى الله الكبير المتعال

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ [١٧] فِرْعَوْنُ وَثَمُودَ [١٨]

ثم إنه سبحانه لما ذكر أصحاب الأخدود وبين حالهم ووصف ما كان من أيدائهم المؤمنين ، أراد أن يبين أن حال الكفار في كل عصر وشأنهم مع كل نبي أو شيعه نبي يجرى على هذا المنوال ، فهم دائماً يؤذون المؤمنين ويعادونهم ، ولم يرسل الله رسولا إلا لقي من قومه مثل ما لقي هؤلاء من قومهم ، ومثل ما لقي الرسول صلى الله عليه وسلم من قومه ، والمراد من ذلك كله - كما سبقت الإشارة إليه غير مرة - تسلية النبي وأصحابه وشد عزائمهم على التسدع بالصبر ولا يفتنهم الكفار عن دينهم ؛ فقال في ذلك سبحانه وتعالى : (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ) و « فرعون و ثمود » بدل من « الجنود » بدل كل من كل ، فان قلت : الجنود جمع ، وفرعون مفرد ، فكيف يسوغ أن يكون المفرد بدل كل من الجمع ، وبدائه علم العربية تقتضى أن يكون بدل الكل مساوياً للمبدل منه ، وكيف يستسيغ متكلم أن يجعل المفرد مساوياً للجمع ، قلت : إنك قد فهمت أن المراد من فرعون طاغية مصر الذي أرسل إليه نبي الله تعالى موسى وأخوه هارون ، فانطلقت تعترض وتستشكل ، ولكن المراد به هاهنا شيء آخر وراء ذلك ، وهو إما قومه ، والكلام حينئذ على حذف مضاف ، وتقدير الكلام هل أتاك حديث الجنود قوم فرعون ، وإما هو وقومه ، فيكون في الكلام اكتفاء ، يعنى أنه أريد فرعون وقومه لكنه اكتفى بذكر فرعون وحذف المعطوف وحرف العطف اكتفاء بالمعطوف عليه ، وإنما اقتصر على فرعون لأنه كان مدبر أمرهم وقائدهم إلى ما يريد وكانت كلمته كلمتهم وحاله حالهم ، و ثمود : هم قوم صالح عليه الصلاة والسلام ، ويجوز أن يكون « فرعون و ثمود » منصوبين بفعل محذوف ، وتقدير الكلام : هل أتاك حديث الجنود عنيت فرعون و ثمود ،

بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ [١٩] وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ [٢٠]

وحينئذ يذهب هذا الاشكال الذي اضطررنا لشرحه والرد عليه . وحديث هذين مشهور متعارف لهم ، فهم كانوا يعرفون من يهود المدينة وغيرهم ما كان من فرعون مع موسى كلم الله ، وما كان عليه من العناد والإصرار على الكفر ، ويعرفون كيف كانت عاقبة أمره ، وأن الله تعالى أغرقه في اليم هو وقومه وجعله نكال الآخرة والأولى ، وهم يعرفون قصة ثمود مع صالح عليه السلام وأنهم عقروا الناقة التي جعلها الله لهم آية فدمر الله بلادهم وأهلكهم ولم يترك لهم من باقية ، وذلك لأن ثمود كانوا يسكنون جزيرة العرب ؛ فهم قريب منهم وهم يمرون على ديارهم في أسفارهم ويسمعون أخبارهم ، ومن أجل ذلك ترك الله جل شأنه تفصيل شأن هؤلاء في هذه السورة اعتمادا على شهرة أمرهم ، ولأن الغرض هاهنا إلى بيان أن الكفار في كل عصر يتشابهون ، وأن حال الناس مع أنبيائهم لا يتغير ، وذلك الغرض تكفي فيه الإشارة إلى الأمم السابقة ولا يحتاج إلى البيان والتفصيل ، وانظر إلى قوله سبحانه وتعالى عقيب ذلك (بل الذين كفروا في تكذيب) تدرك أن المقصود هاهنا بيان أن حال المؤمنين مع الكفار في كل عصر يجري على هذا النهج الذي عليه كفار مكة ، ثم إنه سبحانه بعد أن طيَّب خاطر الرسول وآمن روعه وأثلج صدره وبعث الطائفة إلى قلبه ، وذكره بحال الأمم السابقة مع أنبيائهم وحال الأنبياء معهم وكيف كانوا يُصرُّون على العناد ويسترسلون في اللجاج ؛ بعد ذلك سلَّاه من وجه آخر فقال جلَّتْ كلمته : (والله من وراءهم مُحِيط) والمراد بهذا وصف اقتداره عليهم وأنهم في قبضته وتحت تصرفه وفي حوزته ، فهم كمن أحيط به من ورائه فانسدت عليه المسالك فهو لا يجد مهرباً ولا يستطيع الفرار إذا أراد الحِيط به أخذه ؛ فكأنه يقول : هم في قبضتي ، وأنا قادر على أخذهم متى أردت

بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ [٢١] فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ [٢٢]

ومن السهل على مَعْجَلَتِهِمْ بالعذاب على تكذيبهم إياك ، فلا تجزع من تكذيبهم واستمرارهم على العناد والاستكبار ، فإنهم لن يفوتوني إذا أردت الانتقام منهم . وقد يكون المراد من هذه العبارة أنهم شارفوا الهلاك وأوشكوا أن تذهب ريحهم ويفعل الله بهم ما فعل بالأمم التي كذبت رسالها ، وانظر إلى قوله تعالى : « وأخرى لم تتدروا عليها قد أحاط الله بها » وإلى قوله سبحانه « وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس » وإلى قوله جل ذكره « وظنوا أنهم أحيط بهم » تدرك أن الإحاطة قد يعبر بها عن مشاركة الهلاك ، والمعنى على ذلك إن هؤلاء بسبب تكذيبك قد شارفوا الهلاك وقربوا من الوقوع فيه . وقوله سبحانه : (بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ ^(١)) الغرض منه الرد على تماديهم في التكذيب ، والتأسيهم الأعذار الواهية التي لا تقوم عليها حجة ، وادعائهم أنه أساطير الأولين ، وأنه مما لا يعرفونه ولا عرفه آبائهم الأولون من قبل . والمعنى إن هذا الذي كذبوا به كتاب شريف متفرد في النظم والمعنى محفوظ من التحريف مصون عن التغير والتبدل ، وقد حكم الله فيه بسعادة من آمن بك وشقاوة من كفر ، وما يُبدّل القول لديه وما هو بظلام للعبيد . وقد أخبرنا الله تعالى في هذه الآية عن اللوح المحفوظ وأفادنا أن كتابه وهو القرآن الكريم مُودَع فيه ، وعلمينا أن نؤمن بذلك على هذا القدر الذي بينه القرآن الكريم ، وليس علمينا أن نبحث فيما وراء ذلك ، وأن نتلهس وجوه الرأي والتفكير ؛

(١) قرئ في قوله تعالى « بل هو قرآن مجيد » بإضافة قرآن إلى مجيد ، والمعنى حيث تبدل هو قرآن رب مجيد : أي ذي مجد وكبرياء . وقرئ في قوله تعالى « في لوح محفوظ » بجر محفوظ على أنه صفة للوح ، وبرزع محفوظ على أنه صفة لقرآن .

فان هذه الأشياء لاتدرك بالرأى ، ولا يمكن أن يقف على كنهها الفسكّر ، بل هي
مزالٌ للآراء ، ومزالق للأفكار ، والذين آمنوا هم الذين يَكُونُ علم حقائق ذلك
إلى الله وحده يقولون آمنا به كُلُّ من عند ربنا ، وأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون
ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله ، رَبَّنَا إِنَّا آمَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ ،
واتبعنا الرسولَ الذي أُرسلت ، ووقفنا عند ما حَدَّثَ ، وَمَنَعْنَا أَنْ نَفْسُنَا أَنْ تَبْحَثَ فيما
تفردت بعلمه واستأثرت ، فاجعلنا عندك من المقبولين ، وَرَضْنَا بِقَضَائِكَ وَقَدْرِكَ
يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ .

سورة الطَّارِقِ *

[وَهِيَ مَكِّيَّةٌ ، وَآيَاتُهَا سَبْعٌ عَشْرَةٌ آيَةً ، وَنَزَلَتْ بَعْدَ سُورَةِ

الْبَلَدِ] ^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ [١]

(١) لاختلاف في أن هذه السورة مَكِّيَّةٌ ، واختلاف في عدد آياتها ؛ فقليل :

سبع عشرة آية ، وقيل : ست عشرة آية

ابتدأ الله تعالى هذه السورة بالخلف بالسماء كالسورة السابقة ، وأقسم كذلك في مستهل هذه السورة بالطارق ، ثم فسَّره بعد تفخيم شأنه بأنه النجم الثاقب ، وفي هذه السورة ردٌّ على من كذَّب القرآن وادعى أنه أساطير الأولين بأنه القولُ الفصلُ ، وذَكَرَ الله تعالى في هذه السورة الإنسانَ بخلقِهِ وبمبدأ أمرِهِ ليتدبر في ملكوت الله ويستدلَّ منه على قدرة مُبدِعه وأنه لا يعجز عن إعادة الناس بعد موتهم إلى الحياة للحساب والقصاص والجزاء على ما أسلفوا في حياتهم الأولى

والسماء : كل ما علاك ، وقد كثر في كتاب الله تعالى الخلفُ بالسماء وبالشمس والقمر وبالليل لأن أحوالها في شكها وسيرها ومطالها ومغارها من عجائب الأحوال وغرائب الأمور التي تكفي النظرة الواحدة إليها للتصديق بأن لها خالقاً لا يُقدَّرُ قدرُهُ

والطارق : الذي يجيئك ليلاً ، ولا يقال لمن يجيئك نهاراً طارق ، ولهذا تستعمل العربُ

الطروقَ في صفة خيال الأحبَّاء ؛ لأن الخيال لا يكون إلا بالليل ، انظر إلى قول جرير :

وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ [٢] النَّجْمُ الثَّاقِبُ [٣]

طَارَقَتْكَ صَائِدَةُ الْقُلُوبِ، وَلَيْسَ ذَا وَقْتُ الزِّيَارَةِ ؛ فَارْجِعْ بِسَلَامٍ

ثم انظر إلى قول ذي الرمة :

أَلَا طَرَقَتْ مَيَّ هَيُومًا بِذِكْرِهَا وَأَيَّدِي النَّثْرِيَا جُنْحًا بِالْمَغَارِبِ

ثم انظر إلى قول الآخر :

أَلَا طَرَقَتْ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ زَيْنَبُ عَلَيْكَ سَلَامٌ !! هَلْ لَمَّا فَاتَ مَطْلَبُ

تدرك أن الطروق في كلام العرب لا يكون إلا بالليل ، ثم إنه سبحانه وتعالى بعد أن ذكر الطارق مُقْسِمًا به كان هذا مما لَا يَسْتَعْنِي سَامِعُهُ عَنْ مَعْرِفَةِ الْمُرَادِ مِنْهُ ؛ فَقَالَ سُبْحَانَهُ : (وما أدراك ما الطارق النجم الثاقب) ففسره بأنه النجم الثاقب ، بعد أن عظم شأنه ونفخ أمره : أي هو طارق عظيم الشأن جليل المقدار رفيع المنزلة ، وهو النجم الثاقب ، الذي يهتدى به في ظلمات البر والبحر ، ويُوقَفُ به على أوقات الأمطار غيرها من الأمور التي يحتاجها الإنسان في حياته . والمراد بالنجم جنس النجم ، لا نجم بعينه ، وقد قال قوم من المفسرين إن المراد به الثريا ، وقال قوم : المراد به زحل ؛ فمن ذكر منهم ذلك على أنه مثال للنجم فهو صادق وكلامه صحيح ، ومن ذكر منهم ذلك على أنه المراد دون غيره من النجوم فكلامه لا يستند إلى حجة وليس في الكلام الكريم ما يدل عليه فلا يجوز الصير إليه ، وقد وصف سبحانه النجم بالثاقب لأنه يثقب الظلام بضوئه فينفذ فيه ، أو لأنه يطالع من المشرق فينفذ في الجو كما يثقب الذي يثقب به الشيء ، أو لأنه يُقْدَفُ به الشيطان إذا حاول استراق السمع فينفذ فيه ويحرّقه ، أو لأن المراد به ما كان أعلى النجوم وأرفعها ، والعرب تقول للطائر إذا ارتفع في الجو فاحق السماء : قَدَثَقَبَ الطائر

إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ [٤]

وقوله سبحانه وتعالى : (إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ) هذا هو الْمُقَسَّمُ عليه ، والمراد بالنفس النفسُ الانسانية ، والمراد الإخبار على سبيل التأكيد عن الاعتناء بهذه النفس وإقامة الحفظة عليها وأنها لم تُتْرَكْ سُدىً ولم تُرْسَلْ مُهْمَلَةً بل قد أُرْصِدَ عليها من يحفظها ، ومن يُحْصَى عليها أعمالها ، وقد اختلف المفسرون في بيان المراد من الحافظ ؛ فقال قوم : هو الله جل شأنه الذي يحفظه تبقى الموجودات وقد قال سبحانه : « فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين » وقال قوم : الحفظة هم الملائكة كما قال جل شأنه « ويرسل عليكم حَفَظَةً » وقال سبحانه « عن اليمين وعن الشمال قعيد ، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » وقال « وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون » وقال « لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ » وكما اختلفوا في الحافظ اختلفوا في عمله ؛ فذهب قوم إلى أن هؤلاء الحفظة يكتبون على الانسان أعماله ويُحْصُونَهَا دَقِيقَةً كَانَتْ أَوْ جَلِيلَةً ، حتى يخرج له ذلك يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا ، وقال آخرون : يحفظون عمل الانسان ورزقه وأجله ، وسواء أكان المراد هو هذا أم كان المراد الأول فإن في هذه الآية وعيدا للكفار وتسليمة للنبي صلى الله عليه وسلم ولأصحابه ؛ فكأنه يقول : إذا كان هؤلاء القوم قد آذوك وأَعْتَوَكْ وَأَصْرَثُوا عَلَى كُفْرِهِمْ وَاسْتَكْبَرُوا عَنِ الْإِسْتِجَاعِ إِلَى دَعْوَتِكَ وَأَجَّوْا فِي طَغْيَانِهِمْ فَلَا تَحْزَنْ لذلِكَ وَلَا يَصِيقُ صَدْرُكَ بِهِمْ وَلَا تَنْظُنْ أَنَّهُمْ لَمْ يَنْتَرِكْهُمْ ، بل ثق بأننا سنجازيهم على أعمالهم هذه بما يستحقونه من الجزاء لأننا نُحْصِي عليهم أعمالهم ونحفظها فلا يذهب عنا شيء منها ، ثم نحن نحاسبهم على كل صغيرة وكبيرة يوم يُعْرَضُونَ علينا فنخرج لهم كتب أعمالهم فإذا رأوها وجدوا أنها لم تغادر شيئا مما عملوه ، وانظر إلى قوله تعالى في سورة مريم : « فلا تعجل عليهم إنما نعدُّ لهم عَذَابًا » تدرك أنه

فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ [٥] خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ [٦] يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ
الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ [٧]

سبحانه يحصى أعمال هؤلاء وغيرهم ، ولا شك أن هذا العدل الحكمة وغرض عظيم ،
وهو المحاسبة عليها .

وبعد أن انتهى سبحانه من بيان أن الناس لم يخلقوا عبثاً ولم يتركوا سُدىً
أراد أن ينبه الانسان إلى الدليل الواضح على صحة المعاد وأنه لا بد أن يرجع إلى
ربه فيجازيه على ما عمل ؛ ولما كان أقربُ شئ إلى الانسان نفسه التي إن تدبَّرَ
أمرها ووقف على سرِّها وعرف حقيقتها اهتدى إلى الصواب ، بدأ جل شأنه
يذكره بنفسه وينقت نظره إلى كيفية خلقه ونشئته ، فقال سبحانه : « فلينظر
الإنسان مِمَّ خُلِقَ ، خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب »
تقول : دَفَقْتُ الماءَ أدْفَقُهُ - من باي ضرب ونصر - إذا صببته ، وأنت دافق ،
والماء مدفوق ومُندَفَق : أى منصب . وحكى الليث والخليل أنه يقال : دَفَقَ الماءُ
دَفْقًا ودُفُوقًا ، إذا انصبَّ فالماء دافق : أى منصب ؛ فعلى ما حكاه الخليل
والليث يكون الفعل لازماً ، وعلى ما حكاه الجماعة يكون هذا الفعل متعدياً . وقد
اختلف العلماء في تخريج قوله تعالى « ماء دافق » فأما من حكى أن الفعل يأتي
لازماً فالأمر عندهم لاحتياج إلى عناء وتقدير ؛ وذلك لأن الماء ينصبُّ ويندفع
وهذا المعنى يؤديه لفظ دافق من الفعل اللازم ، وأما من ذكر أن هذا الفعل
لا يكون إلا متعدياً فقد أشكل الأمر عليهم بعض الاشكال لأن الدافق ليس هو
الماء ، إذ الماء مدفوق لا دافق ، وإنما الدافق الرجل ، ولهذا اضطروا إلى التماس
التخريجات ؛ فذهب قوم منهم الزجاج إلى أن هذا اللفظ ليس اسم فاعل كضارب
وناصر ، وإنما هو صيغة نَسَب مثل لا بن وتامر ودارع وفارس ونابل وطاعم

وكسٍ : أى ذى لبن وتمر ودرع وفرس ونبل وطعام وكسوة ، وذلك مثل قول
الخطيئة :

دَرِعِ الْمَكَارِمَ لَا تَرْحَلْ لِبَغِيَّتَيْهَا وَقَعْدُ فَانْكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الْكَاسِي
يريد فانك أنت ذو الطعام وذو الكسوة ؛ لأنه لو كان الطاعم الكاسي
اسم فاعل في قول الخطيئة لكان معناه فأنت الذى تطعم غيرك وتكسوه ، ولا شك
أن هذا معنى فاسد لا يدل عليه صدر البيت ولا الغرض المسوقُ إليه البيت ، ولا يلتئم
مع واحد منهما ، وذهب قوم إلى أن هذا اللفظ - وهو « دافق » - اسم فاعل مأخوذ
من الفعل المتعدي ، وكان من حقه أن يقع وصفا للرجل ، ولكنه وصف به المفعول
- وهو الماء - مجازا ، وذلك كما يقولون : سِرَّ كَاتِم ، وهم ناصب ، وليل نائم ، وقد
وقع مثل ذلك في القرآن الكريم ، مثل قوله تعالى : « في عيشة راضية » وإنما
العيشة مرضية لا راضية ، والراضى هو صاحب العيشة . وجاء ذلك أيضا في كلام
العرب فقال النابغة الذبياني : —

كليني لهمَّ يَا مُمِيْمَةً نَاصِبٍ ولیل أفا سيه بطيء الكواكب
والصُّلب - بضم الصاد وسكون اللام - ومثله الصُّلب - بضم الصاد واللام جميعا
- والصُّلْب - بفتحهما جميعا - والصالب أيضا : هو الظهر أو هو فقاره . والترائب
جمع تريبة ، وهى عظم الصدر حيث تكون القِلَادَة ، وقد قال امرؤ القيس :
* تَرَائِبُهَا مَصْقُولَةٌ كَالسَّجْنَجَلِ *

والمراد من هذه الآية الكريمة الإشارة إلى مبدأ خلق الانسان ، وأنه
خُلِقَ من هذا الماء الضعيف شأنه . وقد اختلف العلماء في بيان ما تدلُّ عليه هذه
أَيُخْلَقُ الإنسان من ماء الرجل وحده ، أم يخلق من ماء الرجل والمرأة جميعا ؟
فقال قوم : الولد مخلوق من الماء الذى يخرج من بين صلب الرجل وترائب ؛ لأننا

لو قلنا إنه مخلوق من الماء الذى يخرج من صلب الرجل والماء الذى يخرج من
 ترائب المرأة لما كان هناك ماء واحد يصح أن يقال فيه إنه يخرج من بين الصلب
 والترائب ، بل هو حينئذ خارج من الصلب وحده ومن الترائب وحدها ، وأيضا
 فلأن الله تعالى وصف هذا الماء بأنه دافق قبل وصفه بالخروج من بين الصلب
 والترائب ، وماء المرأة لا يكون دافقا ؛ فوجب لهذين الأمرين أن يكون الولد
 مخلوقا من ماء الرجل وحده ، وبعض الناس يبالغ فى ذلك فيزعم أنه ليس للمرأة
 ماء البتة ، ويزعم أن الطب وعلم الأبدان دلّ على ذلك ؛ وقال قوم : الولد مخلوق
 من ماء الرجل وماء المرأة جميعا ، وهذا هو الذى تدلّ عليه الأحاديث الكثيرة
 الواردة عن صاحب الشريعة صلى الله عليه وسلم ؛ منها قوله صلوات الله وسلامه عليه
 « إذا غلب ماء الرجل عاد شبه الولد إليه أو إلى أقاربه ، وإذا غلب ماء المرأة
 عاد شبه الولد إليها أو إلى أقاربها » فأثبت للمرأة ماء ، وأثبت أنه يمتزج بماء الرجل
 وأثبت أن أحدهما يغلب صاحبه . وقول من قال إن المرأة لاماء لها غير صحيح البتة
 وذلك لأنه لو كان يقصد من ذلك أنها لا ماء لها ينفصل إلى خارج ويتدفق منها
 مثل تدفق ماء الرجل فهذا مُسَكَّمٌ ، لكنه لا يدل على أن المرأة ليس لها ماء يختلط
 بماء الرجل ، وإن قصدوا أنها ليس لها ماء أصلا فهذا قول غير صحيح ، ونحن ننهبهم
 إلى أن العقل وعلم الطب الذى زعموا أنهم يتمسكون به قد دلّ جميعا على أن المرأة
 إفرازات تدعو إليها الضرورة ، وهذه الافرازات تشبه اللعاب الذى يجرى فى فم
 الانسان والذى تدعو إليه الضرورة ، أولست ترى أن الله جلت قدرته لو أنه لم
 يخلق هذا اللعاب فى فم الإنسان لكان مضغ الأكل وازدراده مما لا يتيسر بل
 لكان داعيا إلى الخرج الشديد ومسببا للاحتقان والآلام الجسيمة ، فكذلك
 لو لا أن المرأة سائلا منتشرا على جذران محلها لكان فى أمرها عُسرٌ
 وجهْدٌ عظيمان ، ثم إن لها بويضات هي التى تحمل اللقاح من ماء الرجل ، وهذه

البويضات تنتقل من المسكان الذى تتولد فيه لتلتقى بماء الرجل ، فلا بد لها من أن تنزلق من مكانها ، فهذا الماء يتزايد حينئذ لتنزلق به البويضات . هذا كلام مجمل سُقْمَتُهُ ههنا للإشارة إلى الرد على القائلين بأنه ليس للمرأة ماء ، وأنه لا يمكن أن يغلب أحد المائين الآخر ؛ يريدون بذلك الطعن على الحديث النبوى وعلى هذه الآية الكريمة ، ويمكنك أن تفهم معنى غلبة أحدهما الآخر بعد أن أعطيناك صورة قريبة للأمر ؛ ثم إن الغرض من هذه الآية توجيه نظر الانسان إلى مبدأ خلقه ودلالته على قدرة الله التامة التى لا يعجزها شيء ليستدل بذلك على قدرته سبحانه على أن يعيد خلقه مرة أخرى ليجازيه على عمله ، أما دلالة مبدأ خلق الانسان على تمام قدرة الله فلأن من تأمل فى الماء الذى خلق منه وَجَدَ ماءً مائعا لا تصوير فيه يتحوّل مخلوقا كاملا مملوءا بالحياة والعقل والقدرة ذا أعضاء لكل عضو منها وظيفة يقوم بها ، فاذا علم ذلك أيقن أن هذا التصوير والتقدير وإنشاء الأعضاء والآلات البدنية وإيداع كل عضو من القوة ما به يتمكن من تأدية عمله تمام التمكن لا بد أن يكون له مصوّر ومقدّر ومنشئ لأنه يستحيل أن يُوجدَ شيء من تلقاء نفسه بغير موجد أوجده ، ثم إن هذا الموجد لا بد أنه ليس من أهل القُدْر المحدودة . وإذا أثبت العقل بالتفكير فى مبدأ خلق الانسان هذا المقدار سهل عليه بعد كل ذلك أن يصدق بما جاء به الشرع وهو أن هذا الموجد المقدر هو الله تعالى ، وهو بالتصديق بالبعث والقيامة أخرى ؛ لأنه يرى أن خلق الانسان من الجمع بين أجزاء كانت متفرقة فى جسم الأبوين ، بل هى متفرقة فى جميع العالم ؛ لأن هذا الماء متولد من خلاصة الأطعمة التى يتناولها الانسان ، وهذه الأطعمة قد كانت متفرقة فى أنحاء متباعدة ، فجمعها الله تعالى ثم جمع الأبوين ، ثم جمع ماءهما فى مكان واحد ثم خلق منه الولد ، فأما إعادته فليس فيها مثل ذلك ، فهى بغير شك أهون . ولهذا الذى ذكرناه لك والارتباط العظيم بين دلالة منشأ الانسان على قدرة الله

إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ [٨] يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ [٩]

ودلالته على أمر البعث تجد الله قد ذكر بعده أمر المعاد فقال : (إنه على رَجْعِهِ لقادر) والضمير في « إنه » يرجع إلى الله تعالى الخالق للانسان من ماء دافق ، فان قالت : إن الله تعالى لم يتقدم ذكره قبل ذلك حتى يصح عود الضمير إليه ، وقد تقرر أن مرجع الضمير لا بد من تقدمه . قلنا : إنه قدم ما يدل عليه وهو قوله تعالى « خُلِقَ » فان هذا الفعل يشير إلى الخالق بمجرد ذكره ، فاذا قال بعد ذلك « إنه » فَيُفْهِمُ أن المراد به الخالق الذي يشير إليه الفعل المذكور قبلا ، وتدبر في قوله تعالى « اعدلوا هو أقرب للتقوى » تجد الضمير يعود إلى العدل الذي يفهم من الفعل المذكور قبله وهو « اعدلوا » . ثم انظر إلى قول الشاعر :

إِذَا زَجَرَ السَّفِينَةُ جَرَى إِلَيْهِ وَخَالَفَ ، وَالسَّفِينَةُ إِلَى خِلَافِ

وَتَقَرَّرَ مرجع الضمير في « إِلَيْهِ » تجده عاودا إلى السَّفِينَةِ الذي أشار إليه ذكر السفينة قبله . والرجعُ : مصدر قولك « رَجَعْتُ الشَّيْءَ » إذا رددته . والمعنى إن الذي قَدَّرَ على خلق الانسان ابتداءً من هذا الماء قادر على أن يرده حيا بعد أن يموت . وهذه الآية في دلالتها على ذلك مثل قوله تعالى : « قل يحييها الذي أنشأها أول مرة » وأصرح منهما قوله سبحانه : « وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السموات والأرض ، وهو العزيز الحكيم » وقوله تعالى : (يوم تبلى السرائر) فيوم : ظرف متعلق برجعه ، وتبلى : أصل معناه تُخْتَبَرُ وتمتحن ، والمراد منه ههنا معنى تظهر . والسرائر : جمع سريرة ، وهى الأمور التى تسكون بين العبد وربّه ، والمعنى أن الله سبحانه قادر على أن يعيد الانسان إلى الحياة فى اليوم الذى تمكشّف فيه المستورات وتبين الخفايا ، فيُبْدِئُ الله تعالى كُلَّ سِرْمَنِهَا ؛ فيكون إبداءه زِيناً فى وجوه بعض الناس ، وشَيْئاً فى وجوه آخرين ،

فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ [١٠]

فأما من ظهر أنه كان يؤدي أعماله على أوجهها المطلوبة شرعا لا يرأى بها ولا يدهن ولا يمارى فإن البشر يظهر على وجهه فيشرق ويتلأأ ؛ وأما من بدا أنه كان يرأى الناس بأعماله ولا يؤدي ما طاب منه على الوجه الذي طوب به فإنه يسود وجهه وتظهر السكابة عليه . وفي هـ — هذه العبارة من التحذير الشديد والتخويف من الرياء وعدم إتقان الأعمال وتأديتها على الوجه المرغوب فيه ما ليس يخفى على متأمل . وقوله تعالى : (فما له من قوة ولا ناصر) معناه أن الانسان يومئذ ليست له قوة يدفع بها عن نفسه ما حلَّ به من العذاب ، وليس له ناصر ينصره ويدفع عنه ؛ إذ لا تجزى هنالك نفس عن نفس شيئا . وإما نفى الأمرين لأن القوة التي للانسان والتي يُدافع بها عن نفسه إما أن تكون من ذاته ، وإما أن تكون مستفادة من غيره ؛ فنفي عنه الأولى بقوله سبحانه « فما له من قوة » ونفي عنه الثانية بقوله « ولا ناصر »

ثم إنه سبحانه وتعالى بعد أن بين أن على كل نفس من أنفس الخلائق حافظا يحفظها ويحصى عليها أعمالها ، وهذا يدل على إثبات الألوهية ، ويدل أيضا على إحاطة علمه سبحانه بالأنفس وما يكون منها ، وعلى قدرته وتمكّنه منها في جميع أطوارها ، وبعد أن بين قدرته سبحانه على إعادة الإنسان بعد الموت ولقت نظر الانسان إلى التدبر في برهان هذه القدرة الذي لا يبقى بعده في نفسه أدنى ريب أو شك في المستدلّ عليه ؛ بعد ذلك كله أخذ في شأن آخر ، وهو إثبات صحة رسالة رسوله الكريم إلى الناس ، وإثبات صحة ما يأتيهم به من عند الله ، وأهمه القرآن الكريم الذي كانوا يقولون عنه إنه أساطير الأولين ،

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ [١١] وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ [١٢] إِنَّهُ
لَقَوْلُ فَضْلٍ [١٣] وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ [١٤]

وأقسم سبحانه على ذلك لتأكيد صحته لهم على حسب ما تعارفوا من أساليب الكلام ؛ فقال جل شأنه : (والسماء ذات الرجوع والأرض ذات الصدع) إنه لقول فصل ، وما هو بالهزل (تقول : رَجَعْتُ الشيءَ إلى الشيءِ رَجْعًا وَمَرْجَعًا وَمَرْجَعًا ، إذا أعدته إليه وصرفته نحوه . وكذا تقول : رَجَعْتُ الشيءَ عن الشيءِ ؛ إذا صرفته عنه ؛ فالرجع على هذا في أصل وضعه بمعنى إعادة الشيء إلى حالة أو مكان كان فيه ذلك الشيء أولاً ، وقد قال المفسرون : المراد بالرجع في هذه الآية الكريمة المطر ، وإنما سمي المطر رجعا لكونه يُعَادُ إلى الأرض من السماء ، ويبان ذلك أن السحاب تحمل بخار الماء من البحار فترفعه إلى السماء ، ثم يصير هذا البخار مَطَرًا فيعود إلى الأرض ، وقد أشار إلى ذلك أبو تمام في قوله : —
كَالْبَحْرِ يُمِطُّهُ السَّحَابُ ، وَمَا لَهُ فَضْلٌ عَلَيْهِ لَأَنَّهُ مِنْ مَائِهِ

وكانت هذه عقيدة العرب من قديم ، وقد أثبت العلم الحديث في هذه الأيام صحة هذه الفكرة . فقوله تعالى « وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ » هو قَسَمٌ بالسماء ذات المطر ، وقد أقسم الله تعالى بها ووصفها بهذا الوصف لأنها آية من الآيات العظيمة الدالة على ربوبيته وقدرته ، وقوله سبحانه « وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ » فالصدع في الأصل تَفَرُّقُ الأجزاء ، وهو أيضا الشَّقُّ ، وذلك لأن الشق إنما ينشأ عن تَفَرُّقِ بعض الأجزاء وانفصالها عن بعض ، وقد سَمَّوْا النَّبَاتَ صَدْعًا لأنه يَصْدَعُ الأرض ويشققها عند خروجه من باطنها ، فهو من باب وصف الفاعل بالمصدر ثم تسميته بما هو من أوصافه ، وقد أقسم سبحانه بالأرض ووصفها بهذه الصفة لأنها

أيضا آية من آيات قدرته وشاهد من شواهد ربوبيته . وآية آية أظهر للعرب من المطر الذي يبذل جدبهم خصبا، ويعيد مَوَات أرضيهم حياةً ، ويصير به لبيب صحرائهم نعيما ، ثم آية آية أبلغ في أن يُذكروا بها من النبات الذي عليه حياتهم وحياة أنعامهم وهم قوم في بلادٍ مُقفرة جدباء . وقوله سبحانه وتعالى : « إنه لقول فصل » هو المقسم عليه ، والضمير في « إنه » عائد إلى القرآن الكريم ، ومعنى أنه فصلٌ أنه يفصل بين الحق والباطل وأنه يقطع الجدال والمرء ، وذلك كماسمى القرآن فرقانا لكونه يفرق بين الحق والباطل ، وهو وصف بالمصدر ، مثل قولهم : هذا رجل عدل ، وهذا رجل رضا ، ويقال : الضمير في « إنه » عائد إلى إخباره بقدرته على إعادتهم بعد الموت في قوله « إنه على رَجْعِهِ لِقَادِرٌ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ » وفي إقسامه على ذلك بالسماء ذات الرجوع والأرض ذات الصدع إشارة جلية إلى أنه كما يرسل على الأرض القاحلة المجذبة أمواه الأمطار فتصبح بها الأرض مخضرة مورقة موقنة فتحيي الأرض بذلك بعد الموت ، وهم يشاهدون ذلك متكررا بين أعينهم لا يحجبهم عنه حاجب ، فانه يُحييهم بعد موتهم ؛ لأن إحياءهم ليس بأشق من إحياء الأرض المَوَات ، وقد تكرر في الكتاب العزيز الاستدلال على صحة البعث بتوجيه نظرهم إلى ذلك ، فمن ذلك قوله سبحانه : « فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يُحيي الأرض بعد موتها ؛ إن ذلك لحكي الموتى ، وهو على كل شيء قدير » ومن ذلك قوله تعالى : « ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، إن الذي أحياها لحكي المرقى ، إنه على كل شيء قدير » وقد ذكر هذا مع غيره في قوله جل شأنه : « ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكركون ، أفأنتم مأتحرون ؟ أم أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ؟ لو نشاء لجعلناهم خُطامًا فظلم تفكهن ، إنالمغرمون ، بل نحن محرمون . أفأنتم الماء الذي تشربون ؟ أم أنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ؟ لو نشاء لجعلناهم أجاجًا فلولا تشكرون . أفأنتم النار

إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا [١٥] وَأَكِيدُ كَيْدًا [١٦]

التي تُورُونَ؟ أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون؟ نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين . فسبح باسم ربك العظيم « وقوله سبحانه « وما هو بالهزل » معناه أنه جدُّ لا لعب فيه . وذلك أن البيان قد يُدَّكر على سبيل الجد والاهتمام بشأنه ، وقد يكون على غير هذا السبيل ، فبين سبحانه أن هذا القول القاطع المرء والجدال الحاسم لمادة النزاع والخلاف ليس مما يذكر بغير اهتمام لشأنه وجدِّ في أمره . وقوله سبحانه وتعالى : (إِنْهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ، وَأَكِيدُ كَيْدًا) أما الكيد الذي وقع من الكفار فأشنع ؛ منها إلقاء الشبهات في سبيل الدعوة التي يقوم بها الرسول ، وقصدُهم بذلك صدَّ الناس عن اتباعه ، فمن هذه الشبهات إنكارهم البعث وقولهم « إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ » واستبعادهم لأمر البعث وقولهم « مَنْ يَحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ » وإنكارهم عليه تسفيه أحلامهم وتضليل عقولهم ودعوته إلى الوحدانية وخلع الأصنام وقولهم في ذلك « أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ؛ إِنْ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ » وإنكارهم نبوته ودعواهم أنه لا يصلح للنبوَّة وقولهم « لَوْلَا نَزَلَ الْقرآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ » وإنكارهم القرآن ، وأنه من عند الله وقولهم في شأنه « أَصَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا » ومن أنواع كيدهم الطعن في النبي بكون ساحراً ، أو شاعراً ، أو مجنوناً ، ومن أنواع كيدهم تبصيرهم قتله مراراً « وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ ^و أَوْ يَقْتُلُوكَ » وأما المراد بقوله سبحانه « وَأَكِيدُ كَيْدًا » فهو أنه يُقابل كيدهم بنصرة رسوله وإعلانه دينه وجعل كلمته العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ، ويقال : كيده سبحانه إمهالهم حتى يأخذهم على غرة أخذنا أليماً شديداً . وقد سَمَّى سبحانه ذلك كيداً للمشكلة لوقوعه بجوار كيدهم وذلك كما قال سبحانه « نَسُوا اللَّهَ فَنَسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ » وكما قال « يَخَادِعُونَ اللَّهَ »

فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَمَلُهُمْ رُؤْيَا [١٧]

وهو خادعهم « ومثل ذلك قول الشاعر :

أَلَا لَا يَجْهَلُنَّ أَحَدٌ عَلَيْنَا
فَنَجْهَلُ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَ

وقوله سبحانه وتعالى : (فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ) هو أمر للنبي صلى الله عليه وسلم بأن يتأنى عليهم ويتريث ليرى أخذه تعالى لهم ، وكأنه يقول له : لا تستعجل عذابهم ولا تطلب الإسراع باهلاكم فاذا نملهم ليزدادوا إثمًا وليشتد طغيانهم حتى إذا أخذنا هم لم يبق لهم من يرجوهم ، وقد بين له أن هذا الإمهال المأمور به ليس طويل الأمد وإنما هو إلى أجل قريب فقال سبحانه (أمهلهم رؤيًا) والمعنى إنا سنأخذهم عما قريب ؛ وفي ذلك بعث بالطمأنينة إلى قلوب المؤمنين الذين كانوا يخافون هؤلاء الكفار ويخشون صولتهم ويحذرون اعتداءاتهم المتكررة عليهم ، وفيه - مع ذلك - تحذير للكفار وإرهاب لهم وتخويفهم من عاقبة إصرارهم على ما هم عليه من الكفر والمشاقة لله ولرسوله والمؤمنين ، وفيه استنهاض للهمم أن تنطلق في طريق غير طريق هؤلاء الكفرة الفجرة .

سُورَةُ الْأَعْلَى *

[وَهِيَ مَكِّيَّةٌ ، وَآيَاتُهَا تِسْعَ عَشْرَةَ آيَةً ، وَنَزَلَتْ بَعْدَ سُورَةِ

التَّكْوِينِ] ^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى [١]

* وتسمى سورة « سَبِّحْ »

(١) لاختلاف في أن آيات هذه السورة تسع عشرة آية ، واختلفوا في مكان

نزولها ؛ فقيل : هي مدنية ، والصحيح أنها مكية

قوله تعالى : (سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى) التسبيح معناه التَّنْزِيهِ ، ومعنى سَبِّحْ

اسم ربك نَزَّهَهُ عن كل مالا يليق به ، فلا تذكره إلا على وجه التعظيم له ، ولا

تذكره في مكان لا يليق ذكره فيه ، ولا تُرْذِ به مَعْنَى لا يليق بعظمة ربك الكبير

المتعال الذي لا ندَّ له ولا مثْل له ولا مُشابه له ؛ ولا تطلق اسم ربك على غيره زاعماً

أنه يشاركه ويساويه فيه . فأنت مكلف بأن تنزه اسم الله عن كل ذلك . ويقال

كلمة « اسم » هاهنا صلة ، والمراد سَبِّحْ ربك ، وقد وقعت هذه الكلمة متحمة في

قول لبيد بن ربيعة العامري :

إِلَى الْخَوْلِ ثُمَّ اسْمُ السَّلَامِ عَلَيْكَ وَمَنْ يَبْكُ حَوْلًا كَمَا لَقَدْ اعْتَذَرَ

يريد ثم السلام عليك ، فزاد كلمة اسم ، والمعنى على هذا الوجه نَزَّهَ ربك عن

كل مالا يليق به في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله وفي أسمائه وفي أحكامه ، أما تنزيه

ذاته تعالى فأن تعتقد أنها ليست مشابهة للذوات وليست جَوْهَرًا وَلَا عَرَضًا ، وأما

تنزيه صفاته تعالى فأن تعتقد أنها ليست بمحادثة ولا نهاية لها كما أنها ليست ذات

نقص ، وأما تنزيه أفعاله تعالى فأن تعتقد أنه مالك مطلق لا اعتراض لأحد عليه في ملكه يفعل ما يشاء له الحكم وله الأمر ، وأما تنزيهه في أسمائه فالأ تذكركه باسمه إلا إذا ورد عن الشريعة إطلاقه عليه ، وزعم قوم أن كل مالا يؤهم نقصا من الأسماء يجوز إطلاقه عليه ، وأما تنزيه أحكامه فهو أن تعتقد أنه تعالى لا يكلفنا هذه التكاليف لنفع يعود عليه ، بل هو لأنه مالكنا ومدير أمورنا وخالقنا ؛ فنحن أحقاء بأن نبذل غاية الوسع في شكره سبحانه على هذه النعم التي تتوالى علينا والآلاء التي لا يحيط بها الحصر ، ومن الشكر أن نقوم بما فرضه علينا ، وانظر إلى قوله سبحانه « وما خلقت الجن والأنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون » ، ويقال : معنى تسبيح الله وتنزيهه ألا نعرض جلاله للكفر فيقدموا على النيل منه ، كما قال سبحانه : « ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم » . وقد روى عن عقبة بن عامر أنه لما نزل قوله تعالى « فسبح باسم ربك العظيم » قال النبي صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم : اجعلوها في ركوعكم ؛ ولما نزل قوله تعالى « سبح اسم ربك الأعلى » قال : اجعلوها في سجودكم ، ومن أجل هذا الحديث ونحوه ذهب جماعة من العلماء إلى أن المراد من قوله تعالى « سبح اسم ربك الأعلى » صلّ باسم ربك ، فالتسبيح هاهنا - على هذا - بمعنى الصلاة . ومعنى قوله تعالى « الأعلى » أنه أجل وأعظم من كل ما يصفه به الواصفون ومن كل ما يذكره به الذاكرون ، وأن جلال كبريائه أعلى مما تصل إليه معارفنا وإدراكاتنا ، وأن صنوف نعمه وآلائه أعلى مما يبلغه حمدنا وثناؤنا ، لا نحصى ثناء عليه ، هو سبحانه كما أثنى على نفسه ، وأن أنواع حقوقه على عباده أعلى مما تقي به طاعاتنا وأعمالنا ، وهذا الوصف مشعر باستحقاقه سبحانه للتنزيه والتقديس والتسبيح المأمور به ؛ فكأنه يقول : سبح باسم ربك لأنه الأعلى الذي غلبت قدرته ، وقهر سلطانه ، والذي تفرد بالعزة والكبرياء ، وقوله جل (١٠ - ٣٠)

الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى [٢]

ذكره : (الذي خلق فسَوَّى) هو وما بعده استدلالٌ على وجود الربِّ وقدرته التامة ، وفيه مع ذلك بيانٌ مبدأ خلق الإنسان والنبات ، وهذان قد ذُكرا في السورة السابقة ، أما مبدأ خلق الانسان وتكوينه فذكره في السورة السابقة في قوله تعالى : « فلينظر الانسان مم خلق ، خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب » وذكره في هذه السورة في قوله سبحانه « الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى » وأما خلق النبات وتطوره فذكره في السورة السابقة في قوله جل شأنه : « والسماء ذات الرجع ، والأرض ذات الصدع » على ما سبق بيانه ، وذكره في هذه السورة في قوله تعالى : « والذي أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى » وأنت تلاحظ أن ذكر خلق الانسان وتكوينه قد كان مفصلاً بينا في السورة السابقة فذكر هاهنا على سبيل الإشارة والاجمال ، وعلى العكس من ذلك خلق النبات ، فقد ذكر مجملاً على سبيل الإشارة في السورة السابقة ثم ذكر في هذه السورة بينا مفصلاً ؛ ليكون في مجموع السورتين ذكر الأمرين على التفصيل والبيان الوافي ، والغرض من ذكر ذلك كله الاستدلال على وجود الرب وقدرته وتمكنه من فعل ما يريد ، والاستدلال على ذلك بما ذكر مركز في طبائع الناس ولكنه لا يهتدى إليه إلا من هداه الله فلم تتمكن الشياطين من نفسه ولم يتأصل الشرُّ في قلبه ، انظر إلى إبراهيم خليل الرحمن عليه الصلاة والسلام وقد أراد أن يستدل على ربه ووحدانيته وقدرته وانفراده باستحقاق التوجه إليه ، وأراد أن يعنف قومه على اتخاذهم الأصنام آلهة ، فقال : « هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون ؟ قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ، قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون ؛ فإنهم عدوٌّ لى إلا رب العالمين الذي خلقنى فهو يهدين ، والذي هو

وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى [٣]

يطعمني ويسقيني ، وإذا مرضت فهو يشفين ، والذي يميتني ثم يحيين ، والذي أطعم
أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين » ثم انظر إلى موسى عليه السلام وقد سأله فرعون
« من ربك يا موسى » فأجابه « ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى »
تدرك تمام الإدراك أن الاستدلال على وجود الله وقدرته بخلق الانسان وهدايته
أمرٌ تدل عليه الفطرة السليمة وترشد إليه النفس الخالصة من شوائب العتو
والعناد ، وقد اختلف العلماء في المراد من قوله « خلق فسوّى » أهو إشارة إلى
الانسان وحده ، أم هو إشارة إلى الانسان وسائر أنواع الحيوان ، أم هو إشارة
إلى المخلوقات كلها ؟ فمن ذهب إلى أن المراد به الانسان وحده كان المعنى عنده أنه
تعالى خلق هذا النوع العالى من المخلوقات وهو الانسان فجعل قامته مستوية معتدلة
حسنة ، أو أنه خلقه فيبدأ للقيام بأعباء التكليف وأداء ما يطالب منه من العبادات ؛
وأما من ذهب إلى أن المراد بذلك خلق جميع أنواع الحيوان فالمعنى عنده أنه خلق
هذا الجنس على أنواع مختلفة ، وأعطى كل نوع منه ما يحتاج إليه من الأعضاء
والآلات والحواس ، وأنت لو تدبرت في كل ما يقع عليه حُكٌّ من أنواع الحيوان
لأريت العجب العاجب ، وأما من ذهب إلى أن المراد بهذا جميع المخلوقات فالمعنى
عنده أنه سبحانه خلق جميع الموجودات على ما أراد من الأحكام والإتقان ، وأن
جميع المخلوقات في الدلالة على قدرته وعظيم حكمته وبديع إتيانه متساوية . وقوله
تعالى : (والذي قدر فهدى) أما تقديره تعالى فيتناول جميع المخلوقات في ذواتها
وصفاتها ويشير إلى أنه تعالى قدر كل واحدٍ منها على ما يستحقه ويكون به استقرار شأنه ؛
فقدر السموات وما فيها من الكواكب ، وقدر الأرض وما فيها من المعادن ،
وما يظهر على وجهها من النباتات ، وما يعيش عليها من الحيوان والانسان ، وجعل

كل واحد على مقدار مخصوص من الجنة والعِظَم ، وقدّر لكل واحد من البقاء المدة التي قدّر هاله ، وجعل لكل شئ منها من الصفات والألوان والطعوم والروائح والأوضاع والحسن والقبح وما أشبه ذلك مقدارا معلوما ، وانظر إلى قوله جل ذكره « وإن من شئ إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » ، وأما قوله تعالى « فهدي » فيدل على أنه سبحانه بعد أن جعل كل مزاج على النحو الذي أراه قد جعله مستعدّا لقبول القوي التي بآثارها يصلح حاله ، وقال المفسرون : معناه هدى الانسان للمعيشة ولرعاه ، وقال آخرون : هدى الانسان لسبل الخير والشر والسعادة والشقاوة وذلك بسبب أنه جعله حساساً مُدركاً متمكناً من الإقدام على ما يسره والإحجام عما يسوءه ، ويدل على مثل ذلك قوله تعالى : « إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً » وقوله جل ذكره : « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها » وقوله تعالت كلمته : « وهديناه النجدين » وقال آخرون : « هدى » معناه دلّ عبادَه ، بأفعاله وبما أودع في مخلوقاته من الدلائل الباهرة وبارك في نفوس الخلق من القدرة على الفهم والمعرفة ، على توحيده وجلال كبريائه ونعوت وحدانيته ؛ وذلك لأن كل عاقل إذا نظر في هذا العالم العجيب الصنعة رأى أفعالا محكمة متقنة مُنتسقة منتظمة ، وهذه لا محالة تدل على صانعها القديم الحكيم العليم الخبير . وبالجملة لست تجد قولاً للمفسرين في بيان معنى هذه الآية الكريمة إلا وهو يرجع إما إلى أن المراد أن الله تعالى هدى خلقه إلى أحوال دنياهم ، وإما إلى أنه سبحانه هداهم إلى مافيه صلاح أمر آخرتهم ، والأولى أن يكون المراد جميع الأمرين ، فإن كان ممالا بد منه أن يقتصر على أحدهم فجعل الهداية إلى أحوال الدين التي بها سعادة الآخرة أولى ؛ من قبل أن قوله تعالى « خلق فسوى » إشارة إلى أحوال الدنيا ويدخل فيه إتمام العقل وإكمال القدرة على مزاوله الأعمال ؛ فيكون قوله « فهدي » إشارة إلى أحوال الآخرة ليجتمع في الآية الكريمة الإشارة إلى

وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى [٤] جَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى [٥] سَنَقِرُكَ فَلَا
تَنْسَى [٦] إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى [٧]

أحوالهما جميعاً ، وأما قوله جل ذكره : (والذى أخرج المرعى فجعله غثاءً أحوى)
فالمرعى : كل ما تخرجه الأرض من النبات ومن الثمار والزروع والحشيش ، وقال ابن
عباس : المرعى السكلاً الأخضر ، والغثاء : ما يبس من النبات فحملته الأودية
والمياه وألوت به الرياح ، والأحوى ^(١) : هو الذى يضرب لونه إلى السواد ، وذلك
أن العشب إنما يجف عند اشتداد البرد ، ومن شأن البرودة أنها تبيض لون الشيء
الرطب وتسود لون الشيء اليابس ، ومعنى هذه الآية أنه سبحانه وتعالى هو القادر
على إنبات العشب وتبديل حاله لا الأصنام التى عبدّها الكفرة الفجرة

ثم إنه سبحانه لما أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بتسبيحه فى قوله « سبح
اسم ربك الأعلى » وكان ذلك التسبيح لا يكمل ولا يتم إلا بقراءة ما أنزله الله تعالى
عليه من القرآن ؛ لأن التسبيح اللائق بكمال الله وجلاله هو ما يرتضيه لنفسه ،
وذلك فى كلامه سبحانه ، كان هذا مدعاةً إلى شدة حرص النبي صلى الله
عليه وسلم على حفظ القرآن ، وكان سبباً فى خوفه أن ينساه فأزال الله تعالى عن
نفسه ذلك الخوف بقوله : (سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله إنه يعلم الجهر وما يخفى)
والمعنى سنجعلك قارئاً للقرآن تقرأه فلا تنساه ، وقال مجاهد ومقاتل والكلبي :
كان عليه السلام إذا نزل عليه القرآن أكثر تحريك لسانه مخافة أن ينسى فقال
تعالى « سنقرئك فلا تنسى » أى : سنعملك هذا القرآن حتى تحفظه ،
ونظير ذلك قوله تعالى : « ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى إليك وحيه »

(١) هذا التفسير على أن « أحوى » صفة لغثاء ، ومنهم من يقول : هو حال
من المرعى ، وأصل النظم الكريم والذى أخرج المرعى أحوى فجعله غثاء ، فأخرت
كلمة أحوى لمراعاة الفاصلة

وَنَيْسَرُكَ لِلْيَسْرَى [٨]

وقوله سبحانه : « لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه » والمراد إنا سنشرح صدرك وتقوى خاطرك ونحدث ذا كرتك حتى تحفظ بمجرد سماعه مرة واحدة ثم لاتنساه بعدها أبداً ، وقوله تعالى « إلا ما شاء الله » هو على ما قال القراء : إنه تعالى ما شاء أن ينسى محمد عليه السلام شيئاً ، إلا أن المقصود من ذكر هذا الاستثناء بيان أنه تعالى لو أراد أن يصير ناسياً لذلك لقدر عليه ، كما قال : « واثنتنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك » ثم إننا نقطع بأنه تعالى ما شاء ذلك ، ومثل هذا قوله لنبيه محمد عليه الصلاة والسلام : « لئن أشركت ليحبطن عملك » ثم إنا نقطع بأنه صلوات الله عليه وسلامه ما أشرك البتة ، ففائدة هذا الاستثناء أنه تعالى يعرفه قدرة ربه حتى يعلم أن عدم النسيان من فضل الله وإحسانه لا من قوته ، وقال مقاتل : المراد أن ما شاء الله تعالى أن ينسى إياه فعل ، والمراد من الذي ينسيه إياه الذي يريد سبحانه أن ينسخ تلاوته ، كما قال جل ذكره « مانسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها » فيكون المعنى إلا ما شاء الله أن تنساه في جميع أوقاتك فلا تذكره لكونه قد نسخه فانه يأمر ألا تقرأه ولا تصلى به فيصير ذلك سبباً لنسيانه وزواله عن الصدر . وقوله سبحانه « إنه يعلم الجهر وما يخفى » معناه أنه عالم بجهرك في القراءة مع أمين الوحي وعالم بالسر الذي ينطوى عليه ضميرك وهو أنك تخاف نسيانه فأنت تحرص على قراءته ، فلا تخف فإنا سنكفيك ما تخافه ، ويقال : قوله تعالى « إنه يعلم الجهر وما يخفى » مرتبط بقوله « إلا ما شاء الله » والمعنى أنت لاتنسى إلا ما شاء الله أن تنساه لكونه يريد نسخه ، وإيما ينسخه لكونه علماً بمصالح عبده فهو ينسخ حيث يعلم أن مصلحتهم في النسخ . وقوله سبحانه : (ونيسرك لليسرى) هو معطوف على قوله تعالى :

« سنقرئك فلا تنسى » واليسرى : هى أعمال الخير التى تؤدى إلى اليسر ، وقال ابن مسعود : اليسرى الجنة ، والمعنى عليه نيسرك للعمل المؤدى إلى الجنة ، ويقال : المعنى نوفقك للشريعة وهى الحنيفية ، ويقال : المعنى نهون عليك الوحى ونسهله لك ونيسره عليك حتى تحفظه وتعلمه وتعمل به . فان قلت : المألوف فى التعبير أن يقول الانسان : يَسِّرَ فلانُ العملَ الفلانى لفلان ، والمراد جعل هذا العمل يسيراً سهلاً عليه فأزال صعوباته وهَوَّنَ مشاقه ، ولكنى أرى القرآن الكريم قد قلب العبارة المألوفة فجعل الانسان هو الميسِّر للفعل ، ووقع ذلك فى هذه الآية الكريمة وفى قوله تعالى فى سورة الليل : « فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره للحسنى ؛ وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى » فهل لذلك من حكمة بارعة خفيت على الفهم ؟ قلنا : هو ما ذكرت ، والتحقيق أن الفاعل هو الذى يُيسِّر للفعل ، وليس الفعل هو الذى يكون ميسراً للفاعل ، والسر فى ذلك أن كل عملٍ فى هذه الحياة الدنيا ممكن أن يحصل وممكن ألا يحصل ، وإنما يحصل إذا توجهت إليه العزائم الصادقة والقوى النافذة والإرادات المصممة وسلكت له السبيل الذى يوصل إليه ؛ فما لم تتوجه إليه العزائم وما لم تسلك له السبيل الصحيح الذى يوصل إليه فإنه لا يحصل ؛ فلا جرم كان تيسير الانسان للعمل هو التحقيق ، ومعناه أن الله تعالى يوجد عند الانسان العزم الصادق والقوة النافذة والإرادة المصممة على إحداث هذا الفعل ويوفقه لسلوك أهدى السبل وأقومها حتى يصل إلى النتيجة الحتمية لذلك كله ، وتدبر فى قوله عليه الصلاة والسلام : « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » تدرك السر العجيب فى هذا التعبير وإنما قال سبحانه « نيسرك » بنون العظمة لتسكون عظمة المعطى دالةً على عظمة العطاء ، ونظير ذلك قوله تعالى : « إنا أنزلناه فى ليلة القدر » وقوله سبحانه : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » وقوله جل ذكره : « إنا أعطيناك

فَذَكِّرْهُ إِنَّ نَفَعَتِ الذِّكْرَى [٩]

الكوثر» فقد دلت هذه الآيات على أنه سبحانه فتح عليه من أبواب التيسير والتسهيل ما لم يفتح به على أحد من خلقه ، وكيف لا وقد كان صبيا يتيمًا لأب له ولا أم وقد نشأ بين قوم ذوى جهالة جهلاء وعماية وأهواء وضلالات لا تقف عند حد ، فهده الله تعالى ووفقه وارتضاه وجعله فى أفعاله وأقواله وسائر أحواله قدوةً للعالمين ونبراسا يستضىء به المصلحون ، وجعل ذكره رفيعاً وشأنه أعلى الشؤون ، وجعل الهداية من هديه ، والتوفيق فى اتباعه ، والخذلان فى ترك طريقه

ثم إنه سبحانه بعد أن بين أنه قد تفضل بتيسير جميع مصالح الدنيا والآخرة ، وشرح نعمته على عبادة عامة ثم نعمته على رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ توجه إلى رسوله يأمره بدعوة الخلق إلى ربهم فقال : (فذكر إن نفعت الذكرى) ولعلك تتساءل كيف علق الله تعالى طلب التذكير من الرسول صلى الله عليه وسلم على انتفاع الذين يذكركم ، وذلك يفيد أنه إن علم أنهم لا ينتفعون بتذكيره إياهم فليس مأمورا بتذكيرهم ، مع أن أهل الشرع مجمعون على أنه صلى الله عليه وسلم مأمور بتذكير أمته وتبليغهم ما أرسله الله به ، من غير فرق بين من ينتفع بهذه الذكرى ومن لا ينتفع بها ، فما الوجه فى ذلك ؟ وكيف تجمع بين ما أجمع عليه أهل الملة وبين ظاهر هذه الآية ؟ والجواب أنه قد أجمع المفسرون على أن ظاهر هذه الآية غير مراد ، ثم اختلفوا فى تخريجها ، فذهب قوم إلى أن « إن » هاهنا ليست شرطية ، ولكنها بمعنى إذ التعليلية أو بمعنى قد التى هى للتحقيق ، والمعنى حينئذ ذكر قومك وادعهم إلى الإيمان بالله تعالى وبجميع ما أرسلت به فإن هذه الذكرى نافعة مفيدة لأناس سبب فى إيمان من يهديه الله تعالى وإقامة للحجة على من عاند وعصى الله ورسوله . وقال قوم « إن » هاهنا شرطية على أصل

معناها وهي دالة على التعليق ، ولكن في الآية محذوفاً ، وتقدير الكلام ذكر
 إن نفعت الذكرى وإن لم تنفع ، فحذف الواو والمعطوف بها اكتفاءً ، مثل حذف
 حرف العطف والمعطوف في قوله تعالى : « سراييل تقيكم الحر » فان التقدير
 سراييل تقيكم الحر والبرد ، وقال آخرون : « إن » هاهنا شرطية على أصل
 وضعها ، وليس في الكلام محذوف ، ولكن هذه الآية نزلت في مقام غير المقام
 الذي يجب فيه على الرسول تذكير قومه سواء انتفعوا بما يذكرهم به أم لم ينتفعوا ،
 وبيان ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم مأمور عند إرساله أن يذكر قومه
 ويعظمهم ويحرضهم على الإيمان ويخوفهم بما أعد الله لمن لم يؤمن به ، فإذا فعل ذلك
 وبلغت جميع قومه دعوته فليس حينئذ بمأمور أن يذكر من علم إصراره على باطله
 وتماديه في كفره واسترساله في هوى نفسه ؛ لأنه لا معنى حينئذ للتذكير إلا إلقاء
 الناس وإجبارهم على الإيمان ، وقد قال الله تعالى « وما أنت عليهم بجبار فذكر
 بالقرآن من يخاف وعيد » وحاصل الكلام حينئذ إنك قد أبلغت رسالات
 ربك وأعدت الابلاغ وإن قومك قد أصروا على العناد ولم يزدكم دعاؤك إياهم
 إلا تماديا وغرورا ونحن نعلم ما أنت عليه من الحرص على إيمانهم والتحشُر على
 بقائهم في كفرهم فلا تذهب نفسك عليهم حسراتٍ ولا تورث نفسك العناء
 والتعب ، بل ادع من تعلم أنه يحييك ولا يجهك ولا يؤذك ، وقال قوم من
 المفسرين : إن هاهنا شرطية ولكن ليس المراد بها تعليق وجوب التذكير على
 انتفاع من يدعوهم ، ولكن المراد به استبعاد تأثير الذكرى فيهم وذمهم بأنهم قوم
 قد غلظت أكبادهم وقست قلوبهم وتحجفت أنفسهم عن الاعتاض والانتفاع ،
 وذلك كما تقول الواعظ الذي أتعب نفسه في موعظة قوم لا تفيد فيهم الموعظ :
 عظمهم إن وجدت سميعاً ، ولعل هذا الوجه أحسن الوجوه وأقربها لحل الآية

سَيِّدُكُمْ مَنْ يَخْشَى [١٠] وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقُ [١١]

الكرامة عليه ، وقوله سبحانه وتعالى : (سيدكم من يخشى) معناه سيئته
وينتفع بتذكرك من يخشى الله تعالى ، وذلك لأنه يتأمل في كل ما ذكره به
وليس له من الهوى والرغبة في العناد ما يدفعه إلى الجحد والإنكار ، وحينئذ
يظهر له وجه الصواب فيه ، ويتبين عنده أنه الحق الذي لا يجوز إلا الإقبال عليه
والتصديق به ، وأصل التذكر أن يتنبه الإنسان إلى شيء كان قد علمه من قبل
ثم غفل عنه ونسيه ، وليس ذلك المعنى مراداً هاهنا ، وكأنه سبحانه إنما أثر
التعبير بالتذكر إشارة إلى أن هذا الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من
الظهور والوضوح بحيث لا يتصور أن هؤلاء القوم لم يعرفوا وجهه الصحيح من
قبل ، وقد حال بينهم وبين اقتفائه تقليدُهم آبائهم ، فكانهم عرفوه وتيقنوا
من صحته ثم زالت هذه المعرفة بسبب انتهاجهم خطة آبائهم ، فيكون وعظُ
الرسول إليهم تنبيهاً لهم إلى شيء سبقت لهم معرفته ، وهذا وجه لطيف ، و « من
يخشى » يشمل صنفين من الناس : أحدهما المذعن المعترف بالله تعالى الواثق من
قدرته على بعث العباد وحشرهم ، والثاني المتردد في ذلك ، أما الجاحد المصِرُّ فإنه
لا يتعظ ولا ينتفع ، وهو الأشقى الذي ذكره الله جل شأنه بقوله (وَيَتَجَنَّبُهَا
الْأَشْقَى) والمعنى إن المعاند الذي أَصَرَ على الجحد وتمسك من نفسه الكفر هو
الذي يتجنب الذكرى ولا ينتفع بها ، وقد تبين لك مما ذكرناه في تفسير هاتين
الآيتين أن أقسام الخلق بالنسبة إلى دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم ثلاثة : الأول
العارف بها الموقن بصحتها الذي لا يدور بخلافه التردد ولا الشك فيها ، وهذا
أفضل الأقسام وأخشاها للرب ، والثاني المتردد فيها المتوقف إلى أن يقوم عنده
البرهان عليها ، فإذا قام له البرهان بادر إلى التصديق بها ، وهذا نوع لم يصل إلى

الَّذِي يَصَلِّي النَّارَ الْكُبْرَى [١٢] ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى [١٣]

درجة الأول من الخير ولم يبلغ درجة الثالث من الشر ، فهو شقي بالنسبة إلى الأول سعيد بالنسبة إلى الثالث ، أما الثالث فهو المعاند الذي لا يابن قلبه ولا تنال الدعوة من نفسه قبولاً ، وهذا شر الأقسام وأبعدها من الخير وأشقاها ، فهم سعيد وشقي بعض الشقاء وأشقى ، فلا جرم كان الذي يتجنب الموعظة ولا ينتفع بها هو الأشقى ، وقوله تعالى : (الَّذِي يَصَلِّي النَّارَ الْكُبْرَى ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى) يَصَلِّي النَّارَ : يذوق حرها ويحدمسها ، والنار الكبرى : أسفل دركات جهنم ، كما قال سبحانه وتعالى : « إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ » وكما أن معاصي العباد وذنوبهم بعضها أشد من بعض فعقاب الله تعالى بعضه أشد من بعض لتسكون العقوبة مساوية للذنوب ؛ إذ يليق بحكمة الكبير المتعال أن يسوَّى بين من اجتراً عليه وعلى رسوله وتهاون بأوامرهما وارتكبا أشنع الذنوب وبين من كان أقل منه إثماً وأخف جرماً . وقوله تعالى « ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى » يقال : معناه أن نفس هؤلاء الأشقيين تصير في حلوقهم ، فلا هي تخرج فيموتون ولا هي ترجع إلى موضعها من أجسامهم فيحيون ، ويقال : المعنى أنهم لا يموتون فيستريحون ولا يحيون حياة نافعة ، كما قال سبحانه وتعالى : « لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فِيمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا » وذلك كما تقول العرب للمبتلى بشديد البلاء : لا هو حي فيرجى ولا ميت فينقى . وإنما صدر سبحانه هذه العبارة ثم للدلالة على أن ذلك أشد وأنكى وأفزع من اصطلاء النار فالغرض من ثم هاهنا الدلالة على التراخي العظيم والتباعد الشديد بين الأمرين في الرتبة .

ثم إنه تعالى لما ذكر وعيد الذين أعرضوا عن النظر في دلائل الله والتأمل في آياته أتبعه بالوعيد لمن زكى نفسه وطهرها من أدناس الشرك والتقليد لأسلافه

قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى [١٤] وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى [١٥]

الذين كانوا في الضلال المبين ، فقال سبحانه وتعالى : (قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى) وأفلح : معناه فاز ونجا من العقاب وأدرك الفلاح ، وتزكى : معناه طهر نفسه وتقاها من أضرار الكفر وأزال عنها دَرَنَ الشرك والتقليد ، قال ابن عباس : تزكى معناه قال لا إله إلا الله ، والمراد أنه قالها جازما بها عارفا بمعناها عاملا بما تقتضيه ، وانظر إلى قوله تعالى : « قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون والذين هم للزكاة فاعلون والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون والذين هم على صلواتهم يحافظون ، أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون » ثم انظر إلى قوله تعالى : « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » تفهم أن تركية النفس تمام الزكاة إيماناً بالآية بالآية بالآية بالله تعالى ونفى الشركاء ، والتصديق بكل ما جاء به رسوله صلى الله عليه وسلم ، والعمل بذلك كله ، وتفهم أن الفلاح والفوز والنجاة بدخول الجنة وبوراثة الفردوس . ومن هنا تعلم أن مراتب أعمال العباد ثلاثة : أولها إزالة العقائد الفاسدة عن القلب ، وثانيها استحضار معرفة الله تعالى بذاته وصفاته وأسمائه ، وثالثها الاشتغال بخدمته تعالى ، فأما المرتبة الأولى فهي التي أشار إليها قوله تعالى « تزكى » والمرتبة الثانية هي التي أشار إليها قوله سبحانه « وذكر اسم ربه » والمرتبة الثالثة هي التي أشار إليها قوله جل ذكره « فصلى » ، ويقال : معنى « ذكر اسم ربه » أحضر في قلبه صفات ربه من الجلال والكبرياء ولا حظ

بَلْ تَوَثُّوْنَ الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا [١٦] وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقِ [١٧]

«سره ما يعرف عن ربه من القدرة النافذة والارادة التي لا يقف في سبيلها شيء ، فاذا فعل ذلك خضع لربه وخشع لجبروته وقهره ، فالمراد من الصلاة هاهنا الخشوع والخضوع لذى الجلال والكبرياء ، ولا شك أن الإنسان إذا تذكر ربه العظيم وأحضر في قلبه جلاله وقدرته على كل شيء وعلمه بكل شيء وَجَلَ قلبه وخاف من سطوة ربه فتمتلىء نفسه خشية من الله ورهبةً لجلاله ، كما قال سبحانه : «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ» والتعبير عن الخشوع بالصلاة لأنَّ اللَّبَّ الصلاة هو الخشوع والمقصود منها هو إخضاع النفس وإذلالها لجبروت الله وقهره .

ثم إن قوماً ممن زين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون قد ظنوا أن ما يفعلونه من زائف الأعمال وباطلها هو ما كُلِّفُوا به وماطلهم الله بفعله ، فانطلقوا يزعمون لأنفسهم أنهم هم المهتدون ، وأن أعمالهم هذه هي المقبولة المطلوبة وأن غير ذلك من الأعمال ليس مطلوباً منهم ، فأَنزَلَ الله تعالى في الرد عليهم وبيان فساد ما ذهبوا إليه قوله سبحانه : (بَلْ تَوَثُّوْنَ الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقِ) ومعناه أنتم كاذبون فيما زعمتم لأنفسكم من حُسْنِ العمل والقيام بما طلب الله منكم القيام به على الوجه الذي ارتضاه ؛ لأنكم لو كنتم صادقين فيما ذهبتم إليه لكنتم تقضون الآخرة على الدنيا ؛ لأن هذا هو الذي يقتضيه العقل ، فإن الآخرة دائماً ونعيمها دائماً لا يزول ولا يفنى وليس فيه تنغيص ولا مَنْ ، فأما متاع الدنيا فهو متاع زائل تشوبه الأكدار وتحوط به الآلام ، ولا شك أن من استعجل هذا النعيم وتعجل لذائد الدنيا واستحبَّ زينتها مع ما فيها من الألم الدائم والحسرة اللازمة والكدر الذي لا يفارق من انغمس فيها ، من استعجل ذلك مع ما فيه

إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى [١٨]

من التنغيص لا يكون مصدقا بالآخرة ونعيمها أو يكون إيمانه بذلك إيمانا لا يجاوز حنجرته فهو منافق كاذب في دعواه ،

وقد اختلف العلماء في بيان المشار إليه في قوله تعالى : (إن هذا لفي الصحف الأولى) فقال قوم : المشار إليه هو السورة بأجمعها ، وذلك لأن هذه السورة مشتملة على التوحيد والاستدلال عليه ، ومشتملة على النبوة ، ومشتملة على الوعيد والتحذير من الكفر ، ومشتملة على الوعد والترغيب في طاعة الله تعالى ، وكل هذه الأشياء مما جاء به جميع أنبياء الله تعالى ؛ وقال قوم : المشار إليه هو قوله تعالى « قد أفلح من تركي » إلى قوله « والآخرة خير وأبقى » وذلك لأن قوله سبحانه « قد أفلح من تركي » إشارة إلى تطهير النفس عن كل مالا ينبغي من العقائد الفاسدة ومن الأخلاق الذميمة ، وقوله « وذكر اسم ربه » إشارة إلى تكميل الروح بمعرفة الله تعالى ، وقوله « فصل » إشارة إلى تكميل الجوارح وتزيينها بطاعة الله ، وقوله « بل تؤثرن الحياة الدنيا » إشارة إلى الزجر عن الالتفات إلى الدنيا وجعلها هم الإنسان ، وقوله « والآخرة خير وأبقى » إشارة إلى الترغيب في ثواب الله وابتغاء الدار الآخرة ، فهذه الآيات جمعت الأصول العامة التي تنبئ عليها الشرائع السماوية ، ولم تترك دعامة من الدعائم التي تنبئ عليها الدعوة إلى الله وإلى ما عنده إلا أشارت إليها ، وهذه أمور لم تختلف باختلاف الشرائع ، فلا جرم ذكر الله تعالى أنها في صحف الأنبياء السابقين على محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد روى عن أبي ذر رضي الله عنه أنه قال : قلت : هل في الدنيا مما في صحف إبراهيم وموسى ؟ فقال : اقرأ يا أبا ذر قد أفلح من تركي . وذهب قوم من المفسرين إلى أن الإشارة راجعة إلى قوله تعالى « والآخرة خير وأبقى » لأنه أقرب شيء إلى الإشارة

صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى [١٩]

واقراً إذا شئت قوله تعالى : « وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين ، وإنه لفي زبر الأولين » ثم اقرأ قوله جل شأنه : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ، والذي أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوهم إليه ، الله يحبني إليه من يشاء ، ويهدي إليه من ينيب » يتبين لك أن دعائم الإسلام التي أشرنا إليها قد أرسل بهارسل الله جميعا ، ويتبين لك أن قوله تعالى : (صحف إبراهيم وموسى) لم يذكرك على سبيل الاستقصاء ، ولكن على سبيل المثال ، وأن هذه الدعائم مذكورة في صحف جميع الأنبياء التي منها صحف إبراهيم وموسى ؛ فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ماجاء إلا مذكرا بما نسيته الأجيال من شرائع الرسل ، وداعياً إلى وجهها الصحيح الذي أفسده مرور الزمان وكثرة البهتان واتباع الأهواء واقتفاء سنن الآباء ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

سُورَةُ الْغَاشِيَةِ

[وَهِيَ مَكِّيَّةٌ ، وَآيَاتُهَا سِتٌ وَعِشْرُونَ آيَةً ، وَنَزَلَتْ بَعْدَ
سُورَةِ الذَّارِيَّاتِ] ^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ [١]

(١) لا خلاف في أن هذه السورة مكية ، كما أنه لا خلاف في أن عدد آياتها
ست وعشرون آية

قوله تعالى: (هل أتاك حديث الغاشية) أما «هل» فقد قال قوم من العلماء منهم
قُطْرُب: إنه بمعنى قد ، والمراد قد جاءك حديث الغاشية ، والجمهور على أن معناه
الاستفهام ، ولكن ليس المراد به حقيقة وهو طلب الفهم ، إنما المراد به تعجيب
السامع مما في حَيْثَرِهِ وتشويقه إلى أَسْتِمَاعِهِ وَلَفَتْ نظره إليه وإشعاره بأن ماسيذ كره
من الأحاديث البديعة التي من حقها أن تتناقض الرواة ويتنافس في تَلَقُّسِهَا الوعاة ،
وأما «الغاشية» فقد اختلف العلماء في بيان المراد منها ، فقال قوم : المراد بها
القيامة ، وإنما سميت القيامة غاشية أخذاً من قوله تعالى : «يوم يغشاهم العذاب»
وذلك لأنها تغشى الناس بالأهوال والشدائد ، وقال قوم : المراد بالغاشية النار ،
وإنما صحَّ ذلك لأنه تعالى قد قال : «وَتَغْشَى وجوههم النار» فسميت النار
غاشية أخذاً من ذلك ، والوجه الأول أقرب وأولى أن يؤخذ به ؛ لأن الله تعالى
حين فَصَّلَ شأن هذه الغاشية ذكر أحوال أهل النار وأحوال أهل الجنة ، والذي
يجمعهما هو يوم القيامة ، فلا يليق حمل الغاشية من أجل ذلك على النار ؛

وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ [٢] عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ [٣]

وقوله تعالى : (وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ) المراد من الوجوه أصحابها ، وهم الكفار ، بدليل أنه تعالى وصفها بالخشوع ، والخشوع من صفات المكلفين ، وليست صفات للوجوه أنفسها ، إلا أن الخشوع إنما يظهر على الوجه ، فلما كان مظهره الوجه جعل متعلقا به ، والخاشعة : الدليلة التي قد عراها الخزي ولحقها الهوان ، وقرأ إن شئت قوله تعالى : « ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا لنعمل صالحا إنا موقنون » أو اقرأ قوله جل شأنه : « وترى الظالمين لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ، وتراهم يُعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طَرْفِ خَفَى ، وقال الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ، ألا إن الظالمين في عذاب مقيم » أو اقرأ قوله تعالى كلمته : « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ، ولا يرهق وجوههم قَتَرٌ ولا ذلٌ ، أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ، والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها ، وترهقهم ذلة ، ما لهم من الله من عاصم ، كما نأغشيت وجوههم قطعاً من الليل مظلماً ، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » وقوله تعالى : (عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ) فعاملة : اسم فاعل من عَمِلَ ، وناصبية : اسم فاعل من نَصَبَ أى تَعَبَ ، وهذان وصفان آخران للوجوه ، والمراد بهما كسابقهما ووصف أصحابها ؛ وقد اختلف المفسرون في هذه الصفات الثلاث : أهى من أوصاف الكفار في يوم القيامة ، أم هى من أوصافهم في الدنيا ، أم أن بعض هذه الأوصاف يتحقق يوم القيامة وبعضها ثابت لهم في الدنيا ؟ فمنهم من ذهب إلى أن هذه الأوصاف الثلاثة تحصل في الآخرة ، فالمعنى حينئذ إن الكفار الذين عَصَوْا اللَّهَ ورسوله سيكونون يوم القيامة خاشعين أذلاء وَسَيَعْمَلُونَ أَشَقَّ الْأَعْمَالِ وسينالهم من ذلك العمل تَعَبٌ شديدٌ ، أما الذلة والخشوع فلا لهم

تكبروا في الدنيا عن طاعة الله ورسوله ، وأما عملهم المُجْهِدِ فلا منهم كانوا في الدنيا كسالى فيَجْرُونَ السلاسل والأغلال الثقيلة ويخوضون في النار كما تخوض الإبل في الوحل وَيَتَقَحَّمُونَ حَرَّ النار وهم يقفون في عَرَصَتِهَا خُفَاءَ عِراءَ جِيعاً فينالهم بذلك أشق المتاعب وأقسى أنواع النَّصَبِ ، وقال قوم : هذه الصفات كلها حاصلة في الدنيا ، وظاهر الآية ينادى بنفساد هذا القول ، وتدبر ما يفيدته قوله تعالى «يومئذ» تعرف أن وصف الوجوه بالخشوع والعمل والنصب مُفِيدٌ بكونه في ذلك اليوم ، وقال قوم : أما الخشوع فهو مما يحدث في يوم القيامة ، وهو الذي أريد تقييده بالظرف ، وأما العمل والنصب فانهما من أوصاف الكفار في هذه الحياة الدنيا ، وكأنه تعالى قد قال : وجوه يومئذ خاشعة وكانت في الدنيا عاملة ناصبة ، والمعنى أن هؤلاء الكفار كانوا في حياتهم الدنيا يعملون ويجهدون في أعمالهم ولكن الله تعالى لم يقبل أعمالهم لكونهم لم يعملوها قاصدين بها وجهه الكريم ، ولأنهم لم يُقَدِّمُوا على هذه الأعمال الإيمان بالله ورسوله الذي هو الدَّعَاة الأولى والركن الأساسي ، فأعمالهم هذه قد بنيت على أساس غير صحيح ، هذا إذا كانت أعمالهم من أعمال البر ، أما إذا كانت من أعمال الكفر فالمعنى حينئذ أن هؤلاء الكفار سيكونون في يوم القيامة أذلاء في غاية الهوان والمسكنة لأنهم كانوا في الدنيا يُجْهِدُونَ أنفسهم في مُشَاقَّةِ الله ورسوله ، وكانوا يعاندون الله وَيَسْعَوْنَ في الأرض الفساد ، وعندنا أن هذا الوجه أحسن الوجوه وأقربها لسياق الآية الكريمة ، وبخاصة إذا لاحظت ما ذكره الله تعالى في حال المؤمنين يوم القيامة ، وهو قوله جل شأنه : « وجوه يومئذ ناعمة لسمعها راضية » فان معنى ذلك أن المؤمنين سيكونون يوم القيامة في أنعم عيش وأرغد حال وأهنأ بال وأنهم سيعرفون يومئذ أن أعمالهم التي عملوها في الدنيا قد قُبِلَتْ وَجُعِلَ لهم عليها أعظم الثواب وأجزل الأجر ، فهم سَيَرْضَوْنَ عن أعمالهم تلك أتم الرضا ، وقد علمت أن أعمالهم اهذه كانت في الدنيا ،

تَصَلِّي نَارًا حَامِيَةً [٤] تُسْقَى مِنْ عَيْنِ آنِيَةٍ [٥] لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ [٦]

فالمناسب إذن أن يكون المقابل لهم موصوفا بضد ما وُصفوا هم به ، فيكون معنى قوله تعالى « وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة » أن هؤلاء الكفار سيلاقون الذل والمهانة وسيدركون أن أعمالهم التي عملوها في الدنيا لم تكن مقبولة ولم يُحْصَلُوا منها إلا التعب والنصب ، وليس بمتنع أن يصفهم الله تعالى ببعض أوصاف تكون لهم في الآخرة وهو قوله جل ذكره « خاشعة » ثم يصفهم ببعض ما كان لهم في الدنيا وهو قوله سبحانه « عاملة ناصبة » ثم يعود إلى ذكر أوصافهم في يوم القيامة وهو ما ذكره جل ثناؤه بقوله : (تصلي نارا حامية) وما بعده ، وتَصَلَّى نارا : أى تجدد حرَّها وتذوق مَسَّهَا ، وتقول : صَلَّى النار يَصْلُهَا ، إذا احترق بها وَلَا زَمَهَا ، وقد قرئ تَصَلَّى - بضم التاء والبناء للمجهول - من أَصْلَيْتُهُ النارَ ، إذا أحرقت بها ، مثل قوله تعالى : « ونُصِّلِهِ جهنم » وحامية : أى أنها قد أوقدت وأحيت المدة الطويلة فليس حرٌّ يعادل حرها ، وقد قال ابن عباس : قد حميت فهي تتأطى على أعداء الله ، وقوله جل شأنه : (تُسْقَى مِنْ عَيْنِ آنِيَةٍ) الآنى : الذى اشتد حره ، ونظير هذه الآية قوله تعالى : « يطوفون بينها وبين حميم آنٍ » والمعنى أنهم يشربون من ماء شديد الحرارة ، قال المفسرون : إن حره بلغ إلى درجة أنه لو وقعت منه قطرة على صخر لأذابته ، ويقال : آنية بمعنى حاضرة ، من آنى الشيء يَأْنِي ، إذا حضر وقته ، وليس هذا الوجه بشيء ، وقوله تعالى : (ليس لهم طعام إلا من ضريع) بيان لطعامهم بعد أن بيّن شرابهم ، والضريع : شجر ذو شوك لا طيب بالأرض ، ويقال له إذا كان رطباً الشبرق ، ويقال : إنه سم قاتل ، وقال أبو ذؤيب الهذلي -

لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ [٧]

رَعَى الشَّبْرَقَ الرَّيَّانَ ، حَتَّى إِذَا ذَوَى وَصَارَ ضَرِيْعًا بَانَ عَنْهُ النَّحَائِصُ^(١)

ويقال : الضريع نبت أخضر منتن الريح يرمى به البحر ، ويروى عن ابن عباس يرفعه أن الضريع شيء في النار شبه الشوك أمر من الصبر وأنتن من الجيفة وأشد حرا من النار ، وقال ابن كيسان : الضريع طعام إذا أكله سكان النار يَضْرَعُونَ وَيَذْرَأُونَ ويتضرعون إلى الله تعالى طالبين منه أن يخلصهم مما هم فيه من العذاب ، ولا تنافي بين هذه الآية وبين قوله تعالى : « إن شجرة الزقوم طعام الأثيم كل ليل يغلي في البطون كغلي الحميم » ولا بين هذه الآية وبين قوله تعالى : « ولا طعام إلا من غسلين » وذلك لأن عذاب النار صنوف متعددة وألوان مختلفة والمعدن فيها على طبقات ؛ فمنهم أكلة الزقوم ، ومنهم أكلة الغسلين ، ومنهم أكلة الضريع ، لكل طبقة من أهل الكفر والذنوب صنف من العذاب وباب مقسوم من الأيلام ، فإن العقل يقتضى بالبداهة أن عذاب السادة المتبوعين الذين يحرضون على الكفر ويؤلبون على الأنبياء ويعارضون دعوتهم إلى الله غير عذاب التابعين الذين ضلّوا فانتقادوا ، وهلم جرا ؛ وقوله تعالى : (لا يسمن ولا يغني من جوع) جملة في محل جر صفة لضريع ، والمعنى على ذلك إن طعام هؤلاء القوم ليس من المطاعم التي اعتاد الإنس أن يأكلوها ، بل هو شوك مما ترعاه الإبل ، وليته إذ كان من الأشواك التي ترعاها الإبل كان نوعا مما تقبل عليه وترتاح إلى

(١) النحائص : جمع نحوص ، وهو الحائل من الإبل ، وبيان معنى البيت أن الشبرق اسم الجنس من الشوك مادام رطبا كما عرفت ، والإبل ترعاه ، فإذا جف فاسمه الضريع ، والإبل تتحاماها حيثئذ لأنه سم قاتل

وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ [٨] لِسَعِيهِمْ رَاضِيَةٌ [٩] فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ [١٠]

أكله ، بل هو نوع تنفر منه ولاتقربه ، وليته إذ كان كذلك كان بحيث يطفىء تأثير الجوع ويرد عاديته وتعود من أكله منفعة على جسم آكله ، بل هو مع كونه بهذه الحال قد سلبت منه منافع الطعام ، فلا هو يفيد قوة وسما في بدن آكله ، ولا هو يميظ عنه أذى الجوع ويدفعه ، ويحتمل أن تكون هذه الجملة لاجل لها من الاعراب استثنائية ، لكن الأول أظهر ، وتنكير جوع للتحقير ، يعنى أنه لا يغنى من جوع ما ، فهو يفيد أن أضعف أحوال الجوع وأخفها وأهونها لا يزول بأكل هذا الطعام فكيف بالجوع الشديد

ثم إنه سبحانه وتعالى بعد أن ذكر وعيد الكفار أتبعه بشرح أحوال المؤمنين ، فذكر أولاً وصف أهل الثواب ، ثم ذكر بعد ذلك وصف دار الثواب ؛ فقال سبحانه : (وجوه يومئذ ناعمة) أى : ذات بهجة وحسن ، وذلك مثل قوله تعالى : « تعرف في وجوههم نضرة النعيم » وقوله تعالى : (لسعيها راضية) معناه أنهم حمدوا سعيهم واجتهادهم في العمل لله حين رأوا ثمرة هذا العمل وعاقبته الحميدة ، كالرجل يعمل العمل فيجزي عليه بالجميل ويظهر له منه عاقبة محمودة فتراه يقول عندئذ : ما أحسن ما عملت !! لقد وقفت إلى الصواب فيما صنعته ؛ فهو حينئذ يشنى على عمل نفسه ويرضيه ويستريح إليه ، ويقال : المراد أن هؤلاء راضون لثواب أعمالهم التي عملوها في الدنيا ، يعنى أن الذى يشاهدونه من الثواب العظيم يبلغ حد الرضا حتى إنهم لا يطلبون المزيد عليه ، فالكلام على هذا الوجه على تقدير مضاف ، وأما وصف دار الثواب فانا نريد أن ننزهك إلى أنه سبحانه وتعالى قد وصفها بسبعة أوصاف ؛ فأول هذه الأوصاف قوله جل ذكره : (في جنة عالية) وهو وصف من العلو ، ويجوز أن يكون المراد منه

لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً [١]

العلو في المكنان ؛ لأن الجنة منازل ودرجات بعضها أعلى من بعض كما أن النار دركات بعضها أسفل من بعض ، ويحتمل أن يكون المراد منه العلو في الدرجة وذلك لأن نعيم الجنة بعضه أرفع من بعض ؛ فالنعيم الذي يتمتع به السابقون من الأنبياء والشهداء والصالحين أسمى وأعلى منزلة من النعيم الذي يتمتع به الذين تبعوهم بإحسان ، وهكذا . وأما الوصف الثاني فهو ما ذكره سبحانه بقوله : (لا تسمع فيها لاغية) ومعناه أن الجنة منزهة عن اللغو لأنها منزل جيران الله وأحبائه وقد نالوها بالجد والحق لا باللغو والباطل ، وكل مجلس من مجالس أهل الشرف في الدنيا فانه يكون مُبَرَّأً عن اللغو والكذب والبهتان ، فكيف بأرفع المجالس في جوار رب الأرباب ومالك القلوب ومدبر الأمور ؟ ! واللاغية : مصدر لغا يلغو ، مثل اللغو ، وتقول : لغا يلغو لغواً ولاغية ، ويقال : اللاغية اسم فاعل ، وهو وصف للمؤنث والموصوف به محذوف ، وأصل الكلام لا تسمع فيها كلمة لاغية ، فحذف الموصوف وأقيمت الصفة مقامه ، مثل قوله تعالى : « أن اعمل سابغات » أصل الكلام أن اعمل دروعاً سابغات ؛ ويقال : اللاغية صيغة نسب ، أي ذات لغو ، مثل الدارع والنايل واللابن والتامر وما أشبه ذلك . وقد قرئ في هذه الآية « لا تسمع فيها لاغية » بفتح تاء المضارعة ونصب لاغية ، وعلى هذه القراءة يحتمل الفعل أن يكون للمخاطب ، ويحتمل أن يكون للغائب ، فإن كان المخاطب فالحاطب به من يتأتى منه السماع كقوله تعالى : « ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤسهم » وكقوله سبحانه : « وإذا رأيت ثمَّ رأيت نعيماً وملسكا كبيرا » وكقوله تباركت أسماؤه : « إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً » وإن كان الفعل للغائب كان الضمير المستتر فيه عائداً إلى الوجه : أي لا تسمع هذه الوجوه في الجنة لغواً ولا كذاباً ،

فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ [١٢] فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ [١٣]

والمراد بها أصحابها كما سلف ، وقرئ « لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاجِيَةً » فالفعل مبني للمجهول ولاجية نائب فاعله ، وتأنيث الفعل لتأنيث لفظ النائب عن الفاعل وإن كان بمعنى اللغو ؛ وقرئ « لَا يُسْمَعُ فِيهَا لَاجِيَةً » فالفعل كالقراءة السابقة مبني للمجهول ، ونائب فاعله هو لاجية ، وإنما ذُكِرَ الفعل مع أن نائب الفاعل مؤنث إما لأنه فُصِّلَ بين الفعل ونائب الفاعل بفواصل هو هاهنا الجار والجرور ، وإذا فصل بين الفعل وفاعله أو نائب فاعله المؤنث بفواصل أى فاصل جاز في الفعل التذكير والتأنيث ، ومثل ذلك قول الشاعر :

إِنْ أَمْرًا عَرَهُ مِنْكَ وَاحِدَةً بَعْدِي وَبَعْدُكَ فِي الدُّنْيَا لَمَعْرُورٍ

ويحتمل أن يكون تذكير الفعل نظرا إلى المعنى ، وهذا إما يجرى مع اعتبار اللاجية مصدرا ؛ فإن معناه حينئذ اللغو ، وأحسن هذه الوجوه أن تعتبر لَا تَسْمَعُ المبني للفاعل عائدا إلى الوجوه وتعتبر اللاجية مصدرا ، وذلك ليتفق مع قوله جل شأنه « لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا » وأما الوصف الثالث فهو ما ذكره سبحانه بقوله : (فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ) أى أن في دار النعيم ينبوع ماء جارٍ ، وعادة المياه الجارية من الينابيع أن تكون باردة صافية ، وليس من شك أن في منظر الماء الجاري مَسَرَّةً للنفوس وقررة للعيون . وانظر إلى افتخار فرعون الجبار بقوله : « أَلَيْسَ لِي مَلِكٌ مِثْلُ هَذِهِ الْأَنْهَارِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي » . والوصف الرابع ما ذكره الله تعالى بقوله : (فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ) والشُّرُرُ : جمع سرير ، والسرير ما يُجْلَسُ أو ينام عليه ، وهو معروف : وأفضل أنواع الشُّرُر ما كان مرفوعا عاليا عن الأرض ومن حكمة ارتقاها أن يرى المؤمن إذا جلس عليها جميع ما أعطاه الله من النعيم

وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ [١٤] وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ [١٥] وَزَرَائِبٌ
مَبْثُوثَةٌ [١٦]

والملك ، والوصف الخامس ما ذكره تعالى بقوله : (وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ)
والأَكْوَابُ : جمع كُوب ، والكُوب : هو ما لا عُرْوَةَ له من السكيزان ، ومَوْضُوعَةٌ :
أى مُعَدَّةٌ مُهَيَّاءٌ ، أو هى موضوعة على حافات العيون الجارية كلما أرادوا الشرب
وجدوها ، وكأنَّ تلك الشرر توضع لأهل النعيم على مَقْرُبَةٍ من الْعَيْنِ الجارية
فيجلسون عليها وبجوارهم الأَكْوَابُ على جوانب العين فإذا أرادوا التمتع بلذيق
الشراب تناولوا بها من الماء ، والوصف السادس ما ذكره سبحانه بقوله : (وَنَمَارِقُ
مَصْفُوفَةٌ) والنَمَارِقُ : جمع نَمْرَفَةٍ ، والنَمْرَقَةُ بضم النون وحكى كسرهما - الوسادة ،
قال السكبي : هى مصفوفة بعضها إلى جانب بعض ، فأينما أراد أن يجلس جلس
على واحدة واستند إلى أخرى . والوصف السابع ما ذكره جل شأنه بقوله : (وَزَرَائِبُ
مَبْثُوثَةٌ) والزَرَائِبُ : جمع زَرْبٍ أَوْزَرِيَّةٍ - بكسر الزاى - والزَرْبُ : البساط ،
وأصل الزَرَائِبُ أنواع النبات إذا احمرَّ واصفرَّ وفيه خضرة ، ويقال : أزرَبَ النبات ،
إذا صار كذلك ، فلما رأوا ألوان البُسُطِ والفرش تشبه زَرَائِبَ النبات سموها زَرَائِبُ
تشبيهاً بها . ومَبْثُوثَةٌ : أى مبسوطة ، أو مُفَرَّقَةٌ فى المجالس ، بحيث ترى فى كل
مجلس من مجالسهم شيئاً منها ، وهذا على نحو ما تراه فى بيوت ذوى النعمة والثراء
وكل هذا لتصوير النعمة ورفاهية أهل الجنة تصويراً يقرب من عقولهم ويستطيعون
إدراكه وفهمه ، وإلا فإن نعيم الجنة مما يَسْمُو على الفكر ويعلو فوق منازل
الإدراك ، وفيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وهذه
الأشياء التى يعددها الله تعالى إنما تتشابه مع نظائرها التى فى هذه الحياة الدنيا

أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ [١٧] وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ [١٨] وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ [١٩] وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ [٢٠]

في أسمائها فأما حقائقها وذواتها فليست مثلها ولا قريبا منها ، على ما بيَّناه في تفسير سورة المطففين (١)

ثم إنه سبحانه وتعالى بعد أن ذكر مجيء يوم القيامة وبين أن الناس يومئذ صنفان أشقياء وسعداء ، ثم بين حال الأشقياء وأنهم يكونون في غاية الذل والخضوع والهوان ، وبين حال السعداء وأنهم يومئذ مسرورون مستبشرون على وجوههم علام المسرة بادية ، وبين بعد ذلك أوصاف المكان الذي أعده للنعم هؤلاء السعداء ؛ شرع في إقامة الحجة على صحة ذلك وأنه قادر عليه ، لأن في مخاطبين بهذه الآيات مُصَدِّقِينَ وَمُنْكَرِينَ ، وقد أقام الحجة عليهم بما يفهمه جمهورهم ولا يتعاصى على أذهانهم ؛ فقال جل شأنه : (أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ) وقد أخرج عبد بن حميد وغيره عن قتادة قال : لما نعت الله تعالى ما في الجنة عجب من ذلك أهل الضلالة فأنزل الله تعالى : « أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ » فعجبهم هذا يدل على أنهم أنكروا ما وصفه الله سبحانه ، وهو ينبيء عن إنكارهم البعث ، وقد صدّر الله تعالى الرد عليهم بالهمزة التي معناها الإنكار . والقصد بها توبيخهم على هذا الجحد ، والفاء التي بعد الهمزة عاطفة على محذوف ، وأصل الكلام أَعْمِيَ هَؤُلَاءِ عَنِ التَّبَصُّرِ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ -- الآيات . و « كيف » اسم استفهام في محل نصب حال من

الضمير المستتر في « خلقت » العائد إلى الإبل ، وجملة « كيف خلقت » في محل جر بدل اشتمال من الإبل ، يعنى أعموا فلا ينظرون إلى الإبل كيفية خلقها . أما الإبل فهو اسم جمع واحد بغير ، ولا واحد له من لفظه ، مثل نساء وقوم وشاء . والمعنى المراد من هذه الآية أن يسكر هؤلاء ما ذكرنا من أمر البعث وأحكامه ويستبعدون وقوعه ولا يتدبرون في الإبل التي هي نُصِبَ أعينهم وهم يستعملونها في كل حين ولو أنهم تدبروا في كيفية خلقها لرأوا خلقاً بديعاً غريباً لا يشاكل أكثر أنواع الحيوانات ؛ فلها من عِظَمِ الْجُثَّةِ وشدة القوة وعجيب الهيئة وطويل صبرها على الجوع والعطش ، ولها من الصفات ما يناسب ما أُعِدَّتْ له من احتمال المشاق وإيصال الأثقال والنهوض بالأوقار ، مع اكتشافها في الرعى بما تيسر لها من شوك أو شجر أو غير ذلك ، ومع انقيادها للإنسان في حركاتها وسكونها ونهوضها وبروكها ، ومع أنها تلين وتتأثر بالخداء على غلظ أكبادها ، وكل أولئك يدل على قدرة مُبدِئها وعظم حكيمته . وإنما خص سبحانه الإبل بالذكر لأنها أعجب ما عند العرب من الحيوانات وهم واقفون على أحوالها أتم الوقوف . وذهب أبو العباس المبرد إلى أن الإبل هاهنا هي السحاب ، والعرب قد تسمى السحاب إبلا ، لأن السحاب يأتي أرسالا كالإبل ؛ وهي تَرْجَى وتُساق كما ترجى الإبل ، وهذا كلام بعيد دعاه إليه حبُّ إيجاد التناسب بين المتعاطفات ، ولكنه غفل عن أن التناسب موجود مع بقاء الإبل على معناها الأصلي ؛ لأن الكلام مع العرب وهم أهل أسفار وبلادهم صحارى وقفار ، والمسافر منهم يمتطى ظهور الإبل ، وربما كان منفردا عن الرفقة ، والافتراء داعية إلى التفكير ، فاذا تفكر فأول ما يفكر فيه ما كان أقرب الأشياء إليه ، فهو ينظر أولا إلى ما يقع عليه نظره ؛ فيرى بعيره الذى يمتطيه ، ثم إذا رفع رأسه إلى فوق رأى السماء ، ثم إذا التفت يمنة أو يسرة رأى ما حواليه من الجبال ، فاذا مدَّ ناظره أمامه أو تحته رأى الأرض ، فهذه أمور

يراها العربي كل يوم ، وقد أمره الله تعالى بالتدبر فيها وإمعان النظر ، وقوله تعالى :
 « وإلى السماء كيف رفعت » معطوف على قوله « إلى الإبل كيف خلقت » والمراد
 أن الله تعالى رفع السماء رفعا سحيق المدى بغير عماد ولا مساك ، فاذا تأمل
 فيها الناظر تبين له أن صانعها قدير واسع القدرة حكيم بعيد مدى الحكمة ،
 وقوله « وإلى الجبال كيف نصبت » معناه كيف وضعها وضعا ثابتا لا ميدان فيه
 ولا اضطراب ، بحيث يتسنى ارتقاؤها ، وقوله « وإلى الأرض كيف سطحت »
 أى مهدت وسويت على ما يقتضيه صلاح أمور ساكنها ، فلو نظر هؤلاء الجاحدون
 وتأمل أولئك الغافلون فيما تقع عليه أنظارهم من هذه الأشياء وتفكروا فيها كيف
 قامت على حالها التى هى عليها لعلوا أنها صنعة لا توجد إلا بموجد عظيم ولا تحفظ
 إلا بحافظ قدير ، ولأدركوا أن القادر على خلق هذه الأشياء وحفظها ووضعها
 على قواعد الحكمة قادر بلا شك على أن يرجع الناس إلى يوم يوفى كل عامل
 جزاء عمله ، وكما أنه سبحانه قد خلق ذلك كله والناس لا يعلمون منه إلا ما
 شاهدوه فانه ينشئ النشأة الآخرة من غير أن يعرفوا طريقة إنشائه وإنما يروون
 ما يروون يوم القيامة كما يرون ما يرون فى هذه الحياة ؛ فلا ينبغي أن يكون جهلهم
 بكيفية وقوع يوم القيامة سببا فى جحدته وإنكاره ؛ لأنهم لا يعرفون كيفية خلق
 هذه المخلوقات التى يشاهدونها ،

ثم إنه سبحانه وتعالى بعد أن بين دليل قدرته على بعث الأجسام ، ولقت
 أنظار الجاحدين إلى مظاهر قهره وغلبته على هذا العالم ، وبعد أن ونجهم على
 إنكارهم وتماديهم على باطلهم مع وضوح الحجة وظهورها ، بعد ذلك كله أمر رسوله
 صلى الله عليه وسلم أن يذكرهم بهذه الأدلة وأشباهاها مما لا يبقى معه مجال للشك

فَذَكَرْهُ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ [٢١] لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ [٢٢] إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ [٢٣]

أو التردد ، فقال جل شأنه : (فذكر إنما أنت مذكر) والمراد أبعثهم على النظر في ملكوت السماوات والأرض وحذرهم أن يتركوا ذلك ، ثم لا تذهب نفسك عليهم حسرات إذا لم يؤمنوا ، لأنك لا تستطيع أن تخلق فيهم الهداية ، وليس من المفروض عليك أن يؤمنوا ، وما عملك إلا التذكير والتبشير والتحذير ، فإن آمنوا فقد اهتدوا إلى ما تسوق إليه الفطرة ، وإن أعرضوا عنك فقد تحكمت فيهم الغفلات ، وتغلبت عليهم الشهوات ، واستولت على عقولهم الأهواء ، وأضلهم الله الذي يضل من يشاء ، وقوله جل ذكره بعد ذلك : (لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ) هو تقرير وتحقيق لما فهم من قوله « إنما أنت مذكر » والمعنى لست بتسلط عليهم تجبرهم على ما تريد ، وذلك مثل قوله تعالى : « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » ومثل قوله جل شأنه : « وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » وقد قرأ الجمهور « بمصيطر » بالصاد وكسر الطاء ، والأصل في الكلمة السين ، وهي من السيطرة بمعنى التسلط ، تقول : سيطر فلان على فلان ، إذا تسلط عليه ، وقرئ بفتح الطاء ، على أنه اسم مفعول ، وسيطر فعل معتد في لغة بني تميم ، يعني لم يسلطك الله عليهم ولم يؤتكَ قوة إكراههم على الإيمان وإجائهم إلى ما تدعوهم إليه ، فلا تفعل إلا ما هو من عملك وهو التذكير ، وقوله تعالى : (إلا من تولى وكفر) إستثناء من الضمير المجرور بعلى في قوله « لست عليهم » والمعنى لست عليهم بمسيطر إلا على من تولى وكفر ، وتولى : أعرض عن الذكرى المسوقة إليه ، وكفر : جحد الحق المعروض عليه ، والمراد أنك الآن داع لاسلطان

فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ [٢٤] إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ [٢٥] ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا
حِسَابَهُمْ [٢٦]

لك على أحد منهم وليست لك قدرة الإلجاء ولم يأذن لك الله في أن تحملهم على
الإيمان لدعوتك وسيسلطك الله على من أعرض عن آيته وجحد وحدانيته
واستمرأ طعم الإباء والعناد ، ويقال : الاستثناء ليس متصلاً لأن اتصاله محوج
إلى التكلف ، وإنما هو استثناء منقطع ، والمعنى إنك إنما أرسلت داعياً إلى الله
بشيراً ونذيراً ولست بمُسْتَوَلٍ عليهم ، لكن أمرهم ليس متروكاً لهم
يتصرف كل واحد منهم كما شاء له هواه وعلى حسب ما تجنح إليه نفسه ،
بل من أعرض منهم عن الذكرى وعاند فيها فإن الله يعذبه العذاب الأكبر
الذي هو عذاب جهنم ، قالوا : علامة كون الاستثناء منقطعاً أنه يحسن أن تدخل
أنَّ ، ألا ترى أنك تقول إلاَّ أنَّ من تولى وكفر فيعذبه الله العذاب الأكبر ،
ولو قلت عندي ألف دينار إلا دينارا ؛ لم يجمل بك أن تقول : عندي ألف دينار
إلا أن دينارا . فلما صح دخول أنَّ هاهنا علمنا أن الاستثناء منقطع . وإنما وصف الله
تعالى العذاب بالأكبر في قوله (فيعذبه الله العذاب الأكبر) لأن أبلغ أنواع
العذاب وأشدّها وأقساها هو العذاب على الكفر ، وما عداه من العذاب على
الفسق وسائر صنوف المعاصي فهو دونه ، وانظر إلى قوله جل شأنه : «وأما الذين فسقوا
فأوأهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي
كنتم به تكذبون ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون » ،
وهذا العذاب لا يمنع أن الله تعالى قد يضم عليهم إلى عذاب الآخرة عذاب الدنيا
وذلك مثل القتل وسبب الذرية وغنيمة الأموال وغير ذلك من صنوف البلاء التي ينزلها
الله تعالى بهم ، وقوله سبحانه : (إن إلينا إيابهم ، ثم إن علينا حسابهم) هو بمثابة

التأكيد للحكم السابق وهو تعذيب الله لمن تولى وكفر ، وإنما ذكر جل شأنه ذلك ليزيل عن قلب النبي صلى الله عليه وسلم حزنه وألمه لتكذيبهم إياه وإصرارهم على معاندته ؛ وكأنه يقول : إنه لا مفر لهؤلاء المعرضين ولا خلاص لهم من الويل الذى أوعدها بهم به وإنيهم راجعون إلينا فى الموعد الذى وعدنا ، وقد سبقت كلمتنا بأننا سنعاقبهم على كفرهم ، وقد تضمنت هذه الآية الكريمة الإنباء عن غاية السخط الموجب لشديد العقاب ، وتأمل فى تصدير المجملتين بحرف التأكيد الذى هو إن ، ثم تأمل فى تقديم خبر إن على اسمها فى المجملتين أيضا ، ثم تأمل فى الإتيان بضمير العظمة فيهما ، وهونا ، ثم تأمل بعد ذلك كله فى عطف الجملة الثانية على الجملة الأولى ثم الدالة على بُعد منزلة الحساب وتناهيه فى درجة الإيلام ، فان قلت : إن ظاهر قوله تعالى « ثم إن علينا حسابهم » يدل على أن محاسبة هؤلاء الكفار واجبة على الله تعالى على ما تفيد كلمة « على » ونحن نعلم أنه لا يجب على الله تعالى أن يستوفى حقه من عبده ، وأنه إن عفا عنهم فبفضله وإن عاقبهم فبعده ، فكيف ترى فى ظاهر هذه الآية الذى أشرنا إليه أمرًا هو أم غير مراد ؟؟ فالجواب عن ذلك من وجهين : أحدهما أنه تعالى لما وعد بعقابهم وسبقت منه الكلمة بذلك لم يكن من الجائز أن يخلف وعده ؛ لأن خلف الوعد نقص ، وكل نقص محال عليه سبحانه وتعالى ، وثانيهما أن الحكمة تقتضى البتة عقابهم ، وكل شىء اقتضته الحكمة فان الله تعالى يفعلها البتة ، فأما كونه من موجبات الحكمة فلا نوله لم ينتقم المظلوم من الظالم لكان ذلك شبيها بكونه تعالى راضيا بذلك الظلم ، والله منزّه عن ذلك ، فلما كان بهذه المنزلة كانت المحاسبة واجبة ، ولا شك أن معنى وجوبها لا يراد منه شىء يشعر بنقص فى حقه جل شأنه . والله سبحانه وتعالى أعلى وأعلم

سُورَةُ الْفَجْرِ

وَهِيَ مَكِّيَّةٌ ، وَعَدَدُ آيَاتِهَا ثَلَاثُونَ آيَةً ، وَنَزَلَتْ بَعْدَ سُورَةِ
الْبَلَدِ [١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْفَجْرِ [١]

(١) قد اختلفوا في مكان نزول هذه السورة ؛ فالجمهور على أنها مكية ، وقال
ابن أبي طلحة : مدنية ، وقد اختلفوا كذلك في عدد آياتها ؛ فقيل : ثنتان
وثلاثون ، وقيل : ثلاثون ، وقيل : تسع وعشرون آية .

قوله تعالى : (والفجر) قد اختلف العلماء في بيان المراد من هذا ومن الذي
بعده اختلافا طويلا ، وسنجتزئ بذكر معنيين مما ذكره لـكل واحد من هذه
الأقسام ، وقبل أن نبدا لك الكلام نقرر أنهم حاولوا بكل ما ذكره صرّف هذه
الألفاظ إلى معانٍ تظهر فيها فائدة دينية ككونها دالة على التوحيد أو فائدة دنيوية
توجب على الإنسان شكر خالقها . فأما الفجر فيقال : هو الصبح عند الوقت الذي
ينشق فيه الضوء وينفجر النور ، وأقسم الله تعالى به لما يحصل فيه من انقضاء الليل
 وظهور الضوء وما يترتب على ذلك من المنافع مثل انتشار الناس وسائر الحيوانات من
الطيور والوحوش في طلب الأرزاق ، وهذا كقوله تعالى : « والصبح إذا تنفس »
وكقوله جل شأنه : « والصبح إذا أسفر » وانظر إلى تمدحه سبحانه بأنه خالقُ الصبح
في قوله : « فائقُ الإصباح » ، ويقال : المراد بالفجر صلاة الصبح لأنها صلاة في
مفتتح النهار وتجتمع لها ملائكة الليل وملائكة النهار ، كما قال سبحانه : « وقرآنُ
الفجر إن قرآنُ الفجر كان مشهودا » ذكر المفسرون أن معنى ذلك أن ملائكة

وَلَيَالٍ عَشْرٍ [٢] وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ [٣]

الليل وملائكة النهار يشهدون القراءة التي يرتلها من قام يعبد ربه والناس نيام في صلاة الصبح ، وقوله سبحانه : (وَلَيَالٍ عَشْرٍ) يقال المراد بها العشر الأواخر من شهر رمضان ، وأقسم الله تعالى بها لشرفها ولأن فيها ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر وقد ورد في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم « اطلبوها في العشر الأخير من رمضان » وقد صح أنه صلى الله عليه وسلم « كان إذا دخل العشر الأخير من رمضان شد المنزر وأيقظ أهله وأمر أهله بالتهجد » ؛ وقال الإمام : الفجرها هنا هو جنس ذلك الوقت المعروف الذي يظهر فيه بياض النهار في جلد الليل الأسود وينبعث الضياء لمطاردة الظلام ، وهو وقت تنفس الصبح ، وهو معهود في كل يوم فصَحَّ أن يعرف بالألف واللام ، والمراد والله أعلم من « ليالٍ عشر » ليالٍ يتشابه حالها مع حال الفجر ، وهي ليالٍ يكون ضوء القمر فيها مطاردًا لظلام الليل إلى أن تغلب الظلمة ، فكانه وضع التناسب على شيء من التقابل ؛ فضاء الصبح يهزم ظلمة الليل ثم يسطع النهار ولا يزال الضوء إلى الليل ، وضوء الأهلّة في عشر ليالٍ من أول كل شهر يشق الظلام ثم لا يزال الظلام يغالبه إلى أن يغلبه فيسدل على الكون حجبته ، ولما كانت هذه الليالي العشر غير متعينة في كل شهر ذكرها منكورة ؛ وذلك أن ضوء الهلال قد يظهر حتى يغلب أول الظلمة في أول ليلة من الشهر وقد يكون ضئيلاً يغيب ضوءه في الشفق فلا يعد شيئاً فينبذ تبتدىء الليالي العشر من الليلة الثانية ، فلما كانت الليالي العشر تبتدىء تارة من أول ليلة وأخرى من الليلة الثانية لذلك نكرها على أنها ليالٍ عشر من كل شهر اه ، وقوله تعالى : (وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ) يقال : المراد بالشفع يوم النحر لكونه عاشر أيام ذي الحجة والمراد بالوتر يوم عرفة لكونه يوم التاسع ، وقد أقسم الله تعالى بهما لشرفهما ، ألا ترى أن يوم عرفة هو اليوم الذي عليه مدار أعمال الحج حتى إن النبي صلى الله عليه وسلم جعله نفس الحج في قوله

وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ [٤]

«الحج عرفة» ثم ألا ترى أن يوم النحر يقع فيه التقرب إلى الله بذبح الضحايا كما يقع فيه كثير من أمور الحج كالطواف والحلق والرمي، وقال الإمام : والشفع والوتر الزوج والفرد من الليالي العشرة أيضاً ؛ فهو يقسم بها على الجملة ثم يقسم بما حوته من زوج وفرد، اهـ . وقوله تعالى : (وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ) يقال المراد من «يَسْرِ» يمضي ويذهب، ويدل عليه قوله تعالى : « واللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ » وقوله سبحانه : « واللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ » وقال قتادة : المراد إذا أقبل وجاء، وأكثر المفسرين على أنه ليس المراد منه ليلة مخصوصة من الليالي ، بل المراد جنس الليل ، ولا شك أن نعمة الله تعالى على عباده بتعاقب الليل والنهار واختلاف مقاديرها بحسب الأزمنة والفصول مما لا يحجده إلا مكابر متعنت ؛ فصحَّ أن يقسم سبحانه بهما لأن في القسم بهما تنبيها على أن تعاقبهما بتدبير مدبر حكيم عالم بجميع المعلومات ، وقرأ إن شئت قوله تعالى : « قل رأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة ، مَنْ إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون ، قل رأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة ، من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ، ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون » تدرك مقدار ما في إقبال الصبح من النفع العميم ؛ فهو الذي يفرج عنك كرب الليل وينبهك إلى استقبال عملك ، وتعرف مقدار ما في لياالي القمر من فائدة فهي تستميل النفس إلى النقلة ، وتيسر على الناس أمر السفر ، وبخاصة في أيام الحر الشديد وفي البلاد الشديدة الحر كبلاد العرب ، وتعرف كم في هجوم الظلام من فائدة فإن فيه تهدأ النفوس وتسكن الخواطر وتستقر الجنوب في مضاجعها لتستريح من عناء العمل وتستعين بالنوم على إعادة القوى ؛

هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ [٥]

لَا جَرَمَ أَقْسَمَ اللَّهُ تَعَالَى بِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ ، ثُمَّ قَالَ بَعْدَ الْقَسَمِ : (هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ) وَالْحِجْرُ — بِكَسْرِ الْحَاءِ الْمَهْمَلَةِ وَسُكُونِ الْجِيمِ — هُوَ الْعَقْلُ ، وَإِنَّمَا سُمِّيَ الْعَقْلُ حِجْرًا لِأَنَّهُ يَمْنَعُ صَاحِبَهُ عَنِ الْوُقُوعِ فِي مَا لَا يَنْبَغِي ، وَالْأَصْلُ فِي مَعْنَى الْحِجْرِ الْمَنْعُ ، وَذَلِكَ كَمَا سُمِّيَ الْعَقْلُ عَقْلًا ؛ لِأَنَّ الْأَصْلَ فِي مَعْنَى الْعَقْلِ الْإِمْسَاكُ وَالرَّبْطُ ؛ لِأَنَّ الْعَقْلَ يُمْسِكُ صَاحِبَهُ أَنْ يَقَعَ فِي الرِّذَائِلِ وَيُحِجِّرَهُ عَنِ التَّرْدِي فِي مَهَاوِي الْهَلَسِكَةِ ، وَكَمَا سُمِّيَ الْعَقْلُ نُهْيَةً ، لِأَنَّهُ يَنْهَى صَاحِبَهُ عَنِ الْقَبَائِحِ ، وَكَمَا سُمِّيَ الْعَقْلُ حَصَاةً ؛ لِأَنَّهُ يَحْصِي وَيَضْبِطُ عَلَى صَاحِبِهِ أَفْعَالَهُ ، وَيَقُولُ الْعَرَبُ : فَلَانُ ذُو حِجْرٍ ، إِذَا كَانَ قَاهِرًا لِنَفْسِهِ ضَايِطًا لَهَا مُضَيِّقًا عَلَيْهَا ؛ وَالْغَرَضُ مِنَ الْاسْتِفْهَامِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : « هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ » التَّأْكِيدُ وَتَقْرِيرُ الْمَقْسَمِ عَلَيْهِ وَتَقْوِيَةُ أَمْرِهِ ، وَذَلِكَ كَمَا جَادَلَكَ فِي أَمْرٍ فَأَقَامَ لَكَ الْحِجَّةَ النَّاصِعَةَ الَّتِي تَثْبِتُ هَذَا الْأَمْرَ ثُمَّ عَقِبَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : هَلْ فِي مَا ذَكَرْتَ لَكَ حِجَّةً ، وَالْمُرَادُ إِنِّي قَدْ ذَكَرْتُ لَكَ أَقْوَى الْحِجَجِ وَأَبْيَنَهَا فَلَسْتَ تَسْتَطِيعُ بَعْدَ ذَلِكَ الْجَحْدَ أَوِ الْإِنْكَارَ أَوِ التَّشْكُكَ فِي مَا ذَكَرْتَ لَكَ . وَكَأَنَّهُ سَبَّحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْ قَالَ لَهُمْ : إِنْ مِنْ كَانَ ذَا لُبٍّ وَعَقْلٍ يَفْطِنُ إِلَى أَنْ فِي الْقَسَمِ بِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ الْمَشْتَمِلَةِ عَلَى الْحُكْمِ الْبَاهِرَةِ وَالْعَجَائِبِ الْغَرِيبَةِ وَالْدَّلَائِلِ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ مُبْدِعِهَا مَقْنَعًا وَكَفَايَةً . وَقَدْ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي بَيَانِ جَوَابِ الْقَسَمِ ؛ فَقَالَ الرَّخْشَرِيُّ : هُوَ مُحَذِّوْفٌ يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى : « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ » إِلَى قَوْلِهِ « إِنْ رَبُّكَ لَبِالْمُرْصَادِ » ، وَكَأَنَّهُ تَعَالَى قَدْ قَالَ : وَالْفَجْرُ وَلَيَالٍ عَشْرٌ وَالشَّعْفُ وَالْوَتْرُ وَاللَّيْلُ إِذَا يَسُرُّ لِنَعْدِ بْنِ الْكَافِرِينَ . ثُمَّ ذَكَرَ الدَّلِيلَ عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ — النخ » وَإِنْ وَقَّعَ الْقَسَمَ بَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي آخِرِ السُّورَةِ السَّابِقَةِ « إِنْ إِلَيْنَا يَا أَيُّهَا النَّاسُ الْحُكْمُ يَوْمَ تَكُونُ السَّاعَةُ » وَبَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي هَذِهِ السُّورَةِ « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ [٦] إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ [٧] الَّتِي لَمْ
يَخْلُقْ مِثْلَهَا فِي الْبِلَادِ [٨] وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ [٩]
وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ [١٠] الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ [١١] فَأَكْثَرُوا
فِيهَا الْفُسَادَ [١٢] فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ [١٣] إِنَّ رَبَّكَ
لَبَالِغُ الرِّصَادِ [١٤]

فعل ربك بعاد - الآيات « مُرَشِّدٌ » إلى هذا الجواب الذي ذكر تقديره جارُ الله
الزخشرى ، والسرفى حذفه هاهنا أن تذهب النفس كل مذهب فى التقدير ،
فيكون فى هذا الحذف إيماء إلى تفخيم أمر الجواب ، وهذا هو الوجه الذى يصح
الاعتداد به لما قدمنا غير مرة ، وقال قوم : الجواب هو قوله تعالى « إن ربك
لبالمرصاد » وما بين القسم وجوابه اعتراض لا محل له من الاعراب .

وبعد أن أقسم الله سبحانه وتعالى أنه سيعذب الكافرين وسينال منهم
جزاء على كفرهم وإصرارهم على مخالفة أوامره وأوامر رسوله شرع فى ذكر قصص
بعض الأمم السالفة ممن عاندوا الله ورسوله ولجوا فى عمايتهم وظغيانهم واستهانوا بحقوق
الله عليهم ؛ فكان جزاؤهم على ذلك أن أوقع الله بهم العذاب وأخذهم أخذَ المنتقم
الجبار ؛ ليكون فى ذلك زجر لهؤلاء الكفار ، وتثبيت للمؤمنين الذين اتبعوا
الرسول وناصروه ، وتطمين لقلوب الذين يجدون من إيذاء الكفار لهم ولتنبيههم
مَسَّ الأَلَم ؛ فقال جل ذكره : (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي
لَمْ يَخْلُقْ مِثْلَهَا فِي الْبِلَادِ ، وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ، وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ،
الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ ، فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ، إِنَّ
رَبَّكَ لَبَالِغُ الرِّصَادِ) واشتملت هذه الآيات الكريمة على ذكر ثلاث أمم من الأمم
الغابرة ، وأجل الله تعالى فيها ذكر ما أوقعه بهم من العذاب ولم يبين نوعه بيانا

واضحاً ، ولا فصلَ هنا ما أوقعه بكل أمة من هذه الأمم ، ولئن كان لم يفصله في هذه السورة فقد فصله في غير موضع من الكتاب الكريم ، من ذلك في سورة «الحاقة» فقد فصلَ هناك سبحانه عذاب هذه الأمم تفصيلاً شافياً ، أنظر إلى قوله جل شأنه : «فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية ، وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عانية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً ففري القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية فهل ترى لهم من باقية» تجد البيان الذي بين به سبحانه نوع العذاب الذي أنزله بعاد وثمود قد تكفل لك بآتم الايضاح ، ثم انظر إلى قوله تباركت أسماؤه : «وجاء فرعون المؤمنات بالخاطئة فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية» تدرك ذلك تمام الإدراك ، والسرف في أنه سبحانه يكرر ذكر القصص في القرآن الكريم ويذكرها في بعض المواضع على طريق الإشارة وفي بعضها موجزة وفي بعضها مفصلة أنه جل ذكره إنما يذكر في كل مكان من القرآن ما يقتضيه مقام الكلام ويتطلبه حال المخاطبين به ؛ فقد يكون المراد إقامة الحجة على قدرته تعالى وتوحيده في ملكه وقهره لعباده ، وقد يكون المراد تريق قلوب المخاطبين ، وقد يكون الغرض من سوق الكلام إبانة الحجة على عباده وأنه أعذر لهم إذ أنذرهم وخوفهم ، ونحو ذلك مما يؤتى بالكلام المشتمل على هذه القصص من أجله ، ولا شك أن كل مقام من هذه المقامات وغيرها يستدعى ما لا يستدعيه غيره من الكلام ، والغرض من الآيات التي نحن بصدد تفسيرها هو ما سبقت الإشارة إليه وهو تذكير الكفار بأهم كانت أشد منهم قوة وأكثر أموالاً وأنصاراً وعديداً ، لم تُغن عنهم أموالهم ولا دفعت عنهم أنصارهم بأس الله حين نزل بهم ، والغرض مع ذلك تطمين خاطر النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه بأن الله لا يترك هؤلاء الكفار وما تسول لهم أنفسهم ، وأنه سبحانه إن أمهلهم فليس بمهل لهم ولا بغافل عنهم ، بل لابد أن يأخذهم كما أخذ من قبلهم ، وأنت إذا تدبرت في ذلك

١٥٠
رشته قل

بعض التدبر أمكنك أن تدرك أن مثل هذا الغرض يتأدَّى بمجرد الإشارة إلى هذه الأمم السابقة والإشارة إلى أنهم أخذوا وعذبوا ولم يتركوا سُدًى ، وهذا هو الذي تضمنته الآيات الكريمة التي نحن بصدد تفسيرها . وقوله تعالى « ألم تر » معناه ألم تعلم ، وليس المراد بالرؤية هاهنا رؤية البصر ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يشاهد ذلك هو ولا أصحابه حتى يسأل عن مشاهدته ، فإن قلت : أصل الرؤية أن تكون بالباصرة فكيف تطلق على العلم ، قلت : إذا كان المعلوم من الأمور الثابتة ثبوتاً كثبوت المشاهدات بحيث لا يتردد أحد في التصديق به والإذعان له صحَّ حينئذ أن تطلق الرؤية عليه ، وأخبار عاد وثمود وفرعون كانت منقولة إلى المخاطبين نقلَ التواتر ، وأخبار التواتر تفيد عند السامع علماً يشبه العلم الذي ينشأ عن المشاهدة في قوته وجلاله وبعده عن الشبهة . وخطاب في قوله تعالى « ألم تر كيف فعل ربك بعاد » إلى النبي صلى الله عليه وسلم أوّل الأمر ، والمراد به كل من يتأتى منه الرؤية بمعنى العلم على ما قدمناه ، وقوله جل شأنه « بعاد إرم ذات العماد » قد قرئ فيها بثلاث قراءات الأولى « بعاد إرم ذات العماد » بتنوين عاد وفتح إرم على أنه ممنوع من الصرف ، والثانية « بعاد إرم ذات العماد » بإضافة عاد إلى إرم ووصفها بذات العماد ، والثالثة « بعاد إرم ذات العماد » بإضافة إرم إلى ذات العماد ، أما توجيه القراءة الأولى فإنَّ يجوز أن تكون بدلاً وأن تكون عطف بيان على عاد ، وذات العماد نعت لعاد أو لإرم ، وأما توجيه القراءة الثانية فقد تبين من الكلام في القراءة ، وأما الثالثة فإنَّ بدل أو عطف بيان على عاد ، وإرم مضاف إلى ذات العماد ، على ما مر . واعلم أن النسائيين قد ذكروا أن عاداً هو عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح ، وذكروا مع ذلك أن عاداً قد يطلق على القبيلة كلها من أبناء عاد هذا كما يطلقون تيماً على بني تميم وبكراً على بني بكر بن وائل وتغلب على بني تغلب ، وهلم جرا ، وذكروا مع ذينك أن التاريخ قد حفظ لنا أن عاداً

القبيلة فرقتان فرقة منهما متقدمة سابقة ويقال لها عادُ الأولى ، وفرقة متأخرة لاحقة ويقال لها عادُ الأخيرة ، والدليل على ذلك قوله تعالى : « وأنه أهلك عاداً الأولى ، وثمود فما أبقى » واختلفوا بعد ذلك في « إرم » ؛ فقال قوم : هو جدُّ عاد ابن عوص المذكور في نسبه السابق ، وقد أضيف العلم إلى العلم في القراءة الثانية كما أضيف في قولهم : أعشى همدان ، وأعشى قيس ؛ والمراد بهذه الإضافة في الآية الكريمة أن يبيّن أن عاداً المقصودة بهذا الحديث عادُ الأولى القريبة إلى الجد الأعلى ، وهذا هو المراد بابدال إرم أو عطفه عليه بيانا في القراءة الأولى والقراءة الثالثة ، وقال قوم : المراد بـ إرم المدينة التي كانوا يسكنونها ، وقد كانت في بلاد الرمال والأحقاف بين عُمان وحضرموت ، بدليل قوله تعالى : « واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف » وهذا المعنى ظاهر التوجيه في القراءة الثانية بإضافة عاد إلى إرم ، وذلك كما نقول : على الحجاز ، وعمر مصر ، ونحو ذلك ، فأما على القراءتين الأولى والثالثة فالأمر مشكل ، وقد خرجوها على أن الأصل بعادٍ صاحب إرم ، فحذف المضاف وهو صاحب ، وأقيم المضاف إليه مقامه وهو إرم ، وفي النفس من هذا التوجيه شيء ليس بالقليل ؛ واختلفوا كذلك في المراد بذات العماد ؛ فذهب قوم إلى أن المراد ذات الأعمدة ، وهي الأخبية والخيام ، وذلك أنهم كانوا قوماً بدوياً ، وذهب قوم إلى أن المراد ذات الأساطين والأعمد العالية إشارة إلى أنهم كانوا يرفعون البنيان على عمودٍ مرتفعة كما قال تعالى : « أتبنون بكل ريع آية تعبثون » وهذان الوجهان على أن المراد بـ إرم مساكن هؤلاء الناس ، وهي صالحة على القراءات الثلاث : أما على الأولى والثانية فذات العماد صفة لإرم سواء أضفت عاداً إلى إرم أم جعلت إرمَ بيانا أو بدلا من عاد ، وأما على الثالثة فإضافة إرم إلى ذات العماد من نحو على مكة وعمر مصر ، وقال قوم : ذات العماد وصف لهذه القبيلة ، وكأنه قيل : هذه قبيلة ذات عماد ، كما تقول : هي ذات

شوكة ، وهى ذات ملك ، والغرض من وصفها بذات العماد أنهم بلغوا ذروة
المجد ووصلوا أوج العزة وكانوا فى أعلى درجات القوة والعلو ، والذى نختاره أن إرم فى
هذه الآية السكرية أبو القبيلة الأكبر الذى هو جد عاد بن عوص ، وأن المراد
بذات العماد المعنى الذى ذكرناه أخيراً ، وعلى هذا يكون المعنى : ألم تعلم أيها
الإنسان كيف أهلك ربك عاداً الأولى الذين كانوا أشدّ الناس أجساماً وأطولهم
قامة وأرفعهم مكانة ؟ فإن قلت : فالضمير فى قوله تعالى « التى لم يخلق مثلها فى
البلاد » على أى شىء يعود فى هذه الآية ؟ وما معنى الكلام على كل وجهٍ مما
تذكر ؟ فالجواب على هذا أنا إذا قلنا إن إرم اسم لمسا كن قوم عاد فالضمير يعود
على إرم ، والمعنى إنه لم يخلق مثل مدينة أبناء عاد التى تسمى إرم فى بلاد الدنيا
كلها ، ويجوز مع ذلك أن يكون الضمير راجعاً إلى العماد ، والمعنى إنه لم يخلق مثل
تلك الأساطين فى بلاد الدنيا ، وإن قلنا إن إرم هو أبو القبيلة الأكبر على ما اخترناه
كان الضمير راجعاً إلى عاد إرم والمعنى إنه لم يخلق مثل عاد فيمن سكن بلاد الدنيا
كلها فى عظم الجثة وشدة القوة . وقوله تعالى « وثمود الذين جابوا الصخر بالواد »
معنى « جابوا الصخر » قطعوه من الجبال ونحتوه ، وكانت ثمود مشهورة بنحت
الصخور والرخام وقطعها من الجبال وبناء الأبنية العظيمة كما قال تعالى « وتنتحون
من الجبال بيوتاً فارهين » وهذا يدل على ما منحهم الله من القوة والعقل حتى
صنعوا لأنفسهم بيوتاً من الصخر وأقاموها فى ذلك الوادى الذى اتخذوه لإقامتهم
فيه ، ويقال : المراد أنهم قطعوا الصخر من الجبال واتخذوا منه وادياً جعلوه مخزناً
لمياه الأمطار كي يصرفوه فى منافعهم ، وعلى أية حال فالمراد من هذه العبارة
الكناية عن كونهم كانوا من أهل الفكر والتدبير والقوة ، وثمرود : قبيلة من
العرب البائدة من ولد كثر بن إرم بن سام بن نوح ، وكانت منازلها بالحجر بين
الشام والحجاز . وقوله تعالى « وفرعون ذى الأوتاد » فرعون : اسم يطلق على

كل من كان يحكم مصر في القديم ، والمراد به هاهنا الذي كان في عهد موسى بن عمران عليه السلام ، والأوتاد : جمع وَتَد ، وأصل الوتد قطعة من الخشب ينجر طرفها ثم يدق في الأرض ليربط فيه حبل الخيمة ، مثلاً ، والمراد من أوتاد فرعون هذه المباني العظيمة التي شادها فرعون مصر في قديم الزمان ، ومنها الأهرامات ، قال الامام : وما أجل التعبير عما ترك المصريون من الأبنية الباقية بالأوتاد فانها هي الأهرام ومنظرها في عين الرأي منظر الوتد الضخم المغروز في الأرض ، بل إن شكل هياكلهم العظيمة في أقسامها شكل الأوتاد المقلوبة يبتدىء القسم عريضا وينتهي بأدق مما ابتداء . وقوله جل ذكره « الذين طغوا في البلاد » هو وصف لسكل من سبق ذكرهم من عاد وثمود وفرعون ، و « طغوا » من الطغيان ، والطغيان : هو مجاوزة الحد والزيادة على القدر المعروف ، والمراد به هاهنا سوء استعمال السلطان والقوة ، والخروجُ فيهما عن حدود المعدلة والتقصد ، والإسرافُ في الاعتداد بالنفس مع هضم حقوق الناس ، والاعتثار بمعظم القدرة حتى لا يرى لأحدٍ عنده شأن ولا حقاً ، وقوله تعالى : « فأكثروا فيها الفساد » معناه أنهم كانوا بسبب طغيانهم سبباً في فساد البلاد ؛ وذلك أن من اعتدَّ بنفسه فبالغ في الاعتداد بها وتهوان في حقوق غيره واعتدى عليها وأخذ ما ليس له ولم يعط الذي عليه ؛ من فعل ذلك عاد بفعله على نظام الجماعة بالتفكيك ، وعلى عروة الائتلاف بالنقض ، وحينئذ يسود الفساد ويكثر الجور ويختل نظام العمران . وقوله تعالى « فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ » السَّوْطُ : هو الجِلْدُ المصفور الذي يُضْرَبُ به ، وَصَبَّهُ : إنزاله بشدة مع التوالى من غير انقطاع ، والمراد هنا بسوط العذاب أنواع العقوبات التي أنزلها الله بهم جزاء على طغيانهم وإفسادهم ، وهذه العقوبات هي التي بَيَّنَّهَا سبحانه في غير موضع من الكتاب العزيز وأُشْرْنَا إلى بعض هذه المواضع في أول هذه القصص ، شَبَّهَ الله سبحانه ما أوقعه بهم من

صنوف العذاب وما صَبَّهَ عليهم من ضرب الهلاك بالسَّوْطِ ، من قِبَلِ أَنْ
السَّوْطُ يُضْرَبُ بِهِ فِي الْعُقُوبَاتِ ، وَالْقَادِرُ الْحَكِيمُ إِنَّمَا يُوَقِّعُ الْعَذَابَ بِالْأَمَمِ عَقُوبَةً
لَهَا عَلَى مَا يَقَعُ مِنْهَا مِنْ أَنْوَاعِ التَّفْرِيطِ فِي جَنْبِ اللَّهِ ، فَإِنْ قُلْتَ : هَذِهِ الْآيَةُ تَدُلُّ
عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى لَا يَتْرُكُ عِقَابَ مَنْ طَغَى وَأَفْسَدَ فِي الْأَرْضِ وَأَنَّهُ سَبَّحَانَهُ يُوَقِّعُ بِهِمْ
فِي الدُّنْيَا الْبِتَّةَ ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : « وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكُوا عَلَى ظُهُرِهِمْ
مِنْ دَابَّةٍ » وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ جَلَّ شَأْنُهُ يُؤَخِّرُ عَذَابَ بَعْضِ النَّاسِ إِلَى يَوْمِ
الْقِيَامَةِ ، فَكَيْفَ يُجْمَعُ بَيْنَ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ ؟ فَالْجَوَابُ عَنْ ذَلِكَ أَنَّ نَقُولَ لَكَ :
إِنَّ الْقَادِرَ الْحَكِيمَ لَا يُؤَاخِذُ النَّاسَ فِي الدُّنْيَا بِذُنُوبِهِمْ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَسْتَحِقُّونَهُ ،
وَلَا يَتْرُكُ أَمْرَهُمْ سُدِّي ، بَلْ يَمَسُّهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ فَيُنَالُهُمْ مِنْهُ بَعْضُ الْعِقَابِ ، وَيُؤَخِّرُ
حَسَابَهُمْ عَلَى بَاقِي الذُّنُوبِ إِلَى الْآخِرَةِ ؛ لِيَكُونَ تَعْجِيلُ بَعْضِ الْعَذَابِ فِي الدُّنْيَا
رَدْعًا لَهُمْ إِنْ بَقُوا وَزَجْرًا لغيرِهِمْ عَنْ ارتكاب مثل ما ارتكبوه ، وَانْظُرْ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى
فِي شَأْنِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ : « مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأَدْخَلُوا نَارًا » وَقَوْلِهِ جَلَّتْ كَلِمَتُهُ
فِي شَأْنِهِمْ أَيْضًا : « النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ، وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا
آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ » تَدْرِكُ أَنَّهُ تَعَالَى عَاقِبَهُمْ فِي الدُّنْيَا بِالْإِغْرَاقِ ، ثُمَّ عَاقِبَهُمْ
فِي قُبُورِهِمْ بِعَرْضِهِمْ عَلَى النَّارِ كُلِّ غَدُوَّةٍ وَكُلِّ عَشِيَّةٍ ، وَأَنَّهُ سَيَعَاقِبُهُمْ مَعَ هَذَا
فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ بِإِدْخَالِهِمْ مِنْ مَكَانٍ مِنَ النَّارِ يَلَاقُونَ فِيهِ أَشَدَّ أَنْوَاعِ الْعَذَابِ ، وَهَذَا
يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ يَأْخُذُ بِبَعْضِ الذُّنُوبِ وَيُؤَجِّلُ عِقَابَ بَعْضِ الْآخَرِ ؛ فَالْآيَةُ الَّتِي نَحْنُ
بِمُصَدِّدِ تَفْسِيرِهَا تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ قَدْ وَقَعَ لَهُوْلَاءُ فِي الدُّنْيَا شَيْءٌ مِمَّا اسْتَوْجِبُوهُ بِذُنُوبِهِمْ ،
وَالْآيَةُ الَّتِي ذَكَرْتُ فِي الْإِعْتِرَاضِ تُشِيرُ إِلَى أَنَّهُ قَدْ بَقِيَ لَهُمْ شَيْءٌ مِنَ الْعَذَابِ لَمْ
يَسْتَوْفُوهُ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ ، فَفَنَفْهَمُ مِنْ مَجْمُوعِ الْآيَتَيْنِ أَنَّ مَا وَقَعَ فِي الدُّنْيَا مُقَدِّمَةٌ مِنْ
مُقَدِّمَاتِ الْعَذَابِ وَأَنَّ تَمَامَ الْجَزَاءِ سَيَكُونُ هُنَاكَ فِي يَوْمِ الْعَرْضِ عَلَى اللَّهِ الْقَدِيرِ .
وَقَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : « إِنْ رِبْكَ لِلْمَرْصَادِ » الْمَرْصَادُ : هُوَ الْمَكَانُ الَّذِي يَقُومُ فِيهِ

الرَّصَدُ ، والرَّصَدُ : هو من مَنْ يَرُصِدُ الأمور : أى يترقبها ليقف على ما فيها من الخير أو الشر ، ويقال بلفظ واحد للمفرد وللجمع ، ويقال للحارس الذى يَحْرُسُ مَا يُخْشَى عليه رَصَدٌ ، وعليه قوله تعالى : « وَأَنَا لِمُسْنَا السَّمَاءِ فوجدناها ملئت حرساً شديداً وَشُهُباً ، وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شَهَاباً رَصَداً » وهذه العبارة وهى قوله جل ذكره « إِنْ رَبُّكَ لَبَالِغُ رَصَادٍ » قد وردت مَوْرد التمثيل ، والمعنى إِنْ رَبُّكَ يَجْازِىُ الْعَصَاةَ بِذُنُوبِهِمْ فَلَا يَفُوتُهُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ ، والغرض من الآية بعث الطمأنينة إلى قلب الرسول صلى الله عليه وسلم وكأنه سبحانه يقول له : إِنْ اللَّهَ الَّذِى رَبَّكَ وَتَوَلَّى أَمْرَكَ وَحَفِظَكَ بِرَعَايَتِهِ رَقِيبٌ عَلَى عِبَادِهِ مَطْلَعٌ عَلَى كُلِّ مَا يَفْعَلُونَهُ عَلِيمٌ بِمَا تَخْفَى صُدُورُهُمْ خَيْرٌ بِغِيَابَاتِ أَنْفُسِهِمْ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ ، وهو مُجَازٍ كُلِّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ ؛ فَأَمَّا مَنْ عَمِلَ صَالِحًا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَهُ جَزَاءُ الْحَسَنِ ، وَأَمَّا مَنْ اقْتَرَفَ الْإِثَامَ وَاجْتَرَحَ السَّيِّئَاتِ فَسَيُصْلِيهِ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ؛ فَلَا يُظَنَّ هَؤُلَاءِ الْأَئِمَّةَ الطَّاغُوتِ الَّذِينَ يَكْثُرُونَ الْفُسَادُ فِي الْأَرْضِ وَيَتَجَاوَزْنَ أَقْدَارَهُمُ الَّتِى جَعَلَ اللَّهُ لَهُمْ أَنْهُمْ مُقْلَتُونَ مِنْ عِقَابِهِ . وهذه الجملة تعاليل لقوله جل شأنه « فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ » يعنى إنه تعالى إنما عاقب هَؤُلَاءِ الْأَئِمَّةَ عَلَى ذُنُوبِهِمْ لِأَنَّهُ يُخْصِى عَلَى الْعَصَاةِ ذُنُوبَهُمْ وَيُؤَاخِذُهُمْ بِهَا ، وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ الْعِلَّةَ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى يَفْعَلُ ذَلِكَ مَعَ كُلِّ عَاصٍ وَمَعَ كُلِّ مَذْنِبٍ ؛ فَمِنْ هَهُنَا ظَهَرَ وَجْهُ تَسْلِيَةِ النَّبِىِّ بِهَذِهِ الْآيَةِ وَوَجْهُ تَخْوِيفِ الْكَفَّارِ مِنْ أَمْتِهِ بِهَا .

ثم إنه جل ذكره بعد أن ذكر شأن نفسه ، وأخبر عن نفسه أنه لا يفوته من شأن عباده شيء وأنه لا يهمل الذين يتعدون حدود ما شرعه لهم ، بل يأخذ كل مذهب بذنبه ؛ بعد أن ذكر ذلك عن نفسه ذكر شأن الانسان ، وكأنه تعالى يقول : هذا الذى ذكرناه هو

فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ [١٥]
وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ [١٦]

شأننا فإن أردت أن تعرف شأن الإنسان فانا نقصه عليك ؛ فقال سبحانه : (فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرم من ، وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهان) والمراد بالإنسان جنسه الصادق على من اتصف بالوصف المذكور ، وابتلاه : أى اختبره ، وذلك يصدق على بسط الرزق وإقتاره فانه سبحانه إذا بسط الرزق لعبده من عبده فقد اختبر بذلك حاله ليظهر أمره وينكشف ما استتر منه ويتبين أنه يصبح من الشاكرين لأنعم الله عليه أو يصير ممن إذا استغنى طغى وتجبر وكفر نعمة الله عليه وجحدها ، وكذلك إذا قدر الرزق على عبد من عبده فقد اختبر حاله أيصبر على ما نزل به من عند ربه أم يجزع ؛ فالحكمة واحدة فى الأمرين ، ومن ثم ساع أن يكون كل واحد من الأمرين ابتلاء ، وقرأ إذا شئت قوله جل ذكره : « ونبلوكم بالشر والخير فتنة » تدرك أن كل واحد من الأمرين المتقابلين يكون سبباً فى اختبار ما عند الإنسان من الأخلاق السكينة فى نفسه ، وقوله تعالى « فأكرمه ونعمه » بيان لأثر الابتلاء ، ومعناه صيرته مكرماً يرْفُلُ فى بحبوحة النعيم ، وكذا قوله جل شأنه « فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ » بيان لأثر الابتلاء ؛ ومعناه صيرته فقيراً مُقْتَرّاً عليه فى الرزق . وتقول : قَدَرْتُ عليه الشئ ، إذا ضيقته عليه وكأنك جعلته بقَدَرٍ لا يتجاوز ، ومنه قوله تعالى : « ومن قَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ » وقوله « يَسْطُرُ الرزق لمن يشاء وَيَقْدِرُ » وقوله « فظن أن لن نقدر عليه » وحاصل معنى الآية الكريمة أن الإنسان جبلت نفسه على أن لا يَهْتَمَ إلا بشؤون الدنيا ولذاتها وشهواتها فان وجد فيها برَدَ الرحة ورأى سَعَةً رِزْقِهِ وبسطته واستطاع أن يُدْرِكَ ما تَمَنَّاهُ من

لذائذ وشهواتٍ زعم أن هذا الذى هو فيه من السعة إكرامٌ من الله تعالى وخيلَ له الوهمُ حينئذ أن الله جلت قدرته لا يؤاخذُه على ما يعمل من عملٍ ، وإن لم يجد هذه الراحة ورأى أن رزقه لا يأتِيه إلا بقدر ظنَّ أن هذا إهانة من الله تعالى له وإذلال لنفسه ، والانسَان في الحالين خاطيء مرتكبٌ أشنع وجوه الغفلة ؛ لأن إسباغ النعمة في الدنيا على أحد من الناس لا يدل على أنه مستحقٌ لذلك ، ولو كان ذلك يدل على الاستحقاق لما رأيت عاصياً مُوسِعاً عليه ، ولا نظرت كافراً يتنعم بصنوف النعم ، وكيف تكون بسطة الرزق دليلاً على أن العبد يستحق ذلك ونحن نشاهد كثيراً من الصديقين مُضَيَّعاً عليهم ، ولعلَّ من حكمة الله تعالى في بسطة الرزق على بعض الناس وتضييقه على بعضهم أن وجَدَافَ المال سببٌ للانغماس في الشهوات وأنه قاطع عن الاتصال بالله ، وتأمل فيما كان يدعوه النبي صلى الله عليه وسلم من قوله « اللهم أحْيِنِي مسكيناً ، وأمِتْنِي مسكيناً ، واحشُرْنِي في زمرة المساكين » تدركُ ذلك المعنى واضحاً ، بل اقرأ قوله تعالى : « إن الانسان ليطغى أن رآه استغنى » وكيف يسوغ للانسان أن يفرح بكثرة المال وهو مسئول بين يدي ربه عن كل شيء : فهو مسئول عن جوارحه جارحة فجارحة ، وهو مسئول عن صحته ، وهو مسئول عن عقله ، وهو مسئول عن ماله فيم أنفقه ، فكما زاد نعيمه في الدنيا طال سؤاله ، على أن سعادة الدنيا وشقاوتها في مقابلة ما في الآخرة من السعادة والشقاوة بمنزلة القطرة أمام البحر ، فالمتنعم في حياته الأولى لو كان من الأشقياء في الآخرة لكان نعيم الدنيا أقبح من الشقاء ، وهذا الفقير المحتاج في الدنيا لو كان سعيداً في الآخرة لكان فقر الدنيا أسعداً من الغنى والميسرة ، والناس غافلون عن ذلك لا يفكرون فيه ولا يلقون له بالاً ، بل ترى من يمتحنهم الله بالفقر يضعف اصطبائهم عن احتماله ، ويذهب جزعهم بأفكارهم ؛ فيزعمون أن هذا الفقر إهانة من الله لهم ، ثم يزيدون في هذا الزعم حتى يجرهم إلى اعتقاد

كَلَّا بَلْ لَا تُكْرُمُونَ الْيَتِيمَ [١٧] وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ
الْمَسْكِينِ [١٨] وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاثَ أَ كَلَّا لَمَّا [١٩] وَتُحِبُّونَ الْمَالَ
حُبًّا جَمًّا [٢٠]

أَنْ مَنْ صَغُرَتْ قِيَمَتُهُ عِنْدَ رَبِّهِ لَمْ تَسْكُنْ لِلَّهِ بِهِ عَنَآيَةً وَلَا بِمَا عَمَلُهُ مِنْ عَمَلٍ ،
فِيحْمِلُهُ ذَلِكَ عَلَى ارْتِسَاكِ الْآثَامِ وَاحْتِمَالِ الْأَوْزَارِ وَالْجُرَى وَرَاءَ الشَّيَاطِينِ
الْمُرْدِيَةِ ، فَلَا تَعْنُ لَهُ مُوَبَّقَةٌ إِلَّا ارْتِكَابُهَا ، وَلَا تَلُوحُ لَهُ مُخْزِيَةٌ إِلَّا دَلْفٌ إِلَيْهَا ،
فَيَنْخَرِطُ مَعَ الْجَبَّارِينَ فِي سَلَكٍ وَاحِدٍ وَيَلْتَقِي مَعَهُمْ فِي طَرِيقِ الْفُجُورِ وَالْأَسَمِ . وَتَرَى
مَنْ يَمْتَحِنُهُمُ اللَّهُ بِاسْبَاغِ النِّعْمَةِ عَلَيْهِمْ يَظُنُّونَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ اصْطَفَاهُمْ عَلَى عِبَادِهِ وَرَفَعَهُمْ
فَوْقَ سَائِرِ خَلْقِهِ ، ثُمَّ لَا يَزَالُ بِهِمْ شَيْطَانُ الْغَوَايَةِ حَتَّى يَذْهَبُوا مَعَ أَهْوَائِهِمْ كُلِّ مَذْهَبٍ
وَيَسِيرُوا فِي طَرِيقِ الشَّهَوَاتِ الْمُهْلِكَةِ وَيَرْتَكِبُونَ كُلَّ مَا يَزِينُهُ لَهُمُ الْغُرُورُ ، هَذِهِ حَالُ
مَنْ لَمْ يَنْعَمَ عَلَيْهِ اللَّهُ بِنِعْمَةِ الْعَقْلِ الصَّحِيحِ وَالْدِينِ الْمَتِينِ ، حَالَتِهِمْ فِي شَقَاوَتِهِمْ
وَسَعَادَتِهِمْ ، وَفِي قَفَرِهِمْ وَغَنَاسِهِمْ ، وَفِي ضَعْفِهِمْ وَقُوَّتِهِمْ ، وَفِي نَعِيمِهِمْ وَبُؤْسِهِمْ ، لَا
يَرْجِعُونَ إِلَى رَبِّهِمْ وَلَا يُدْرِكُونَ أَنَّ مَا عِنْدَهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ، وَأَمَّا الَّذِينَ وَهَبَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى
عَقْلاً يَدْرِكُونَ بِهِ حَقَّ الْإِدْرَاكِ وَيُمَيِّزُونَ بِهِ أَوْفَقَ تَمْيِيزٍ ، وَرَزَقَهُمْ مَعَ ذَلِكَ يَقِينًا بِهِ
وَبِمَا عِنْدَهُ وَثَبَّتْ قُلُوبُهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ الصَّادِقِ ، فَهَؤُلَاءِ تَسْمُو أَحْوَالُهُمْ عَنِ التَّرَدُّيِّ
فِي مَهَاوِي الْخُرَى ، وَتَعَلَّوْا أَنْفُسَهُمْ عَنِ الِالْتِفَاتِ إِلَى الْغَرَائِزِ الْحَيَوَانِيَةِ الْأُولَى ،
وَهَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ أَدْرَكُوا الْحَيَاةَ عَلَى حَقِيقَتِهَا وَعَرَفُوا الْآخِرَةَ كَمَا يَنْبَغِي أَنْ تُعْرَفَ
وَقَوْلُهُ تَعَالَى : (كَلَّا ، بَلْ لَا تُكْرُمُونَ الْيَتِيمَ ، وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ،
وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا ، وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا) الْمُرَادُ بِهِ رَدُّعُ هَؤُلَاءِ عَنْ
مَزَاجِهِمُ الْبَاطِلَةَ وَبَيَّانُ أَنَّهُمْ يَرْتَكِبُونَ أَنْوَاعًا مِنَ الْمُنْكَرَاتِ يَسْتَحِقُّونَ عَلَيْهَا أَشَدَّ
أَنْوَاعِ الْعِقَابِ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : الْمُرَادُ لَمْ يُبْتَلِ الْإِنْسَانُ بِالْغَنَى لِكِرَامَتِهِ عِنْدِي وَلَمْ يُبْتَلِ

بالفقر لهوانه عَلَى . وهذا الذى ذكره هو المعنى الذى يشير إليه حرف الردع وهو كلاً ،
وعدم إكرام اليتيم قد يكون بترك برّه والاحسان إليه ؛ وقد يكون بدفعه عن
حقه الثابت له فى الميراث وأكل حقوقه ، وقد يكون بأخذ ماله ، ومعنى « ولا تحاضون
على طعام المسكين » لا يأمر بعضكم بعضاً بطعامه ، والترات: الميراث ، وأصله وراث
فقلبت الواو تاء ، وكذلك كل واو وقعت فى أول الكلمة وهى مضمومة يجوز
قلبها واوا ، نحو تُخَمَّة وتُهَمَّة وتُكَلَّة وتُجَاه . واللَّهْم : الشديد ، ومعنى « وتأكُلون
التراث أكلاً لَمّاً » أنكم تأكلون المال الذى يتركه من يتوفى منكم أكلاً شديداً
بحيث تحولون بينه وبين من يستحقونه فلا تمكنون واحدا منهم من حقه فيه .
وقال جابر الله الزمخشري : ويجوز أن يكون الذم متوجهاً إلى الوارث الذى ظفر بالمال
سهلاً من غير أن يعرَق فيه جبينه فيُسْرِف فى إنفاقه ويأكله أكلاً لما واسعاً
جامعاً بين ألوان المشتبهات من الأطعمة والأشربة والفواكه كما يفعل الوراث
الباطلون ، ومعنى قوله تعالى « وتحبون المال حبا جما » إنكم تَمِيلون ميلاً
شديداً إلى المال ، سواء أكان ميراثاً أم لم يكن ، وكل ما ذكره سبحانه
من الصفات التى يتصف بها هؤلاء الكفار يدل على أنهم قوم يؤثرون الحياة
الدنيا على الآخرة ، وكأنه يقول لهم : إنكم لو كنتم ممن غلب عليه حب
الآخرة لانصرفتم عما يترك الموتى وتركتم ميراثهم لأيتامهم ومن كان فقيراً من
أهلهم ؛ فإنكم حين تشاركونهم فيه إنما تأخذون شيئاً لا كسب لكم فيه ولا مدخل
لكم فى تحصيله وجمعه ، ولو كنتم كذلك ممن استحبوا الآخرة ورغبوا فيها لما
ضريت نفوسكم إلى المال تأخذونه من حيث وجدتموه ، ولما انقسمت أنفسكم فى
الشهوات وتكالت عليها واستطابت وباءها ؛ فهذه الأعمال التى تعملونها تنطق
بأنكم لستم على ما ادعيتم لأنفسكم من أنكم على ملة أبيكم إبراهيم
خليل الرحمن

كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا [٢١]

وقوله تعالى : (كَلَّا) رَدَّعْ لَهُمْ عما يرتكبونه من المنكرات وإنكار لأفعالهم التي ذكرها سبحانه في الآيات السابقة ، والمعنى لا ينبغي أن يكون هذا شأنكم من الحرص على الدنيا وقصُر الهمة واستفراغ الجهد في تحصيلها ثم إذا حصلتُموها تركتم المواساة ، وليتكم حين تحصلونها تصلون إليها من وجوه مشروعة ، فانكم تجمعونها من حيث تنهياً لكم سواء أ كان من وجوه الحل أم لم يكن كأنكم تتوهمون أنه لا حساب ولا جزاء ، ومن كانت هذه حالته فسيأتي عليه يوم يندم فيه أشد الندم ولا تنفعه الندامة يومئذ ، وسيتمنى في ذلك اليوم أن لو كان قد أفنى حياته في التقرب إلى الله بصالح الأعمال . ثم بين سبحانه ذلك اليوم الذي تعتر بهم فيه الندامة ويكثر منهم التمني ويعرفون أنهم كانوا على خطأ واضح ، ووصف سبحانه ذلك اليوم بثلاثة أوصاف : الأول ما ذكره بقوله : (إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا) الدَّكُّ : كسر الحائط والجبل ، ويقال : الدَّكُّ حَطُّ المرتفع بالسط ، ومنه تقول : اندكَّ سنامُ البعير ، إذا انقرش في ظهره ، ودَكَادُ كَأْ : معناه دكا بعد دك ، والمراد أنه كرر عليها الدك وتتابع حتى صارت الأرض هباء منثورا ، والوصف الثاني الذي يحدث ذلك اليوم ما ذكره سبحانه بقوله : (وجاء ربك والملك صفا صفا) أما ظاهر قوله « وجاء ربك » فغير مقصود لأن الجيء على معناه المعروف لنا يقتضى الحركة التي هي من خواص الأجسام وقد قام البرهان العقلي القاطع ودل النصُّ الصريح على أنه تعالى ليس جسما ولا يتصف بصفات الأجسام ، وإذا كان ظاهر هذه العبارة غير مقصود وجب أن يتأول لها معنى يتفق مع النصوص والأدلة القاطعة ؛ وقد اختلف العلماء في هذا التأويل ^(١) ، فمنهم من قال : الكلام

(١) هذه التأويلات مذهب الخلف من علماء هذه الأمة ، فأما مذهب السلف

وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا [٢٢] وَجِئَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ

على حذف مضاف ، وأصل الكلام وجاء أمرُ ربك ، أو جاء جليلُ آيات ربك ، أو جاء قهرُ ربك ، أو نحو ذلك ؛ ومنهم من قال : العبارة تمثيل لظهور آيات الله وبيان سلطانه وقهره ، مثلت حاله في ذلك بحال الملك إذا حضر بنفسه فانه يظهر بمجرد حضوره من آثار هيئته ما لا يظهر بحضور عساكره كلها ، وضرب المثل مما تعارفوه وشاهدوه ؛ ومعنى قوله « والملك صفا صفا » أن الملائكة يصطفون صفا بعد صف مُحَدِّقِينَ بِالْجَنِّ وَالْإِنْسِ ، والوصف الثالث الذى يحدث في ذلك اليوم هو ما ذكره جل شأنه بقوله : (وجىء يومئذ بجهنم) والمراد أنها كُشِفَتْ لِلنَّاظِرِينَ بعد أن لم تكن ظاهرة فأروها وشاهدوها بأعينهم بعد أن كانت غائبة عنهم ، فهو مثل قوله تعالى : « وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى » أى أظهرت حتى رآها الخلق وعاینوها ؛ وليس المراد أنها نقلت من مكانها الذى هى فيه إلى مكان آخر ، فأما قوله تعالى : (يومئذ يتذكر الإنسان) فيوم : بدل من « إذا » ومُتَعَلِّقٌ بِالْمَبْدَلِ مِنْهُ قوله « يتذكر » وكأنه قال يتذكر الإنسان يوم تُدَكُّ الْأَرْضُ الْخ ، وقد اختلف العلماء في المراد من تذكر الإنسان ؛ فقيل : المراد أنه يتذكر ما فرط فيه وذلك لأنه سيعرف أن ما كان فيه في حياته الأولى كان ضلالا وأنه كان يجب أن تكون حاله خيرا مما كان عليه ، ويقال : معنى تذكره أنه يتعظ فيقول : يا ليتنا نرد ولا

رضى الله عنهم بخلاصته أنا نؤمن بذلك المجيء وبأنه مسند إليه تعالى ، ولكننا نفوض علم حقيقة المجيء إليه جل شأنه ولا نبحث عن معناه ولا نتطلب ما لم يوضحه سبحانه ، فالمجيء ثابت والسكيف مجهول ، والغرض على كل حال تنزيه الله تعالى عن مشابهة الحوادث .

وَأَنْتَى لَهُ الذِّكْرَى [٢٣] يَقُولُ يَلِيَّتَنِي قَدَمْتُ حَيَاتِي [٢٤]
فِيَوْمٍ مِثْلَ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ [٢٥] وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ [٢٦]

نكذب بآيات ربنا ، ويقال : المراد من تذكره أنه يتوب مما كان عليه ، وقوله تعالى بعد ذلك : (وأنتى له الذكرى) معناه أن تذكره في ذلك اليوم لانفع له ولا ترجى منه فائدة ؛ فإن هذا اليوم ليس يوم عمل ، وإنما هو يوم الجزاء والحاسبة ، وكأنه قد قال : إذا حدثت هذه الأحداث أنكشفت عن الإنسان الحجب ووضح له ما كان خافيا عليه وذهبت عنه الغفلة فيدرك أن ما كان فيه ضلال مبين فيتمنى أن يعود ليعمل الصالحات ، ولكنه لا ينال ما يتمناه ، فكان هذه الذكرى لم تأت به فائدة ولم ترجع إليه منها أية عائدة ، وأما قوله جل شأنه : (يقول ياليتنى قدمت حياتى) فمعناه أنه يتمنى أن يكون قد عمل عملا صالحا ينفعه في حياته الآخروية التى هى الحياة الحقيقية ، وكأن الحياة ليست إلا حياة الآخرة ؛ كما قال جل شأنه : « وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون » أى هى الحياة دون هذه الدنيا المنقطعة التى لاتدوم ، ويقال : المعنى ياليتنى قدمت فى الدنيا عملا يوجب نجاتى من النار حتى أكون من الأحياء ؛ لأن أهل النار كأنهم لا حياة لهم ، ألا ترى قوله تعالى فى حق الكافر : « فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى » وقوله فى حقه أيضاً : « ويتجنبها الأشقى الذى يصلى النار الكبرى ثم لا يموت فيها ولا يحيى » ، ويقال : معنى الآية التى نحن بصدد تفسيرها ياليتنى قدمت وقت حياتى فى الدنيا عملاً أتقرب به إلى الله .

وقوله جل شأنه : (فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ، ولا يوثق وثاقه أحد) قد قرىء ببناء « يعذب » و « يوثق » للمجهول ، وقرىء فيها بالبناء المعلوم ، وأوْثَقُ : الشدُّ والربط كما يكون بالسلاسل والأغلال ، أما على قراءة البناء للمجهول فلم ينى

أن في هذا اليوم لا يُعَذَّبُ أحدٌ من الخلائق عذاباً مثل هذا العذاب الذي يُعَذَّبُ به ذلك الإنسان الذي أبطره الغنى حتى جحد نعمة الله أو أفسده الفقر حتى عثا في الأرض فساداً ، ولا يُؤْتَقُ أحدٌ من الخلائق وثاقاً مثل هذا الوثاق الذي يؤثقه ذلك الإنسان ، وأما على قراءة البناء للمعلوم في الفعلين فالمعنى أن في هذا اليوم لا يتولى العذاب أحدٌ ، وإنما يُعَذَّبُ الله عباده ، وهذا لأن الأمر يومئذ أمره ، فالضمير في « عذابه » على هذا راجع إلى الله تعالى ، ويقال : المعنى على هذه القراءة أنه لا يقع من المعذبين مثل العذاب الذي يقع على هذا الإنسان ، قال الامام : ومعنى الآيات الكريمة أب ما يزعمه الأغنياء الجبارون والفقراء الخاسرون من أنهم لربهم ذاكرون مع فراغ قلوبهم من الرأفة بالضعفاء وامتلأها بحب المال وفيضانها بالميل إلى الشهوات ؛ زعمٌ لا حقيقة له ، وإنما يتذكرون ربهم على الحقيقة في ذلك اليوم العظيم عندما يشهدون الهولَ ويُعْزِزُهُمُ الخَوْلُ ويظهر لهم مكانهم من العذاب والفسكال ، ولكن ليس في هذا التذكرو موعظة تحمّل على العمل النافع ؛ فان تلك الدار دارُ جزاء لا دار أعمال ؛ وإنما يَبْقَى لأولئك الخاسرون الحسرة والندامة .

ثم إنه سبحانه وتعالى بعد أن ذكر حال الإنسان إذا خلى وطبعه وترك مع سجيته وجبلته التي انطبعت عليها نفسه ، ووصفه بأنه حينئذ يكون شديد الحرص عظيم الجشع تستولى على عقله رغباته الجسمية حتى تخرجه عن سلطان الحكمة وتتمكن من نفسه الشهوات حتى تصل به إلى درجة الحيوانية ، وبعد أن ذكر عُتْبَى ذلك وما يكون عليه الإنسان في حياته الأخرى ، بعد أن ذكر كل ذلك أخذ في ذكر الإنسان إذا سَمَتْ نفسه وارتقت مداركه واستولى عليها العقل وسار مع مقتضى الحكمة فاطمأن إلى معرفة خالقه وانقادت نفسه إلى الخضوع إلى بارئه والعبودية

يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ [٢٧] ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً [٢٨]
فَادْخُلِي فِي عِبَادِي [٢٩] وَادْخُلِي جَنَّتِي [٣٠]

له ؛ فقال : (يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي) والمطمئنة : وصف من الاطمئنان وهو الاستقرار والثبات ، والمراد أن هذه النفس قد استيقنت الحق فلا يخالجه فيها شك ، وهي مع ذلك آمنة لا يستفزها خوف ولا يعتريها حزن ، والمراد من قوله تعالى « ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ » ارْجِعِي إِلَىٰ ثَوَابِ رَبِّكِ ، أو هو تمثيل للكرامة التي ينالها هؤلاء عنده ، ومعنى قوله سبحانه « فَادْخُلِي فِي عِبَادِي » كوني من عبادي المكرمين الذين استحقوا النسبة لى والاختصاص بى ، وهذه سعادة روحانية عظيمة ، وقوله جل شأنه « وَادْخُلِي جَنَّتِي » إشارة إلى السعادة الجسمانية ؛ ولما كانت السعادة الروحانية غير غير متراخية فى حق من كتبها الله لهم عن الموت ، بل تنالهم هذه الكرامة حين موتون ؛ لما كان ذلك كذلك قال سبحانه « فَادْخُلِي فِي عِبَادِي » بالفاء التى تدل على التعقيب من غير مهلة ولا تراخ ، ولما كانت السعادة الجسمانية لا يقع الفوز بها إلا بعد قيام الساعة لا جرم قال سبحانه « وَادْخُلِي جَنَّتِي » بالواو لا بالفاء . والله سبحانه وتعالى أعلى وأعلم .

سورة البلد

[وهي مكية ، وآياتها عشرون آيةً ، ونزلت بعد سورة ق] *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ [١]

* ذكر جار الله الزمخشري أن هذه السورة مُجْمَع على أنها مكية ، والحقيقة أنه قد وقع الاختلاف فيها ؛ فقليل : كلها مكية ، وقيل : كلها مدنية ، وقيل : هي مدنية إلا أربع آيات من أولها ؛ وكأنَّ الزمخشري لمَّا رأى أن مطالعها قوله تعالى : « لا أقسم بهذا البلد وأنت حل بهذا البلد » والبلد هي مكة في قول المفسرين جَزَمَ بأن من ذهب إلى أنها مدنية لا وجه له فلم يبال بخلافه ؛ فحكى الإجماع على أنها مكية ، وقد اتفقوا على أن آياتها عشرون آية . والمناسبة بين هذه السورة والتي قبلها أنه سبحانه لما ذكر في السورة الماضية الصفات التي تَخَلَّق بها الكفار ، ودَمَّهم عليها ، وأنكر أن تكون خُلُقًا يُتَخَلَّقُ به ، مِنْ حُبِّ الْمَالِ ، وأكل التُّرَاثِ أَكْلًا لَمًّا ، وعدم الحُضِّ على طعام المسكين ؛ ذكر في هذه السورة ما ينبغي أن يتَحَلَّى به الإنسان صاحبُ المال من الحُصَالِ الشريفة كَفَكِ الرقاب ، وإطعام المعوزين والمحتاجين في أيام الجاعة ، وشيء آخر من المناسبة بين السورتين ، وهو أنه جل شأنه لما ذكر النفس المطمئنة في السورة السابقة وذكر ما ينالها من عظيم الثواب وجزيل الأجر ذكر في هذه السورة بعض ما يكون بسببه الاطمئنان .

قوله تعالى : (لا أقسم بهذا البلد) هو على نحو ما ذكرناه في تفسير قوله جل ذكره : (فلا أقسم بالشفق والليل وما وسق والقمر إذا انسق) ^(١) وفي تفسير

وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ [٢]

قوله سبحانه : « فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس » ^(١) والمراد القسم بمكة التي كرمها الله تعالى ، وليس يستطيع أحد أن ينكر شرف مكة الديني الذي شرفها الله تعالى به ؛ فقد جعلها سبحانه حرماً آمناً وجعل فيها البيت الحرام الذي جعله مثابةً للناس ومعاداً يرجعون إليه ويعاودون زيارته كلما دعاهم إليه الشوق ، وجعل فيه الكعبة التي جعلها قبلة لأهل المشرق والمغرب ، وأمر بالتوجه إليها في الصلوات التي تتكرر كل يوم فقال : « وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره » وجعل فيها مقام إبراهيم وأمر بأن يتخذ مكاناً للصلاة فيه فقال : « واتخذوا من مقام إبراهيم مُصلًى » وحرّم في ذلك الحرم صيد البر ؛ فمن أجل هذا الشرف الذي لا يحجده أحد شرفها الله تعالى بالخلف بها إن جعلت « لا » صلة ؛ أو صانها في ظاهر الأمر ^(٢) عن الخلف بها لهؤلاء المعاندين في مثل هذا المقام إن جعلت « لا » نافية ؛ وأما قوله تعالى : (وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ) فقد اختلف المفسرون في معناه ؛ فقال قوم : معناه وأنت مقيم بهذا البلد نازل فيه حالاً به ، وكأنه سبحانه جعل من أسباب عظمة مكة وشرفها التي تستحق به أن يُخلفَ بها كون الرسول صلى الله عليه وسلم مقيمٌ فيها ، والأمكنة تشرف بشرف ساكنيها والنازلين بها ، وقال قوم : ليس الحل في هذه الآية بمعنى الحال المقيم ، ولكن الحل ههنا ضد الحرام ، والواو في صدر هذه الجملة واو الحال وكأنه سبحانه يقول : لا أقسم بهذا البلد والحال أنك حلال فيه والمراد التنديد بأهل مكة على ما كانوا يفعلونه مع النبي صلى الله عليه وسلم ؛ مع قصد تثبيته عليه السلام وتقوية شأنه ، وكأنه سبحانه قد قال : إن الكفار يحترمون هذا البلد ولا ينتهكون فيه الحرمات ؛ ثم هم مع ذلك ومع أن لك مزية

(٢) انظر (ص ٦٥) من هذا الجزء .

(٢) نقول « في ظاهر الأمر » لأن التحقيق أن المراد القسم على ما سبق بيانه .

تقتضى لك زيادة الإكرام والتبجيل ونهاية الانتهاء عن إيذائك ، ذلك بأن الله أكرمك برسالته وشرفك بأن حملك أمانة النبوة ودعوة الناس إلى سعادتهم في دنياهم وآخرتهم ، هم مع ذلك كله يستحلون إيذاءك ، ويهشون بقتلك ، ولو تمكنوا من ذلك لما امتنعوا منه ، فهم يرون أنك حلال لهم ليس لك من الحرمة ما يرونه لغيرك . وقال شرحبيل في معنى ذلك : يحرمون أن يقتلوا بها صيداً أو يعضدوا بها شجرةً ويستحلون إخراجك وقتلك . وقد ذهب قتادة إلى أن المراد بهذه الآية تسليط النبي صلى الله عليه وسلم على الكفار وتمكينه منهم ، وكأنه تعالى يقول له : أنت في حلٍّ من أن تفعل بهذه البلد ما شئت فاقتل من أهلها من شئت منهم ممن تعلم أنه لا يهتدى ولا تقتلع من قلبه الخفيضة عليك وعلى دينك الذي بعثك به ؛ وهذا بناء على أن هذه السورة أو صدرها نزل في فتح مكة ، وقد أحل الله تعالى لرسوله يوم الفتح مكة ولم تحل لأحد قبله ، وأذن له في أن يحل ما شاء ؛ ويحرم ما يشاء ؛ وكان من أثر هذا الإذن أن قتل عليه الصلاة والسلام قوماً ممن كانوا يؤذونه ويؤلبون عليه وينالون منه ؛ فقتل عبد الله بن خطلٍ وهو متعلق بأستار الكعبة وقتل مقيس بن صباية ، وقتل غير هذين ، وحرَّم دار أبي سفيان وأمر أن ينادى : من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ؛ وقد ورد عن النبي صلوات الله وسلامه عليه أنه قال عقب الفتح : « إن الله حرَّم مكة يوم خلق السموات والأرض ؛ فهي حرام إلى أن تقوم الساعة ؛ لم تحل لأحد قبلي ، ولن تحل لأحد بعدي ، ولم تحل لي إلا ساعةً من نهار ؛ فلا يعضد شجرها ، ولا يختلي خلأها ، ولا ينفر صيدها ، ولا تحل لقطمها إلا لمنشد » فقال له العباس : إلا الإيذخريارسول الله فإنه لبيوتنا وقبورنا ؛ فقال : « إلا الإيذخري » ، وقال قوم : معنى هذه الآية أنت من أهل هذه البلدة المقيمين بها المعروفين فيها ، وكأنه بيان لمركز الرسول من الكفار الذين عاندوه وامتنعوا عن تصديقه مع بيان فساد صنيعهم ، وكأنه سبحانه يقول :

وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ [٣]

إِنَّكَ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْبَلَدِ وَأَنْتَ دَائِمُ الْإِقَامَةِ فِيهَا وَلَيْسَ بَيْنَ أَهْلِهَا مَنْ يَجْهَلُكَ وَلَا يَعْرِفُ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ مِنْ شَرَفِ النَّسَبِ وَكَرَمِ الْحَتَدِ وَعَظِيمِ الْأَخْلَاقِ وَجَمِيلِ السَّجَايَا وَالْخُلَالِ ، فَهُمْ يَعْلَمُونَ طَهَارَتَكَ مِنَ الذُّنُوبِ وَبِرَاءَتَكَ مِنْ أَدْرَانِ الْجَاهِلِيَّةِ وَقَاذُورَاتِهَا وَتَبَاعُدَكَ عَمَّا عَلَيْهِ أَكْثَرُهُمْ مِنْ دُنْيَى الْأَعْمَالِ ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ صَدَقَكَ وَعُلُوَّ نَفْسِكَ وَرَفْعَةَ قَدْرِكَ ، فَكَيْفَ سَاغَ لَهُمْ أَنْ يَنْكُرُوا ذَلِكَ عَلَيْكَ حِينَ أَمَرْتَهُمْ بِطَاعَةِ اللَّهِ وَالْإِيمَانِ بِهِ ، وَهَذَا نَحْوُ مِنْ قَوْلِهِ جَلَّ شَأْنُهُ : « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ » وَقَوْلِهِ تَبَارَكَتِ أَسْمَاؤُهُ : « هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ »

وقوله تعالى : (ووالد وما ولد) هو معطوف على الْمُقْسَمِ بِهِ ، وَقَدْ اعْتَرَضَ بَيْنَ الْمُتَعَاظِفِينَ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ « وَأَنْتَ حَلَّ بِهَذَا الْبَلَدِ » وَقَدْ اخْتَلَفَ الْمَفْسُرُونَ فِي مَعْنَاهُ فَقَالَ قَوْمٌ : الْمُرَادُ بِهِ كُلُّ وَالِدٍ وَكُلُّ مَوْلُودٍ ، وَهُوَ أَوْجَهُ مَا ذَكَرُوهُ مِنَ الْوُجُوهِ ؛ لِأَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى حُرْمَةِ الْخَلْقِ كُلِّهِمْ ؛ وَقَرِيبٌ مِنْ هَذَا قَوْلُ مَنْ قَالَ : الْمُرَادُ بِالْوَالِدِ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَالْمُرَادُ بِمَا وَلَدَ أَبْنَاؤُهُ كُلُّهُمْ ؛ وَإِنَّمَا أَقْسَمَ سُبْحَانَهُ بِهِمْ لِأَنَّهُمْ أَعْجَبُ مَنْ خَلَقَهُ لِمَا فِيهِمْ مِنَ النُّطْقِ وَالْبَيَانِ وَالْفِكْرِ وَالتَّوْبِيرِ وَاسْتِنْبَاطِ الْعُلُومِ ، وَفِيهِمُ الْأَنْبِيَاءُ وَالدُّعَاةُ إِلَى اللَّهِ وَأَنْصَارُ دِينِ اللَّهِ ، أَلَسْتَ تَرَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِنَّمَا خَلَقَ كُلَّ مَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا وَسَخَّرَهُ لِآدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَوْلَادِهِ وَكَانَ أَوَّلَ مَا دَلَّ عَلَى تَسْخِيرِ الْخَلْقِ كُلِّهِمْ لِآدَمَ وَأَوْلَادِهِ أَمْرُهُ سُبْحَانَهُ الْمَلَائِكَةَ بِالسُّجُودِ لَهُ ، وَذَهَبَ قَوْمٌ إِلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالْوَالِدِ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَ الرَّحْمَنِ وَالْمُرَادُ بِمَا وَلَدَ نَبِيْنَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَانَ هَؤُلَاءِ رَأَوْا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَقْسَمَ بِمَكَّةَ فِي مَطْعِ السُّورَةِ ، وَأَشْرَفُ بَقَاعِ مَكَّةَ السَّكْبَةِ ، وَإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِأَبْنَى هَذِهِ السَّكْبَةِ ، وَمُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ [٤]

وسلم ساكن مكة ، فلما رأوا ذلك أبوا إلا يجعلوا قوله تعالى « ووالد وما ولد » متصلا بسبب بمكة التي أقسم بها أولا ؛ ولاداعي لذلك ولا محوج إليه وقوله سبحانه : (لقد خلقنا الانسان في كبد) هو المُقْسَم عليه ، والمراد بالإنسان هذا النوع من المخلوقات ؛ فليس يراد به هنا واحد معين من بني آدم ، والكبد يحتمل أن يكون المراد به الاستواء والاستقامة ، والمعنى أنه سبحانه خلق الانسان مُسْتَوِي القامة ولم يجعله كالحيوانات يسير على يديه ورجليه ، وهذا نحو من قوله تعالى : « لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم » ويحتمل أن المراد بالكبد شدة الخلق ومتانة القوة ، والمعنى على هذا أنه سبحانه خلق الإنسان وآتاه من قوة الأعضاء وشدة التفكير ما جعله يُهَيِّمَن على الْعَالَمِ وَيُسَيِّطِرُ بتفكيره على جميع أنواع المخلوقات فاستطاع أن يسخر الماء والهواء وأنواع الحيوان ، ويحتمل أن يكون المراد بالكبد التعب والمشقة ، والأصل في استعماله قولهم : كَبَدَ الرجلُ كَبَدًا ، فهو كَبِيدٌ ؛ إذا وجعته كَبِيدُهُ وانتفخت ، ثم اتسَّع فيه حتى صار يراود منه كل جَهْدٍ ومشقة تنال الإنسان ، ومن هذا قول لبيد بن ربيعة العامري في أخيه أربدَ

يَا عَيْنُ هَلَّا بَكَيتِ أَرْبَدَ إِذْ قُمْنَا وَقَامَ الْخُصُومُ فِي كَبَدٍ

والمعنى على هذا أن الله تعالى خلق الإنسان لهذه الشدائد التي في الدنيا لايزال يكابدها ، وَيَجِدُ في مقارعتها ، ويشابر على مُهاجمتها ؛ والرأى أن تجعل الآية الكريمة متناولة لجميع ذلك ولما هو أعمُّ منها جميعها ؛ فالله تعالى قد خلق الإنسان في أَعْدَلِ نهج ، وأقدره على التفكير ، وجعل له من فكره قائدًا يقوده إلى الاستيلاء على المخلوقات كلها ، وهو سبحانه قد جعل حياة الإنسان سلسلة من الجهاد متصلة

الحلقات ، وجعلها مبتدئة بالجهاد والمشقة ، ومنتهية بهما أيضا ؛ فهو ما يزال يقاسى من المشقة ألوانا وضروبا مختلفة منذ نشأته فى بطن أمه ، ومن استهلاله صارخا إلى أن يكبر ويصير رجلا ، وفى هذا العهد تزداد مشقاته ويكثر عليه الجهد ، فمن تحصيل رزقه إلى تربية أولاده ، ومن جهاد نفسه ورياضتها على البر والتقوى إلى مقارعة خطوب الدهر ونوازله ، ومن الصبر على البلاء إلى الخضوع لبارئ الأرض والسماء ، ومن الاجتهاد فى المعرفة إلى مصابرة النفس على الطاعة ، ثم هو بعد ذلك كله معرض ويموت ، ويلقى فى قبره وفى آخرته من المشاق والمتاعب ما لا يقدر عليه إلا بتيسير الله سبحانه ، وكأن هذا هو المشار إليه فى التى تدل على الظرفية فى قوله تعالى « لقد خلقنا الإنسان فى كبد » وكأنه لشدة اتصاله بالكبد وعدم انفكاكه عنه كالمنظوف فيه ؛ ألا ترى أن الظرف بحسب أصله يُحيطُ بالمنظوف ويحتويه ؛ وهذا يدل على أن الإنسان لا يفارق المحنة ولا يخلو من الكد والجهد حتى يصير إلى عالم آخر تغاير أحواله أحوال هذا العالم .

والسر فى تبينه سبحانه أن الإنسان قد خلق فى عناء وجهد الرغبة فى تسليته من تنبعث همته إلى عمل الخير وحضه على أن يثابر على ذلك ولا يعبأ بما يلاقه من الشدائد لأن هذه المشاق لا يخلو منها الإنسان ولا ينفك عنها والقصد إلى تنبيه المغرورين الجُهال الذين يشعرون فى أنفسهم بالقوة ويحسبون أنهم يستطيعون بها مصارعة الأقران ومقارعة الأنداد ويظنون أن الذى آتاهم الله من البسطة فى الجسم أو المال أو الجاه يدعوهم إلى الاستكبار واستعباد الضمء والتيه عليهم ؛ فكأنه سبحانه قد قال لهم : أيها المغرورون بقوة أبدانكم المفتونون بوسع جاهكم الخدوعون بكثرة مالكم ؛ لا تتمادوا فى غروركم ، ولا تستمروا على صلفكم وكبريانكم ، لأن الإنسان لا يخلو من العناء فى تصريف شؤونه وشؤون ذويه ، ولا ينفك عن

أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدَرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ [٥] يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا [٦]
أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ [٧]

مجهود يبذله وعناء يلاقيه في سبيل حماية نفسه وأهله من عوادي الزمان وخطوبه ،
ومهما عظمت منزلة الاي انسان وقويت شكيمة فانه لا يستطيع الخلاص من مشاق
الحياة ، وبعد أن بين سبحانه ذلك أخفى تذكير المفتونين بما أنعم عليهم من النعم
مع تقريره إياهم وتوبيخهم على الاعتزاز بقوتهم الزائلة ؛ فقال جل شأنه : (أيحسب أن
لن يقدر عليه أحد) والمعنى أيظن ذلك الاي انسان المغتر بقوته المتباهي بشدته الغارق
في بحار تخيالاته المفتون بما أنعمنا به عليه أنه مهما عظمت حاله ومهما قوى سلطانه
يبلغ إلى المنزلة التي لا يقدر عليه فيها أحد ؟ ! والغرض من الاستفهام ههنا الاي نكار
وكأنه تعالى يقول : لا يجوز لهذا الاي انسان أن يظن في نفسه القدرة على إنفاذ رغباته
كلها فإن القادر الحكيم يدفعه عن مراده مهما عبأ من الأسباب ورتب من العلل
وما أجهل ذلك الإنسان إذا ظن أنه لا يعاب ولا يدافع ولا يحال بينه وبين
ما يشتهي ؛ فان في هذا الوجود قوة فوق جميع القوى وقدرة تقصر دونها كل القدرة ،
وهذه القدرة هي المهيمنة على كل قدرة وهذه القوة هي النافذة على كل قوة ؛
وهذا كلام مع نوع من المفتونين ، وهم الذين غرتهم قواهم ، وقوله سبحانه وتعالى :
(يقول أهلك ما لا لبداً أيحسب أن لم يره أحد) كلام عن نوع آخر منهم ، وهم
الذين فتنهم مالم وغرهم غناهم ويسارهم ، ومعنى أهلك أهلكت أنفقت ، والمال اللبد
الكثير ، وقد اختلف فيه أهو مفرد أم جمع ؛ فقال قوم : هو جمع واحده لبدة مثل
غرفة وغرف ، وقال آخرون : هو مفرد مثل خطم وقسم ، والمراد أن كفار أهل
مكة الذين خدعهم المال يقولون : قد أنفقنا في المسكرم والمفاخر نفيس الأموال ،
وقد حسبوا أن ما يسمونه مكارم ومفاخر هو في الحقيقة مفاخر ومكارم ، ولم يعلموا

الرائع
المدح

أَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ [٨] وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ [٩]

أَنَّ الْمُسْكَرَمَ مَاعِدَهُ اللَّهُ مُكْرَمَةً ، وَأَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْمَفَاخِرِ إِلَّا مَاعِدَهُ اللَّهُ نَخْرًا ؛ وَأَنَّهُ لَا بَرَّ إِلَّا الَّذِي أَعْتَبَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بَرًّا ؛ فَلَيْسَ مِنَ الْبَرِّ إِلَّا تَقَاتُلُهُمُ الْمَالُ عَلَى مَشَاقَّةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ بِدَعْوَى حِمَايَةِ أَحْسَابِهِمْ وَأَنْسَابِهِمْ مِنْ أَنْ يَقُولَ فِيهَا الرَّسُولُ قَوْلًا لَا يُرْضَوْنَ . وَإِنْ كَانَ هُوَ الْحَقُّ ، وَلَيْسَ مِنَ الْمُسْكَرَمِ إِلَّا تَقَاتُلُهُمُ طَائِلَ الْأَمْوَالِ لِلصَّدِّقِ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْكَيْدِ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ . وَقَوْلُهُ سَبْحَانَهُ : « أَيْحَسِبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ » مَعْنَاهُ أَيْضًا ذَلِكَ الْمَغْتَرِّ بِمَا لَهُ الْمُدْعَى أَنَّهُ أَنْفَقَهُ فِي سَبِيلِ الْخَيْرِ وَالْبَرِّ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَطَّلِعْ عَلَى أَفْعَالِهِ وَلَمْ يَعْلَمْ بِمَا دَعَاهُ إِلَى ذَلِكَ الْإِنْفَاقِ ؟ وَهَذَا الْاسْتِفْهَامُ إِنْكَارٌ عَلَيْهِ أَنْ يَظُنَّ هَذَا الظَّنَّ ، فَكَأَنَّهُ سَبْحَانَهُ قَدْ قَالَ : لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَظُنَّ ذَلِكَ لِأَنَّ الْخَالِقَ الْحَكِيمَ مُطَّلِعٌ عَلَى قَرَارَةِ نَفْسِهِ عَالِمٌ بِخَبَائِثِ قَلْبِهِ خَيْرٌ بِخَوَالِجِ نَفْسِهِ وَهُوَ أَجْسَمُهَا ، وَهُوَ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ؛ وَهُوَ عَلِيمٌ بِأَنَّهُ لَمْ يُنْفِقْ شَيْئًا مِنْ مَالِهِ فِي سَبِيلِ الْخَيْرِ الْمَشْرُوعِ وَالْبَرِّ الْحَمْدُ ، وَإِنَّمَا أَنْفَقَ مَا أَنْفَقَ وَبَذَلَ مَا بَذَلَ إِمَّا لِلرِّيَاءِ وَالسَّمْعَةِ وَإِمَّا لِمَشَاقَّةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِمَّا فِي وُجُوهِ مِنَ الْمَصَارِفِ يَحْسِبُهَا خَيْرًا وَهِيَ مِنْ أَخْسَرِ الْأَعْمَالِ

ثُمَّ إِنَّهُ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى بَعْدَ أَنْ أَنْكَرَ عَلَى هَؤُلَاءِ النَّاسِ الْإِغْتِرَارَ بِقُوَّتِهِمْ وَالْإِعْتَزَالَ بِأَمْوَالِهِمْ أَخَذَ فِي بَيَانِ آثَارِ قُدْرَتِهِ الْغَالِبَةِ لِيَقْوَى لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ مِمَّا بَلَغَتْ قُوَّتُهُمْ فَلَنْ تَبْلُغَ هَذِهِ الْقُدْرَةُ الَّتِي كَانَ ذَلِكَ مِنْ آثَارِهَا ؛ فَيَقَالُ جَلَّ شَأْنُهُ : (أَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ) فَبِوَيْهِ إِذَا أَبْصَرَ شَيْئًا فَإِنَّمَا هَذَا الْإِبْصَارُ بِمَا خَلَقْنَا لَهُ مِنَ الْعَيْنَيْنِ ؛ فَالْنِّعْمَةُ الَّتِي يَعْتَزُّ بِهَا إِنَّمَا هِيَ مِنْ عَمَلِنَا وَخَلَقْنَا (وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ) وَهُوَ إِذَا أَبَانَ عَمَّا فِي نَفْسِهِ بِالْكَلَامِ فَإِنَّمَا يُبَيِّنُ بِمَا ذَرَأْنَا لَهُ مِنَ الْجَارِحَةِ الَّتِي يَتَكَلَّمُ بِهَا ، فَإِذَا اعْتَزَّ بِالْإِبَانَةِ أَوْ غَرَّهَ حُسْنُ حَدِيثِهِ أَوْ قُوَّةُ حُجَّتِهِ فَلَيْسَ فَضْلُ ذَلِكَ رَاجِعًا إِلَى نَفْسِهِ ، وَإِنَّمَا الْفَضْلُ لِمَنْ وَهَبَهُ ، وَهُوَ إِذَا تَحَدَّثَ عَنِ الْإِنْفَاقِ وَالْبَذْلِ وَذَكَرَ

وَهَدَيْتُهُ النَّجْدَيْنِ [١٠] فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ [١١]

ماله فليس بحقيق أن يذكر شيئاً من ذلك لأن هذا المال الذي يُفَاخِر به ليس هو الذي منحه لنفسه وإنما منحه إياه الذي يعطى من يشاء ويمنع من يشاء ولو أراد سبحانه أن يسلبه هذه النعم كلها لفعل ، وقوله سبحانه : (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ) النّجْدُ في لسان العرب عبارة عن الطريق المرتفع ، والمراد ههنا سبيل الخير والشر وكأنهما إنما سُمِّيَا نَجْدَيْنِ لأنه لما وضحت الدلائل وقويت الحجج وظهرت البراهين جُعِلَا كالطريق المرتفعة العالية في أنها واضحة لذوى الأبصار ؛ أو إنما سميا بذلك للإشارة إلى أن في كل منهما عُورَةٌ يشق معها السلوك ولا يصبر عليها إلا من جاهد نفسه وراضا ؛ وليس طريق الشر بأهْوَن من طريق الخير ، بل الغالب أن يكون طريق الشر أشق وأصعب وأحوج إلى الجُهد ، والمعنى إنا أودعنا في فطرة الإنسان التمييز بين الخير والشر ، وجعلنا له من تفكيره وعقله مذكراً ومنهياً ، ونصّبنا له الدلائل الدالة على حُسن الخير والمرشدة إلى ما في الشر من المقابح ، ثم أقدرناه على سلوك أى الطريقين بعد أن آتيناه من قوة التمييز وبعد الذي وهبناه من القدرة على الاختيار ، وبعد أن تركناه أن يختار منهما الذي أراد ؛ وعن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه أنه قال : إنما هما النّجْدان نَجْدُ الخير ونجد الشر ؛ ولا يكن نجدُ الشر أحبّ إلى أحدكم من نجدُ الخير ، يريد أن مَنْ نازعته نفسه إلى الشر فليقمْ معها بتدبر آيات الله وبراهينه الناطقة بقبح الشر وحُسن الخير ، وقوله تعالى : (فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ) الاقتحامُ : الدخول في الأمر الشديد ، وأصله القحم ، وهى المهالك والأُمور العظام ، والعقبة فى الأصل هى الطريق فى الجبل الوعر ، والمراد بالعقبة ههنا على ما ذكره كثير من المفسرين منهم الحسن ومقاتل مُجَاهدة الإنسان نفسه وهواه ومن يسوّل له

وَمَا أَذْرِيكَ مَا الْعُقْبَةُ [١٢] فَكُ رَقَبَةً [١٣] أَوْ إِطْعَمْتُ فِي يَوْمٍ ذِي
مَسْغَبَةٍ [١٤] يَتِيماً ذَامِقَرَةً [١٥] أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ [١٦]

فعل الشر من شياطين الإنس والجن ، وضرب الله العقبة مثلاً لهذا الجهاد ؛
لأن الإنسان يريد أن يرقى من عالم الحس والخيال إلى عالم الأنوار ، وبينه وبين
ذلك عقبات من ورأها عقبات ، ومجاورة هذه العقبات صعبة ، والترقى إلى مراده
شديد ، وسبيل الوصول إلى غايته هذه فعل الخير ، وهو ما ذكره الله تعالى
في تفسير العقبة وبيانها بقوله : (وما أدراك ما العقبة ؟ فك رقة أو إطعام في يوم
ذى مسغبة يتيماً ذامقراً أو مسكيناً ذامقراً) وفك الرقة : عتقها أو الإعانة
عليه ، وقد ورد في الشريعة الإسلامية في كتاب الله تعالى وفي سنة رسوله صلى
الله عليه وسلم من الترغيب في العتق والحض عليه ما ليس يحجده إلا من لا ينفع
معه الكلام ولا يفيد فيه الدليل والبرهان ، وأى إنسان يستطيع أن ينكر أن
الإسلام أميلُ الشرائع إلى الحرية وأبعدها عن الرغبة في الاقتسار والعبودية ؛
روى البراء بن عازب رضى الله عنه قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله
عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، دُلّنى على عمل يُدخلنى الجنة ؛ قال : « عِتْقُ
النَّسَمَةِ وَفَكُّ الرِّقَةِ » قال : يا رسول الله ، أوليسَ واحداً ؟ قال : « لا ، عِتْقُ الرِّقَةِ
أَنْ تَنْفَرِدَ بَعْتَهَا ، وَفَكُّ الرِّقَةِ أَنْ تُعَيِّنَ فِي ثَمَنِهَا » ؛ وقد ذهب جمع من المفسرين
إلى أن المراد بفك الرقة في الآية الكريمة أن يفك المرء رقة نفسه بما يتكلفه
من العبادات التي يصير بها إلى الجنة ويتخلص بها من النار ، وعلى أية حال
فالآية الكريمة على تقدير محذوف ، وأصل الكلام وما أدراك ما اقتحام العقبة
فك رقة ؛ لأن فك الرقة ليس هو العقبة نفسها وإنما هو اقتحامها لأنه سبب
موصول إلى مجاوزة العقبة والصيرورة إلى فسيح عالم الأنوار الذى تشرق فيه

ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا

نفس المرء وتسمو معارفه . وقد قرئ « فَكَّ رَقَبَةً أَوْ أَطْعَمَ » على أنها إعلان ماضيان يقعان بدلا من قوله جل شأنه « اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ » وهذه القراءة أنسب بقوله تعالى فيما بعد « ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا » وَالْمَسْغَبَةُ في قوله تعالى : « أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ » هي الجوع ؛ تقول : سَغِبَ الرجلُ يُسْغَبُ سَغْبًا فهو سَاغِبٌ وَسَغْبَانٌ إِذَا جَاعَ ؛ وَالْمَقْرَبَةُ في قوله جل شأنه « يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ » هي القرابة في النسب ، تقول : فلانٌ من ذوى قرأبتي ، وتقول : هو من أهل مقربتي ، إذا كان قريبًا لك في النسب ، والمتربة في قوله تعالى : « أَوْ مُسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ » هي الفقر ، تقول : تَرَبَّ الرجلُ يُتَرَبُّ تَرَبًّا وَمَتْرَبَةً ؛ إذا افتقر حتى لصق بالتراب ، وتقول : أَتَرَبَ فلانٌ ؛ إذا كثر ماله حتى صار كالتراب في السكثرة ، وكأن الهمزة للإزالة في أترب الرجل : أى قد زال تَرَبُّه بصيرورته غنيًّا . وإما خص سبحانه الإطعام بكونه في يوم ذي مجاعة لأن إخراج المال في وقت القحط والضرورة أثقل على النفس ومستوجب لجزيل الأجر ، ويدل لهذا قوله تعالى : « وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ » وقوله سبحانه : « وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مَسْكِينًا » وقد قرأ الحسن رضى الله عنه : « أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذَا مَسْغَبَةٍ » فجعل « ذَا » منصوبًا بإطعام ، ومعناه أو إطعام في يوم من الأيام رجلاً ذا مسغبة وفقير ، وإما قيد سبحانه اليتيم بكونه ذا مقربة لأنه حينئذ يجتمع فيه حقان : حق اليتيم ، وحق القرابة ، ومن كان كذلك فهو أولى ممن فيه حق واحد ، وهذا كقوله صلى الله عليه وسلم : « ابدأ بنفسك ثم بمن تعول » وقد استدلل لأبي حنيفة رحمه الله في تفضيل العتق على الصدقة بهذه الآية لتقديم العتق على الصدقة فيها ، ولا بد للتقديم من سبب ، وهو ههنا الإشارة إلى فضل المقدم ، وذهب أصحابه إلى تفضيل الصدقة على العتق .

وقوله سبحانه وتعالى : (ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا

بِالْمَرْحَةِ [١٧]

بِالْمَرْحَةِ (معناه ثم كان مقتحمُ العقبة من الذين آمنوا ؛ لأنه إن فعل هذه المبار من غير أن يكون مؤمناً بعد مطالبته بالإيمان بارسال الرسول إليه لم ينتفع بها ولم يكن له ثوابٌ عليها ، إذ لا ينفع مع الكفر بر ، و «ثم» في هذه الآية لاتدل على التراخي في الوجود حتى يلزم أن يكون الإيمان متأخراً فيه عن عمل الخير ، فيبطل كون الإيمان شرطاً في قبول أعمال البر ، وإنما هي للتأخر في الذكر ، وذلك مثل قول الشاعر :

إِنَّ مَنْ سَادَ ثُمَّ سَادَ أَبُوهُ ثُمَّ قَدْ سَادَ قَبْلَ ذَلِكَ حَدُّهُ

فأنت ترى أنه آخر الأب ثم آخر بعده الجد ، ولا شك أن وجود الجد سابق على وجود الأب ، ووجود الأب سابق على وجود السيد . والمراد من هذه الآيات السكرية بَعَثُ الناس على أن يشكروا نعمة ربهم عليهم ويقوموا بواجب ذلك حقَّ القيام ؛ بأن يُفِيضَ كُلُّ مَنْ نالته نعمة من ربه على الناس ببعض ما أنعم الله به عليه ، وقد ذكر الله تعالى صنوفاً من أعمال البر : أولها أن يعين الإنسان على تحرير الأرقاء من البشر ، وثانيهما أن يواسي اليتامى من أقارب في أيام العوز والحاجة ويومعزُ الطعام وتجذب الأرض ، وثالثها أن يطعم المساكين الذين ليست لهم وسيلة إلى كَسْبِ ما به قوامُ حياتهم ، ولا تتوهم أن أعمال البر التي يحضُّ عليها دين الله منحصرة فيما ذكرته هذه الآية ، لأن الإسلام قد حض على كل كمال وحذر من كل تقيصة تعود على الإنسان نفسه أو على المجتمع الذي يعيش به بالوبال والدمار ، ولما نفى الله تعالى عن الإنسان اقتحامه العقبة الذي فسره بما بيننا من خصال الخير دل ذلك على أن الإنسان لم يسلك الطريق الذي يرشد إليه صحيحُ العقل ، وإنما سلك طريق العقبة الأخرى عقبة الحرص على المال والضم به عن المحتاجين مع أن هذه العقبة هي أوعر الطريقين وأصعبهما مُرْتَبَعِي وذلك بما اشتمل عليه من أسباب

أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمِيمَنَةِ [١٨]

التحاسد بين الناس وتباغضهم وقطيعة بعضهم بعضاً؛ ألت ترى الانهماك في لذائذ الدنيا وجمعها يكون دائماً باعثاً على التنافس فيها، والتنافس دائماً مجلبة للبوار ومهلكة للنفوس ومقتلة للقلوب؟ نعوذ بالله تعالى من كل ما يردى أنفسنا أو يميمت قلوبنا. وقوله سبحانه: «وتواصوا بالحق» معناه أن بعضهم يوصى بعضاً بالصبر على الإيمان والثبات على ما وقر في قلوبهم من حب الله وإيثار محبته على كل شيء، أو يوصى بعضهم بعضاً بحبس النفس عن المعاصي وقهرها على طاعة الله وصبرها على ما ثبت على به من الحن، وقوله سبحانه: «وتواصوا بالرحمة» معناه أن يبحث بعضهم بعضاً على أن يرحم المظلوم ويعطى المحتاج؛ ويدخل في الرحمة أن تأخذه الشفقة على ذوى العصيان فيحاول جهداً استطاعته أن يمنعه عنها، وهذا دليل على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وجملة القول أن قوله تعالى «وتواصوا بالصبر» إشارة إلى تعظيمهم أمر الله؛ وقوله «وتواصوا بالرحمة» إشارة إلى شفقتهم على خلق الله، ومدار أمر الطاعات كلها هذان الأمران فهما قطباً الأعمال كلها وعليهما تدور رحاها.

وقوله سبحانه: (أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمِيمَنَةِ) الإشارة فيه إلى الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالرحمة، والمراد من كونهم أصحاب الميمنة أنهم من أهل اليمين، وهم الفريق الناجي، وقد ذكرهم الله تعالى في سورة الواقعة بقوله: «وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين، في سدر مخضود وطلح منضود وظل ممدود وماء مسكوب وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة وفرش مرفوعة؛ إنا أنشأناهم إنشاءً فجعلناهم أئبكاراً عرُباً أثرباً لأصحاب اليمين ثلثة من الأولين وثلة من الآخرين» ويقابل هؤلاء أولئك الذين صدّوا عن سبيل الله وتواصوا بالإثم والعُدوان ومعصية الله

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ [١٩] عَلَيْهِم نَارٌ
مُؤَصَّدَةٌ [٢٠]

ورسوله ، وهم الذين ذكروهم الله سبحانه وتعالى بقوله : (والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة) والمراد بكونهم أصحاب المشأمة أنهم من أهل الشمال ، وهم الفريق الذين كتب عليهم الشقاء الأبدى ، وقد ذكروهم الله تعالى في سورة الواقعة أيضا بقوله : « وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال ؛ في سموم وحميم ، وظل من يحموم ، لا بارد ولا كريم ؛ إنهم كانوا قبل ذلك مترفين ، وكانوا يصرثون على الحنث العظيم ، وكانوا يقولون أنذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون أو آباؤنا الأولون . قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم ، ثم إنكم أيها الضالون المكذبون لا تكون من شجر من زقوم فالتئون منها البطون فشاربون عليه من الحميم فشاربون شرب الهيم ، هذا زلهم يوم الدين » وقوله سبحانه : (عليهم نار مؤصدة) معناه مطبقة ، وقد قرئ في هذه الكلمة بالهمز ، وبالواو بدون همز ، فأما من لم يهمز فهو على أنه من أوصد الباب بمعنى أغلقه كما تقول : مؤعد من أوعد ومؤجب من أوجب ونحو ذلك ، وأما من همز فيحتمل أنه من ذلك ولكنه همز تخفيفا ، وهذه لغة لبعض العرب يهمزون الواو التي قبلها ضمة نحو موسى ، ويحتمل أنه من أصدت الباب ، وذلك كما تقول : أجرته فهو مؤجر وأمنته فهو مؤمن وما أشبه ذلك . والمراد باغلاق النار عليهم أنهم باقون فيها وأن لا سبيل لهم إلى الخلاص منها . نجانا الله تعالى من النار ومن عذاب النار . آمين

سورة الشمس

[وهي مكية ، وآياتها خمس عشرة آية ، ونزلت بعد سورة
الْقَدْر^(١)]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا [١]

(١) لا خلاف بين أحد من العلماء في أن هذه السورة مكية ، وقد اختلفوا في عدد آياتها ؛ فعدّها قوم خمس عشرة آية ، وعدّها قوم آخرون ست عشرة آية .
قوله تعالى : (والشمس وضُحَاهَا) قد ذكر المفسرون في « ضحاهَا » ثلاثة أقوال : أرها - وهو قول مجاهد والسكاكي - أن ضحاهَا ضَوْؤُهَا ؛ والثاني - وهو قول قتادة واختاره الفراء وابن قتيبة - أن ضحاهَا هو النهار كله ، والثالث - وهو قول مقاتل - أن ضحاهَا هو حرُّهَا ، والضَّحَى في الأصل : انبساط الشمس وامتداد النهار ، وبذلك سمي الوقت الضَّحَى ؛ لأنه الوقت الذي فيه يمتد النهار وتنبسط الشمس على الأرض ؛ وتقول : ضَحِيَّ يَضْحِي ؛ إذا برز للشمس وتعرض لحرها ، ومنه قوله تعالى : (إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظأ فيها ولا تضحى) فمن قال من المفسرين إن الضحى هو الضوء فذلك هو الأصل في معناه ، وقريب من الأصل قول من قال إن الضحى هو النهار كله ، وذلك لأن جميع النهار هو من نور الشمس ؛ فأما من ذكر أن الضحى هو حر الشمس فقد لحظ أن ضوء الشمس وحرَّهَا أمران يتلازمان فتى اشتد حرُّ الشمس اشتد ضوءها ؛ والواو في « والشمس » واو القسم ؛ وإنما أقسم سبحانه بالشمس وضحاهَا لكثرة ما تعلق بها من المصالح

وَالْقَمَرَ إِذَا تَلَّهَا [٢] وَالنَّهَارَ إِذَا جَلَّهَا [٣] وَاللَّيْلَ إِذَا يَغْشَاهَا [٤]

التي لاتخفى على عقل متدبر ولايجدها إلا من التأث عقله، وبطل تفكيره ، ويكفيك أن تعلم أن الشمس إذا أرسلت خيوطها على مكان فرَّ منه السَّيِّمُ وولَّت جراثيم الأمراض هاربةً لأنها تقتلك بهذه الجراثيم فتكا ذريعا ، ثم هذه الشمس قد وضع الله تعالى فيها سرًّا عجيبياً فهي مَبْعَثُ الحياة إلى النبات والحيوان والإنسان كما أنها مبعث النور والضياء .

وقوله تعالى : (والقمر إذا تلاها) تلاها : معناه تَبِعَهَا ، تقول : تَلَا فلانٌ فلاناً يتلوه ؛ إذا تَبِعَهُ ، فأما أن القمر تابع للشمس فيحتمل معنيين : أحدهما أنه تال لها في ارتباط مصالح الناس وتعلُّق منافع هذا العالم بحركته ، وقد دل علم الهيئة على أن بين الشمس والقمر من المناسبة ما ليس بين غيرها من الكواكب . والمعنى الثاني أن القمر يأخذ نوره ويستمدّه من نور الشمس ، وهذا قول قاله الفراء قديماً وقد قامت الأدلة عند علماء الهيئة والنجوم على أن القمر يستمد ضوءه من الشمس وقوله جل ذكره : (والنهار إذا جَلَّاهَا) معنى جَلَّاهَا كَشَفَهَا وأظهرها وأبانها على وجهها وأتمَّ وضوحها ، وهذه الهاء تعود إلى الشمس ، وذلك لأن النهار عبارة عن ضوء الشمس ، فكما كان النهار أجلى ظهوراً كانت الشمس أجلى ؛ لأن قوة الاثر وكما تدل على قوة المؤثر ، وذهب جمهور من العلماء إلى أن هذه الهاء راجعة إلى الأرض ، وإن لم يتقدم لها ذكر في الآية ، والأول عندنا أولى ، وسنذكر وجهه

وقوله سبحانه : (وَاللَّيْلَ إِذَا يَغْشَاهَا) الهاء راجعة إلى الشمس ، والمعنى على أن الليل يغشى الشمس فيزيل ضوءها ، وإذا حسن ذلك من غير لبس ولا خفاء وجب أن يكون المعنى في الآية السابقة أن النهار يُبْدِي نور الشمس وَيُجَلِّيهَا ؛ فَإِنَّ اللَّيْلَ ضِدُّ النَّهَارِ ، والمراد من « يغشاهَا » ضد المراد من « جلاها » فإذا صحَّ

وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا [٥]

أن ينسب أحد الأمرين إلى الليل صَحَّ أَنْ يُنْسَبَ ضده إلى النهار؛ وفي ذكر أن الليل يطرأ على الشمس فيذهب ضوءها وَيُحِيلُ نور العالم ظلاماً دامساً إشارةً للمتدبرين إلى أن هذا الكوكب العظيم ، وإن جَلَّتْ فائدته وكثر النفع به ؛ لا يصح أن يتخذ إلهاً ؛ لأن الإله هو الذي لا يَحُولُ ولا يزول ولا يعتريه تغير ولا أقول ؛ ففي الإيماء إلى عظمة هذا الكوكب إشارة إلى عظمة صانعه وموجده ، وفي الإيماء إلى تغيره وغلبة الليل عليه رَدْعٌ عن تأليهه وعبادته

وقوله سبحانه : (والسماء وما بناها) ذكرُ لصفاتِ في الأجرام العظيمة تنبيه عن حدودها بعد ذكر الأوصاف الدالة على عظمتها ، وفي هذا تنبيه للعقول على أن هذه الموجودات مهما عظم أمرها وقوى شأنها مُحدَثة مخلوقة قد طرأ عليها الوجود بعد العدم ؛ وذلك يدل على أن لها مُحدَثاً خَصَّصها بالوجود وقدَّرها على النحو الذي اقتضته إرادته ومشيتته وحكمته ، وفي ذكر البنيان مع السماء إشارة إلى ما انطوى عليه رَفَعُ السماء وَتَسْوِيَتُهَا وتديرها من بارع الحكمة وتام القدرة ؛ فإن باني البيت يبنيه بحسب مشيئته وعلى مقتضى ما يراه من الحكمة في رفع جدرانهِ وسعة حجره ونوافذه وأبوابه وما يتصل به ، وبحسب ما يفكر فيه من نظام ، وكلما عُلَّتْ حكمة الباني كانت مراعاته للمنافع أكثر ، وكان مع ذلك مقدراً لما يكون بعد ذلك بزمان ، متى كان ثاقب الرأي عظيم الفكر ؛ فاذا تأملنا في السماء على أنها بنيان قد أُحْكِمَ وَضْعُهُ ، وأُجِيدَ تَقْدِيرُهُ ، وأُدِقَّ نِظَامُهُ ، فهمنا ألبتة أن لها صانعاً حكيماً فوق ما يتصوره العقل ؛ لأننا لا نرى في صنعة أنفسنا ولا في صنعة البشر كلهم ما يقرب من هذا المصنوع العجيب ؛ وقد اختلف العلماء في « ما » في قوله تعالى « وما بناها » فذهب قوم إلى أنها مصدرية تسبك ما بعدها بمصدر ،

وكان الله تعالى قد قال : والسماء وبنيانها ، ويلزم على ذلك أن تكون « ما » في الآيات التي بعدها مصدرية أيضا إجراء للنظم كله على أسلوب واحد ، فكان يلزم أن يكون تقدير النظم الكريم هكذا : والسماء وبنيانها والأرض وطحونها ونفس وتسويها فألهمها فجورها وتقواها ، فيكون في قوله سبحانه « فألهمها » فسادا من ناحيتين ^(١) : الأولى أن لا يكون للضمير المستتر فيه مرجعا مذكورا في الكلام ، والثانية أن يكون عطفه على المصدر المنسبك من « وما وسواها » لوجه له ؛ فلا جرم كان هذا الرأي غير سديد ، وقال قوم : « ما » في هذه الآيات اسم موصول . والمراد به الله سبحانه وتعالى ، وكأنه جل شأنه قد قال : والسماء ومن بناها ، والأرض ومن طحاها ، ونفس ومن سواها فألهمها ؛ فالضمير المستتر في « ألهمها » عائد إلى « ما » والفعل نفسه معطوف على « سواها » نعم يأتي على هذا الوجه أنه كيف يقدم سبحانه القسم بالشمس وضعها وما بعده على القسم بنفسه ، ولكن هذا الاشكال يزول بأدنى تأمل ، وكان السر في تقديم الحلف بالشمس وما ذكر معها من أوصافها لإعداد الذهن للتفكير في حلها وما يطرأ عليها وما يعتريها من التغيرات ، فينتقل من ذلك إلى التفكير في حدودها ، وفي أن لها محدثا عظيما ، فاذا ما وصل إلى هذه الدرجة من التفكير أخطر بالله سبحانه وتعالى مع وصفه بالصفات الدالة على أنه مؤجد هذا الكون بما فيه من كواكب ، وبما يحتويه من محسّات ومعقولات ، وحينئذ يجد الكلام من العقل سبيلا إلى التمكن فيه والإدعان له . بقي أن يسأل سائل : وكيف تستجيز التعبير عن الله تعالى بما ، و « ما » في الاستعمال العربي إنما تستعمل في غير العاقلين ؟ فالجواب عن ذلك من وجهين : أولهما أن

(١) قد أجاب العلامة الشهاب الخفاجي عن هذين الوجهين بأن الاضمار لا يمتنع إذا دل السياق على المضمر ، وبأن الفعل الذي هو « ألهمها » ليس معطوفا حينئذ على المصدر المنسبك من « ما » وما بعدها وإنما هو معطوف على الفعل سواها

وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَّهَا [٦] وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا [٧] فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا
وَتَقْوَاهَا [٨]

« ما » تستعمل في العقلاء في العربية ، وذلك مثل قوله تعالى : (ولا تنكحوا ما
نكح آبائكم من النساء) والوجه الثاني أن المراد ههنا الإشارة إلى الوصف الذي هو
الباني مع قطع النظر عن الذات التي يتحقق فيها هذا الوصف ، وإذا كان الأمر
كذلك كان الأحسن التعبير بما ؛ وكأنه سبحانه قد قال : والسماء وذلك القادر
الحكيم الذي بناها والأرض وذلك الحكيم الباهر الحكمة الذي طحها ونفس
وذلك المدبر النافذ التدبير الذي سَوَّاهَا

وقوله تعالى : (والأرض وما طحها) طحها : بَسَطَهَا وَوَسَّعَهَا ، وقد سبق
تقرير أن المراد بذلك فيما تراه أعين الناظرين ، والطحو - بالطاء - هو عين الدحو
- بالdal - وإبدال الدال طاء جائز في العربية ، وإنما أُخِّر ذكر الأرض عن
ذكر السماء لكون الأرض في دَحْوِهَا بعد السماء في أصل التكوين ، ويدل على
ذلك قوله تعالى : « والأرض بعد ذلك دَحَاها »

وقوله جل شأنه : (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا) يحتمل أن يكون المراد من النفس
ههنا هذا الجسم الإنساني من باب إطلاق اسم الحال على المحل ، ويحتمل أن يكون
المراد بها القوة المدبرة للإنسان ؛ فإن أردت بالنفس الجسم فمعنى تسويتها تعديل
أعضائها ، وإن أردت بالنفس القوة المدبرة لهذا الجسم فمعنى تسويتها مَنْحُهَا
القوى الكثيرة التي تتأدى بها المعارف إلى النفس كالقوة الباصرة والقوة السامعة
مع تحديد وظيفة كل قوة من هذه القوى ، وتحمل النفس على القوة الباطنة المدبرة
أولى لأنه الأصل في الاستعمال

وقوله سبحانه : (فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) مما يؤكده حُسْن حمل النفس على

قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا [٩] وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا [١٠]

القوة المدبرة . والالهام : هو الافهام والتعريف ، أو التمكن والإقدار ، والفجور : هو الاتيان بما يكون سبباً في الخسران والهلكة ، والتقوى : هى الاتيان بما يكون سبباً في حفظ النفس ووقايتها من الهلكة والتردى في المهاوى ، ومعنى الآية أنه سبحانه أفهم كل نفس الفجور والتقوى وعرفها حالها ، بحيث يتميز أمامها الرشد من الغي ، ويتبين لها الهدى من الضلال ، أو المعنى أنه جل شأنه جعل النفس متمكنة من فعل أيهما أرادت لا يصرفها عنه إلا سوء الاختيار ، ومثل هذه الآية قوله تعالى : « وهديناه النجدين » والمراد أن الله تعالى قد اقتضت حكمته أن يخلق الإنسان فى أحسن تقويم وأن يعدل نفسه المدبرة لهذا الهيكل الانسانى ، وأن يجعل من تمام تعديليها أن يهبط العقل الذى به تميز بين الخير والشر وتفرق بين ما هو سبب فى السعادة وما هو طريق موصل إلى البوار ، وجعل الأعمال التى بها تشقى النفوس معروفة عند أولى البصائر والألباب

ولما انتهى الأمر بذكر النفس الإنسانية وما وهبها الله تعالى من التمييز والتمكن من عمل ما تجنح إليه وتميل نحوه ، وهذا يستدعى أن يُعلم حقيقة ما تلقاه النفوس جزاء على ما تعمله من الأعمال ؛ قال سبحانه فى بيان ذلك : (قد أفلح من زكّاها وقد خاب من دسّاها) وأفلح : أصاب الفلاح ، والفلاح هو إدراك المطلوب ، وزكّاها : طهرها من أدناس الذنوب ، أو أتمّاها بفعل الطاعات ، وخاب : خسر ، ودسّاها : نقصها وأخفاها بالمعاصى والذنوب ، وأصل دسّ دسّ دسّ ، فلما اجتمع ثلاث سينات قلبت الثالثة ياء ، وكذلك يفعل العرب إذا اجتمعت الأمثال الثلاثة ، فقد قالوا فى تقصّص : تقصّص ، وقالوا فى ربّ : ربّ ، وقالوا فى لبّ : لبّ .

آبى ، وعليه جاء قول الراجز :

* تَقْضَى الْبَازِ هَوَىٰ ثُمَّ كَسَرَ *

ومعنى الآيتين الكرّيتين قد أدرك مطلوبه ووصل إلى ما يتمناه من السعادة مَنْ طَهَّرَ نفسه من الذنوب ؛ فْجَانَبَ المعاصي وَعَمِلَ الطاعات ، وقد خسر نفسه وَأَوْبَقَهَا وأوقعها في التهلكة من تَقْصُهَا بفعل المعاصي ومجانبة البر والقربات ؛ ولا شك أن من يسلك سبيل الشهوات وينغمس في سَخَاة الرذيلة ويتردى في مهاوى الهلكة بمطاوعة دواعي الشهوة الحيوانية فقد صار مثله مثل البهائم ، ومن كان كذلك صدق عليه أنه أخفى نفسه ؛ لأنه عَمِلَ بما تقتضيه النفس البهيمية ، التي يشاركه فيها الحيوان ، وجانب ما تقتضيه النفس العاقلة التي اختص بها الإنسان ؛ فاندرج حينئذ في عداد الحيوانات ، ولم يصح أن يكون في عداد الإنسان ؛ فلهذا صَحَّ أن يقال عنه حينئذ إنه أخفى نفسه ، وفي هذا التعبير الشريف من الاشتغال على المعاني السامية مالم يس مخفى على متدبر ؛ وأية خيبة تصيب الإنسان أعظم من تلك الخيبة التي بها ينمسخ حيوانا بسبب تماديه في باطله وشروره ؟

وجواب القسم الذي افتتح الله تعالى به هذه السورة محذوف^١ للعلم من نظائره فكأنه سبحانه وتعالى قد قال : والشمس وضحاها أَيْمَعْنَ ما تَحْتَلِفُونَ فيه ، أو لأعاقبن المذنب ولا ثبِينَ المطيع ، أو ليعثنكم الله يوم القيامة ، أو ما أشبه ذلك ، ويقال : دليل هذا الجواب هو قوله تعالى « كَذَبْتَ ثُمُودَ بِطَغْوَاهَا - الْآيَاتِ » لأنها تدل على أن الله تعالى يعاقب من يكذب رسوله ويحجد آيات نبوتهم ، وقال قوم من العلماء : جواب القسم المذكور في السورة وهو قوله تعالى : « قد أفْلَحَ من زكاهها وقد خاب من دساها » وإنما حذفت منه اللام للتخفيف ، ولام الجواب قد تحذف لذلك ، وبخاصة إذا طال المدى بين القسم وجوابه ، والراجح عندنا أن الجواب محذوف يدل عليه قول تعالى : « كَذَبْتَ ثُمُودَ بِطَغْوَاهَا - الْآيَاتِ » على نحو ما سبق لنا بيانه في سورة البر وج^(١)

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا [١١]

وقد قدمنا مراراً أن الله تعالى قد جرت عادته في كتابه الكريم أن يذكر بعض أخبار الأمم السابقة وما كان منهم مع رسالهم وما قابلوهم به من التكذيب والاستهانة والإيذاء ، ويذكر ما جرت عادته سبحانه به من الإيقاع بالمكذبين وأخذهم بظلمهم وبما عملوا مع أنبياء الله ؛ ليكون ذكر ذلك كله تسليمة للرسول صلى الله عليه وسلم بأنه لم يلق إلا ما لقي إخوانه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولم يكابد من قومه إلا مثل ما كابدوه ، وليكون ذكر ذلك كله أيضاً تخويفاً لهؤلاء الكفار الذين يعاندون رسول الله ويلجئون في تكذيبه بأنهم إن استمروا على ذلك حاق بهم ما حاق بالأمم السالفة ونالوا من الجزاء مثل ما نالوه ، ومن هذا القبيل ذكر ثمود في قوله تعالى : (كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا) والطَّغْوَى : الطغيان ، ومثله الدَّعْوَى مع الدعاء ، والطغيان : مجاوزة الحد المعتاد ، وقد اختلف المفسرون في معنى الباء من قوله تعالى « بَطَّغُواهَا » فقال قوم : هي دالة على السببية ، والطغيان على ذلك قائم بشمود وحاصل منهم ، والمعنى حينئذ أن طغيانهم وتجاوزهم الحد المعتاد كان سبباً في تكذيبهم نبيهم الذي أرسله الله إليهم ، وهذا كما تقول : أَسَأْتَنِي وَهَضَمْتَ حَقِّي بِظُلْمِكَ . وقال قوم : الباء للتعدي ، والطَّغْوَى عند هؤلاء اسم للعذاب الذي أوعدهم به رسولهم ، والمعنى كذبت بعذابها الذي تهددهم الرسول به وذكرهم أنه نازل بهم إذا أصرُّوا على كفرهم وعنادهم ، والمعنى الأول أولى ، ولكن هذا المعنى الثاني ليس ببعيد ، من قبل أن معنى الطغيان في اللغة مجاوزة القدر المعتاد ، فيجوز أن يسمى العذاب الذي جاءهم طغوى لأنه إما كان صِغَةً مجاوزة للقدر المعتاد ، وقد استدل أصحاب هذا الرأي على صحته بقوله تعالى : « كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادُ بِالْقَارِعَةِ » أي بالعذاب الذي حل بهما ، ثم قال : « فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلَكُوا بِالطَّاغِيَةِ » فسمى ما أهلكوا به طاغية ، فيكون قوله في الآية التي نحن بصدددها « بَطَّغُواهَا »

إِذَا انْبَعَثَ أَشْقَاهَا [١٢] فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا [١٣]
فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا

في مقابل قوله في الآية الأخرى «بالطاغية» وقوله سبحانه : (إِذَا انْبَعَثَ أَشْقَاهَا)
انبعث : مطاوع بَعَثَ ، تقول : بعثته فانبعث ، كما تقول : كسرتة فانكسر ؛
و «إذ» ظرف يتعلق بكذبت ، والمعنى كذبت ثمود بسبب طغيانهم حين انبعث
أشقاؤهم لأنهم بعثوه ، والمراد بأشقاها عاقر الناقة التي جاءهم بها رسولهم آية على
صدق رسالته ، ويجوز أن يكون المراد به واحدا معيناً ، ويجوز أن يكون المراد به
جماعة تمالأوا على ذلك ؛ ويدل لهذا الأخير قوله سبحانه «فكذبوه فعقروها» فأنت
ترى أنه نسب عقر الناقة إليهم ، وإن كان قد يمكن أن يكون نسبه إلى الجميع مع
أن الفاعل واحد لرضا الباقيين بفعله . وقوله سبحانه : (فقال لهم رسول الله ناقة الله
وسقياها) المراد بالرسول صالح عليه السلام لقوله تعالى : « وإلى ثمود أخذاهم صالحا »
وانتصب « ناقة الله » على التحذير ، والمعنى أنه أشار إليها حين هموا بعقروها و باغوا عزمهم
على ذلك وقال لهم احذروا ناقة الله ، لأنها آيته الدالة على توحيده ، ودليل على نبوتى ،
وقوله « وسقياها » معطوف على « ناقة الله » أى احذروا الناقة واحذروا سقياها ،
فلا تمتنعوها . وقد كان اتفق معهم على أن للناقة شرب يوم ، ولهم ولمواشيهم
شرب يوم ، وكانوا يجدون فى أنفسهم حرجاً لذلك ويستضرثون به ، فهموا
بقتلها ، وكان صالح عليه السلام يحذرهم أن يفعلوا ذلك ويخوفهم عذاب الله وعقابه
الذى ينزل بهم إن أقدموا على هذا الفعل فكانت حالة تخوفه وإنذاره عالقة
بأذهانهم وماثلة أمام أعينهم ، ولذلك ساغ فى هذه الآية أن يكتفى بقوله « ناقة الله »
وسقياها » فان قليل الكلام يكفى فى الإفهام مع قرينة سبق الإنذار والتهديد ،
وقوله سبحانه : (فكذبوه فعقروها) بيان من الله تعالى أنهم لم يستمعوا نصيحة

فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا [١٤] وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا [١٥]

الرسول ، ولم يتورّعوا عن تكذيبه ، ولم يحجموا عن عقر الناقة ، ولم يبألوا بما أنذرهم من العذاب وأليم العقاب . وقد بينّا أن نسبة العقر إليهم تدل ظاهراً على أنهم باشروا ذلك أو جماعة منهم ، وأن ذلك لا يمنع من أن يكون المباشر للعقر واحداً ونزل رضاهم بما صنع منزلة فعلهم . وقوله سبحانه : (فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا) دمدم : أى أطبق عليهم العذاب ، تقول : دَمْدَمْتُ عَلَى الشَّيْءِ ، إِذَا أَطْبَقْتَ عَلَيْهِ ، وتقول : هَذِهِ نَاقَةٌ مَدْمُومَةٌ ، إِذَا كَانَ الشَّحْمُ قَدْ مَلَأَهَا ، ويقال : معنى دمدم عليهم سَوَّى عَلَيْهِمُ الْأَرْضَ بِأَنَّهُمْ أَهْلَكُوهَا فَجَعَلَهُمْ تَحْتَ التُّرَابِ ، ويقال : دمدم بمعنى غضب ، وأصل هذا من الدمدمة وهى الكلام الذى يزعج ، ومعنى « فَسَوَّاهَا » أنه لم يفرق بين أحد منهم وأحد ، بل أخذهم جميعاً : صغيرهم وكبيرهم ، ذكرهم وأنثاهم ، عظيمهم وحقيقهم ، وكذلك أخذ ربك إِذَا أَخَذَ الْقَرْيَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنْ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ، وَإِذَا فَسَّرْتَ دَمْدَمَ بِمَعْنَى جَعَلَهُمْ تَحْتَ الْأَرْضِ كَانَ قَوْلُهُ سَبْحَانَهُ « فَسَوَّاهَا » بِمَعْنَى جَعَلَ الْأَرْضَ فَوْقَهُمْ مَسْتَوِيَةً كَأَنَّهُ لَمْ تُتَرَّ . وقوله جل شأنه : (وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا) الضمير المستتر فى « يَخَافُ » عائد إلى الله تعالى لأنه أقرب ما ذكر إلى هذه الآية فى قوله سبحانه « فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ » وهذه العبارة - أعنى « وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا » - كناية عن عظم العذاب وشدته وأنه بلغ الدرجة التى ليس فوقها درجة ، وذلك لأن من يفعل فعلاً من الأفعال أىَّ فَعَلْ إِذَا كَانَ يَخَافُ عَاقِبَتَهُ لَمْ يَبَالِغْ فِيهِ ، بَلْ يَأْتِي مِنْهُ بِمَا لَا تَشْتَدُّ الْأَلَمَةُ عَلَيْهِ ، فَإِنْ كَانَ لَا يَخَافُ عَاقِبَةَ وَلَا يَقْدِرُ مَسْئُولِيَّةً بَالِغَةً فِي الْوُصُولِ إِلَى مَا يَرِيدُ مِنْهُ ، وَذَكَرَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمَفْسِّرِينَ أَنَّ الضَّمِيرَ فِي « يَخَافُ » عَائِدٌ إِلَى « أَشْقَاهَا » فِي قَوْلِهِ سَبْحَانَهُ « إِذَا انْبَعَثَ أَشْقَاهَا » والمراد أن ذلك الأشقى انبعث إلى عقر الناقة

ولم يخف عاقبة ذلك ، يعنى أنه أقدم على عقرها وهو كالآمن من نزول الهلاك به وبقومه ففعل فعل من لا يخاف ؛ وذلك لجهله وسوء تقديره وفساد رأيه وعدم تبصّره فى عاقبة ما يكون منه ، والوجه الأول أولى ، والمعنى عليه أن الله تعالى لا يخاف عاقبة ما فعل بهؤلاء الذين أفناهم بظلمهم ؛ لأن الذى يخاف العاقبة إما أن يكون ظالماً فهو يخاف أن يعود إلى نفسه فيحاسبها على ما فعلت ، وإما أن يكون ضعيفاً فهو يخاف أن يقع تحت طائلة العقاب ، والله سبحانه العادل فى قضائه الذى لا يظلم الناس مثقال ذرة ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون ، وهو سبحانه القادر الذى لا معقب لحكمه ولا رادّ لمشيئته

وقد اشتملت هذه السورة الكريمة على الموعظة الحسنة والتذكير بما ينبغى للإنسان أن يفعله مع مَنْ يدعوه إلى خيره وسعادته ، وفيها التهديد البالغ لأهل مكة إنهم استمروا على عنادهم مع النبى صلى الله عليه وسلم وأصرّوا على تكذيبه بأن ينزل الله بهم مثل ما نزل بهؤلاء جراً لما فعلوه .

والمناسبة بين هذه السورة الكريمة والى قبلها أنه سبحانه لما ختم السورة المتقدمة بذكر أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة أعاد جل شأنه فى هذه السورة ذكر الفريقين بقوله سبحانه : « قد أفاح من زكاهما ، وقد خاب من دساها » وقد ختم سبحانه السورة السابقة بشيء من أحوال المؤمنين والكفار فى الآخرة ، وذلك فى قوله سبحانه : « ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة ؛ أولئك أصحاب الميمنة . والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة عليهم نار مؤصدة » . وختم هذه السورة بذكر بعض أحوال الكفار فى الدنيا ، وذلك قصة ثمود وما أخذهم به . والله سبحانه وتعالى أعلى وأعلم .

سورة الليل

[وهي مكية ، وعدد آياتها إحدى وعشرون آية ، ونزلت بعد سورة الأعلى] ^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى [١] وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى [٢]

(١) لا خلاف بين العلماء في عدد آي هذه السورة ، وكلهم متفقون على أنها إحدى وعشرون آية ، وقد اختلفوا في نزولها ، وفي سبب النزول ؛ فأما الخلاف في مكان نزولها فقد قال الجمهور : إنها مكية ، وهذا هو الأشهر ، وقال قوم منهم ابن أبي طلحة : هي مدنية ، وقال آخرون : بعضها نزل بمكة وبعضها نزل بالمدينة ؛ وأما الاختلاف في سبب نزولها فقد قال قوم : إنها نزلت في شأن أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وقال آخرون : نزلت في شأن أبي الدرداء الأنصاري رضي الله عنه ؛ واعلم أنها وإن نزلت في قوم بأعيانهم عامة الحكم ؛ فإن سبب النزول لا يُخَصَّصُ ؛ ثم ألا ترى إلى قوله تعالى : « إن سعيكم لشتى » وقوله بعد ذلك : « فأنذرتكم نارا تلظى - الآيات » فإنها تشعر بالعموم

قوله تعالى : (والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلى) أقسم سبحانه في هاتين الآيتين بالليل الذي يأوى فيه كل حيوان إلى مأواه ويسكن فيه الخلق عن الاضطراب ، وفيه يغشاهم النوم الذي جعله راحة لأبدانهم ، وسببا لاستعادة نشاطهم ، وجعل فيه مع ذلك راحة عقولهم وأنفسهم ؛ كما أقسم بالنهار الذي يتحرك فيه الناس لمعاشهم ، وفيه تغدو الطير من أوكارها وتخرج الهوا من مكانها ،

وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ [٣]

وبالجملة تنتشر فيه الكائنات الحية كلها سعيًا وراء معاشها ، وهذا وجه المصلحة في الليل والنهار التي تقتضى تعظيم شأنهما ، والتدبر في قدرة خالقهما ، ألا ترى أن الدهر لو كان كله ليلا لتعذر المعاش على الناس ، ولو كان كله نهراً لبطلت المصلحة ؛ فكان للناس في تعاقبهما آية بالغة يستدلون بها على علم الصانع وحكمته ، وتدبره إن شئت قوله تعالى : « وهو الذي جعل الليل والنهار خِلْفَةً » ؛ وقد حذف المفعول من قوله تعالى : « والليل إذا يغشى » وهذا المفعول المحذوف إما أن يُقدر خاصاً ، وإما أن يقدر عاماً ؛ فإن قدرته خاصاً جاز أن يكون الشمس بدليل قوله تعالى : « والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها والنهار إذا جلاها والليل إذا يغشاها » فإن الضمير البارز في « يغشاها » راجع إلى الشمس ؛ ويجوز أن تقدر المفعول المحذوف النهار بدليل قوله تعالى : « يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا » والأحسن من هذين جميعاً أن يكون المحذوف عاماً ، والمعنى أنه يغشى كل شيء ويواريه بظلامه ، ونظير ذلك قوله تعالى : « ومن شر غاسقٍ إذا وَقَبَ » فإن معناه الليل إذا دخل أوعظم ظلامه ، على ما سنذكره في تفسير سورة الفلق . ومعنى « تجلى » ظهر وانكشف بطولع الشمس فانكشف بظهوره كل شيء . وقوله تعالى : (وما خلق الذكر والأنثى) تحتل « ما » هذه أن تكون موصولا اسمياً بمعنى الذى ، وأن تكون حرفاً مصدرياً ؛ فإن كانت موصولا اسمياً فالمعنى وَالَّذِى خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ؛ فهو سبحانه يقسم بنفسه بعد أن أقسم بالليل والنهار ، وآثر التعبير بما لأنه أراد الوصف ، فكانه قال : والقادر العظيم القدرة الذى خلق الذكر والأنثى من ماء واحد . ويؤيد هذا الوجه أن ابن مسعود رضى الله عنه قد قرأ « وَالَّذِى خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى » ؛ وإن كانت « ما » حرفاً مصدرياً كان المعنى وَخَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ، فهو سبحانه يُقسمُ بفعله من أفعاله التى تنبئ عن تمام قدرته وتدل على عظيم

إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى [٤]

علمه وحكمته وترشد إلى بطلان ما يتخَرَّصُ به الكاذبون من أن وجود هذه الخلائق لأمر طبيعي في المادة اقتضى تكوينها ؛ ووجه بطلان ما ذهب هؤلاء إليه أن الماء الذي خلق الله منه الذكر والأنثى واحد والحل الذي فيه يتخلق الولد واحد وهو بقدرته يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور أو يوزوهم ذكرا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما . فهذه أحوال الناس لا تجد حالة إلا وهى دالة على قدرة الصانع وحكمته ؛ فبعض الماء يجعله سبحانه وتعالى سببا للحمل ، وبعضه يجعله غير قابل ولا مستعد للتلقيح ، ثم ما يجعل فيه الاستعداد للتلقيح يكون من بعضه ذر ، ويكون من بعضه الآخر أنثى ، فيكون بعض الناس عقيما لا ينسل له ، وتكون ذرية قوم ذكورا ، وتكون ذرية غيرهم إناثا ، وتكون ذرية فريق آخر ذكورا وإناثا . سبحانه ما أعظم قدرته وما أجل حكمته ، لا إله إلا هو الفعال لما يريد . وقد قرأ الكسائى : « وما خلق الذكر والأنثى » بجرّ الذكر والأنثى وتخريج هذه القراءة على أن « ما » اسم موصول مبنى على السكون في محل جر باو القسم ، وخلق مع فاعله المستتر فيه جملة لا محل لها صلة ، والذكر : بدل من ما والأنثى : عطف عليه . والمعنى وما خلقه الله تعالى وهو الذكر والأنثى ، فهو سبحانه يقسمُ بنوع الذكر والأنثى لأنهما مظهر من مظاهر قدرته الذى تخرس الأفاكين وتبطل مزاعم الملحدين من أولئك الذين يزعمون أن لهم قدرة على التحكم فى النسل ، وأنهم يستطيعون أن يجعلوا الحمل ذكرا أو أنثى على حسب قواعد زعموا أنها من العلم ، وماهى من العلم فى شىء ، وكذب هؤلاء جميعا ؛ والله سبحانه أصدق القائنين وأحكم الحاكمين ، لا سلطان إلا سلطانه ، ولا نافذ إلا قدرته ومشيتته ، ولو كره الكافرون .

وقوله سبحانه : (إن سعيكم لشتى) هو جواب القسم الذى أقسم عليه سبحانه

فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى [٥] وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى [٦] فَسَنِيْسِرُهُ لِلْيُسْرَى [٧]
وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى [٨] وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى [٩] فَسَنِيْسِرُهُ
لِلْعُسْرَى [١٠]

بِمَا بَيَّنَّا ، وَشَقَّى : جَمَعَ شَقِيَّتٍ ، مِثْلُ جَرِيحٍ وَجَرَحَى وَمَرِيضٍ وَمَرَضَى ؛ وَالشَّقِيَّتُ :
الْمُتَبَاعِدُ بَعْضُهُ مِنْ بَعْضٍ . مَا خُذَ مِنَ الشَّقَاتِ وَهُوَ الْبَعْدُ وَالْإِفْتِرَاقُ ، وَالْمَعْنَى إِنْ
أَعْمَلَكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ اتِّبَاعَةً مُفْتَرِقَةً : بَعْضُهَا ضَلَالٌ وَعَمَايَةٌ ، وَبَعْضُهَا هُدًى وَنُورٌ ،
كَأَنَّ بَعْضَهَا يَسْتَوْجِبُ الْجَنَانَ وَالنَّعِيمَ الدَّائِمَ ، وَبَعْضَهَا يَسْتَوْجِبُ النِّيرَانَ وَالْعَذَابَ
الْأَلِيمَ ؛ وَلَيْسَ سِوَاءً مَنْ يَمْشِي فِي الظُّلُمَاتِ يَتَخَبَّطُ فِي سِيرِهِ وَلَا يَتَبَيَّنُ مَقْصُودُهُ
وَلَا يَعْرِفُ سَمْتَ قَصْدِهِ وَمَنْ يَمْشِي فِي نُورٍ فَهُوَ يَرَى نَفْسَهُ وَيَرَى مَا يَحِيطُ بِهِ
وَيَسْتَطِيعُ التَّحَرُّزَ عَمَّا يَصِيبُهُ ، وَتَأْمَلْ إِنْ شَدَّتْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : « أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ
اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمُ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سِوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ
سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ » ثُمَّ تَأْمَلْ فِي قَوْلِهِ جَلَّتْ كَلِمَتُهُ : « وَلَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ
وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ » ثُمَّ تَأْمَلْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : « أَفَمَنْ كَانَ
مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ »

ثُمَّ إِنَّهُ سَبَّحَانَهُ وَتَعَالَى بَعْدَ أَنْ أَشَارَ إِلَى اخْتِلَافِ أَعْمَالِ النَّاسِ فِي أَنْفُسِهَا وَفِي
أَوْصَافِهَا وَفِي جَزَائِهَا إِشَارَةً مُوجِزَةً تَتَّبِعُ عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ وَتُرْشِدُ إِلَى كَثِيرٍ مِنْ أَنْوَاعِ
الْإِخْتِلَافِ ، عَلَى نَحْوِ مَا بَيَّنَّا آنِفًا ، بَعْدَ أَنْ أَشَارَ إِلَى هَذَا الْإِخْتِلَافِ أَخَذَ سَبَّحَانَهُ
فِي تَفْصِيلِ هَذَا الْإِخْتِلَافِ فَقَالَ : (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنِيْسِرُهُ
لِلْيُسْرَى ، وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنِيْسِرُهُ لِلْعُسْرَى) فَأَمَّا قَوْلُهُ
سَبَّحَانَهُ « أَعْطَى » فَيَحْتَمِلُ مَعْنِيَيْنِ : أَحَدُهُمَا أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهِ إِعْطَاءُ الْمَالِ وَإِنْفَاقُهُ
فِي وَجْهِهِ الْخَيْرِ سِوَاءً أَكَانَ مِمَّا وَجِبَ عَلَى الْإِنْسَانِ كَالزَّكَاةِ أَمْ كَانَ مِمَّا لَمْ يَجِبْ عَلَيْهِ

كالصدقات النوافل ، ويدخل في هذا عتق الرقاب والإعانة عليه وفك الأسارى وتقوية المسلمين على عدوهم ، والثانى أن يكون المراد بالإعطاء ما يشمل حقوق المال وحقوق النفس ، فيتناول حينئذ جميع أنواع الطاعات سواء أكانت مالية أم كانت بدنية وسواء أكانت واجبة أم كانت مندوبة ؛ فهذا المعنى أعم من الأول كما هو ظاهر ؛ وأما قوله سبحانه « واتقى » فإن معناه تحرز عن كل ما لا ينبغي ، وأما قوله سبحانه « وصدق بالحسنى » فقد اختلف العلماء في بيان المراد من الحسنى في هذه الآية ؛ فذكر بعضهم أنها كلمة « لا إله إلا الله » والمراد توحيد الله والاقرار له بجميع صفات الكمال وتنزيهه عن جميع صفات النقص ، وقال قوم : المراد بالحسنى الخلف الذى وعد الله تعالى بإعطائه لمن ينفق ماله فى سبيله ، وذلك فى قوله سبحانه : « وما أنفقتم من شئ فهو يخلفه » وأما قوله سبحانه : « فسنيسره لليسرى » فمعناه أنه سبحانه يسهل على من اتصف بما ذكر من الصفات سبيل التكليف التى كلفه الله إياها ويشرح صدره للإتيان بها على وجهها الذى يستحق معه أفضل المثوبة وأجرها ؛ وأما قوله سبحانه « بخل » فمعناه أمسك أمواله ولم ينفقها فى وجوه البر التى يبتغى بها آتياً ، سواء اخترته ولم ينفق منه شيئاً أم أنفقه فى غير هذه الوجوه بأن أنفقه فى شهواته وملذاته أو فى محاربة الله ورسوله ، أو معناه بخل بحقوق النفس وحقوق المال ، فيشمل حينئذ من نكص عن الدفاع عن الحق والدّؤد عن الحرمات بنفسه وماله ، وأما قوله سبحانه : « واستغنى » فمعناه عدّ نفسه غنياً عن الناس ، وخدعه ماله وجأه وقوته فظن أنه بذلك لا يحتاج إلى أحد ولم يحس أنه واحد من الناس يصيبه ما يصيبهم من سوء وينزل به ما ينزل بهم ، وأما قوله سبحانه « وكذب بالحسنى » فمعناه كذب بوحداية الله أو كذب بأن الله يخلف على المنفقين فبخل بماله لسوء ظنه بالمعبود ؛ وأما قوله « فسنيسره لليسرى » فمعناه أنه سبحانه يجعل صدره ضيقاً حرجاً ولا يوفقه لعمل الخير ولا يهديه سواء السبيل

وأنت إذا تدبرت هاتين الآيتين الكرّيمتين وجدت أنه سبحانه قد وصف أهل البر بثلاث صفاتٍ ورتب على هذه الصفات وتحققها فيهم الجزاء الذي هو التوفيق للحسنى ، ووجدت أنه سبحانه قد وصف أهل الفجور بثلاث صفات تقابل تلك الصفات ورتب على تحققها فيهم العقاب الذي هو تيسيرهم للعسرى ، وهو ضد الثواب الذى جعله عاقبة لأعمال الخير والبر . ولوتدبرت مرة أخرى فى هذه الخصال التى جعلها الله تعالى خصال البر والهدى لرأيت أنها جماعُ الفضائل كلها ، ولوتدبرت فى الخصال التى حكم الله عليها بأنها خصال الفجور لوجدتها جماع الشرور ؛ ألسـت ترى أن خلاصة ما ذكره الله من خصال البر أن يدين الإنسان بحالـق يعتقد فيه الـوحدانية ويصفه بجميع أوصاف الكمال من العدل والحكمة والقدرة والإرادة والعلم بكل شىء صغر أو كبر عظم أو حقـر ، وأن يتحرز عن الوقوع فى الشرور ويقتى نفسه المعاطب والمهالك ويزن عمله بالميزان الصحيح ، وأن يجود بنفسه وبماله فى سبيل الخير والبر فلا يـضن بنفسه عن اقتحام الأهوال إن ظن أن من وراء ذلك منفعة عامة تعود على أهل دينه ولا يـضن بماله وإن عزّ عليه أن ينفقه فيما يرتجى نفعه ؛ وأى خـصلة من خصال البر لم تتضمنها هذه الخلال الثلاث ؟ ثم ألسـت ترى أن خلاصة ما ذكره الله تعالى من خلال الشر أن يتمرد الإنسان على خالقه فلا يعتقد أن لهذا الكون خالقاً قادراً على ما يشاء عالماً بما يأتى العبد وبما يذر ، أو يعتقد ذلك اعتقاداً لا يجاوز حلقه ولا يترتب عليه الخوف من هيبتـه والارتقاب لعظيم نعمته ، وأن يرى نفسه مستغنيا عن يعينـش معه فلا يشارك الناس فى سرائمهم ولا ضرائمهم ، وأن يبخل بنفسه وبماله ويضن بهما على أعمال البر والخير ؛ وأية خـصلة من خصال الشر لا تنطوى تحت هذه الخلال ؟ فلا جرّم ربّ الله تعالى على الخلال الأولى أجزـل الثواب ، ورتب على الخلال الثانية أشد العقوبة ؛ وأى ثواب أحسن وأفضل من أن يهيبـه الله الإنسان للعمل الصالح ويسهل عليه

وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى^١ [١١] إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى [١٢]

سبيله ويشرح صدره لإتيانه ويوفقه لإدراكه ؟ وأية عقوبة أشد وأنكى من أن يجعل الله صدر المرء ضيقاً حرجاً وأن يغطى على قلبه ويجعل الخذلان حليفه فلا يُقدِّم على عمل من أعمال الخير وإذا همَّ لم يوفق إلى الإتيان به ، نعوذ بالله تعالى من الخذلان ، ونسأله أن يشرح صدورنا ويهيء قلوبنا للرضا بالحق والإقبال عليه .

وقوله سبحانه : (وما يغني عنه ماله إذا تردَّى) « ما » في هذه الآية يجوز أن تكون نافية ، ويجوز أن تكون استفهامية ، ويكون المراد بالاستفهام حينئذ الإنكار ، و« تردَّى » معناه سقط ، وذلك كقولك : تردَّى فلان من الجبل ، ومعناه هوى من أعلاه وسقط إلى أسفله ، والمراد نزوله إلى قبره أو هويته في النار ، أو معناه أصابه الردى وهو الموت ، والمعنى إنا إذا يسرناه للعسرى فأى شئ يغنى عنه ماله الذى يخل به على الناس ولم ينفقه فى المصالح العامة وفيما يمود نفعه على الجماعة ، وتركه للوارثين ينفقونه على ملاذهم وشهواتهم ، ولم يصحب منه شيئاً إلى آخرته التى هى موضع حاجته وفقره ، وإلى مثل هذا المعنى يشير قوله تعالى : « وَرُئِيَ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا » وقوله جل ثناؤه : « وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فِرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكُمَا خَوْلاًنَا كُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ »

ثم إنه سبحانه بعد أن بيّن أن سعى الخلائق مختلف فى نفسه وفى وصفه وفى عاقبته ، وبيّن ما للمحسن فى عمله من التوفيق إلى أعمال البر ، وما للمسيء فى أعماله من الخذلان ، أخبر أنه سبحانه قد أعذر إلى عباده بتقديم البيان الذى تنكشف معه حقائق أعمال الخير والشر جميعاً ، والدلالة التى توضح السبيل أمام السالكين ، والترغيب والترهيب ، والإنذار والتبشير ، ويشير إلى ذلك قوله سبحانه : (إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى) والمعنى إن الذى تقتضيه حكمتنا أن نبين لعبادنا

وَإِنَّ لَنَا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَى [١٣] فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى [١٤]
لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى [١٥] الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى [١٦]

— إذ خلقناهم للعبادة — وجُوه التعبد وشرح ما يكون المتعبد به مطيعا وما يكون به عاصيا ، وذلك لأننا إنما خلقناهم لننفعهم ونرحمهم ونعرضهم للنعيم المقيم ، وقد فعلنا ما اقتضته الحكمة واستوجبه اللطف ، فإذا اختار العبدُ بعد ذلك كله ما يكون سببا في هلاكه وترديه في هاوية العذاب فانما جنى على نفسه وأوبقها لأنه لم يلتفت إلى ما عرَّضناه له ، وقوله سبحانه : (وَإِنَّ لَنَا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَى) معناه أن لنا كلَّ ما في الدنيا وكل ما في الآخرة ، نحن الذين نملكه ، فنهب منه ما نشاء لمن نشاء ، ومن كان بهذه المثابة لا يضره أن يترك جماعة من عباده الاهتداء بهُداه الذي بينه لهم ، كما لا يزيد في ملكه اهتداء من اهتدى منهم ، لأن نفع الهداية راجع إلى المهتدى ، وضرر الغواية عائد على الغاوين ، فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها ، وما ربك بظلام للعبيد ،

وقوله سبحانه : (فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى) تَلَظَّى : أى تتوهج وتتوقد وتلتهب ، وأصله تَتَلَظَّى فحذفت إحدى التاءين ، وتقول : تَلَظَّتِ النَّارُ تَلَظِيًّا ، بمعنى التهمت التهابا ، ومن هذه المادة سميت النار « لَظِي » وقد اختلف العلماء فى النار التى تَلَظَّى ؛ فقال قوم : هى نار مخصوصة ودركة منها بعينها تُجْعَلُ منزلاً لمن وصفه سبحانه بالأشقى ، وذلك لأن النار دركات بعضها أسفل من بعض ، بدليل قوله جل ثناؤه : « إِنَّ الْمُنَاقِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ » وقال قوم : المراد بالنار التى تَلَظَّى جميعُ النيران ، وليس هذا الوصف لإخراج شئ منها ، وقوله سبحانه : (لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى) بيان لمن يستحق هذه النار ، وَيَصْلَاهَا : يحترق بها ، وكذب : أى كذب رسول الله فيما جاء به عن

وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى [١٧]

ربه من الآيات ، وتولّى : أعرض عن طاعة ربه . فإن قلت : إن ظاهر هذه الآية يدل على أنه لا يدخل النار إلا من اتصف بالوصفين : التكذيب ، والإعراض عن طاعات الله ، فأما الفسّاقُ وهم الذين آمنوا برّبهم وصدقوا رسوله ولم يعملوا ما أمرهم الله من الطاعات ، أو عملوا الطاعات وعملوا مع ذلك المعاصي ، فليسوا ممن يدخل النار ويصطلونها ، فالجواب عن ذلك من وجهين : الأول أنا إن قلنا إن المراد بالنار التي تلظى نارٌ بعينها ودركة منها خاصّة لم نمنع أن يكون هذا الظاهر الذي أشرّت إليه مراداً ، ويكون المعنى أن الله تعالى أعدّ للكفار الذين كذبوا به ورسوله ولم تقنعهم الآيات ولم تخوفهم الزواجر ناراً شديدة الانتقاد والالتهاب وهيأها لهم وجعلها خاصة بهم لا يدخلها أحد سواهم ، وهذا لا ينافي أن يكون العصاة من المؤمنين سيّء عدّ بؤن بدخول النار ، إلا أن النار التي يدخلها العصاة ليست هي النار التي يدخلها الكفار ، والوجه الثاني : أنا إن قلنا إن النار التي تلظى هي جميع النيران وجب صرف الآية عن هذا الظاهر الذي أشرّت إليه ، وذلك بأن نقول : إن المراد بقوله تعالى : « لا يَصْلَاهَا » لا يُلَازِمُهَا مُقَاسِمًا حَرًّا وشدتها ، ولا شك أن ملازمة النار وعدم الخروج منها مع مقاساة شدائدّها وأهوالها وحرّها مما يختص به الكافر الذي كذب وتولّى ، فأما الفسّاق فإن لم يغفر الله لهم ودخلوها فإنهم يخرجون منها ، والذي يدل على أن هذا الظاهر غير مراد الآيات الكثيرة التي اشتملت على وعيد الفسّاق والعصاة

٢

وقوله سبحانه : (وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى) معنى « يُجَنَّبُهَا » يُبْعَدُ عنها ويجعل منها على جانب ، والمراد بذلك ههنا الإبعاد بينه وبينها كما قلنا أولاً ، والأَتْقَى : الْمُبَالِغُ في اتقاء الكفر والمعاصي ، الشديد التحرز عنهما ، بحيث لا يحوم حولها

الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى [١٨] وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى [١٩]
إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى [٢٠]

ولا يُخْطِرُ هَالِكًا بِبَالٍ، وَجَنَّبَ : فعل بتعدّي إلى مفعولين ، تقول : جَنَّبْتُ فُلَانًا الشَّرَّ ،
والمفعول الأول في الآية هو « الأتقى » الذي ارتفع على أنه نائب عن الفاعل ،
والمفعول الثاني هو الهاء ، وقد وصف الله تعالى الأتقى بقوله : (الذي يُؤْتِي مَالَهُ
يَتَزَكَّى) ومعنى « يُؤْتِي مَالَهُ » يعطيه وينفقه ويصرفه ، و « يتزكى » في موضع
الحال : أى أنه ينفق أمواله في وجوه الخير والبر طالباً بذلك الإتيان أن يكون عند
الله زاكياً نامياً ، لا يريد به رياء ولا سمعة ، ولا أن يمتدحه الناس فيقولوا إنه
رجل خير ور فأن هذا نفسه ضربٌ من النفاق الذي يبطل معه العمل ولا
يكون لصاحبه عليه ثوابٌ مهما أتعب فيه نفسه وأجهد لها وكلفها ؛ ذلك بأن
الله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً له مقصوداً به وجهه ، لا شريك
له في القصد ، فكلُّ عَمَلٍ قَصِدَ به غيرُ الله أو أُشْرِكَ فيه مع الله تعالى أحد فانه
مردود على صاحبه ، وقد أكد سبحانه هذا المعنى بقوله (وما لأحدٍ عنده من
نعمةٍ تُجْزَى) فان معناه أنه لا يقصد بانفاقه المال مكافأةً أحدٍ على نعمةٍ كان
أزلفها إليه وجزاء معروف كان قد تقدم به له ، وذلك لأنه مامن أحد له عليه نعمة
ولا يدُ تستحق الجزاء والمكافأة ؛ فانفاقه خالص لوجه الله تعالى ، وقد أكد
هذا المعنى مرة ثانية بقوله جل شأنه : (إلا ابتغاء وجهه ربّه الأعلى) ومعناه
لكنه يفعل ذلك وهو إنفاق ماله قاصداً رضاء ربه طالباً مشوبته وحده . فان قلت :
عَلَامَ انتصب قوله تعالى « ابتغاء وجهه ربه » ؟ قلت : يجوز أن يكون منصوباً
على أنه مستثنى والاستثناء منقطع ، وذلك لأن المستثنى منه هو « نعمة »
والمستثنى وهو « ابتغاء » لا يندرج فيها ، والاستثناء المنقطع واقع في كلام العرب

وإن كان على خلاف الأصل، أنظر إلى قول الراجز :

وَبَلَدٍ لَيْسَ بِهَا أُنَيْسُ إِلَّا الْيَعْفِيرُ وَإِلَّا الْعَيْسُ^(١)
وانظر إلى قول النابغة الذبياني :

وَقَفْتُ فِيهَا أَصِيلاً كَىٰ أَسْأَلُهَا عَمَّتَ جَوَاباً وَمَا بِالرَّبْعِ مِنْ أَحَدٍ
إِلَّا الْأَوَارِيَّ لَا يَأِيَّ مَا أُبَيِّنُهَا وَالنَّوْىَ كَالْحَوْضِ بِالْمَظْلُومَةِ الْجَلْدِ^(٢)

وانظر إلى قول بشر بن أبي خازم :

أَضَحَّتْ خَلَاءَ قَفَّاراً لَا أُنَيْسَ بِهَا إِلَّا الْجَبَّارُ وَالظَّلْمَانِ تَخْتَلِفُ^(٣)

ألا ترى أن اليعافير والعيس ليست من جنس الأنيس ، والأوارى والنوى ليست من جنس الأحدين ، والجآذر والظلمان ليست من جنس الأنيس ؛ فدل ذلك على أنه لا يمتنع في فصيح الكلام أن يحىء المستثنى من غير جنس المستثنى منه ، ويجوز أن يكون انتصاب قوله تعالى « ابتغاء وجه ربه » على أنه مفعول لأجله وعامله محذوف يدل عليه سياق الكلام ، والتقدير لا ينفق ماله إلا ابتغاء : أى لا ينفق أكلة من العلل ولا لسبب من الأسباب إلا لهذه العلة وهذا السبب وهو قصده إلى مرضاة ربه ، وهذا فى المعنى هو الاستثناء المفرغ ، والمستثنى منه عموم العلل والأسباب كما قررنا فى بيان المعنى . وقد قرأ يحيى بن وثاب « إلا

(١) اليعافير : جمع يعفور ، وهو الغظي الذى لونه لون التراب ، والعيس : الابل
(٢) الأوارى : جمع آرية ، والمراد بها ههنا الحبال التى تربط بها الابل ، ولائياً : أى بعد بطة ، والنوى : حاجز من التراب كان العرب يعملونه حول بيوتهم لئلا يدخل ماء المطر إليهم ، والمظلومة : الأرض التى كثر فيها الحفر ، والجلد : الأرض الغليظة الصلبة من غير حجارة

(٣) الجآذر : جمع جؤذر ، وهو ولد الظبية ، والظلمان : جمع ظليم ، وهو الذكر من النعام

وَلَسَوْفَ يَرْضَى [٢١]

ابتغاء وجه ربه « بالرفع ، وهو جائز في الاستثناء المنقطع في لغة بني تميم ، وعليها قول الراجز الذي أنشدناه قريبا

٢ وقوله سبحانه : (ولسوف يرضى) معناه الوعد منه تعالى لهذا الأتقى الذي ينفق ماله قاصداً بذلك الائتفاق رضا ربه لامكافأة أحد على نعمة ولا قضاء لحقوق وجبت قبله ؛ بأن يُرضيه في الآخرة بثوابه وعظيم جزائه ، وهذا مثل قوله سبحانه لنبيه : « ولسوف يعطيك ربك فترضى »

وأكثر العلماء على أن هذه الآيات نزلت في شأن أبي بكر الصديق رضى الله تعالى عنه ، قالوا : كان بلال بن رباح رضى الله عنه مولى لعبد الله بن جُدْعَانَ ، فجاء بلال إلى الأصنام فسلح عليها ، فشكا كفار مكة إلى عبد الله بن جُدْعَانَ فعل مَوْلَاهُ ، فوهبه لهم ، ووهب لهم مائة من الإبل ينحرونها لآلهم ؛ فجعلوا يعذبون بلالاً ويخرجونه إلى الرَّمْضاء ، وكان يقول وهم يعذبونه : أحد أحد ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمر به وهو يُعَذَّب فيقول له : « ينجيك أحد أحد » ثم أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه أبا بكر رضى الله عنه بما يلقي بلال في الله ، فحمل أبو بكر رطلا من ذهب فابتاعه به من المشركين وأعتقه ، فقال المشركون : ما فعل ذلك أبو بكر إلا ليد كانت لبلال عنده ، فنزل قوله تعالى : « وسيجنبها الأتقى الذى يؤتى ماله يتزكى وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى » وروى أن ابن الزبير قال على المنبر : إن أبا بكر كان يشتري الضعفة من العبيد فيعتقهم ، فقال له أبوه : يا بني لو كنت تبتاع من يمنع ظهرك ؛ فقال : منع ظهري أريد ؛ فنزلت هذه الآيات . والله سبحانه وتعالى أعلى وأعلم

سورة الضحى

[وهى مكية ، وعدد آياتها إحدى عشرة آية ، ونزلت بعد

سورة الفجر] ^(١)

(١) لاخلاف بين أحد من المفسرين فى أن هذه السورة مكية ، كما أنه

لا خلاف بينهم فى أن عدد آياتها إحدى عشرة آية

اتفقت الروايات على أن سبب نزول هذه السورة حدوث فَتْرَةٍ فى نزول
الوحى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم
حزن لفترة الوحى حزنا شديداً حتى غدا مراراً إلى الجبال كي يتردّى من
شواهقها ورءوسها ، وأنه ما كان يمنع من التردّى إلا تمثيل الملك له وإخباره بإياه
أنه رسول الله حقاً ، وإنما حزن عليه الصلاة والسلام لفترة الوحى لخوفه من
أن يكون ذلك من غَضَبٍ أَوْ قَلَى من ربه له ، وهو صلى الله عليه وسلم
قد ذاق من حلاوة الاتصال بربه وشاهد من جمال الأنس بالوحى ما يشير
لواعج شوقه إلى التزوّد منه ، وقد كان يعلم عن نفسه أنه بشر ولا فضل له
على غيره من الخلق إلا بهذا القرب الذى يعلمونه عن مصافّ مَنْ عداه ؛
وقد كان شديد الحرص على تكميل نفسه وإعدادها لتحمل ما هى بسبيله
من أعباء الرسالة ؛ فلا جرّم أن يكون حزنه لهذه الفترة شديداً ، وأن يتوجس
منه ، وأن يخاف غضب ربه عليه ، ولا عَجَب أن يدعوه ذلك الحزن الشديد إلى
التفكير فيما كان يفكر فيه ، وأن يهتم بتنفيذ هذا الذى فكر فيه ، ومن أجل
هذا كله نزلت هذه السورة الكريمة حاملةً له أجمل البشرى ومُلقيةً على قلبه
ثلج الطمأنينة ، وهذا نفسه سرّ تعداد الله تعالى نعمه على رسوله فى هذه السورة ،
وكأنه يقول له : إن الذى فعل بك كذا وكذا لم يكن ليتركك ولا لينسأك بعد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والضُّحَى [١] وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى [٢] مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى [٣]
وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى [٤]

أن هياك لحمل أمانته وأعدك للاضطلاع بأعباء رسالته ، فلا تحزن على ما كان من فترة الوحي عنك ، ولا يكن في صدرك حرجٌ من ذلك ؛ فليس المقصود بفترة الوحي عنك إلا تثبيتك وتقوية نفسك على احتمال مشاقه . وسيتبين ذلك واضحا في تفسير آى هذه السورة إن شاء الله

قوله سبحانه : (والضحى والليل إذا سجدى) يختلف المفسرون في المراد بالضحى في هذه الآية ؛ فقال قوم : المراد به صدرُ النهار حين ترتفع الشمس وتلقى أشعتها على هذا السكون ، وتخصيص هذا الجزء من النهار بالخلف به لشرفه بكونه وقت انتشار ضوء الشمس وكونه زمان شباب النهار ، وقال قوم : المراد به النهار كله ، بدليل أنه جعل في مقابلة الليل كله ، وسجدى معناه سكن ، والمراد سكن الناس فيه ، ومن عادة العرب أن ينسبوا الشيء إلى زمان حدوثه ؛ فهم يقولون : ليل نائم ، ونهار صائم ، وقال الشاعر :

أَقْدَمْتُنَا يَا أُمَّ غَيْلَانَ فِي السَّرَى وَنِمْتُ وَمَالَيْلُ الْمَطْنِ بِنَائِمٍ

وقوله سبحانه : (ما ودَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى) معناه ما تركك ربك وما أبغضك ، وقرئ « ما ودَّعَكَ » بالتخفيف ، وهى بمعنى تركك أيضاً ، والقلى : الكره ، تقول : قَلَاهُ يَقْلِيهِ ، وقَلَاهُ يَقْلَاهُ ، وقَلَاهُ يَقْلُوهُ ، قَلَى وقَلَاءً ومَقْلِيَةً ، إذا أبغضه وكرهه ، ويقال : القلى شدة الكره

وقوله سبحانه وتعالى : (وللاخرة خير لك من الأولى) ذكر جماعة المفسرين أن المراد بالآخرة يوم القيامة والمراد بالأولى الحياة الدنيا ، والمعنى على هذا أن التشریف

الذى حصل لك برضا ربك عليك وإن كان عظيماً لا يقاس إلى جانب ما أَعَدَّ
الله لك من الشرف العظيم والمنزلة الرفيعة في الآخرة ؛ فإن فيها يظهر شرفك تمام
الظهور وتبين منزلتك أوضح البيان ، وهناك تجد مالك من الشرف فوق مال كل
أحد ؛ وهذا معنى صحيح ، ولكن خيراً منه أن يقال : إن المراد أن الأحوال
الآتية في الحياة الدنيا خير لك من أحوالك الماضية ، وكأنه سبحانه يَعِدُ رسوله
بهذه الآية الكريمة بأنه سيزيده كل يوم عزا إلى عز ، وسيرفع من شأنه كل
يوم عما قبله ، وكأنه يقول له : لا تنظرن أنى كرهتك وتركتك ، بل أنت عندى
اليوم أشد تمكينا وأقرب اتصالا ، وإني سأزيدك كل يوم فضلا وسأرفعك كل
حين درجةً ، وسأمنحك كل آن جلالا فوق جلالك ورفعة فوق رفعتك ؛ وفي
هذا من تأكيد ما قبله ما ليس يخفى على متبصر ، وقد صدق الله رسوله هذه الموعدة ؛
فإنه سبحانه ما زال يسمو بنبيه ويرفع من درجته يوماً بعد يوم حتى بلغ به الغاية
التي لم يبلغها أحد ، وأية غاية فوق أن يجعله رسول الرحمة والهداية والنور إلى جميع
خلقه ، وأن يجعل رضاه دليلاً على رضا الله وغضبه دليلاً على غضب الله ، وأن يجعل
محبة من محبة الله ، وأتباعه والافتداء بهديه سبباً للفوز بنعيم الله ، ثم يجعله وأُمَّته
شهداء على الناس جميعاً ؟ وأى فضل أعلى من هذا الفضل الذى بلغه محمد صلى الله
عليه وسلم بانتشار دينه وبلوغ دعوته أطراف الأرض ، وتفكر جيداً فى أن الله
تعالى جعل كلمة الإيمان جزءين لا يقبل أحدهما بدون الآخر وأن أولهما خاص بالله
ذى الجلال وإنانيها الإقرار بمحمد صلى الله عليه وسلم والشهادة بصدقه فيما يبلغ
عن ربه ، ثم تأمل فى أنواع العبادات التى تعبد الله بها خلقه ، أأستجد اسم
النبي صلى الله عليه وسلم مقروناً إلى الاسم الجليل فى الأذان يُدَوَّى به صوتُ
المؤذن فى أجواز الفضاء خمس مرات فى كل يوم وليلة ، ويسمعه الناس أجمعون ،
وفى الصلاة حيث ينطق بهما كل مُصَلٍّ تسع مرات فى كل يوم وليلة على الأقل

وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ [٥] أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ [٦]

في خمسة أوقات مختلفة ، فأى فضل فوق ذلك الفضل وأية نعمة فوق هذه النعمة ؛ وأى إجلال وإكرام فوق هذا الإجلال وهذا الإكرام ؟ ذلك فضل الله العظيم يؤتيه من يشاء من خلقه والله ذو الفضل العظيم

وقوله سبحانه : (ولسوف يعطيك ربك فترضى) معناه أنه جل ثناؤه سيرادف نعمه على رسوله ويوالى آلاءه التي منها توارد الوحي عليه بما فيه إرشاده وإرشاد قومه إلى ما فيه هئاءتهم في الدنيا وسعادتهم في الآخرة ، والتي منها ظهور دينه على الأديان كلها ولو كره الكافرون ، والتي منها علو كلمته ورفعة شأنه وشأن قومه على شؤون الناس جميعا ، وأنه تعالى ما يزال يوالى ذلك عليه صلى الله عليه وسلم حتى يرضى بما يراه من تلك النعم التي ليس وراءها مطلب لطالب

ثم إنه سبحانه وتعالى لما ذكر رضاه عن رسوله ووعد به أن يمنحه من المراتب والدرجات حتى ترضى نفسه بما يراه من وسائل الإكرام والإجلال أراد أن يبين له أن ذلك ليس عجيباً ممن بيده ملكوت السموات والأرض ، كما أنه ليس أول نعمه على رسوله ؛ لأنه أنعم عليه من قبلُ بالنعم الجليلة ، وقد كان إنعامه السابق قبل أن يُصَيِّرَهُ رسولا ، فكيف يتركه بعد أن أعدّه لرسالاته ، وذلك قوله تعالى : (أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ) والاستفهام هاهنا ليس على أصله ، بل المراد منه التقرير ، والمعنى أنك كنت يتيماً لا أب لك يُرَبِّيكَ ويقوم على تَنْشِئَتِكَ فما زال يحميك وينصرك ويتعهدك برعايته الصمدانية ويحميك أَدْناس الجاهلية وأوضارها حتى ارتقيت إلى ذروة الكمال الانساني ؛ وقد عاش النبي صلى الله عليه وسلم يتيماً ؛ لأن أباه عبد الله قد توفى وهو في بطن أمه ، فلما وُلِدَ عَطَفَ اللَّهُ عليه قلب جده عبد المطلب بن هاشم فما زال يكفله خير كفالة حتى توفى والنبي في الثامنة

من عمره ، فكفله عمه أبو طالب شقيق أبيه عبد الله بوصية من عبد المطلب ، وكان شديد العناية به عظيم المحبة له ، فما فتى يُرَبِّيه ويتعهده حتى كبر وترعرع ، وحينئذ منحه وده ومحبته ، وما زال يحبُّوه بهما حتى أرسله الله تعالى رسولا ، فقام يؤازره وينصره ويدفع عنه إيذاء قريش وعُدوانهم ، حتى مات ، وحينئذ استطاعت قريش أن تنال منه ، فتجراً عليه سفهاؤهم وسلطوا عليه غلامهم حتى اضطروا إلى الهجرة إلى المدينة ، ولو تدبر منصف في رعاية الله تعالى رسوله منذ كان في بطن أمه وتوفيقه جدّه ثم عمه إلى حياطته والحذب عليه وتنشئته التنشئة الصالحة ، مع أن اليُتمَّ وحده مدعاة إلى المضیعة وفساد الخلق لقلة من يحفل باليتيم ويحرص عليه ، وقد كان في خلق أهل مكة وعبادتهم الكفاية لإضلاله لو أنه سار سيرتهم وصنع صنيعهم ، ولكن عين الله التي تحوطه وترعاه منعمته السير على نهجهم ، وحرمت عليه أن يتطبع بطباعهم ، فكان الأمين الذي لا يخون ، والوفى الذي لا يمين ، والصادق الذي لا يكذب ، والظاهر الذي لم يتدنس برجس^(١) الجاهلية ، فذلك إيواء الله تعالى إياه الذي يقول فيه : « ألم يجدك

(١) روى أنه صلى الله عليه وسلم قال : ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يعملون به غير مرتين : كل ذلك يحول الله بيني وبين ما أريد من ذلك ، ثم ما هممت بعدهما بسوء حتى أكرمني الله برسالته ، فاني قلت ليلة لغلام من قريش كان يرعى معي بأعلى مكة : لو حفظت لي غنمي حتى أدخل مكة فأسمر بها كما يسمر الشبان ، فخرجت أريد ذلك حتى أتيت أول دار من دور مكة ، فسمعت عزاً بالدفوف والمزامير فقالوا : فلان بن فلان يزوج بفلانة ، فجلست أنظر إليهم ، وضرب الله على أذني ، فممت ، فما أيقظني إلا مس الشمس ، قال : فجئت صاحبي ، فقال : ما فعلت ؟ فقلت : ما صنعت شيئاً ، ثم أخبرته الخبر ، قال : ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك ، فضرب الله على أذني فما أيقظني إلا مس الشمس ، ثم ما هممت بعدهما بسوء حتى أكرمني الله برسالته .

وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ [٧]

يتيماً فأوى» ويعنى به لقد كنت بعُرْضَةٍ أن تتأثر بمن حولك في عاداتهم وعباداتهم وأخلاقهم ، ولكن الله تعالى حمّاك ذلك

وقوله سبحانه : (ووجدك ضالًّا فهدى) ذكر لنعمة ثانية من نعم الله تعالى السابقة ، وقد اختلف المفسرون في معنى هذه الآية ، وقد ذكروا كلاماً لا يحل بنا أن نحكيه عنهم لأنه تحبّط وتخليط ، ولكننا نختار من بين ذلك قولين : أحدهما أن المراد أنه صلى الله عليه وسلم كان حائراً مضطرباً مع اعتقاده أن قومه ليسوا على بصيرة في أمرهم ، وأن عباداتهم فاسدة ، واعتقاداتهم باطلة - وما كان يدرى ما يأخذ به لأنه كان أمياً لا يقرأ الكتب ولا يخطها يمينه ؛ فكان يفكر في دين إبراهيم عليه السلام ثم يسمع أن قومه يزعمون لأنفسهم أنهم يدينون به ، وهو يرى سوء حالهم ، وحينئذ يتردد في الإقبال عليه ، وكان يفكر في دين اليهود ثم يرى اليهود أنفسهم ليسوا على حال خير من حال قومه لأنهم بدّلوا دينهم وخالفوا ما كان عليه رسولهم ، وحينئذ يبدّله الإعراض عنه ، وكان يفكر في دين عيسى عليه السلام ، ثم يرى النصارى على مثل حال اليهود أو شر منها ، فيرجع عن التفكير فيه ، وبالجملة كان في قرارة نفسه يعتقد أن قومه قد ضلّوا سواء السبيل وبدّلوا دين أبيهم إبراهيم وإن زعموا أنهم يستمسكون به ، وكان يبحث عن الله تعالى وعما يصح أن يتقرب به إليه ، ولكنه مع ذلك لا يحسن القراءة ولم يتصل بمن يقرأ له أو يدلّه على وجه الهداية ، فهذه كانت حالته ، وهى حالة حيرة وارتباك ، فلم يتركه الله إلى نفسه ، بل أنزل عليه الوحي يبين له أوضح الطرق ويهديه سبل السلام ، ومصدق هذا قوله تعالى : « ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان » . والقول الثانى أن المعنى أنه كان بين قوم ضالّ

وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى [٨] فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ [٩]

أَهْلَكُوا أَنْفُسَهُمْ بعبادة غير الله والإشراك به وكان بِمِرْضَةٍ أَنْ يَضِلَّ مَعَهُمْ ، وَلَكِنَّهُ سَبَّحَانَهُ حَبَّبَ إِلَيْهِ الْإِنْفِرَادَ عَنْهُمْ وَعَدَمَ مَسَايِرَتَهُمْ فِي عِبَادَاتِهِمْ ، وَمَنْ عَلَيْهِ بِإِدْرَاكِ سَوْءِ حَالِهِمْ وَالْفَقْرَةِ مِنْهُمْ ، فَكَانَ كَالشَّجَرَةِ الْمُنْفَرِدَةِ فِي الصَّحْرَاءِ ، وَالْعَرَبُ تَسْمِي الشَّجَرَةَ الْمُنْفَرِدَةَ فِي الْفَلَاةِ ضَالَّةً

وقوله سَبَّحَانَهُ : (ووجدك عائلاً فأغنى) إشارة إلى نعمة أخرى من نعم الله تعالى على رسوله ، وأصل العائل الذي له عائلة لا يقدر على الاتِّفَاقِ عليها ، ثم أطلق على الفقير وإن لم يكن له عيال ، والمعنى إنك كنت فقيراً لأن أباك لم يترك لك مالا مؤثلاً يقوم بمحاجتك بل كل ماتركه لك ناقة وجارية ، ومن كانت هذه حاله كان خليقاً بأن تضرع نفسه وتذل للناس ، ولكن الله تعالى لم يعرضك لمثل ذلك وإنما أغناك بما أجراه لك من الرِّيحِ في التجارة وبما وهبتك خديجة من مالها ، ويقال : أغناك بالقناعة حتى صرت بحال تستوى فيها عندك الحجارة والذهب ، وشغلك به عن كل ماسواه فكنت لا تجد في قلبك سوى حب الله ، ولا شك أن أفضل الغنى أن تستغنى عن المال ، لأن تغنى بالمال . ويقال : المعنى أنك كنت محتاجاً إلى البراهين الدالة على وجود الله تعالى فأُنزلَ عليك القرآن وعلمك به ما لم تكن تعلم فاستغنييت وامتلاً قلبك يقيناً وفكرت حُجَجاً ، والأول من هذه الوجوه أحسنها لوجهين : الأول أنا ذكرنا أن هذه نعم سابقة على الرسالة ، والثاني أنه يلزم التكرار لأن حاصل هذه النعمة على الوجه الأخير راجع إلى معنى قوله « ووجدك ضالاً فهدى »

ثم إنه سَبَّحَانَهُ وتعالى بعد أن بَيَّنَّ نعمه السابقة على عبده ورسوله طالبه بشكر هذه النعم وأداء حقها عليه ، فقال سَبَّحَانَهُ : (فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ) ومعناه

وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ [١٠] وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ [١١]

لاتنذره ، بل أدبه وهذب نفسه وعوده مكارم الأخلاق كما أنا أنقنا على تأديبك وتربيتك وأودعنا في نفسك مكارم الأخلاق وعودناك على معالي الأمور ، وهذا شكر النعمة التي ذكرها سبحانه بقوله : « ألم يجدك يتيماً فآوى » . وأما قوله جلت كلمته : (وأما السائل فلا تنهر) فهو شكر للنعمة التي ذكرها سبحانه بقوله : « ووجدك ضالاً فهدى » وعلى هذا يقتضى أن يكون المراد بالسائل من يستفهم عما لا يعلم ويطلب معرفة ما غمضت عليه حقيقته ، والمراد من « لاتنهر » لاتزجره ولا توبخه ، والمعنى إذا جاءك من يستر شدة ويستهديك ويطلب منك أن تبين له شيئاً من العلم الذى منحك الله فبين له ما يريد بيانه وكن رفيقاً به لاتنهه ولا تغضب عليه مهما ضعف عقله وعظم جهله . وأما قوله سبحانه : (وأما بنعمة ربك فحدث) فهو مقابل لقوله جلت كلمته : « ووجدك عائلاً فأغنى » والمراد بذلك أن يوسع البذل والإعطاء للفقراء والمحاويج ، وليس المراد بالتحدث بنعمة الله أن يكثر من القول عنها والافاضة في حديثها ؛ فان ذلك ليس من كريم الأخلاق ، ويدل على ذلك أنا نجزم أن النبي صلى الله عليه وسلم قد امثل أمر ربه في هذه الآية ، ولم يحدث أحد أن النبي عليه صلاة ربه وسلامه ورضوانه كان يتحدث عما عنده من المال وسائر النعم ، وقد استفاضت الأحايث أنه كان كثير الاتفاق على الفقراء عظيم الرأفة بهم واسع الاحسان إليهم وكان لا يدخر شيئاً من المال والعروض والطعام ، بل كان يتصدق بكل ما يدخل فى ملكه قبل أن ينقضى اليوم . والله سبحانه وتعالى أعلى وأعلم .

سورة الشرح *

[وهي مكية ، وآياتها ثمان آيات ، ونزلت بعد سورة الضحى] ^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ [١]

* ويقال « سورة ألم نشرح »

(١) لاخلاف بين أحد من العلماء في عدد آي هذه السورة فكلهم مجمعون على أن آياتها ثمان آيات ، واختلفوا في مكان نزول هذه السورة ، فقال قوم : هي مكية ، وهذا هو الراجح ، وقال قوم : هي مدنية ، وقال آخرون : بعضها مكى وبعضها مدنى ، ورووا في هذين القولين الثانى والثالث أحاديث ضعيفة لا تقوم بها حجة .

اعلم أن الاتصال بين هذه السورة والى قبلها وثيق ، والارتباط بينهما تام : فهذه تتضمن تعداد نعم من نعم الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم كما أن تلك تتضمن مثل ذلك ، وهذه مختتمة بطلب شكران النعم كما أن تلك كذلك . ولشددة الارتباط بينهما حكى قوم عن طاوس وعمر بن عبد العزيز رضى الله عنهما أنهما كانا يذهبان إلى أن هاتين السورتين سورة واحدة ، وحكى أنهما كانا يصليان بهما فى ركعة واحدة ولا يفصلان بينهما بيسم الله الرحمن الرحيم .

قوله تعالى : (ألم نشرح لك صدرك) أصل الشرح البسط والتوسعة ، وقد كان العرب يَكْنُونَ بَعْظَمَ الصدر عن القوة وعظم المنة ؛ وعن المسرة وانبساط النفس للفعل ، وهم يفخرون بسعة الصدر ويجعلون ذلك من مآدحهم . ووجه الكناية أن سعة الصدر تعطى الأحشاء فسحة للنمو والراحة ، وإذا تم ذلك للمرء كان رأيه

وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ [٢] الَّذِي أَنتَقَضَ ظَهْرَكَ [٣]

حاضرا وذهنه صافيا ولم يضيق ذرعه بأمر من الأمور ، والاستفهام الذى صُدِّرت به الآية استفهام إنكارى معناه النفى فدخوله على النفى يفيد الإثبات ، والمعنى شرحنا لك صدرك ، ونون العظمة التى فى قوله سبحانه «نشرح» تدل على عظمة النعمة ؛ من قبل أن المنعم العظيم إنما يمنح العظيم من النعم ، فذلك إشارة إلى أن نعمة الشرح مما لا تصل العقول إلى كنه جلالها . واللام فى «لك» تدل على أن منفعة الشرح عائدة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم . وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضيق صدره ويعتريه كثير من الألم والحزن لتمادى قومه فى تكذيبه وإصرارهم على اتخاذ آلهة دون الله ؛ فاتاه الله من آياته ومنحه من صدق العزيمة ومضاء الهمة ما أخرجه من الحيرة التى كان يجدها فى نفسه كلما رأى جمود قومه وعنادهم ، وعلمه سبحانه كيف يسلك إلى نفوسهم ، وهداه إلى الوسيلة التى ينقذهم بها من الهلكة ويجنبهم الردى الذى كانوا مشرفين على الوقوع فيه ، ومازال يتعهد بالوحى كلما التبس عليه شئ من الأمر أو ضاق عليه الخروج منه ؛ وبالجملية المراد من شرح الصدر أنه سبحانه أخرج عن نفسه جميع المموم حتى كان لا يقلق ولا يضجر ولا يتحير ولا يتألم ، بل كان فى جميع حالاته راضى النفس مطمئن الخاطر واثقا من تأييد الله ونصره علما كل العلم أن الذى أرسله لا يخذله ولا يمين عليه عدواً وقوله سبحانه : (ووضعنا عنك وزرك الذى أنتقض ظهره) الوزر : الحمل الثقيل ، وأنتقض : معناه أثقل ، والأصل فيه أن الظهر إذا أثقله الحمل سمع له نقيض : والنقيض : الصوت الخفى ، وقد ذكر جبهة المفسرين أن المراد بالوزر فى هذه الآية الذنب ، ثم راحوا يتأولون الكلام ويتمحلون الأعذار ، ويختلفون فى جواز ارتكاب الأنبياء المعاصى ، وكل هذا كلام لا داعى إليه ولا يلزم حمل

الآية عليه ، والمراد - والله سبحانه وتعالى أعلى وأعلم - بالوزر الحيرة التي اعترته عليه الصلاة والسلام قبل البعثة حين فكّر فيما عليه قومه من عبادة الأوثان ودعائها ، وتماديهم في الطغيان ، وتبديلهم دين أبيهم إبراهيم ، وأيقن بثاقب فكره وصائب نظره أن للكون خالقا هو الجدير بالتوجه إليه والصمود نحوه في جميع الحوائج ، ثم تحير في الطريق الذي يسلكه لعبادة هذا الواحد الأحد ، وما زال كذلك حتى أوحى إليه ، وبيّن الله له بالوحي أهدى السبل وأقومها ؛ فزال حيرته وذهب عنه اضطرابه ، ولما أمر بدعوة قومه إلى الدخول في دينه وصارحهم بهذه الدعوة قاموا في وجهه وكذبوه وتألّبوا عليه وراحوا يتهمونهم مرة بالكذب ومرة بالجنون ومرة بالشعر ، فتقل ذلك عليه ، وغاظه من قومه الذين ماجروا عليه كذبا أن يتهموا بالكذب ، كما آلمه من عشيرته الذين كانوا يعتقدون فيه تمام العقل وجودة الفكر وإصابة الجادة أن يرّموه بالجنون ، فكان الحزن على حال قومه وحاله معهم يقيمه ويقعده ، والآلم من تماديهم على الباطل واستمسكهم بالزائف ينال من نفسه ، وكان إيذاؤهم له يبعث الأسى إلى نفسه ، كل ذلك كان حملا ثقيلا وعيئا باهظا صعب عليه احتماله وشق عليه القيام به ، فليس الوزر الذي كان يُنقِض ظهره ذنباً من الذنوب اقترفه فهو يسأل منه الصفح والمغفرة على ماتوهم المفسرون ، ولسكنه كان همّاً نفسياً يفوق ألمه ذلك الثقل الحسي ، فلما هداه الله إلى إنقاذ أمته من أوهامها الفاسدة واعتقاداتها الباطلة ، وأعطاه القوة والصبر على المسكاره ، كان ذلك بمثابة رفع الحمل الثقيل الذي كان ينوء بحمله ، لاجرم كانت هذه الآية واردة على سبيل التمثيل ، وقرأ إن شئت قوله تعالى : « إنا كفيْنَاكَ المستهزئين الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر فسوف يعلمون ، ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون ؛ فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين ، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين »

وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ [٤] فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا [٥] إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ
يُسْرًا [٦]

وقوله سبحانه : (وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ) معناه جعلناك على الشأن رفيع
المنزلة عظيم القدر ، وأى منزلة أرفع من النبوة التي منحه الله تعالى إياها ؟ وأى
ذكر أنبه من أن يكون له في كل ناحية من نواحي الأرض أتباع يُمتثلون أوامره
ويجتنبون نواهيه ، وَيَرْوْنَ طاعته غُنا ، ومعصيته غرما ، ويعتقدون أن من أطاعه
فقد أطاع الله ومن عصاه فقد عصى الله ؛ وأى شأن أسمى من أن تفخر الملوك
بأتباعه وتشرف بالالتساب إليه وتسترضى شعوبها بالعمل بسنته والاهتداء بهديه ؟
وهل من نخار بعد ذكره في كلمة الإيمان مع الله العلي الرحمان ، وهل من مجد
أبقى على الدهر من ذكره في الصلوات والأذان ؛ واستمع إلى حَسَّان بن ثابت
رضى الله عنه وهو يقول :

أَعَزُّ عَلَيْهِ لِلنَّبِيِّ خَاتَمٌ مِنَ اللَّهِ مَشْهُودٌ يُلُوحُ وَيُشْهَدُ
وَضَمَّ إِلَهُ اسْمَ النَّبِيِّ إِلَى اسْمِهِ إِذَا قَالَ فِي الْخُمْسِ الْمُؤَدَّنِ أَشْهَدُ

وقد روى أبو نعيم في دلائل النبوة عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله
عليه وسلم ، قال : « أنا نبي جبريل فقال لي : إن ربك يقول : أندري كيف
رفعت ذكرك ؟ قلت : الله تعالى أعلم . قال : إذا ذُكِرْتُ ذُكِرْتَ مَعِي » .

ثم إنه سبحانه وتعالى بعد أن بين بعض نعمه على رسوله من شرح الصدر
ووضع الوزر ورفع الذكر بعد استحكام الكرب وضيق الأمر ، أراد أن يبين أن
ذلك وقع على ماجرت به سنته في خلقه فقال : (فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا) إن مع
العسر يسرا) ولهذا وصل العبارة بالفاء التي تدل على أن ما بعدها سبب ^(١) في

(١) وهي مع ذلك تدل على التعقيب من غير تراخ ، ففيها مع الإيحاء إلى
ما ذكرنا الأشعار بأن وقوع اليسر بعد العسر مع وثيق الاتصال بينهما

حصول ما قبلها ، ثم أكد ذلك بإعادة القضية بنفسها ، مع تصديرها في المرتين بحرف التأكيـد ، مما يدل على أن الغرض تقرير معناها في النفوس وتمكينها من القلوب . و«ال» في «العسر» لاستغراق أنواع العسر المعروفة عند المخاطبين : من الفقر ، والضعف ، وجهالة الصديق ، وإنكاره الجميل ، وقوة العدو ، وشماتة الحاسدين ، وضعف المنة على مغالبة الكروب ، وقلة الوسائل إلى إدراك المطلوب ، فكانه سبحانه يقول : إنه مهما اشتد العسر وصعب على النفس التخلص منه فإنى أجعل للانسان منه مخرجا إذا تذرع بالصبر واعتصم بالتوكل على ، ولقد كان هذا حال النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فانه قد ضاق به الأمر في بادىء الحال قبل النبوة وبعدها على ما قدمنا بيانه ، فلم يَدْنُه تألب قومه عليه ولم يقلل من عزمه تكرار إيذاهم له ولم تكسر من مضائه حدة قومه وشدتهم في التجميع له ، بل صَبَرَ على مكروههم ، وألقى بنفسه في غمرات الدعوة متوكلا على الله محتسبا نفسه عنده راضيا بكل ما يجد في هذا السبيل ، ولم يزل على هذه الحال حتى منحه الله أنصارا أُشْرِبَتْ قلوبهم حُبَّه ، وأفعمت أنفسهم بالرغبة الصادقة في الدفاع عنه وعن دينه ، ورأوا أن لاهية لهم إلا تهديم أركان الشرك والوثنية ، واشتروا ما عند الله من جميل الثواب بأرواحهم وأموالهم وأولادهم وأزواجهم ، فكان له من هؤلاء رضى الله عنهم ما زرع أطواد الكفر والطغيان ، وأزال حصون العناد والبهتان ، ثم كان له منهم ما قَوَّضَ دَعَائِمَ الأكسرة ^(١) وأباد غضراء القياصرة والأباطرة ، فكم في قوله جلت كلمته « فان مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا » من التَّسْلِيَةِ والوَعْدِ بارتفاع الحال وتمثلك نواحي الأمور

(١) لو أن المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها رجعوا إلى أنفسهم وفكروا فيما كان عليه سلفهم الصالح من اتباع الرسول والقيام بحقوق الدين على الوجه الأكمل مع الاخلاص والاخذ في الأسباب لعاد إليهم المجد الدارس وخشيم عدوهم الذى ملك عليهم أمورهم

روى أن المشركين كانوا يعيرون رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن آمن معه الفقرَ وضيقَ الحال ، وأكثروا من ذلك حتى سبق إلى ذهنه أنهم إنما انصرفوا عن أتباعه ورغبوا في معاداته لفقره ؛ فذكره سبحانه وتعالى بما أنعم عليه من : جلائل النعم التي لا يُعدّ إلى جانبها المالُ ولا غيره من متاع الدنيا ، ثم وعدّه بأن يُبدّل حاله من الفقر إلى الغنى ، ومن قلة الأعوان إلى كثرة ، ومن عداوة قومه إلى محبة ، وأشبه ذلك

ولابدّ أن تعلم أن المراد من أن اليسر يعقب العسر لامتحاناً ، ومن أن الله جلت قدرته قد جعل لكل ضيق فرجاً ، وجعل من كل ألم مخلصاً ، لا بد أن تعلم أن المراد من ذلك ، على ما كررنا ، أن تحتل بعزم ثابت ، وتعمل على التخلص منه بما وهبك الله تعالى من القوى ، كما كانت حال النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه . وتكل - مع ذلك - نجاح أعمالك وإيصالها إلى ما تشتهي إلى ربك القادر خالق القوى والقدر ؛ فليس يجمل بك أن تجزع لما ينزل بك من مكروه فان الجزع لا يأتي بخير ، ولا يجمل بك أيضاً أن تصبر على المكاره ثم تسكن لها وتتخاذل أمامها فلا تحاول أن تدفعها عن نفسك زاعماً أن ذلك ينافي الصبر والتوكل على الله ؛ فان في ذلك من الخطأ ما ليس يخفى على من له أدنى بصيرة ، وليس يجمل بك أن تتعجل اليسر وتجزع إذا تأخر عنك ؛ فان الأمور مرهونة بأوقاتها التي قدر الله تعالى حصولها فيها ، وخلاصة الأمر أنه يجب على الإنسان كلما وجد نفسه قد وقعت في عسر أن يقابله بالصبر ، وأن يأخذ في أسباب تفرجه عن نفسه ، وأن يجمل النجاح موكولاً إلى ربه ، وألا يستبطىء النجاح فيدعوه استبطاؤه إلى التواني وتفتر عزمته ؛

ثم إنه سبحانه بعد أن بين نعمه على رسوله ، ووعدته بتفريج كربته وتبديل عسره ؛ أخذ يطلب إليه أن يقوم بحق هذه النعم عليه ، وذلك بالانقطاع إلى العمل الصالح

فَإِذَا فَرَغْتَ فَأَنْصَبْ [٧] وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ [٨]

والجد فيه، والرغبة إلى الله تعالى واللجوء إليه دون من عداه ؛ فقال سبحانه : (فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب) والمعنى إذا فرغت من عمل من الأعمال فاتعب في مزاولة عمل آخر ؛ لأنك ستجد في المثابرة على العمل لذة تقرأ بها عينك ويصلح بها صدرك ، والمراد حثه عليه الصلاة والسلام على الاستدامة والمواظبة على الأعمال ، وقوله « وإلى ربك فارغب » معناه لا ترغب في ثواب عملك واستثماره إلا إلى ربك ، أو اربح في كل ما يطلبه وتلتمسه من شؤون الدين والدنيا إلى الله وحده ؛ فاستنصر به على أعدائك ، واسأله تكثير أوليائك وغير ذلك ، وتقديم المأمول وهو قوله « إلى ربك » يفيد القصر ؛ وقرئ « فرغب » ومعناه رغب الناس في الالتجاء إلى الله وحده ، وأعلمهم أنه سبحانه الحقيقي بالتوجه له والضرعة إليه ، والله سبحانه وتعالى أعلى وأعلم

سورة التين *

[وهي مكية ، وآياتها ثمان آيات ، ونزلت بعد سورة البروج ^(١)]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والتين والزيتون [١] وطور سينين [٢] وهذا البلد الأمين [٣]

* ويقال : سورة والتين ، بالواو

(١) لاختلاف بين أحد من العلماء في أن عدد آي هذه السورة ثمان آيات ، وقد اختلفوا في مكان نزولها ؛ فقال الجمهور : هي مكية ، وقال قوم : هي مدنية ، والراجح قول الجمهور ، ويؤيده قوله سبحانه في السورة « وهذا البلد الأمين » ألا ترى أن اسم الإشارة يوصي إلى أن مكان الكلام هو هذا البلد

قوله سبحانه : (والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين) قد أجمع المفسرون على أن المراد بطور سينين الجبل الذي كلم الله تعالى موسى عليه السلام عنده ، كما أجمعوا على أن المراد بهذا البلد الأمين مكة التي كرمها الله تعالى بالكعبة وبميلاد رسوله محمد صلى الله عليه وسلم وتنشئته فيها ، ووصفها بالأمين لأنها آمنة من أن يمسها أحد بسوء ؛ فقد حرمها الله تعالى على جميع خلقه وحرم شجرها وحيوانها ؛ ومصدق ذلك قوله صلى الله عليه وسلم عقب الفتح : « إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض ؛ فهي حرام إلى أن تقوم الساعة ؛ لم تحل لأحد قبلي ، ولن تحل لأحد بعدي ، ولم تحل لي إلا ساعة من نهار ؛ فلا يعضد شجرها ، ولا يخلتلى خلأها ، ولا ينفّر صيدها ، ولا تحل لقطتها إلا لمنشد » ويقال : نسبة الأمن إليها مجاز ، والمراد أن من يحل فيها يأمن على نفسه وماله ،

ألا ترى أن من لجأ إليها فقد استعصم وإن كان مُباح الدم ، حتى السباع وأنواع
الصيد إذا حلت بها أو جاورتها فقد حرم رميها أو الدلالة عليها وتعين على الناس
أن يتركوها . وقد اختلف المفسرون في المراد بالتين والزيتون ؛ فذهب قوم إلى
أن المراد بهما هاتان الثمرتان المعروفتان : ثمرة التين ، وثمررة الزيتون ، ثم توهموا
أنهما بهذا المعنى ليستا من الأمور العظيمة الشريفة التي يصح أن يُقسم الله بها
فانطلقوا يبينون لهما من المزايا والشرف على سائر الثمار ما يقرب إلى الأذهان صحة
الحلف بهما ، فمنهم من قال : إنما اختصهما الله تعالى من بين الثمار بالحلف بهما لمزيد
فضل لهما ، ألا ترى أن التين فاكهة طيبة لأفضل لها ، وهى مع ذلك غذاء لطيف
سريع الهضم ، ودواء كثير النفع لأنه يلين الطبع ويحلل البلغم ويطهر الكليتين
ويزيل رمل المثانة ويفتح سد الكبد والطحال ويسمن البدن ، والزيتون
فاكهة وإدام ودواء ، وله دهن لطيف كثير المنافع ، وهذا الدهن يوجد فيه وإن
نبت فى صخور الجبال حيث لا دهن . وذكرنا بعد ذلك كثيرا من المزايا هذه صورة
مصغرة منها ؛ ومنهم من ذكر أن وجه شرفهما أنهما يذكران بحوادث عظيمة لها
كثير من الآثار الباقية ، وبينوا ذلك بما لا يقطع بثبوته ، قالوا : إن التين إشارة
إلى عهد الانسان الأول الذى كان يستظل فيه بورق التين حيمًا كان يسكن الجنة
وعند ما أخرجه الله منها وبدت له سوءته فقد طفق آدم هو وزوجه يخصفان عليهما من
ورقه ، والزيتون إشارة إلى عهد نوح عليه السلام وذريته ، وذلك أنه بعد أن فسد
البشر وأهلك الله من أهلكت منهم بالطوفان ونجى نوحا فى سفينته واستقرت السفينة
نظر نوح إلى ما حوله فرأى المياه لا تزال تغطى وجه الأرض ، فأرسل بعض الطيور
لعله يأتيه بخبر انحسار الماء وانكشافه عن بعض البقاع ، فغاب الطائر ولم يأت بخبر ،
فأرسل طيرا آخر فرجع إليه يحمل ورقة من شجرة الزيتون فاستبشر ودخله السرور
وعرف أن غضب الله قد سكن وأنه سبحانه قد أذن للأرض أن تبلع ماءها

لتعمر ويسكنها الخلق : وما زال حتى أرسى السفينة ونزل هو وأولاده فعمرو الأرض
وجددوا قبائل البشرية ، ومن أجل ذلك عُبرَ عن هذا العهد بزمان الزيتون ، والإقسام
بالتين والزيتون عند هؤلاء يراد به التذكير بهذين العصرين : عصر آدم أبي البشر
الأول ، وعصر نوح أبي البشر الثاني . وعلى أية حال فقد فات هؤلاء جميعاً عقدُ
المناسبة بين التين والزيتون وما بعدها سواء أكان المراد بالتين والزيتون أنفسهما أم كان
المراد بهما العصران اللذان يشيران إليه ، والمناسبة أبعد على الوجه الأول ؛ لأنه يمكن
على الوجه الثاني أن يتمحل فيقال : إن طور سيناء أيضاً إشارة إلى زمان موسى عليه
السلام ، وإن هذا البلد الأمين إشارة إلى زمن النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، فيستوى
كل واحد من هذه الأربعة مع غيره في أنه إيماء وإشارة إلى عهد من عهود الأنبياء الذين
كانت لهم على الإنسانية أيادٍ يذكرها التاريخ ، ولكن هذا الذي ذكره في قصة
الزيتون تفسير للقرآن بالإشارات البعيدة مما لا يجمل الإقدام عليه ، وقال قوم :
المراد بالتين جبل قريب من دمشق يسمى طور تينا لأنه منبت التين ، والمراد
بالزيتون جبل بيت المقدس يسمى طور زيتا ، ويقال : التين مسجد دمشق
والزيتون بيت المقدس ، ويقال : المراد بالتين مسجد نوح عليه السلام الذي بناه
على الجودي ، ويقال : التين الموضع الذي نزل فيه نوح عليه السلام عند مارست
السفينة ، ومهما يكن من أمر هذا الاختلاف فإن المصير إلى أن التين والزيتون
مكانان من الأمكنة المقدسة أنسب من المصير إلى أنهما شجرتان أو ثمرتان ، من
قبل أن ذلك يجعل الأشياء الأربعة التي أقسم الله تعالى بها في هذه السورة من
واد واحد ، وإنما شرف هذه الأماكن بشرف من حل بها من الأنبياء ، وذلك
بتشريف الله تعالى لهم بما جعلهم أهلاً لتلقي وحيه والسفارة بينه وبين خلقه ودعوة الناس
إلى الإيمان بالله الذي لا إله إلا هو وخلع الأنداد والشركاء والإخلاص في السر والعلن

لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ [٤]

وقوله سبحانه : (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم) هو جواب القسم ، والتقويم في الأصل تصيير الشيء على ما ينبغي أن يكون عليه في التأليف والتعديل تقول : قوّمته تقويماً ، إذا كنت قد جعلته على أعدل الوجوه التي يصح أن يكون عليها ، ويقال : استقام الشيء وتَقَوَّمَ ، إذا جاء على وفق التقويم ، وليس المراد هنا المصدر ، ولكن المراد أثره : أي خلقنا الإنسان في أحسن حال وأجمل صورة وأبهج منظر ، وهذا الحسن يشمل الظاهر والباطن ، أفلا تراه سبحانه قد خلق الإنسان مديد القامة حسن الصورة مستجمعا لخواص الكائنات ، ولم يجعله منكبا على وجهه كالبهائم ، وجعله يتناول بيده ، ولم يجعله كسائر الحيوانات يتناول بفيه ، ثم ألا تراه جل شأنه قد خصه بالعقل والتمييز وأعدّه لقبول العلوم والمعارف واستنباط الحيل التي بها يتسلط على جميع الكائنات ، وجعله مع ذلك مهيمنا ذا سلطان واسع وحول نافذ وقدرة تمتد إلى كل شيء ولم يجعله كغيره من الحيوانات مسخرًا مذلا مقهورا ، فان قلت : فهذا الخبر واضح لكل ذي عينين وليس يمتري فيه أحد ؛ فان جميع الناس يذعنون بأن خلق الإنسان على هذا الحال وليس منهم من يشك فيه أو ينكره ، فما علة تأكيده سبحانه هذا الخبر بالحلف عليه ؟ فالجواب عن ذلك أن الناس قد غفلوا عما ميزهم الله به من العقل والتمييز ، فلم يستعملوا عقولهم في استكناه هذا العالم والاسترشاد بهذا الصنع البارع على صانعه الحكيم القادر التام القدرة ، وانحرفوا عن الجادة التي تستوجبها الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها ، فكأنهم ظنوا أنفسهم كسائر المخلوقات العجماوات ، فراحوا يعملون ما لا يبيحه العقل ولا ترضى عنه الفطرة ، لا يمنعونهم حياء ، ولا تردهم خشية ، ولا تحجزهم حشمة ، حسبوا أنفسهم خلقوا للمتاع الدنيا

ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ [٥]

وشهواتها وملأ ذها فانطلقوا يتزودون منها ويشبعون شهواتهم ، فلما كانت هذه حالهم وكان ذلك بمثابة الإنكار لتعديل الله تعالى خلقهم وجعلهم في أحسن تقويم ناسب أن يؤكّد الله لهم هذا الخبر ، فكأنه سبحانه يقول : إني قد برأت هذا الإنسان وخلقته أحسنَ خلقٍ وكرّمته بالعقل الذي تمكن به من الاستيلاء على جميع العوالم الأرضية واستطاع بسببه أن يتعرف إلى كثير من أحوال السموات ، وقد كان الإنسان في أول أمره ساذجاً قليل الأطماع فلم تعرف الأثرة قلبه ولم تتمكن الأفانية في نفسه فعاش هنيئ البال رضى النفس وسادت الطمأنينة ، ثم تنبّهت في نفسه الشهوات وثار المطامع من مكائدها فنبت الحقد والحسد والضعينة ، وأثمرت هذه الخلال ثمراً مرّاً كريهاً من التقاطع والتقاتل ، وضربت الأتقى حتى صار الإنسان أعظم اغتيالاً لأخيه من السباع ، ويشير إلى هذا قوله سبحانه : (ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ) فالمراد على ذلك من هاتين الآيتين الكريمتين بيان أن فطرة الله التي فطر الناس عليها تدعو إلى الرحمة والإيثار والعَدْل ، وترغب في التآلف والتواد ، وتحتّ على الصلّة وعامة المكارم ، ولكن الإنسان نفسه يستشري إلى الفساد ويؤمن في سبيل الضلالة بسبب ما يتولّد فيه من المطامع الفاسدة ، وحينئذ ينسى فطرته التي فطر عليها ويعود إلى الحالة الحيوانية الدنيئة ، وليتصور الإنسان عهداً كان الناس فيه وادعين آمنين ، وكانت العفة والأمانة وسائر خلال البر من خلق أكثر الناس ؛ إن لم تكن خلقهم أجمعين ، ثم ليتصور ما صار إليه أمر الناس في عصر يسمونه عصر العلم والنور ، وهو عند التدبر عصر الهلاك والضلالة والتردى في هاوية الشرور ؛ فانه سيجد الإنسان جادا في إهلاك أخيه الإنسان ، وسيجد الظلم والخيانة وسائر خلال الإثم والعدوان قد صارت

إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ [٦]

خلق أكثر الناس ؛ فاذا وازن المتدبر في هاتين الحالتين تبين له أوضح البيان كيف ارتد الإنسان إلى أسفل دركات الحيوانية ، وحينئذ يعرف معنى قوله سبحانه : « لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين » والمفسرين في هذا المقام كلام أعرضنا عن ذكره ، قال الإمام رحمه الله : أى صيرناه أسفل من كثير من الحيوانات التى كانت أسفل منه ؛ لأن الحيوان المفترس مثلاً إنما يصدر في عمله عن فطرته التى فطر عليها ، لم ينزل عن مقامه ، ولم ينحط عن منزلته في الوجود ؛ أما الإنسان فإنه باهماله عقله وجهله بما ينبغى أن يعمل لتوفير سعادته وسعادة إخوانه ينقلب أرذل من سائر أنواع الحيوان ، ولكثر ما قلت : إذا فسد الإنسان فلا تسلك عما يصدر عنه من هذيان أو غدوان ، ثم إن الذين ارتدوا إلى أسفل سافلين منهم من هلك في زمن نوح أو في زمان آخر ، ومنهم من سيهلك في تلك المنزلة من الخسة فتدوم لهم كذلك في الحياة الأخرى ، وللسافلين فيها منازل العذاب والخزى والهون . اهـ

ثم إنه سبحانه وتعالى بعد أن بين أن الإنسان بحسب فطرته التى فطره عليها قد خلق في أحسن تقويم وأعدل صورة خلقتية بجعله مديد القامة مستويها ، وفي أجمل صورة خلقتية بما ركب فيه من العقل والإدراك وجعله مستعداً له من العلوم والمعارف والآداب ، وأن الإنسان قد أهمل هذه الفطرة ودأب على الشر والآثام فانقلب بذلك وهوى إلى أسفل دركة من دركات المخلوقات كلها حتى بلغ أن كان أقرب من سائر الحيوانات ، بعد أن بين سبحانه ذلك أراد أن يبين أن ليس كل إنسان يبلغ هذا المبلغ ، بل إن منهم قوماً عصمهم الله تعالى فظفوا على فطرتهم التى فطرهم عليها ، فقال سبحانه : (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون) ومعنى

فَمَا يَكْذِبُكَ بَعْدُ بِالَّذِينَ [٧]

هذا أن الذين أشر بت قلوبهم عقيدة الإيمان بعد أن عرفوا أن لهذا الكون مؤجداً أوجده ودبر أمره ووضع خلقه شريعة يجرون في أعمالهم على مقتضاها ، وعلموا أن عنده للشر جزاء ينال فاعله ، وللخير مثوبة تصل إلى فاعله ، فدعاهم ذلك العلم إلى الإتيان بالخيرات واجتناب جميع الموبقات ، فحفظوا بذلك أنفسهم ، وأبقوها على الفطرة التي فطر الله الناس عليها ؛ فهؤلاء الناس يعطيهم الله في هذه الحياة الدنيا أجرَ صالح أعمالهم بأن يكرمهم ويُسِرَّهم إلى اليسر ويشرح صدورهم للسير على المنهاج الذي يرتضيه لعباده المحلّصين ، ولا يقطع عنهم مثوبة أعمالهم إذا انتقلوا إلى الحياة الثانية ، وقوله سبحانه : « غير ممنون » معناه غير مقطوع ولا منقوص ؛ لأن الله وصل ما أكرمهم به في الدنيا بما يلاقونه في قبورهم ، ثم وصل نعيم القبر بما أعده لهم يوم القيامة ، ويقال : معنى « غير ممنون » أنه ثواب لا منة فيه ؛ لأن المن ينقص العطاء ، ولا يمتنع أن يكون المعنيان مرادين معا ؛ فإن من تمام الأجر وكأله أن يكون متصلا غير مقطوع وأن يكون مع ذلك غير مُنْغَص بالامتنان

وقوله سبحانه (فما يكذبك بعد بالدين) اختلف المفسرون في بيان المخاطب بهذه الآية ، فقال الأكثرون : المخاطب هو الإنسان الذي ذكر الله أنه خلقه في أحسن تقويم ، على طريق الالتفات ، والمعنى على هذا الوجه أى شيء يملك أيها الإنسان على التكذيب بالدين بعد أن عرفت أن الله خلق الإنسان على الفطرة السليمة وأنه قد جرى على خلاف هذه الفطرة ، ولم يحافظ عليها إلا من ذكرنا ، وهذا هو الوجه ، قال قوم : المخاطب بهذه الآية هو النبي صلى الله عليه وسلم ، وهذا وجه اختاره الفراء ، ويلزم على هذا الوجه أن تكون « ما » استفهاماً عن ذوات المكذبين ، فهى مستعملة في موضع « من » ، والمعنى فمن يكذبك أيها الرسول من هؤلاء الكفار بعد أن ظهرت تلك الدلائل ووضحت هذه الحجج

أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ [٨]

على صحة ما أرسلت به من الدين ؛ والاستفهام على الوجهين استفهام إنكارى يتضمن معنى النفي ، وفيه مع ذلك معنى التعجب ، وكأنه سبحانه قد قال على الوجه الأول : إنه ما من سبب موجود يملك أيها الإنسان على التكذيب بما ذكرنا لك ، وعلى الوجه الثانى إنه لا ينبغي أن يبقى أحد يكذبك أيها الرسول فيما تدعو إليه بعد أن وضح الأمر وتبين الحق ، ووجه العجب أن خلق الإنسان من النطفة وتقويمه بشرا سوياً وتدرجه في مراتب الزيادة إلى أن يكمل ويستوى ثم تنكيسه بعد ذلك حتى ينسى فطرته التى فطره عليها خالقه ، وبقاء قوم منحهم الله طهارة الضمير وصفاء السريرة وخلوص الاعتقاد ، على ما فطرهم الله عليه ؛ كل ذلك دليل واضح على قدرة مدبر هذا الكون وتمكنه من فعل ما يشاء ، فمن شاهد ذلك وتدبره وأعمل فيه فكره ، ثم بقى مصراً على عناده فلا شئ أعجب من حاله وقوله جل شأنه : (أليس الله بأحكم الحاكمين) تحقيق لما ذكر من خلق الإنسان ثم رده إلى أسفل سافلين ، وكأنه سبحانه يقول : إن الذى فعل ذلك كله هو أحكم الحاكمين صنعا وتديرا ، ومتى ثبتت له الحكمة والقدرة بدلالة هذا الخلق صحَّ أنه قادر على فعل ما يشاء متمكن من إيجاد كل ما يريد ، ومن ذلك حشر الناس إلى ربهم ليجازيهم على ما قدموا ، وهذا من أهم ما تختلفون فيه ؛

ومن حكمته سبحانه أنه وضع الشرائع ، وأرسل بها رسله إلى خلقه ليمينوها لهم ويدعوهم إليها ؛ وفى ذلك من رحمته بخلقهم ما ليس يخفى ؛ فان فى وضع هذه الشرائع وإبلاغها إلى الخلق المحافظة على فطرة الناس التى فطرهم عليها ، وحضهم على ألا يفسدوها بما ترين لهم أنفسهم . سبحانه وتعالى ما عدله وما أحكمه ، هو الرؤوف الرحيم . والله سبحانه أعلى وأعلم

سورة العلق *

[وهي مكية ، وآياتها تسع عشرة آيةً ، وهي أول ما نزل من القرآن] ^(١)

* وتسمى سورة « القلم » كما سماها بذلك الإمام نحر الدين الرازي ، وتسمى أيضاً سورة « اقرأ »

(١) أجمع العلماء على أن هذه السورة مكية ، ولكن اختلفوا في أنها أول ما نزل من القرآن ؛ فقال قوم : هي أول ما نزل من القرآن ، وقال آخرون : أول سورة نزلت من القرآن سورة الفاتحة ، وقال فريق ثالث : أول شيء نزل من القرآن صدر هذه السورة وأول سورة نزلت بأكملها هي سورة الفاتحة ، وبهذا القول يجمع بين القولين السابقين ، وكذلك اختلفوا في عدد آياتها ؛ فعدّها قوم عشرين آية ، وعدّها آخرون تسع عشرة آية ، وعدّها فريق ثالث ثمان عشرة آية .

حدث عائشة رضي الله عنها قالت : أول ما بدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم ؛ فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حُبِبَ إليه الخلاء ، فكان يأتى حراء فيتحنث فيه ، وهو التعبّد ، اللَّيْلَ إِلَى ذَوَاتِ الْعَدَدِ ، ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى فجأه الوحي وهو في غار حراء ، فجاءه الملك فيه ، فقال : اقرأ ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فقلت : ما أنا بقارىء ، قال : فأخذني فغطّني حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارىء ، فغطّني الثانية حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارىء ، فغطّني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ

وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم . قال : فرجع بها ترجف بواديه حتى دخل على خديجة فقال : زملونى زملونى ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال : يا خديجة مالى ، وأخبرها الخبر ، وقال : قد خشيت على نفسى ، فقالت له : كلا ! أبشر ، فوالله لا يخزيك الله أبداً ؛ إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي ، وهو ابن عم خديجة أخى أبيها ، وكان امرأً قد تنصّر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العربى وكتب بالبرانية من الإنجيل ماشاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عمى ، فقالت خديجة : أى ابن عم ، اسمع من ابن أخيك ، فقال ورقة : ابن أخى ، ما ترى ؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما رأى ، فقال ورقة : هذا الناموس الذى أنزل على عيسى ، ليتنى فيها جذعاً ، ليتنى أكون حياً إذ يخرجك قومك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أوخرجى هم ؟ فقال ورقة : نعم ، لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودى ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً ، ثم لم ينشب ورقة أن توفي . رواه الامام أحمد عن عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن عروة عن عائشة ، ورواه البخارى ومسلم من حديث الزهري ، فصَدُرَ هذه السورة الكريمة أول شىء نزل من القرآن ، وأول رحمة رحم الله بها العباد ، وأول نعمة أنعم الله بها عليهم ، وهو أول خطاب إلهى وُجّه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أما بقية السورة فالظاهر أنه متأخر النزول ، وأنه نزل بعد شيوع بعثته صلى الله عليه وسلم ، وبعد مادعا قريشاً إلى الإيمان به ، وآمن معه قوم منهم ، وكان جمهورهم يتحرشون بمن آمن معه ويؤذونهم ويحاولون ردّهم عن التصديق به والإيمان بما جاء به عن ربه ، وتدبر فى قوله سبحانه : « أرايت الذى ينهى عبداً

إذا صلى ؟ أرايت إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى ؟ أرايت إن كذب وتولى » .

ووجه المناسبة بين هذه السورة والتي قبلها أنه سبحانه قدين في السورة السابقة خلق الإنسان في أحسن تقويم ، وذلك في قوله جل شأنه : « لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين » وفي هذه السورة بين أنه خلق الإنسان من علق ، وذلك في قوله جل جلت كلمته : « خلق الإنسان من علق » فما في السورة السابقة بيان للعلّة الصورية وما في هذه السورة بيان للعلّة المادية ، ووجه آخر من المناسبة بين السورتين الكريمتين ، وذلك أن الله تعالى قد ذكر في السورة السابقة بعض أحوال الآخرة ، وذلك في قوله جل شأنه : « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون ، وما يكذبك بعد بالدين أليس الله بأحكم الحاكمين » وذكر في هذه السورة شيئاً من هذه الأحوال ، وذلك في قوله : « كلا لئن لم ينته لنسفعاً بالناصبة ناصية كاذبة خاطئة ؛ فليدع ناديه ، سندع الزبانية ، كلا لا تطعه ، واسجد واقترب » ، وفي هذا من البسط ما ليس في السورة السابقة ، على ما هو ظاهر .

وقد ذكر قوم منهم البخارى في صحيحه أن قوله تعالى : « أرايت الذى ينهى عبداً إذا صلى - الآيات » نزل في أبى جهل لعنه الله ، قال البخارى رحمه الله تعالى : عن ابن عباس قال : قال أبو جهل : لئن رأيت محمداً يصلى عند الكعبة لأطأن على عنقه ، فبلغ النبى صلى الله عليه وسلم فقال : لئن فعل لأخذته الملائكة ؛ وروى ابن جرير عن ابن عباس ، قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى عند المقام ، فرّبه أبو جهل بن هشام ، فقال : يا محمد ، ألم أنهك عن هذا ؟ وتوعده ، فأغلظ له رسول الله صلى الله عليه وسلم وانتهره ، فقال : يا محمد ، بأى شيء تهددنى ؟ أما والله إنى لأكثر هذا الوادى نادياً ؛ ففى هذا يقول تبارك وتعالى : « فليدع ناديه سندع الزبانية »

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ [١] خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ [٢]

قوله تعالى : (اقرأ باسم ربك الذي خلق) قال الإمام : إن المتبادر من معنى هذه الآية كن قارئاً باسم ربك ، من قبيل الأمر التكويني ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن قارئاً ولا كاتباً ، ولذلك كرر القول مراراً « ما أنا بقارئ » وبعد ذلك جاء الأمر الإلهي بأن يكون قارئاً وإن لم يكن كاتباً ؛ فانه سينزل عليه كتاب يقرؤه وإن كان لا يكتبه ، ولذلك وصف الرب بالذي خلق ، اه . والمراد من هذا الكلام أنه سبحانه وتعالى يقول لرسوله : صِرْ قارئاً بعد أن لم تكن كذلك ، فان ظننت أنك لا تكون كذلك لأنك نشأت أمياً لا تقرأ ولا تكتب وأن هذا الحال يستحيل معه عليك أن تتحوّل فتكون قارئاً ؛ فاعلم أن الله أبدع هذه الكائنات وخلقها لا على مثال سابق ، وأن الذي خلق الإنسان من علقه لا حسّ فيها ولا حركة فصيّره جسماً عظيماً كثير الحركة وأودع فيه من الأسرار والعجائب هو نفسه الذي يصيرك قادراً على القراءة ويهبك العلم بما لم تكن تعلم أنت ولا قومك وينزل عليك القرآن لتقرأه على الناس على مكث . وعلى هذا يكون المراد بقوله مجل شأنه « باسم ربك » بقدرته وإرادته ، والتعبير بالاسم عن ذلك لأنه دال على ما تعرف به الذات . وقد حذف من هذه الآية مفعول « خلق » فإما أن يكون لتنزيل الفعل منزلة اللازم فلا تقدر له مفعولاً ، وكأن المراد الذي حصل منه الخلق وانفرد به فلا خالق لشيء من الأشياء سواه ، وإما أن يقدر له مفعول ، وحينئذ يجب تقديره عاماً ، والمعنى عليه الذي خلق كل شيء وذلك نحو قولنا : « الله أكبر » معناه أنه سبحانه أكبر من كل شيء

وقوله سبحانه : (خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ) إنما خصّ سبحانه الانسان

أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ [٣] الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ [٤]

بالذِّكْرِ بعد أن ذكره في ضمن جميع المخلوقات لأن الإنسان أشرف المخلوقات ، ولهذا جعله الله تعالى مهيمناً على المخلوقات كلها ، وآتاه القدرة على التسليط على كل شيء ، أولاً لأنه المقصود بانزال القرآن الذي أمر النبي بقراءته في صدر السورة ، والعلق : الدم الجامد ، وهذا إشارة إلى حال الجنين في أيامه الأولى ؛ وكأن مراده تعالى من ذكر هذه الحالة ما قدمنا الإشارة إليه من بيان قدرته تعالى ونفاذ إرادته ، وكأنه يقول : إن من كان قادراً على أنه يخلق من الدم الجامد إنساناً حياً ناطقاً ، ويجعله يسود بعلمه على سائر المخلوقات الأرضية ويسخرها كلها لخدمته ؛ قادر ألبتة على أن يجعل من الإنسان الكامل مثل النبي صلى الله عليه وسلم قارئاً وإن لم يسبق له تعلم القراءة

وقوله سبحانه : (اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ) إنما كرر الأمر بالقراءة لأن القراءة من الملكات التي لا تكسبها النفس إلا بالتكرار والتعود ، على هذا جرت عادة الناس ، فأشار سبحانه بهذا إلى أن تكرار الأمر الإلهي ينوب مناب تكرار المقروء ، وبذلك تصبح القراءة ملكة للنبي صلى الله عليه وسلم ، وتدبر إن شئت في قوله تعالى : « إن علينا جمعه وقرآنه ، فاذا قرأناه فاتبع قرآنه » وتدبر في قوله جل ذكره : « سنقرئك فلا تنسى » وجملة « وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ » استثنائية يقصد بها بيان أن الله أكرم من كل من يرتجى منه الإيعاء ؛ فليس من الصعب عليه أن يفيض عليك هذه النعمة التي هي نعمة القراءة ، وذلك لأن بحار كرمه لا تنفذ

وقوله سبحانه : (الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ) معناه الذي أفهم الناس بواسطة القلم ، وجعل القلم أداة للتفاهم بين الناس على بعد الشقة ، وهذا بيان لمظهر من مظاهر قدرته سبحانه وتعالى الغرض منه أن يزيد النبي صلى الله عليه وسلم طمأنينة على

عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ [٥] كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيْطَغَى [٦] أَنْ رَأَاهُ
اسْتَغَى [٧]

أنه سيصير بقدرة من هذه مظاهر قدرته قارئاً . واعلم أنه سبحانه قد وصف نفسه أولاً بأنه خالق الإنسان من علق ، ثم وصف نفسه ثانياً بأنه علم بالقلم ، ووجه المناسبة بين هذين الوصفين أن الأول إشارة إلى أول أحوال الإنسان وذلك كونه علقه من أحسن الأشياء وأحقرها ، والثاني إشارة إلى حال كمال الإنسان وتمازج ترقيه في إنسانيته ، وذلك بصيرورته علماً بمقائق الأشياء ، فكأنه سبحانه يقول : تدبر أيها الإنسان في نفسك تدرك أنك قد انتقلت من أدنى المراتب وأخسها إلى أعلى الدرجات وأرفعها ، ولو أنك أمعنت في ذلك نظرك لعلمت أنه لا بد لك من مُدَبِّرٍ قادر قد استطاع بقدرته أن ينقلك من هذه الحالة الخسيسة إلى تلك المرتبة الرفيعة في الإنسانية الكاملة ، وفي هذا كما ترى إشارة لطيفة إلى الدلالة العقلية الدالة على كمال قدرة الخالق وحكمته وعلمه ورحمته وقوله سبحانه : (علم الإنسان ما لم يعلم) معناه علمه من الأمور الكلية والجزئية الجلية والخفية ما لم يخطر له ببال ولا جرى له على خاطر ، وتأمل في حذف المفعول من قوله سبحانه « علم بالقلم » ومن ذكره مبهماً وبعنوان عدم المعلوماتية في قوله « علم الإنسان ما لم يعلم » تدرك ما في ذلك من الإشعار بأنه جل شأنه سيعلمه صلى الله عليه وسلم من العلوم ما لا تحيط به العقول ولا تدركه الأفكار

وقوله سبحانه : (كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيْطَغَى أَنْ رَأَاهُ اسْتَغَى) اختلف المفسرون في « كَلَّا » التي صدرت بها هذه الآيات ؛ فقال جماعة : هي حرف ردع وزجر ، والمراد ردع من كفر بنعمة الله عن طغيانه ، وقال آخرون : هي حرف بمعنى حقاً

وذلك لأنه لم يتقدمها شيء تكون رَدْعاً عنه ، وقد ذهب قوم من المفسرين إلى أن المراد بالإنسان في هذه الآية واحد بعينه من أفراد هذا النوع ، وهو أبو جهل ، وذهب آخرون إلى أن « ال » ههنا ليست للعهد ، وإنما هي ال الجنسية ، فالمراد جملة الإنسان ، وإما حَمَلَ أهل الرأي الأول على ما ذهبوا إليه أن نزول الآية كان في شأن أبي جهل على ما ذكرناه آنفاً ، وقد علمت أن سبب النزول لا يخصُّ الآية ؛ فهي وإن كانت قد نزلت في واحد معين عامّة الحكم لا يختص المراد منها بواحد دون واحد ، ويطغى مضارع من الطغيان ، وهو التكبر والتمرد ، واستغنى : صار ذا مال وأعوانٍ يعنى بهما . واعلم أنه سبحانه لما ذكر في مطلع هذه السورة دلائل التوحيد الظاهرة ومظاهر القدرة الباهرة وعلامات الحكمة ودقة صنعه ، وكان ذلك كله بحيث يبعد من العاقل ألا يلتفت إليه ولا يقف على كنهه وحقيقته أتبعه جل شأنه ببيان ماهو السبب الحقيقي في طغيان الإنسان وتكبره وتماديهِ في ذلك ، فبين أن منشأ ذلك على وجه الحقيقة هو حب الدنيا والاشتغال بها وجعلها أكبر همه والحرص الشديد على تحصيل الجاه والثروة والتمسك في الأرض ، فمن ذلك كله يعمى قلب الإنسان فيغفل عن خالقه وما وجب له في عنقه ، وفي هذا إشارة إلى أنه ينبغي للعاقل أن يعلم أنه عند الغنى والميسرة وكثرة الأعوان واتساع الجاه يكون أشد حاجة إلى الله تعالى منه في حال الفقر والمسكنة ، وذلك لأنه في حال فقره لا يتمنى إلا سلامة نفسه وأعضائه ، فأما في حال الغنى فانه يتمنى سلامة نفسه وأعضائه وماله ومماليكه وأتباعه

وتأمل في صدر هذه السورة تدرك أن الله تعالى قد امتدح العلم وأمتنَّ على الإنسان بأنه هو الذي علمه ، ثم تأمل في هذه الآية تجد أن الله جلت قدرته قد أوماً إلى ذم المال وجعله سبباً لطغيان الإنسان وعتوه وتمرده على خالقه ، فاذا عرفت ذلك أدركت البون الشاسع في المتزلة بين العلم والمال .

إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ [٨] أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى [٩] عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ [١٠]

وقوله سبحانه : (إن إلى ربك الرجعى) الرُّجْعَى : مثل المَرْجِع والرجوع ثلاثهما مصادر لِرَجَعَ ؛ ومعناها المصير والعودة والأوبة . وهذا الكلام التفات ، والمراد به خطاب الإنسان الذى سبق الحديث عنه ، وفيه من معانى التهديد وتحذير عاقبة الطغيان ما ليس يخفى . والمراد أن هذا الطاغية المتمرد سيرجع إلى ربه فيشاهد بعينيه ما أعد الله له من أليم العقاب على تمرده وتكبره وطغيانه ؛ فلا يظنَّ أننا نتركه ونغفل عنه ، ومثل هذا فى المعنى قوله تعالى : « ولا تحسبنَّ الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخصُ فيه الأبصار مُهْطِعِينَ مقنعى رءوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء » ، ويقال : المراد بقوله تعالى « إن إلى ربك الرجعى » أنه سبحانه سيرد هذا الطاغى ويرجعه إلى النقصان والفقر ليزوق وبال أمره ويرى كيف ينقلب عزه ذلا وغناه فقرا واستغناؤه حاجة وضعفا ، ومن كان بعُرْضة ذلك لم يحزله أن يتكبر ويأخذ الصَّلف والاعتزاز .

وقوله سبحانه : (أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عبدا إذا صلى) هو خطاب مسع النبي صلى الله عليه وسلم ، والمراد من الاستفهام التعجب ، ووجهه أن هذا الأحق الذى يأمر وينهى وهو يعتقد أنه يجب على غيره طاعته مع أنه ليس بخالق ولا رازق ولا ذى يد ، كيف يستسيغ ذلك لنفسه ثم هو يُمرِّض عن طاعة ربه والائتمار بأوامره وتجنب نواهيه مع أنه الرازق له الذى لا يرزقه سواه ، والتنكير فى « عبدا » يدل على كمال العبودية ، حتى كأنه عبد لاتفى العبارة بشرح حاله وصفة إخلاصه وهذه الآية قد نزلت فى شأن أبى جهل على ما سبق ، وهى مع ذلك تحمل التخويف والتهديد لكل من نهى عن الصلاة ، وقد روى أن عليا رضى الله عنه رأى قوما يصلُّون قبل صلاة العيد ، فقال : ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل

أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى [١١] أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى [١٢] أَرَأَيْتَ إِنْ
كَذَّبَ وَتَوَلَّى [١٣] أَلَمْ يَعْلَمِ بَأَنَّ اللَّهَ يَرَى [١٤]

ذلك ، فقيل له : ألا تنهاهم ، فقال : أخشى أن أدخل تحت قوله تعالى : « أَرَأَيْتَ
الذى ينهى عبداً إذا صلى »

وقوله سبحانه : (أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى) خطاب مع
النبي صلى الله عليه وسلم أيضاً ^(١) ، وكأنه سبحانه يقول لنبيه : أَرَأَيْتَ إِنْ صَارَ
هذا الكافر إلى الهداية فاهتدى واشتغل بأمر نفسه فان هذا هو اللائق بحاله ،
لأن من كان له عقل ورأى ، وكان مع ذلك ذا ثروة وجاه وأعوان ، لو أنه اختار
الهدى وتحلق بأخلاق المصلحين ، ودعا إلى البر وتقوى الله لكان ذلك خيراً
له من الكفر بالله والنهي عن خدمته وطاعته ، فان هذا يفوت عليه أعلى المراتب
ويجعله فى أخطأ وأدناها . والمراد بالهدى اهتداؤه فى نفسه وبالأمر بالتقوى دعاءه
غيره إلى جميع خصال البر والخير ، وقد كانت أحوال النبي صلى الله عليه وسلم
لا تخرج عن أحد هذين ؛ فهو إما فى إصلاح نفسه بالصلاة ونحوها من العبادات
وإما فى إصلاح غيره بأمره بالتقوى ودعائه إلى الله

وقوله سبحانه : (أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى أَلَمْ يَعْلَمِ بَأَنَّ اللَّهَ يَرَى) هو خطاب
مع النبي صلى الله عليه وسلم أيضاً فى شأن ذلك الكافر ، والمعنى أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ
هذا الكافر بدلائل التوحيد الظاهرة وأمارات القدرة الغالبة وتمسك منه هذا
التكذيب حتى أعرض عن دعوتك والاستماع إليك ودعا الناس إلى مثل ذلك

(١) ويقال : الخطاب للكافر ، وكأن الله تعالى خاطب النبي أولاً ثم خاطب الكافر
كما يخاطب الحاكم واحداً من طرفى الدعوى ثم يتوجه إلى الآخر فيخاطبه ، وإجراء
النظم الكريم على منهج واحد أولى

كَلَّا لَئِنْ لَّمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ [١٥] نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ [١٦]

أفلا أرشده عقله إلى أن خالق هذا الكون القادر العالم الحكيم مطلع على عمله مراقب له فيمنعه علم ذلك عن عمله ويزجره خوف ربه عن طغيانه وتمرده . وكأنه سبحانه يقول : إن الله عالم بكل ما يحدث من هؤلاء وإنه حكيم لا يهمل عقابهم ، ولا يتركه ، وعالم لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، فلا بد من أن يعاقب هؤلاء على ما يقترفون ، ففي هذه الآية من التخويف للعصاة والمذنبين ما ليس يخفى

وقوله سبحانه : (كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ) هو رَدْعٌ لمن يفعل أفعال هذا الكافر عن فعله ومنع له منها ، والناصية : هو شعر الجبهة ، أو هي الجبهة نفسها ، والسفع : الجذب بشدة ، وقوله تعالى « لنسفعا بالناصية » مثل ، والمراد قهره وإذلاله وتعذيبه بأشد أنواع العذاب والتنكيل به ، ويحتمل أن يكون المراد منه إذلاله في الدنيا والتنكيل به في هذه العاجلة كما يحتمل أن يكون المراد به إهانته يوم العرض على الله وذلك يوم القيامة ، ولا يبعد أن يكون المراد أنه جل شأنه يفعل به ذلك في الدنيا والآخرة جميعا ، وقوله تعالى : « ناصية كاذبة خاطئة » هو بدل من الناصية ، وجاز إبدال النكرة من المعرفة لأن النكرة قد وصفت فاستقلت بالفائدة ، وقرئ بالرفع ، على تقدير هي ناصية كاذبة خاطئة ، وقرئ بالنصب على تقدير أعني ناصية كاذبة خاطئة ، والمراد على وجهي الرفع والنصب الذم والشتم ، وتأمل في وصف الناصية بهذين الوصفين الكذب والخطأ تدرك المغزى المقصود بهما من زيادة التشنيع ، فكانه سبحانه يقول : هي ناصية كاذبة لغرورها بقوتها وظنها أنها تتمتع من القاهر فوق خلقه الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء وهذا مزعم لا حقيقة له ، وهي

فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ [١٧] سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ [١٨]

ناصية خاطئة لأنها طغت عن حدها وعَتَّتْ عن أمر ربها وأسأت إلى الأبرار الصالحين من قومها ، وإنما نسب الكذب والخطأ إلى الناصية مع أن الكاذب هو صاحبها والخطيء هو صاحبها لأن الناصية مظهر الغرور والكبرياء ، ألا ترى المتكبر يميل رأسه ويصغر خده

وقوله سبحانه : (فليدع ناديه سندع الزبانية) أصل النادى المكان الذى يجتمع فيه ، ولا يسمى المكان ناديا حتى يكون فيه أهله ، وإنما سمي ناديا لأن القوم يَتَدَوَّنْ إليه ، ومنه دار الندوة ، وهى دار كان أهل مكة يجتمعون فيها للتشاور فى كل ما ينزل بهم ، ويقال : إنما سمي ناديا لأنه مكان الندى والجود ، والمراد فى الآية الكريمة فليدع أهل ناديه ، وذلك مثل قوله تعالى : « وأسأل القرية التى كُفِّرَ فيها » أى : أسأل أهل القرية ، فهو مجاز مرسل من باب إطلاق اسم المحل وإرادة الحال ، أو هو مجاز بالحذف ، والزبانية : جمع واحد زَبْنِيَّةٌ ^(١) وأصل اشتقاقه من الزَّبْن وهو الدفع ، ويقال : الواحد زبانى ، ويقال : ليس له واحد من لفظه فى لغة العرب ، والمراد بالزبانية فى الآية الكريمة الملائكة الذين أقامهم الله على تعذيب العصاة من خلقه ، وإنما سموا زبانية لأنهم يزبنون الكفار فى النار : أى يدفعونهم إليها ويسوقونهم فيها . وقد روى أن أبا جهل قال للنبي صلى الله عليه وسلم حين أغلظ له القول : يا محمد ، يَمَنَّ تَهْدِنِي ؟ وإنى لأكثر هذا الوادى ناديا . والله تعالى يأمره بأن يدعو أهل الدفاع من قومه وذوى النجدة والبطش ، على سبيل التهكم والتوبيخ ، وكأنه يقول : ليفعل هذا العاتى الطاغية

(١) تقول : رجل زبانية ، مثل عفرية ، إذا كان متمرداً عاتيا شديدا ، وتقول :

رجل زبنة عفرية ، أيضا

كَلَّا لَا تَطِعُهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ [١٩]

ما ذكره لك وليدع أنصاره وأعوانه ليستعين بهم عليك فإنه إن فعل ذلك فإننا سندعو له من لا قبل له ولا لقومه بهم ، وقرى « سَتُدْعَى الزبانية »
وقوله جل شأنه : (كَلَّا لَا تَطِعُهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ) كَلَّا : رَدْعٌ للكافر عن التصلف والكبرياء ، ويقال : المراد به نفى قدرته على ما يهدد به ، وكأنه قال : لن يصل إلى زعمه من أنه يدعو نادية ، ولئن دعاهم لا ينفعوه ولن ينصروه ، إنه لأذلّ وأحقر من أن يقاومك . وقوله « لَا تَطِعُهُ » مثل قوله سبحانه « فَلَا تَطِعِ الْمَكْذِبِينَ » وقوله « وَاسْجُدْ » المراد به توفّر على عبادة ربك فعلاً وإبلاغاً للناس ، وقوله « وَاقْتَرِبْ » المراد منه ابتغ بعبادتك التقرب إلى الله . ويقال : كَلَّا ههنا ردع للنبي صلى الله عليه وسلم عن الاستماع له ، كما قيل : إن^(١) « وَاسْجُدْ » أمر للنبي بالمدامة على العبادة ، و « اقترِب » أمر للكافر بأن يقرب من النبي ليرى بعينه أنه لا يقدر على ذلك ولا يُمكن منه . والله سبحانه أعلى وأعلم

(١) وكأنه تعالى قد أمر نبيه بالسجود ليزداد غيظ الكفار الذين كانوا يتألمون لعبادته ويحاولون منعه منها ، وأمر الكافر بالاقتراب منه تنقيذاً لما توعد به تهديداً لهذا الكافر وتهكما به واحتقاراً لشأنه . والله أعلم .

سورة القدر *

[وهي مكية ، وآياتها خمس آيات ، ونزلت بعد سورة

عَبَسَ ^(١)]

(١) اختلف العلماء في مكان نزول هذه السورة ، واختلفوا أيضا في عدد آياتها ؛ فأما عن الأول فقال الماوردي هي مكية عند أكثر المفسرين ، وقال الثعلبي : هي مدنية ، وذكر الواقدي أنها أول سورة نزلت بالمدينة ، ويروى القول بنزولها في مكة عن ابن عباس وابن الزبير وعائشة رضي الله عنهم ؛ وأما عن الثاني فأكثر أهل العلم من المفسرين يعدّها خمس آيات ، ومنهم من عدّها ست آيات ، والأول أرجح وأصح .

اعلم أنه سبحانه وتعالى قد أشار إلى زمان نزول القرآن على رسوله صلى الله عليه وسلم في أربع آيات من كتابه العزيز : الأولى في سورة القدر التي نحن الآن بصدد تفسيرها ، وذلك قوله جل شأنه : « إنا أنزلناه في ليلة القدر » والثانية في مطلع سورة الدخان وذلك قوله جل ذكره : « حم ، والكتاب المبين ، إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين ، فيها يفرق كل أمر حكيم . أمراً من عندنا إنا كنا مرسلين ، رحمة من ربك إنه هو السميع العليم ، رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين : لا إله إلا هو يحيي ويميت ربكم ورب آبائكم الأولين » والثالثة في سورة البقرة وذلك قوله تعالت كلماته : « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » والرابعة في سورة الأنفال وذلك قوله تعالى : « واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسة وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ [١]

الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير . وأنت إذا تدبرت هذه الآيات تبين أن الله تعالى قد بين أن نزول القرآن كان في ليلة من ليالي شهر رمضان وأنها كانت ليلة اليوم الذي يوافق اليوم الذي التقى فيه جمع المسلمين بجمع المشركين ففرق الله بينهما بالحق ودمغ الشرك وأهله . وبيان ذلك أن آية سورة القدر صريحة في أن إنزال القرآن كان في ليلة القدر ، وستعرف المراد من القدر بعد الانتهاء من هذا البحث ، وآية سورة الدخان تؤكد ما استفيد من هذه الآية وأن النزول كان في ليلة مباركة ، وآية سورة البقرة تدل على أن نزول القرآن كان في شهر رمضان ، فالمستفاد إلى الآن أن نزول هذا الكتاب كان في ليلة مباركة من ليالي شهر رمضان وأن هذه الليلة تسمى ليلة القدر ، وأما آية سورة الأنفال فقد قال قوم من المفسرين إن المراد أن الله أنزل القرآن على رسوله صلى الله عليه وسلم في ليلة اليوم المماثل ليوم التقاء الجمعين في غزاة بدر التي فرق الله فيها بين الهدى والضلال ونصر حربه على حزب الشيطان ، وقد ثبت أن ذلك كان في ليلة الجمعة لسبع عشرة خلت من رمضان ، إذا علمت هذا فاعلم أن قوله تعالى (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ) المراد به إِنَّا أَنْزَلْنَا الْقُرْآنَ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ، فأضمر القرآن وإن لم يحجر ذكره قبل ذلك شهادة له بنبأه الشأن وذويع الأمر واشتهاره حتى إنه ليستغنى عن التصريح به ، والمراد بأنزاله ابتداء في إنزاله على رسوله ، وليس المراد إنزاله كله جملة ، فإن القرآن الكريم لم ينزل جملة واحدة وإنما نزل نجوما بحسب الأحوال التي تقتضيه ، وقد كان مبعث النبي صلى الله عليه وسلم في رمضان ، وفيه نزل أول ما نزل من القرآن وهو في غار حراء ؛ وَالْقَدْرُ : مصدر قولك : قدرت

وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ [٢] لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ [٣]

الشيء أقدره قدرا ، إذا اعترفت بما فيه من العظمة وماله من الشرف والمنزلة الرفيعة ، وقد قال الزهري : ليلة القدر ليلة العظمة والشرف ، من قولهم : فلان قدر عند فلان : أى منزلة وشرف ، وقد بين سبحانه سبب إنزال القرآن فى سورة الدخان بقوله « إنا أنزلناه فى ليلة مباركة إنا كنا منذرين » أى إنما أنزلنا عليك الذكر لأننا حين خلقنا الإنسان وجعلناه نوعا ممتازا يفارق جميع أنواع الموجودات وجعلناه بغيرته محتاجا إلى التعليم والإرشاد مستعدا لها ، كتبنا على أنفسنا أن نتعهد بالإندار وذلك بارسال الرسل وإعطائهم ما يبلغونه قومهم ؛ فهذا القرآن إنما نزل عليك جرّياً على ما اقتضته حكمتنا وما أوجبناه على أنفسنا لتنذر الناس أن لهم معاداً يرجعون فيه إلى ربهم الذى خلقهم وأنهم سيلاقون عنده جزاء أعمالهم وما انعقدت عليه قلوبهم ؛ وكذلك بين الله تعالى شرف هذه الليلة المباركة فى سورة الدخان بقوله : « فيها يفرق كل أمر حكيم » والمراد أنه يفصل فيها كل حكيم من أحكام هذا الدين ، وهى أحكام حكيمة يقف بك كل حكم منها عند الحق ويباعد بينك وبين الباطل ، ويهجم بك كل حكم من هذه الأحكام على السعادة فى دنياك وآخرتك ، ويجنبك الشقاء إن عملت به ، وإنما جعلت هذه الليلة لفرق كل حكيم لأنها مبدأ نزول ذلك الفرقان الذى فيه تفصيل كل شيء وفيه الهدى والرحمة ، ثم إن كل منزل بعد أول مرة يساوى ما نزل فيها ، لأن كل القرآن على سواء فى الهداية والرشاد

وقوله سبحانه : (وما أدراك ما ليلة القدر ، ليلة القدر خير من ألف شهر) فيه أكبر الدلالة على نباهة شأن هذه الليلة وعظمتها ، يعنى ولم تبلغ درأيتك غاية فضائها ومنتهى علو قدرها ، وتأمل فى تكرار ذكرها ثلاث مرات ، وفى الإتيان

تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ [٤]

بالاستفهام في عبارة دالة على أن شرفها ليس مما يسهل أن يحيط به علم العلماء ، ثم تأمل بعد ذلك في الإخبار عنها بأنها خير من ألف شهر ، تدرك بعد ذلك مقدار ما يشير إليه الله سبحانه وتعالى من عظمة هذه الليلة ونباهة شأنها وارتقاع قدرها ، وأية عظمة أعلى من عظمة ليلة يتبدى فيها نزول النور والهداية إلى الناس بعد أن مضت عليهم الحلقب المتتالية وهم في ظلام الشرك وضلال الوثنية ؟ وأى شرف أرفع من شرف ليلة يسطع فيها بذر المعارف الإلهية على قاب رسول جعله الله رحمة للعباد يبشرهم وينذرهم ويهديهم الصراط المستقيم من بعد أن اختبطوا في دياجير الجباله وحاق عليهم الغضب وفشت فيهم الضلالة ؟ وأية منزلة أكبر من منزلة ليلة قدّر الله فيها إخراج خلقه من ليل الأوهام وعبادة الأصنام إلى صبح الحق وتوحيد الواحد الديان ؟

واعلم أنه سبحانه وتعالى قد بين شرف هذه الليلة على كل ليلالي الدهر بذكر ثلاث مزايا : المزية الأولى أنها خير من ألف شهر ، ويمكن أن يكون تحديد هذا العدد مقصودا ، ويمكن أن يكون المراد منه التأكيد وأن أقلّ عدد تفضله هذه الليلة هو ألف شهر ، فالعدد حينئذ لا مفهوم له ، وهى ليلة خير من الدهر كله ، والمزية الثانية ذكرها سبحانه في قوله : (تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر) والمراد بالروح في هذه الآية أمين الوحي وهو جبريل عليه السلام ، وذكره بخصوصه بعد ذكر الملائكة من باب ذكر الخاص بعد العام لمزيد الفضل واختصاصه بأمور لا يشاركها فيما ماعده ، وذلك ظاهر كل الظهور ، ويقال : المراد بالروح القرآن لقوله تعالى : « وكذلك أوحينا إليك رؤوسا من أمرنا » ويقال : المراد بالروح الكرام الحفظة من الملائكة . وقوله تعالى « بإذن ربهم » معناه أن

سَلَّمَ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ [٥]

الملائكة إنما تنزل باذن ربهم لقوله تعالى : « وما تنزل إلا بأمر ربك » ومعنى تنزلها تجليها للنفس الطاهرة التي هيأها الله تعالى لقبول تجليها ، ومعلوم أن الملائكة لا تتجلى لكل أحد فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، ويقال : المراد بتنزلها نزولها إلى الأرض لمشاهدة ما يكون عليه الناس . وقوله سبحانه « من كل أمر » معناه أن الله يرسل ملائكته والروح إلى رسله عند كل أمر يريد إبلاغه إلى عباده . و « من » على ذلك بمعنى الباء . والمزية الثالثة قد ذكرها سبحانه بقوله : (سلام هي حتى مطلع الفجر) وسلام : مصدر بمعنى السلامة ، وهو خبر مقدم ، و « هي » مبتدأ مؤخر ، وإنما قدم الخبر تعجيلا للمسرة ، وقد أخبر عن هذه الليلة بالمصدر إما مبالغة ، وإما على تأويل المصدر باسم الفاعل ، وإما على تقدير مضاف ، وذلك مثل قول الشاعر :

* فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارٌ *

والمعنى أن هذه الليلة سالمة من كل أذى وشرا لا يشوبها كدر ، بل الله تعالى قد فرج فيها عن نبيه كل كربة وفتح له فيها أعظم سبل الهداية ، ومطلع الفجر : طلوعه ، والمعنى أنه يدوم ذلك السلام إلى أن يطلع الفجر . والله سبحانه وتعالى أعلى وأعلم .

سورة البينة *

[مدنية ، وآياتها ثمان آيات ، ونزلت بعد سورة الطلاق^(١)]

* وتسمى أيضاً سورة « المنفكين » ، كما تسمى سورة « القيامة » ، وكما

تسمى سورة « البرية » ، وكما تسمى سورة « لم يكن »

(١) اختلف العلماء في مكان نزول هذه السورة ، وفي عدد آياتها ؛ فأما عن الأول فقد روى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : نزلت سورة « لم يكن » بمكة ؛ وروى عن ابن عباس وجماعة أنها نزلت بالمدينة ، وهو اختيار الجمهور ، وأما عن الثاني فقد قيل : إنها ثمان آيات ، وقيل : إنها تسع آيات .

أرسل الله تعالى رسله إلى قومهم يبشرونهم وينذرونهم ، وآمن مع كل رسول من الرسل جماعة من قومه وأصرّ آخرون على كفرهم ، وقد انتقم الله تعالى لرسله ممن كذبوه ، وكان الرسول إذا انتقل إلى جوار ربه انتهت رسالته ، فكان قومه لا يستمرون على دينه الذي جاءهم به ، بل يغيرونه ويبدلونه ، ويزيدون فيه ، وينقصون منه ، وربما هجروه إلى الوثنية ، وكان ممن أرسل الله من الرسل موسى عليه السلام الذي بعثه الله إلى بني إسرائيل ، وعيسى ابن مريم عليه السلام ، وقد بعث إلى بني إسرائيل أيضاً ، وكان شأنهم مع أممهم كشأن إخوانهم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، ولما اختار الله تعالى إلى جواره موسى بن عمران بقى قوم ممن اتبعوه على دينه ، ثم طال عليهم الأمد فخرّفوا وغيروا وبدّلوا : إما لسوء فهم منهم فيما أنزل الله على نبيهم ، وإما لأنهم استحسنوا بعقولهم أنواعاً من البدع والضلالات فجعلوها من الدين وليست منه فى شيء ؛ فلما جاء عيسى عليه السلام ، كان النزاع بين هؤلاء وبينه شديداً ، حتى إذا اختاره الله إليه قوى النزاع بين اليهود ممن يزعمون أنهم على دين موسى ، وبين النصارى الذين

آمنوا بعيسى ، وكان من نتائج هذا النزاع أن أدخل كل فريق في دينه ما ليس منه لإلخام خصومهم والرغبة في الظفر عليهم ، ثم توالى الأزمان وكلما جاء قوم من بعدهم زادوا على ما وضعه أسلافهم ، إلى أن خفيت معالم الحق ، وانطمست أنوار اليقين . وكان إلى جوار هؤلاء جميعا المشركون من العرب وغيرهم الذين عبدوا الأوثان واستنصروا بها في حوائجهم ، وقضوا على هذا زمانا طويلا حتى مرّت نفوسهم عليه واستطابته وزعمته دين أبيهم إبراهيم ، وأصبح إخراجهم عنه من أشقّ الأمور وأصعبها على المصلحين . وكان الجدل يشور بين المشركين واليهود تارة ، وبين المشركين والنصارى تارة أخرى ، وكان اليهود يذكرون للمشركين أن الله تعالى سيبعث نبيا من العرب من أهل مكة وينعتونه لهم ويتوعدونهم بأنه متى جاء نصره وآزروه واستنصروا به عليهم حتى يبيدهم ؛ فلما بعث الله رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم قام المشركون في وجهه وألبوا عليه وعاندوه وأصروا على عنادهم وآذوا كل من اتبعه ممن أنار الله بصيرته وشرح صدره لمعرفة الحق والاستضاءة بنور الإيمان الصحيح ، وقام اليهود ينازعونه أيضاً ويزعمون أن ما جاء به من الدين ليس شيئا جديدا وأنه كان معروفاً لهم على لسان نبيهم مسطوراً في كتابهم الذي بين أيديهم ، وأنه لا يصح لهم أن يتركوا ما هم عليه من الحق ليتبعوا رجلاً ما جاء بشيء أفضل منه ، فكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا بهذا النبي الأُمّي الذي يمجّدون ذكره ونعته ووصف دينه عندهم في التوراة ، وكانوا يعرفونه بهذه السمات والعلامات والأوصاف كما يعرفون أبناءهم ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، وقاموا في وجهه ، واشتدت عداوتهم له ، وكانوا يداً عليه مع المشركين الذين كانوا يعادونهم ويتهدّدونهم بأنهم سيتبعون هذا النبي ويشدون أزره حتى يفنيهم .

في شأن هؤلاء جميعاً نزلت هذه السورة المباركة ، وفي الرد على مزاعم هؤلاء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ
حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ [١]

الجاحدين الذين عميت بصائرهم عن الحق فلم تبصر لامع ضوئه أنزل الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم هذه الآيات من كتابه الكريم ، وفي إبطال حجة هؤلاء المعاندين الذين أدركوا الحق واضحاً لا تشوبه مرية ولا شك ولكنهم أغمضوا أعينهم عن النظر إليه وأغلقوا قلوبهم دون تفهمه والتبصر فيه ؛ أنزل الله تعالى هذه السورة في شأن أولئك الأقوام ، وللدرد عليهم وتسفيه عقولهم وبيان وجه الفساد في حججهم نزلت هذه السورة المباركة .

قوله تعالى : (لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة) كفروا : معناه جحدوا نبوتك وأنكروا رسالتك بعد أن تبين لهم أنها حق لا شك فيه ، وإنما كان كفرهم عناداً أو حسداً أشربته قلوبهم ؛ وقد بين الله تعالى أن هؤلاء الكفار كانوا فريقين : أحدهما أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، وإنما كان كفرهم بسبب إحدائهم في دينهم ما ليس منه مما يكفر به قائله كتحريفهم آيات الله وقولهم عزير ابن الله والمسيح ابن الله ؛ وثانيهما المشركون ككفار أهل مكة الذين عبدوا الأوثان وجعلوا مع الله آلهة سموها بأسماء ما لهم بها من علم ولا لأبائهم ؛ وقد قدّم الله تعالى ذكر أهل الكتاب في البيان لأن كفرهم أشنع وأقبح ؛ إذ كانوا يقرأون الكتب ويعرفون أوصاف النبي الأُمى الذي يرسله الله ؛ فكانت قدرتهم على معرفة صدقه صلى الله عليه وسلم أتم ، وانظر إلى تعبيره سبحانه عنهم بأنهم « أهل الكتاب » دون أن يقول اليهود والنصارى تدرك ذلك المعنى تمام الإدراك ، ومعنى « منفكين » مفارقين لكفرهم تاركين

رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً [٢] فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ [٣]

ما هم عليه من الغفلة عن الحق والوقوف عندما كان عليه آباؤهم وإن كان آباؤهم لا يعقلون ، والبينة : هي الحجة الظاهرة التي يتميز بها الحق من الباطل ، وأصلها من البَيِّنَان بمعنى الظهور لأن بها يظهر الحق حقاً والباطل باطلاً ، أو من البينونة بمعنى الانفصال لأن بها يمتاز الحق عن الباطل فينفصلان بعد التباس وتباينان بعد غموض حالهما ، والمراد من البينة في هذه الآية النبي صلى الله عليه وسلم بدليل تفسيرها في الآية نفسها بذلك في قوله تعالى : (رسول من الله) وإنما سمي الرسول بينة لأنه صلى الله عليه وسلم كان في ذاته برهاناً على صحة ما ادعاه من النبوة ؛ أفلا ترى أنه كان في نهاية الجد في تقرير الرسالة مع كمال العقل ووفور مكارم الأخلاق ومع توالي معجزاته وكثرتها ، وقال قوم : البينة ههنا هي القرآن لأن الله تعالى سماه بينة في قوله : « أولم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى » وهذا الوجه ليس بشيء لأنه يستوجب أن يكون قوله تعالى في هذه السورة « رسول من الله » على تقدير مضاف محذوف : أي قرآن رسول من الله ، أو ما أشبه ذلك ، وهو بعيد ، وتسمية القرآن بينة في سورة لا يستلزم أن يكون هو المراد ههنا مع ظهور خلافه ، ولا يمتنع أن يكون القرآن بينة والرسول بينة لأن كلاهما سبب في ظهور الحق ووضوحه . وقوله تعالى (يتلو صحفاً مطهرة) من صفات الرسول ، والصحف : جمع صحيفة ، ومعنى « مطهرة » منزهة عن الزور والضلال والباطل والحشو وتدليس المدلسين ، نظير قوله سبحانه : « لا يأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه » ومعنى تلاوته هذه الصحف قراءته ما فيها ؛ فإنه صلى الله عليه وسلم مع كونه أمياً كان يقرأ الكتاب حفظاً . وقوله تعالى : (فيها كتب قيمة) من أوصاف الصحف المطهرة . والمراد بالكتب إما ما صح من كتب الأنبياء السابقين

كموسى وعيسى وغيرهما ، ودليل ذلك قوله تعالى : « وإنه لفي زُبرِ الأولين »
 وقوله سبحانه : « إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى » ، وإما
 أن يكون المراد بالكتب سور القرآن وآياته ، فان كل سورة من سورہ الکریمۃ
 کتاب قویم ، و إما أن يكون المراد بالكتب الأحكام والشرائع التي تضمنها
 كلام الله تعالى ، ومعنى « قيمة » مستقيمة لا عوج فيها يتبين بها الحق من الباطل ،
 ومثله قوله تعالى : « الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا ،
 قَيِّمًا لِنُذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ — الآيات » ويقال : المراد بقيمة أنها مستقلة
 بالدلالة وإقامة الحجة ، ومنه تسمية القائم بأمر القوم الناهض بما حمّله من
 أعبائهم القِيم ؛

فإن قلت : إن « حتى » في قوله تعالى : « لم يكن الذين كفروا من أهل
 الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة » ، تدلُّ على أن مجيء الرسول
 لهم غاية لاستمرارهم على الكفر ، فكان ينبغي إذا جاء أن يؤمنوا ، مع أن حالهم
 بعد مجيء الرسول كان فيه الكفر والعناد والمشاقة ، فكيف جعل الله مجيء
 الرسول غاية لكفرهم ؟ فالجواب عن ذلك أن نقول لك : إن حالهم بعد مجيء
 الرسول مخالف لحالهم الذي كانوا عليه من قبل ، وإن هذه الغاية صحيحة لاشبهة
 فيها ، أفلا ترى أنهم قبل مجيء الرسول كانوا كلهم أجمعون كفارا يتيهون في
 عمية الأهواء والجهالات فلما بعث الله رسوله إليهم آمن به قوم منهم فلم يبق حال
 الجمع بعد مجيء الرسول كما كان قبله ، وقد يقال : إنهم كانوا قبل بعثة النبي
 جازمين بما كانوا عليه ، واثقين من صحته ، غير مترددين فيه ، فلما بعث الله رسوله
 إليهم تغيرت حال جميعهم ؛ فمنهم من آمن بالرسول فاعتقد أن ما كان فيه من قبل
 ضلال وباطل ، ومنهم من لم يؤمن ولكنه أصبح مترددا في صحة ما هو عليه أو
 واثق من عدم صحته ولكن يمنعه العناد والتكبر والاعتداء بالآباء من متابعة الرسول

وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ [٤]

فحال القوم جميعا قد تغيرت بمبعث النبي ؛ فكان جعل مبعثه غاية لما كانوا عليه من الإصرار على الكفر صحيحا بغير ريب

وقوله سبحانه : (وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعدما جاءتهم البينة) كلام مستأنف يقصد به تسليية الرسول صلى الله عليه وسلم على تفرق القوم في شأنه فمنهم من آمن به ومنهم من ظلم نفسه وأوبقها فاستمر على كفره ، ثم منهم من وصفه بالكذب ، ومنهم من وصفه بالجنون ، ومنهم من وصفه بالسحر ، ومنهم من وصفه بغير ذلك ؛ وكأنه سبحانه يقول لنبيه : لا تحزن لحال هؤلاء معك ولا يكن في صدرك حرج فان هذا شأنهم الذي درجوا عليه وألقوه من قبل ، ولا تظن أن تفرقهم شيئا في أمرك ناشئ عن قصور حجتك أو خفاء شأنك عليهم ، بل هذه طبيعة فيهم انحدرت إليهم من أسلافهم الذين بدلوا دين الله وافتروا على أنبيائهم وآمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعض واختلفوا في تأويل ما بين أيديهم من آيات الله وتفرقوا في المذاهب حتى صار أهل كل مذهب يبطل ما عند غيره بغيا منهم وعدوانا واستكبارا على الحق وهجوما على القول بالهوى والشهوة والعصبية ، مع أن الله أرسل إليهم الرسل وآتاهم البينة الواضحة والحجة الظاهرة ، فان يحدوا بيمينتك فقد جحدوا بينة أنبيائهم من قبل ، وإن ينكروا نبوتك ورسالتك فقد أنكروا آيات الله بعدما استيقنتها أنفسهم . وإنما خص الله تعالى في هذه الآية أهل الكتاب بالذكر مع أن الكلام كان من قبل فيهم وفي المشركين لأن حال غيرهم يفهم بالطريق الأولى ؛ فهو من باب الاكتفاء : أي إذا كان أهل الكتاب قد فعلوا ذلك مع وضوح الحجة لهم وانكشاف الحال بما في أيديهم من الكتب فما ظنك بالمشركين وهم قوم أعرق في الجهالة من هؤلاء وألسن مقادة للهوى

وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا
الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ [٥]

والعصبية ، والاستثناء في الآية الكريمة استثناء مفرغ ، والمستثنى منه عموم
الأوقات ، والمعنى لم يتفرق الذين أوتوا الكتاب في وقت من الأوقات إلا في
الوقت الكائن بعد مجيء البينة لهم

وقوله سبحانه : (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا
الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة) الواو في قوله « وما أمروا » للحال ؛
فهذه الجملة حالية ، والغرض منها إفادة أنهم بلغوا النهاية في قبح الأفعال ووصلوا
إلى منتهى ما يمكن أن يصل إليه الضلال وفساد العقل ؛ إذ تفرقوا واختلفوا في
حال أنهم لم يؤمروا إلا بما هو صالح لهم في دينهم ودنياهم ، وبما هو جالب لسعادتهم ،
وفي هذا من التقرير والتوبيخ على فعلهم ما ليس يخفى ، والإخلاص : هو أن يأتي
العبد بالفعل خالصا لداعية واحدة ولا يكون لغيرها من الدواعي تأثير في إتيانه بها ،
والدين : هو إذعان النفس لإلهها مع غاية الخضوع له وامتنال أوامره واجتناب
نواهيه ، والمراد بإخلاص الدين لله تنقيته من أدران الشرك به ، والحنفاء : جمع
حنيف ، وهو في الأصل المائل المنحرف ، ثم قيل لمن يتبع ملة إبراهيم الخليل
حنيف ، وذلك لأن زمان إبراهيم عليه السلام كان زمان وثنية وعبادة أصنام
فانحرف إبراهيم عن أهل زمانه ومال إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له فسمى
حنيفا لذلك ؛ وقرأ قوله تعالى : « ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا
وما كان من المشركين » وقوله عز وجل : « ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا
ولكن كان حنيفا مسلما » وقوله تباركت كلماته : « وقالوا كونوا هودا أو نصارى
تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين » وإقامة الصلاة :

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ

الإتيان بها مع إحضار القلب هَيِّبَةً للمعبود ليعتاد الخشوع له ، وإيتاء الزكاة : صَرَفُهَا في مصارفها التي عينها الله تعالى في كتابه الكريم ، وقوله سبحانه : « وذلك دين القيمة » معناه هذا الذي ذكر من إخلاص العبادة للخالق والميل عن طرق الشرك والضلال ، مع إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ؛ هو الدين الذي جاء في الكتب القيمة ، فالكلام على تقدير مضاف : أي دين الكتب القيمة ، ويجوز تقديره بدين الأمة القيمة : أي المستقيمة السائرة في الطريق الذي لا عوجاج فيه ؛ والمعنى كيف يكفر بك هؤلاء ويعاندونك ويحاولون تشييط الناس عن اتباعك في حين أنهم لم يؤمروا إلا بما قد عرفوا أنه الحق وأيقنوا أن في فعله صلاح حالهم واستقامة أمورهم ، وذلك بأن يخلصوا لله عقائدهم وأعمالهم ولا يقلدوا في ذلك آباءهم ولا كبراءهم الذين أضلّوهم ، وبأن يخشعوا لله في صلواتهم ويتذكروا هيئته وَجَلَّالَهُ ، وبأن يَصِلُوا عِبَادَ اللَّهِ بما أعطاهم الله من فضله ، وكلُّ هذا ليس غريباً عن هؤلاء الذين كفروا بك من أهل الكتاب لأنهم يجدونه مسطوراً في الكتب التي لم يدخلها التحريف ولا التبديل ،

ثم إنه سبحانه وتعالى بعد أن ذكر ما عليه الكافرون من الشقاق والاختلاف ، وبين الداعية التي دعتهم إلى ذلك ، وأنهم لم يختلفوا في شأن النبي صلى الله عليه وسلم لقصور حجته على ما ادعاه ولا لكونه يدعوهم إلى ما فيه ضررهم ، لأن حجته واضحة في غاية الوضوح ودلائل نبوته ظاهرة في أعلى درجات الظهور ، ولأن ما يدعوهم إليه مما لا يرتاب أحد في نفعه ، وإنما كان اختلافهم وافتراقهم لطبيعة فيهم استوجبت ذلك ؛ بعد أن بين سبحانه هذا كله أخذ في ذكر جزاء من أصرَّ على كفره وبقى ملازماً لعناده فقال سبحانه : (إن الذين كفروا من أهل الكتاب

وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ [٦]

والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية) وقد ذكر سبحانه من أحوال عذابهم أمرين : الأول أنهم خالدون في النار ، والثاني أنهم شر البرية ؛ أما نار جهنم فهي النار التي أعدها الله تعالى لعذاب الكفار في الآخرة ، وقد أسلفنا أنه يجب علينا أن نؤمن بها وأن نصدق بأن العذاب فيها أشد وأقوى من كل أنواع العذاب في الدنيا ، وليس علينا أن نبحت فيما وراء ذلك مما لم يذكره الله تعالى في كتابه ولا جاء على لسان نبيه فيما ثبت مما يروى عنه ، ومعنى « خالدين فيها » أنهم لا يخرجون منها أبداً ؛ وأما أنهم شر البرية فمعناه أنهم شر من كل صنف من أصناف الأشرار ؛ فهم شر من اللصوص لأنهم سرقوا من كتب الله أوصاف النبي صلى الله عليه وسلم وأخفوها عن يطلبها إليهم ، وهم شر من قطاع الطريق لأنهم قطعوا طريق الحق ومنعوا الناس من السير فيه ، وهم شر من الجهال الأجلاف لأنهم علموا ومنعهم الكبر والصلف عن العمل بما علموا ؛ وإنما قدم سبحانه أهل الكتاب في هذا الوعيد لأن جنائتهم في حق النبي صلى الله عليه وسلم كانت أعظم ؛ إذ كانوا يقرون في أنفسهم برسالاته ويستفتحون بها على المشركين ، فلما جاءهم أنكروه مع العلم به فكانت جنائتهم أشد ؛ ولا يقال : إن المشركين كانوا ينكرون الله ، وكانوا مع ذلك ينكرون النبوة ، وينكرون البعث والحشر ، فأما أهل الكتاب فكانوا مقرين بهذه الأشياء إلا نبوة النبي صلى الله عليه وسلم ، فكيف يسوون بين الفريقين في العذاب ؟ لأننا بينا أن جنابة أهل الكتاب أشد من جنابة كفار مكة وأمثالهم .

ولما ذكر سبحانه صفة عذاب الكفار عقب ذلك بذكر ما أعد من النعيم المؤمنين ليكون ذلك أشد غيظاً للكفار وأبعث لهم على الموازنة بين الحالين ،

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ [٧] جَزَاؤُهُمْ
عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ [٨]

فقال سبحانه : (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية ، جزاؤهم
عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضى الله عنهم
ورضوا عنه ، ذلك لمن خشى ربه) وقد ذكر جل ثناؤه من صفات جزأهم الذى
أعده لهم أربعة أشياء : الأول كونهم خير البرية ، والثانى أنه يدخلهم جنات عدن
تجرى من تحتها الأنهار ، والثالث أنه لا يخرجهم منها أبداً ، والرابع أنه سبحانه قد
رضى عنهم كما رضوا عنه ، أما الأول ففي مقابل كون الكفار شر البرية ، وأما
الثانى ففي مقابل إدخال الكفار نار جهنم ، وأما الثالث وهو دوامهم فى الجنة
واستمرارهم فيها فاعلم أن الكفار أيضا مخلدون فى النار غير خارجين منها أبداً ،
ولكنه سبحانه ذكر ههنا مايدل على الدوام والتأييد ولم يذكره فى حال الكفار
مع كونه مراداً للإشارة إلى أن رحمته سبحانه تفوق غضبه ، ومعنى « رضى الله
عنهم » أنه رضى أعمالهم التى عملوها ، أو رضى أن يمدحهم ويعظمهم ، ومعنى
« رضوا عنه » أنهم رضوا بما جازاهم به من النعيم والثواب . وقوله سبحانه « ذلك
لمن خشى ربه » معناه أن هذا الفوز بالنعيم الدائم والثواب العظيم يحصل لكل
من خشى الله وخاف منه ، وفى هذا من التحذير من خشية غير الله والتنفير من
إشراك غيره سبحانه فى الأعمال ما ليس يخفى ، كما أن فيه الترغيب فى تذكر الله
تعالى والرهبة منه عند كل عمل من أعمال البر حتى يكون العمل مخلصاً له سبحانه
من كل شائبة ؛ نعوذ بالله تعالى من أن نشرك معه أحداً ، ونسأله أن يطهر قلوبنا
وينور بصائرنا وأبصارنا حتى لا نخشى سواه ولا نرى فى كل أعمالنا غيره . آمين .

سورة الزلزلة *

[مدنية ، وآياتها ثمان آيات ، ونزلت بعد سورة النساء] ^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالًا [١]

* ويقال : سورة « إذا زلزلت »

(١) اختلفت العلماء في مكان نزول هذه السورة ، وفي عدد آياتها ؛ فروى عن ابن عباس وقتادة أنها مدنية ، وروى عن ابن مسعود وعطاء وجابر أنها مكية ، وعَدَّ قوم آياتها ثمان آيات ، وعدّها آخرون تسع آيات وجه المناسبة بين هذه السورة والتي قبلها أنه سبحانه وتعالى لما ذكر في السورة السابقة جزاء الكفار وجزاء المؤمنين تطلعت النفوس إلى معرفة الوقت الذي يكون فيه ذلك ، فذكره سبحانه ههنا بعلاماته التي تحدث عند حدوثه

كان الكفار يسألون كثيراً عن يوم الحساب بقولهم « أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ » وأشباهه ، فذكر لهم الله تعالى في هذه السورة علاماته ، وكأنه يقول لهم : لا سبيل إلى تعيين اليوم الذي يكون فيه العرض على الله وعقاب العصاة والمذنبين وإثابة الطائعين والمؤمنين ، وإن يسكن لا بد لكم من معرفة شيء عنه فإني أذكر لكم العلامات التي تقع عند مجيء هذا اليوم

قوله سبحانه : (إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالًا) صَدَّرَ الكلام باذا لما كان الشرط أمراً محقق الوقوع . والزَّلزال : الحركة الشديدة مع الاضطراب ، وهو بفتح الزاى اسم لذلك ، وبكسرهما مصدر بمعنى التحرك والاضطراب ، وقد اختلف العلماء في

وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا [٢] وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا [٣]

المراد من هذه الآية ؛ فقال قوم : المراد أن الله تعالى يحرك الأرض حركة شديدة ، وذلك نظير قوله سبحانه : « إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا » وقال آخرون : المراد أن الأرض نفسها تتحرك وتضطرب ؛ لأن الحديث في بقية السورة عن الأرض وعن حدوث أشياء منها ، ونظير ذلك قوله تعالى : « لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ » والخطب في هذا الاختلاف سهل ؛ لأن الأرض لا تتحرك بنفسها البتة ؛ فمن نظر إلى موجد الحركة على وجه الحقيقة نسبها إلى الله تعالى ، ومن نظر إلى مظهر الحركة نسبها إلى الأرض ؛ والمراد من هذه العبارة برأسها بيان شدة الحال يومئذ وأنها تبلغ الغاية في الشدة ، والمغزى بعث الكفار على أن يتدبروا في الأمر وينظروا فيه نظر المعتمر . وكأنه سبحانه يقول لهم : إن الجحاد ليضطرب لهول القيامة فهل آن لكم أن تتيقظوا من غفلتكم وترجعوا عن عنادكم

وقوله سبحانه : (وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا) الأثقال : جمع ثقل ، وهو في الأصل متاع البيت ، ومنه قوله سبحانه : « وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِالْغَنِيِّ إِلَّا بِشَقِّ الْأَنْفُسِ » والمراد به ههنا مافي جوف الأرض من الدفائن ، سواء في ذلك الموتى والكنوز ، قال أبو عبيدة والأخفش : إذا كان الميت في جوف الأرض فهو ثقل لها ، وإذا كان فوقها فهو ثقل عليها ؛ وإنما سمى الجن والانس الثَّقَلَيْنِ لأن الأرض تثقل بهن إذا كانوا في بطنها ، ويتقلون عليها إذا كانوا فوقها . ويقال : أثقالها أسرارها ، لأن في يوم القيامة تكشف الأستار وتظهر الأسرار .

وقوله تعالى : (وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا) اختلاف المفسرون في المراد بالإنسان ؛ فقال قوم : المراد به الكافر خاصة ، فهو الذي يقول : ما للأرض قد اضطربت

يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا [٤] بَانَ رَبُّكَ أَوْحَىٰ لَهَا [٥]

ودارت ، وهو الذى يقول : من بعثنا من مَرَقَدِنَا ، وأما المؤمنون فلا يقولون ذلك لأنهم عرفوه واستيقنته أنفسهم ، وإنما يقولون : هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ، ويقولون : الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ، وقال قوم : المراد بالإنسان هذا النوع بلا فرق بين مؤمن وكافر ؛ وذلك لأن الحال يومئذ شديدة الوقع وفي هذا اليوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ، وليس المراد أنه يستفهم ويسأل ، بل المراد أنه يعجب من الأحوال التى تحدث مما لم تسمع بها أذن ولم ترها عين ولم تخطر على بال

وقوله تعالى : (يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا) أى : تحدث الأرض الخلائق أخبارها ، فأخبارها : مفعول ثانٍ لتحدث ، والمفعول الأول محذوف ، والمراد من تحديث الأرض أخبارها أنها يومئذ تشهد لمن أطاع الله على ظهرها وتشهد على من عصى ربه ، ويروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الأرض لتخبر يوم القيامة بكل عمل عمل عليها » ثم تلا هذه الآية ، ويقال : هذا مثل ضربه الله تعالى ، والمقصود أن كل إنسان فى هذا اليوم سيمتحن جزاء عمله وما أعده الله له على ما قدم فى حياته الأولى ، وذلك نظير قولنا : إن هذه الدار لتحدثنا أنها كانت مسكونة .

وقال الإمام : وتحديث الأرض تمثيل كما قال الطبرى وجماعة غيره : أى إن حالها وما يقع فيها من الانقلاب وما لم يُهَيَّءْ من الخراب يُعَلِّمُ السائل ويفهمه الخبر وأن ما يراه لم يكن لسبب من الأسباب التى وضعها السنة الإلهية حال استقرار نظام الكون . اهـ

وقوله تعالى : (بَانَ رَبُّكَ أَوْحَىٰ لَهَا) الباء سببية تتعلق بتحدث ، والمراد أنها

يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالُهُمْ [٦]

إنما تحدث أخبارها بسبب إيجاء ربك لها ، وتقول : أوحيت له ، وأوحيت إليه ، ووحي له ، ووحي إليه ، كل ذلك بمعنى واحد ، وقال العجاج :

* أَوْحَى لَهَا الْقَرَارَ فَاسْتَقَرَّتْ *

وقال الإمام : أى ما يكون للأرض يومئذ إنما هو بأمر إلهي خاص ؛ قال لها : كوني خرابا ، كما قال لها عند إيجادها : كوني أرضا ؛ فهذا أمر من الأوامر التكوينية التي هي « كن » والأوامر التكوينية عبارة عن تعلق القدرة الإلهية بما هو أثرها ، وكثيرا ما تكون الأوامر الإلهية التكوينية بأسباب ، كتكوين الإنسان والحيوان والنبات فان كل كائن منها إنما يتكون بتكوين الله وقوله « كن » ولكنه وضع لذلك أسبابا من التناسل والتوالد ، ولامانع من أن يكون خراب الأرض في آخر عمرها بسبب من الأسباب التي تهدم بناءها وتجعلها هباء منثورا ، ومعنى اختصاصه هذه الحالة باسم الوحي لأنها تأتي على خلاف ما عهد من أول نشأة الأرض . اهـ

وقوله جل ذكره : (يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالُهُمْ) يوم : بدل من « إذا » في أول السورة ، ويصدر : فعل مضارع من الصدر ، والصدر : ضد الورود ، فالوارد هو الآتي الماء ليشرب أو يستقي ، والصادر هو الراجع عنه ، وأشتاتا : أى متفرقين متمايزين لا يكون الصالح في طريق واحد مع المسيء ويروا : فعل مضارع مبنى المجهول ماضيه المبني للمعلوم أراه ، والمراد لكي يريهم الله تعالى جزاء أفعالهم ، والمعنى في اليوم الذي تتبدل فيه أحوال الأرض فتصير خرابا يصدر الناس عن الأرض إلى عَرَصات القيامة أشتاتا متفرقين كل إنسان منهم مشغول بنفسه ليرى الله تعالى جزاء أفعالهم التي عملوها في حياتهم الأولى وهم على ظهر الأرض

فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ [٧] وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ [٨]

وقوله سبحانه : (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) الذرة : أصغر النمل ، وقال ابن عباس : إذا وضعت راحتك على الأرض ثم رفعتها فكل واحد مما لصق بيدك من التراب مثقال ذرة . والمراد أنه ليس من مؤمن ولا كافر عمل خيراً أو شراً إلا أراه الله ذلك ، فأما المؤمن فيغفر الله سيئاته ويثيبه بحسناته ، وأما الكافر فتزد حسناته ويعذب بسيئاته . ولا شك أن المقصود بالعمل الذي يثيب الله عليه ما كانت النية فيه خالصة لوجهه وكان غير مقصود به سواه سبحانه ، ولهذا إذا كان العمل قليلا وكانت النية فيه خالصة حصل عليه الثواب العظيم ، ولو كان العمل كثيراً ولم تكن النية خالصة لله تعالى ضاع ولم يحسن صاحبه من ورائه إلا الحسرة والندامة .

وقال الإمام : أى أن من يعمل من الخير أدنى عمل وأصغره فإنه يراه ويجد جزاءه ، لافرق في ذلك بين المؤمن والكافر ، غاية الأمر أن حسنات الكفار الجاحدين لاتصل بهم إلى أن تخلصهم من عذاب الكفر ، فهم به خالدون في الشقاء ، والآيات التي تنطق بحبوط أعمال الكفار وأنها لا تنفعهم معناها هو ما ذكرنا : أى أن عملا من أعمالهم لا ينجيهم من عذاب الكفر وإن خفف عنهم بعض العذاب الذي كان يرتقبهم على بقية السيئات الأخرى ، أما عذاب الكفر نفسه فلا يخفف عنهم منه شيء ، كيف لا والله جل شأنه يقول : « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ؛ فلا تظلم نفس شيئا ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين » فتقوله « فلا تظلم نفس شيئا » أصرح قول في أن المؤمن والكافر في ذلك سواء وأن كلا يوفي يوم القيامة جزاءه ، وقد ورد أن حاتما يخفف عنه لكرمه ، وأن أبا لهب يخفف عنه لسروره بولادة النبي صلى الله عليه وسلم . اه
وقال الامام فخر الدين الرازى : في الآية إشكال ، وهو أن حسنات الكافر

مُحِبَّةٌ بِكَفَرَةٍ ، وسيئات المؤمن مَغْفُورَةٌ : إما ابتداءً ، وإما بسبب اجتناب الكبائر ؛ فما معنى الجزاء بمثاقيل الذر من الخير والشر ؟ وأعلم أن المفسرين أجابوا عنه من وجوه : أحدها : قال أحمد بن كعب القرظي : فمن يعمل مثقال ذرة من خير وهو كافر فإنه يرى ثواب ذلك في الدنيا حتى يلقى الآخرة وليس فيها شيء ، وهذا مروى عن ابن عباس أيضاً ، ويدل على صحة هذا التأويل ما روى أنه عليه الصلاة والسلام قال لأبي بكر : « يا أبا بكر ، ما رأيت في الدنيا مما تكره فيمثاقيل ذر الشر ، ويدخر الله لك مثاقيل الخير حتى تُوفَّأها يوم القيامة » وثانيها : قال ابن عباس : ليس من مؤمن ولا كافر عمل خيراً أو شراً إلا أراه الله إياه ؛ فأما المؤمن فيغفر الله سيئاته ويثيبه بحسناته ، وأما الكافر فتُرَدُّ حسناته ويعذب بسيئاته ، وثالثها : أن حسنات الكافر وإن كانت مُحِبَّةً بكفره ، ولكن الموازنة معتبرة ، فتقدر تلك الحسنات المحبطة من عقاب كفره ، وكذا القول في الجانب الآخر ، فلا يكون ذلك قادحاً في عموم الآية ؛ ورابعها : أن نخصص عموم قوله سبحانه « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره » ونقول : المراد فمن يعمل من السعداء مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل من الأشقياء مثقال ذرة شراً يره . اهـ

ونقول : إن مثل هذه المواضع مما لا ينبغي أن يؤخذ فيها بالاحتمالات العقلية ولا بالأقيسة المنطقية ؛ لأنها أمور غَيْبِيَّةٌ لا سبيل إلى التظنن فيها ، وإنما شأن أهل العلم أن يرجعوا فيها إلى الله ورسوله ، فما ثبت عنهما آمناً به واعتقدناه ، وقد صح أن الله تعالى يُخَفِّفُ عن بعض الكفار عقاب ذنوبهم التي اقترفوها في حياتهم الدنيا سوى الكفر فإنه سبحانه لا يغفر أن يشرك به ولا يخفف عقابه ، فأبوهب يخفف عنه كما ورد ، وحاتم يخفف عنه كما ورد ، وأبو طالب يخفف عنه كما ورد ؛ وهذا التخفيف هو جزاء ما لهم من أعمال الخير ، وهو ما قاله الإمام فيما أسمعناك من كلامه . وقد قرئ « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره » ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » مطابقة لقوله تعالى « لِيُزَوِّاْ أَعْمَالَهُمْ » ؛ والله سبحانه وتعالى أعلى وأعلم .

سورة العاديات

[وهي مكية، وآياتها إحدى عشرة آية ، ونزلت بعد سورة
العصر^(١)]

(١) لاختلاف بين أحد من العلماء في عدد آي هذه السورة ، وقد اختلفوا في
مكان نزولها ؛ فروى عن ابن مسعود وجابر والحسن وعكرمة وعطاء أنها مكية ،
وقد روى عن أنس بن مالك وقتادة أنها مدنية ، وهو المشهور من قول ابن عباس
قال ابن عباس : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خيلاً ، فاستمرت شهراً
لا يأتيه منها خبر ، فنزلت « والعاديات ضُبْحاً » وفي بعض الروايات عنه أيضاً قال :
بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سريةً إلى العدو ، فأبطأ خبرها ، فشق ذلك
عليه ، فأخبره الله خبرهم وما كان من أمرهم فقال : « والعاديات ضُبْحاً » ، فذلك
ما يروى عن سبب النزول .

ووجه المناسبة بين هذه السورة والتي قبلها أنه سبحانه وصف في السورة
السابقة ما تكون عليه الأرض عند قيام الساعة وقد جاء في ذلك الوصف قوله
سبحانه : « وأخرجت الأرض أثقالها » وقد قلنا : إنه أعم من كنوز الأرض الخبوءة
في جوفها ومن الموتي الذين تضمهم قبورها ، وقد أتى سبحانه في السورة التي نحن
بصددها ببعض أهوال البعث وفي ضمن ذلك قوله جل ثناؤه : « أفلا يعلم إذا بُعِثَ
مافي القبور » ؛ وهذا مطابق لذلك ؛ وشيء آخر من المناسبة بينهما ، وذلك أنه
سبحانه لما ذكر في السورة السابقة الجزاء على الخير والشر أتبعه في هذه السورة
بتعنييت الذين يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة ولا يستعدون للحياة الدائمة بفعل
الخير وتعويد أنفسهم للإتيان به

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَدِيَّاتِ ضَبْحًا [١] فَاَلْمُورِيَّاتِ قَدْحًا [٢] فَاَلْمَغِيرَاتِ ضُبْحًا [٣]
فَاَثْرَنَ بِهِ نَقْعًا [٤] فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا [٥]

قوله تعالى : (والعاديات ضبحا ، فالموريات قدحاً ، فالمغيرات ضبحاً ؛ فآثرن به نقعاً ، فوسطن به جمعاً) العاديات : جمع عادية ، والعادية : اسم فاعل من العدو ، وهو المشى بسرعة ، وأصل الياء في العاديات واو ، فلما وقعت متطرفة إثر كسرة قلبت ياء ، مثل الغازيات من الغزو ، ومثل الساميات من الشمو ، والضبح : نوع من السير ، وهو أيضاً نوع من العدو ، وهو أيضاً اسم لصوت ، فان جعلت الضبح اسماً لنوع من السير أو اسماً لنوع من العدو كان مصدراً مؤكداً لاسم الفاعل أو مبيناً لنوعه ، وإن جعلت الضبح اسماً لصوت كان المصدر في تأويل المشتق ، وكان حالاً من الضمير المستتر في اسم الفاعل : أى العاديات حال كونها تضبح فى عدوها ، والموريات : جمع مورية ، ومورية اسم فاعل من الإبراء ، وفعله أوزى ، وتقول : أوزى فلان ، إذا أخرج النار بزند ونحوه ، والقَدْحُ : ضرب شئ بشئ ليخرج من بينهما شرار النار ، والمغيرات : جمع مغيرة ، وفعله أغار ، وتقول : أغار فلان يُغيرُ إغارةً ، إذا باغت عدوه لقتل أو أسر أوتهب ، وآثرن : هيجن ، والنقع : الغبار ، وتقول : أثرتُ الغبارُ أثيرةً ، إذا هيجته ، والنون فى « آثرن » ضمير العاديات ، ووسطن : أى توسطن ، وتقول : وسطت القوم أسطهم وسطاً : إذا صرت فى وسطهم ، ويقرأ فوسطن بالتشديد . وقد اختلف العلماء فى المراد بالعاديات فى هذه السورة الكريمة ؛ فذهب قوم منهم ابن عباس رضى الله عنهما إلى أن المراد به الخيل فى القتال ، وضبحها إما عدوها الشديد السريع ، وإما صوتها إذا عدت ، ويقال : إن الخيل

المراد
للمعنى
المراد
المراد

إذا كَمَتَتْ نفسها لئلا تَصْهُلَ تنفَسُ بقوة ، وإيراؤها استخراجها النار حين تضرب
بسناكبها ، والقدح هو ضربها بحوافرها ، وقال الزجاج : إذا عدت الخيل
وأصاب حوافرُها الحجارة انقدح منها النيران . وإغارتها : هجومها على
الأعداء ، وإسناد الإغارة إليها مع أن المغيرة في الحقيقة هم الفرسان لأن الخيول
هى عُدَّة الإغارة . وانتصاب « صبحا » على الظرفية . وإثارته النقع : تهيجها
التراب ، وأصل النقع الأرض الحرة الطين يستنقع فيها الماء ، ثم استعمل في
الأرض مطلقا ، ثم استعمل فيما يشور منها من الغبار إذا اشتد الوطء ، وزعم قوم
منهم أبو عبيدة أن النقع رفع الصوت ، وهو مخالف للجبهة أهل اللغة ، وليس
له كبير معنى في الآية الكريمة . ومعنى « وسطن به جمعاً » أن هذه الخيل
توسطت جُمُوعَ الأعداء وهُنَّ متلبسات بالغبار الذى أثارته سَنًا بِكُهْنٍ . وذهب
قوم منهم أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه إلى أن المراد بالماديات
في هذه السورة الإبل . والأوصاف المذكورة في الآيات الكريمة تؤيد القول
الأول من أن المراد بها الخيل ؛ فقد تقل أهل اللغة أن أصل الضبح للثعلب ثم
استعارته العرب للخييل ، وعن ابن عباس أنه قال : ليس شئ من الدواب
يضبح إلا الكلب أو الفرس ، ومن ذهب إلى أن المراد بالإبل اضطر إلى
التمحل حتى تتفق هذه الصفات مع ماذهب إليه ، فذكر أن ضبح الإبل
نَفْسُها ، وأن معنى إيراؤها أنها تَسْفَى الحَصَا بمناسمتها فيضرب بعضها بعضاً فتخرج
عنه النار ، فهى سبب للايراء وليست هى الفاعلة له كما كان في الخيل .

فان قلت : فكيف أقسم الله تعالى بالماديات ؟ وأى شرفٍ لها حتى يجعلها
سبحانه بالمنزلة التى يُقْسَمُ بها من أجلها ؟ وسواء أكان المراد بها الخيل أم الإبل
فهى بحاجة إلى بيان وجه شرفها ورفعته منزلتها ، حتى يصح أن تكون قسماً
ويمينا .

السيد طر

أى شرف

السيد طر

فالجواب عن ذلك أنا إذا حملنا العاديات على الخيل كما استظهرناه كان شرفها ما فيها من المنافع العظيمة العائدة إلى الدين والدنيا ، أفلا ترى أن للخيل في عدوها من الخلال الحميدة والنتائج المرغوب فيها ما ليس يحصره العد ؛ فهي تصلح للطنب ، وتصلح للهرب ، وتصلح للكر على الأعداء ، وتصلح للفرار والنجاء بالنفس ؛ فإذا ظن الفارس أن النفع والفوز في طلب عدوه والسعى إليه تمكن بها من درك هذه البغية ، وإذا ظن أن المصلحة في الهرب والنجاء قدر الفرس على أشد العدو ، وفي إقسام الله تعالى بالفرس بعنوان كونه عاديا متصفا بما ذكر من الصفات إشارة عظيمة إلى أنه يجب على الإنسان أن يقتنى الخيل لهذه المنافع لا للزينة ولا للخيلاء والتفاخر ، وتأمل في قوله سبحانه : « والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة » تجده سبحانه قد أدخل لام التعليل على الركوب دون الزينة ، ففي هذا إشارة إلى أن الغرض الذي من أجله يحمل اقتناء هذه الأشياء هو الركوب لا الزينة ، ثم تأمل في ذكرها هنا بعنوان أنها عاديات ضابحة وأنها تغير صبيحا والناس نيام وأنها تثير الغبار بشدة سيرها وأنها تتوسط الأعداء غير مبالية ولا وجلّة تدرك أن الركوب المحمود هو ما يكون على هذه الحال . وإذا حملنا العاديات على الإبل كما هو مروى عن ابن مسعود وعلى رضى الله عنهما كان شرفها عظيم أوصافها التي ذكرناها في تفسير سورة الفاشية ^(١) وفوق ذلك فهي مركب ذلول ، وهى الوسيلة المعروفة حينئذ لأداء مناسك الحج وهو من أعظم القربات إلى الله تعالى ؛ فذكر الإبل حينئذ إشارة إلى منافعها وإلى ما تستعمل فيه من القربات ، وهذا شرف عظيم لها

فان قلت : فعلى أى شيء يُعطف قوله تعالى « فأثرن به تقعا » ؟ فالجواب أنه معطوف على اسم الفاعل في قوله سبحانه « فالمغيرات صبيحا » وذلك أنه يجوز أن

إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ [٦] وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ [٧] وَإِنَّهُ
لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ [٨]

يعطف الفعلُ على الاسم الذي يشبه الفعلَ كاسم الفاعل ، كما يجوز عكسُ ذلك وهو أن يعطف الاسم الذي يشبه الفعل على الفعل ، ونظير هذه الآية قوله سبحانه : « إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله » فقد عطف « أقرضوا » على اسم الفاعل وهو « المصدقين » ، ومثل الآيتين في هذا الأمر إلا أن فيه عطف الاسم الذي يشبه الفعل على الفعل قولُ الشاعر :

فَأَقْبَمَتْهُ يَوْمًا يُبِيرُ عَدُوَّهُ وَنَجَّرَ عَطَاءً يَسْتَحِقُّ الْمَعَابِرَا

فمعطف « مجر » وهو اسم فاعل على « يبير » . ومثله قول الآخر :

بَاتَ يُغْشِيهَا بِعَصْبٍ بَاتِرٍ يَقْصِدُ فِي أَسْوَاقِهَا وَجَائِرَ

فمعطف « جائر » وهو اسم فاعل على « يقصد » وإعماساغ ذلك حينئذ لأن الاسم الذي يشبه الفعل هو في الحقيقة في تقدير فعلٍ ، ألا ترى أن « المصدقين » في تقدير الذين تصدقوا ، وإلى أن « المغيرات » في تقدير اللاتي أغرن ، وهكذا

وقوله تعالى : (إن الإنسان لربه لكنود ، وإنه على ذلك لشهيد ، وإنه لحب الخير لشديد) هو المُقْسَمُ عليه ، وقد اشتمل ذلك على ثلاثة أمور : أولها ما يدل عليه قوله سبحانه : « إن الإنسان لربه لكنود » وأصل الكنود الأرض التي لا تثبت شيئا ، ثم شبه بها الإنسان الذي يمنع الحق والخير ويحصد ما عليه من واجبات ، تشبيها بتلك الأرض . والمراد به الكفور أو العاصي ، ويقال : الكنود من لغة كندة وهي عندهم العاصي . وقد ذكرنا في المراد من هذه الكلمة عباراتٍ يجمعها ما ذكرناه ، فمن ذلك ما روى أبو أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الكنود الذي يمنع رفده ، ويأكل وخذة ، ويضرب عبده » ومنه ما روى

عن الحسن : الكنود اللّوأمُ لربه بعد المحن والمصائب وينسى النعم والراحات .
والمعنى على أية حال أن طبع الإنسان وسجيته يحملانه على نكران الحق وجحده
ويدعّونه إلى الصلّف والكبرياء وعدم الإقرار بما لزمه من شكر خالقه وعبادته
والخضوع له ؛ إلا الذين عصمهم الله تعالى من ذلك . والأمر الثاني ما يدل عليه
قوله تعالى : « وإنه على ذلك لشهيد » وقد اختلف المفسرون في الضمير المتصل في
قوله « إنه » على أى شىء يعود ؟ فذهب قوم إلى أنه عائِد إلى الإنسان ، والمعنى
عليه أن الإنسان على كُنوده وجحده ليشهد : إما لكون كُنوده وجحده أمراً
ظاهراً لا يستطيع أن ينكره ؛ فهو إذا لجّ في الطغيان وتمادى في الإنكار والبهتان
يستطيع أن يجحد بلسانه ولكنه إذا خلى ونفسه رجع إلى الحق وأذعن إلى أنه
ما شكر ربه على نعمه ولا قام بما يستوجب شكران النعم من تمجيد الخالق والخضوع
إليه وأيضاً فأعماله نفسها جحدٌ لنعم الله عليه فهي شهادة منه على كُنوده ، وإما
لأنه سيشهد على نفسه بذلك الكنود في الآخرة يوم تشهد عليه جوارحه بما
اقترب من الذنوب والآثام ، وذهب قوم إلى أن الضمير في « إنه » عائِد إلى
الرب ، والمعنى عليه إن ربه الذى خلقه وأنعم عليه وهو العالم بما يأتى وما ينذر
شاهد عليه بأنه ما أدّى شكر النعمة ولا قام بما عليه من واجبات وما لزمه من
حقوق ، ويكون ذلك بمثابة تهديد للإنسان وزجر له عما يقترب من الذنوب
والآثام ، وهذا وإن كان صحيح المعنى لا يتفق مع اتساق الآى ونظامها ؛ ألا ترى
أن الضمير في قوله سبحانه « وإنه لحب الخير لشديد » راجع إلى الإنسان لا محالة ؛
فالنظام يقتضى أن تمتد مراجع الضمائر . قال الامام : أى وإن الإنسان لشهيد
على كُنوده وكفره انعمة ربه ؛ لأنه يفخر بالقسوة على مَنْ دُونه ، وبقوة الحيلة
على مَنْ فوقه ، وبكثرة ما فى يده من المال مع الحذق فى توفيره ، وقلماً يفتخر
بالرحمة وكثرة البذل والخلق فى اختيار المواضع للاتفاق ، اللهم إلا أن يريد غشا

للسامع ، وفي ذلك كله شهادة على نفسه بالكنود ؛ لأن ما يفتخر به ليس من حق شكر النعمة ، بل من آيات كفرها هـ . والأمر الثالث ما يدل عليه قوله سبحانه : « وإنه لحب الخير لشديد » والخير في هذه الآية المراد به المال ، ومثل ذلك قوله سبحانه : « كتب عليكم إن حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً » وقوله جل ثناؤه : « وإذا مسّه الخير منوعاً » وأصل الخير عام في كل ما هو بصدد أن يجلب مصلحة ويدفع مضرة ، وهو هنا قد خُصَّ ببعض أفرادهِ ، وهذا لأن الناس يعدون المال فيما بينهم خيراً . و « شديد » معناه بخيل مُمسِكٌ . يقال : فلان شديد ، وفلان متشدد ، إذا كان ممسكاً على ما في يده شديد الضن به والحرص عليه ، وقال طرفة ابن العبد :

أَرَى الْمَوْتَ يَعْتَامُ الْكَرَامَ وَيَصْطَفِي عَقِيلَةَ مَالِ الْفَاحِشِ الْمُتَشَدِّدِ

والمعنى حينئذ إن الإنسان بسبب محبته المال وشغفه به وتعلقه بجمعه وإخاذه بخيل شديد في بخله ، حريص متناه في حرصه ، مُمسِكٌ مبالغ في إمساكه . ويقال : الشديد ^(١) القوى ، والمعنى حينئذ إن الإنسان لكونه محباً للمال مؤثراً الدنيا بالطلب والتوجه إليها قوى مُطِيق لاحتِمال ما يناله في هذا السبيل من الآلام والمتاعب ؛ في حين أنه ضعيف العزيمة واهن القوة في عبادة الله وشكر نعمه عليه ؛ وقال الفراء : يجوز أن يكون المعنى وإنه لحب الخير لشديد الحب ، يعني أنه يحب المال ويحب كونه محباً له ، إلا أنه اكتفى بالحب الأول عن الثاني ،

(١) قال الامام : وأطلق الحب وأراد به الكسب ، لأن كسب الشيء والسعي في تحصيله إنما يكون كما ينبغي إذا كان منشؤه حبه ، فقوة الانسان واقتداره على تحصيل المال وتوفيره إنما جاءت له من شدة محبته له ؛ لهذا جعل الشدة وقوة الاحتمال لحب المال وهى فى الحقيقة لكسبه .

أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ [٩] وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ [١٠]
 إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ [١١]

كما قال « اشتدت به الريح في يوم عاصف » أى : في يوم عاصف الريح ،
 فاكتمنى بالأولى عن الثانية . اهـ

وقوله سبحانه : (أفلا يعلم إذا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ إِنَّ
 رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ) بُعْثِرَ : بُعث وأُثير وأُخرج . وقرئ « بُحْثِرَ » بالخاء .
 وَحُصِّلَ : أُظهر مُحصَّلاً مجموعاً ، والمراد ببعثرة ما في القبور إخراج الموتى وكنوز
 الأرض ، والمراد بتحصيل ما في الصدور إظهار ما كانت تخفيه وإبراز ما كان
 مستورا فيها بحيث لا يبقى لها سبيل إلى إخفاء شيء منه .

فان قلت : لم قال سبحانه « ما في القبور » ولم يقل « مَنْ فِي الْقُبُورِ » ثم قال
 بعد ذلك « إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ » ولم يقل « إِنَّ رَبَّهَا بِهَا » مع أن هذا هو الموافق في
 ظاهر الأمر لما أتى به أولا ؟ فالجواب عن ذلك أن ما في الأرض من الجمادات
 أكثر مما فيها من الانسان فأخرج الكلام على الأغلب الأكثر . وشيء آخر
 هو أن الموتى حين يبعثون من قبورهم لا يكونون أحياء فهم حينئذ كالجماد فساغ
 التعبير عنهم بما ، ثم يصيرون بعد أحياء فلذلك قال « إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ »
 فان قلت : فأين مفعول « يعلم » في قوله سبحانه « أفلا يعلم إذا بُعْثِرَ مَا فِي
 الْقُبُورِ - الآيات » قلت : المفعول محذوف ، وإنما حذف لتذهب فيه النفس كُلُّ
 مذهب ويجول الفكر في استحضاره وتقديره وذلك لأنه لو ذكر لاكتفى بدلالة
 العبارة عليه فرما غفل السامع عنه . ويحتمل أن يكون المفعول هو قوله سبحانه
 « إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ » فهذه الجملة هي مفعول يعلم عُلِّقَ عن العمل فيها
 لمكان اللام ، والمعنى أفلا يعلم هذا الانسان المنكر لنعم الله عليه الجاحد لفضله

وأياديه أنه سبحانه عليم بما تنطوى عليه نفسه وأنه مجازيه على جحده ونكرانه
يوم يُحْصَلُ ما في الصدور ويبعثر ما في القبور؟

وقوله سبحانه : (إن ربهم بهم يومئذ لخبير) معناه أنه خير بهم يومئذ
فيجازيهم جزاء العالم الخبير الذي لا يعزب عن علمه شيء وحينئذ ينال هذا
الكنود الجاحد ما يستحقه من العقاب على ما قدمت يداه . فكفى سبحانه عن
مجازاتهم على ما كسبوا بالخبرة بهم والعلم المحيط لأعمالهم ، وذلك كثير في العربية ؛
فأنت تقول لشخص في معرض التهديد : سأعرف لك عملك الذي تعمله ، مع
أنك عارف به حين الكلام . وتدبر في قوله تعالى : « سنكتب ما قالوا » مع أن
كتابة أقوالهم حاصلة فعلا . والله سبحانه وتعالى أعلى وأعلم .

سورة القارعة

[وهي مكية ، وآياتها إحدى عشرة آية ، ونزلت بعد سورة
قریش ^(١)]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْقَارِعَةُ [١] مَا الْقَارِعَةُ [٢] وَمَا أَذْرُكَ مَا الْقَارِعَةُ [٣]

(١) اتفق العلماء على أن هذه السورة نزلت بمكة ، واختلفوا في عدد آياتها ؛
فقال قوم : هي ثمان آيات ، وقال آخرون : هي عشر آيات ، وقال الجمهور :
هي إحدى عشرة آية

وجه المناسبة بين هذه السورة والتي قبلها أظهر من أن يُدَلَّ عليه ، أفلا ترى
أن آخر السورة السابقة كان في وصف يوم القيامة ، وهذه السورة بأسرها في وصف
ذلك اليوم وما يكون حال الناس فيه

قوله سبحانه (القارعة ما القارعة وما أدراك ما القارعة) القارعة في الأصل
اسم فاعل من الْقَرَعَ ، وَالْقَرَعُ هو الضرب بشدة ، ثم سميت الحادثة العظيمة من
حوادث الدهر قارعة ، وعلى هذا جاء قوله سبحانه وتعالى : « وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ
كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ » أي حادثة عظيمة تقرعهم وتصدك أجسادهم
فيتألمون لها ، ثم سميت القيامة قارعة لأن الأجرام العلوية والسفلية يصطك بعضها
ببعض بسببها اضطكا كاشديدا ، أو لأنها تقرع الناس بالهول والفرع ، أو لأنها
تقرع أعداء الله بالعذاب والخزي والنكال ، وتسمية القيامة قارعة مثل تسميتها صاخة
وطامة وحاقة وغاشية . وقوله « ما القارعة » استفهام عن حقيقتها يقصده تهويل
أمرها وتقطيع حالها وتنبيه النفوس إلى ما يكون فيها من الأهوال التي تقرع لها

يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ [٤] وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ

النفوس وتدهش منها العقول ، حتى إنه ليصعب تصورها ويستحيل على العقل إدراك كنهها . والقارة : مبتدأ ، وما : مبتدأ ثان ، والقارة : خبر المبتدأ الثاني ، وجملة المبتدأ الثاني وخبره في محل رفع خبر المبتدأ الأول ، وهذا أولى الأعراب وأحسنها . وقوله سبحانه « وما أدراك ما القارة » معناه أى شئ يعرفك بها ويعلمك حقيقتها ؛ أو أنت لا تعلم كنهها لأنها في الشدة بحيث لا يبلغ إلى معرفتها وهم واهم ولا يدرك حالها فهم فاهم ، وأنت مهما قدرتها وحدست شأنها فهو أعظم من تقديرك ، وكأنه سبحانه يقول : إن قوارع الدنيا كثيرة ، وإنها لمختلفة المناحي ، وإنها مع كثرتها واختلافها إذا نسبت إلى تلك القارة تعود كلا شئ ، وذلك الإبهام يدل على أن تفصيل شأن القارة مما لا سبيل إلى معرفته والعلم به إلا من طريقه سبحانه

ولما بين سبحانه أن معرفة كنهها وإدراك حقيقتها مما لا سبيل إليه أخذ في بيانها بزمانها الذي تكون فيه لا على التعيين بل بما يحدث للناس في ذلك الوقت فقال : (يوم يكون الناس كالفرش المبعوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش) الفرش : هو الحيوان الذي يتهاافت في النار ، وسمى فراشا لأنه يتفرش ، وينتشر ، والمبعوث : المفرق ، تقول : بشت الشئ ، إذا فرقته ، وقد شبه الله تعالى الناس وقت البعث في هذه الآية بالفرش المبعوث لأن الفرش إذا نار لم يتجه لجهة واحدة ، بل كل فراشة منه تذهب إلى جهة غير الجهة التي تذهب منها الأخرى ، فدل هذا على أن الناس إذا بعثوا فزعوا واختلفوا في المقاصد والجهات ، وشبههم سبحانه في آية أخرى بالجراد المنتشر في كثرتهم وتتابعهم ، فلا يقال : إن الجراد كبار والفرش

صغار فكيف يشبه الشيء الواحد بما هو كبير وبما هو صغير ؛ لأن التشبيه ليس في الحجم وإنما هو في الذي ذكرنا من اختلاف التوجه ومن الكثرة ، ويقال : بل وجه التشبيه بالفراش أن الناس في الآخرة همج رعا غير عالمين ، والفراش يضرب به المثل في الجهالة لأنه يلقى نفسه في النار فيحترق ، ويقال : بل وجه التشبيه أنهم يومئذ أذلاء لا يؤبه بهم ولا يعنى بشأنهم ، ومثل ذلك قوله تعالى : « كالأنعام بل هم أضل سبيلا » والعن — بكسر العين المهملة وسكون الهاء — الصوف ذوالألوان ، والمنفوش : الذى قد ذك بالمسك حتى انتفش ، والمراد أنه سبحانه يفرق أجزاءها ويزيل التأليف والتركيب عنها فيصير ذلك مشابها للصوف إذا صار منفوشا ، وإنما ذكر سبحانه حال الجبال تنبيها على أن تأثير تلك القارة في الجبال شديد حتى إنها لتصير كالصوف الذى نفش ، فكيف يكون حال الإنسان عند حدوثها وهو هذا الجسم الضعيف السريع الانحلال ؟ وقد كثر في القرآن الكريم ذكر حال الجبال يوم القيامة ، وذكرها سبحانه على وجوه مختلفة ؛ فمنها أنه ذكر أن الجبال تصير قطعاً ، وذلك في مثل قوله « ودكت الجبال دكا » ومنها أنه ذكر أنها تصير كشيء مهيلاً وذلك في قوله سبحانه « فكانت كشيء مهيلاً » ومنها أنه ذكر أنها تمر وتضطرب بعد سكون واستقرار وذلك في نحو قوله تعالى : « وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب » ومنها أنه ذكر أنها تصير كالعين المنفوش كما في هذه الآية التى نحن بصددنا ، ومنها أنه ذكر أنها تصير سرايا كما في قوله سبحانه : « وسيرت الجبال فكانت سرابا » كل ذلك للإيماء إلى أن الجسم العظيم الذى من طبعه الاستقرار والثبات تؤثر هذه القارة عليه أشد تأثير حتى يتغير حاله أعظم تغير ، وفي هذا من التحذير للإنسان وتخويفه ما ليس يخفى ، وكأنه سبحانه يقول للإنسان : إذا كان هذا هو ما يصير إليه أعظم الأجسام صلابة وأشدّها استقرارا وأقواها على احتمال الزعازع والصمود لها فكيف يكون حالك أيها المخلوق الضعيف الذى لا قوة لك ولا احتمال معك

فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ [٦] فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ [٧] وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ
مَوَازِينُهُ [٨] فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ [٩]

ثم إنه سبحانه وتعالى بعد أن ذكر هذا اليوم بصفاته وبما يكون فيه من أحوال الناس وبعض الخلائق عَقَّبَ ذلك بذكر الجزاء الذي أعدّه هناك لأهل الخير وأهل الشر جميعاً فقال : (فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ) وهذا إشارة إلى جزاء أهل الخير ، وأعلم أن العلماء قد اختلفوا في بيان وزن الأعمال فقال المتكلمون : إن نفس الحسنات والسيئات لا يصح وزنها خصوصاً وقد تقضيا وانتهيا ، فالذي يوزن هو الصحف التي كتبت فيها الحسنات والسيئات ، ومنهم من قال : تمثل الحسنات بصورة حسنة وتمثل السيئات بصورة قبيحة ، ومن الناس من قال : إن ذكر الميزان وتقله كفاية عن عظم المنزلة وسمو القدر بسبب أعمال الخير التي عملها في الدنيا ؛ ومنه يقال : ثَقُلَ ميزانك ، إذا كان لك قدر ومنزلة وقيمة ، وكأنك إذا وضعت في كفة ميزان كان لها بك رجحان ، وإنما يكون المقدار والقيمة لأهل الأعمال الصالحة والفضائل الراجعة . وقوله سبحانه « فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ » معناه أنه يصير في حالٍ يرضاها وتُسَرُّ نفسه بها ، والمعنى أن من كان من أهل الخير والبر وكانت أعماله التي قدمها في حياته الأولى أعمالاً صالحة فإنه يصير في الآخرة في حالٍ تقرُّ بها عينه وتطمئن إليها نفسه ويثلج بها صدره فيصبح راضياً مغتبطاً .

ثم لما ذكر سبحانه نعيم أهل الخير عقبه بعقاب أهل الشر فقال : (وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ) والكلام في خفة الميزان كالكلام في ثقله ، وقد قال أبو بكر رضى الله عنه : إنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه باتباعهم الحق وثقله عليهم في الدنيا وحق الميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يكون ثقيلاً ، وإنما خفت موازين

وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ [١٠] نَارٌ حَامِيَةٌ [١١]

من خفت موازينه باتباعهم الباطل في الدنيا وخفته عليهم ، وحقّ لميزان يوضع فيه الباطل أن يكون خفيفا . وهو رضى الله عنه يشير إلى أن الحق ثقيل على النفس فلذلك كان الميزان ثقيلًا ، وأن الباطل خفيف على النفس فلذلك كان الميزان خفيفا . واعلم أنه يجب علينا أن نؤمن بما ذكره الله تعالى من الميزان نحو هذه الآية وفي نحو قوله سبحانه : « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة » وليس علينا أن نبحث فيما وراء ذلك مما لم يثبت عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، ونكل ما وراء ذلك إلى علام الغيوب ، على أن وزن الأعمال أو وزن صحائفها أو وزن الصور الجميلة ، كل ذلك أمر ممكن لا يترتب على فرض وقوعه محال ، فوقع شيء من ذلك لا يعجز الله ولا يقف أمام قدرته الغالبة ، وقوله سبحانه : « فأمه هاوية » معناه مرجعه الذي يأوى إليه النار الحامية التي سماها سبحانه الهاوية ، وأصل الهاوية المَهْوَاة السحيقة ، وسميت النار هاوية مع أن الإنسان يهوى فيها كما وصفت العيشة براضية مع أن الإنسان يرضى بها . ومعنى قوله سبحانه : (وما أدراك ما هي) معناه أى شيء يخبرك بما هي تلك الهاوية ويعلمك أنها أى شيء تكون . وقوله سبحانه : (نار حامية) بيان لها بعد إبهام أمرها ، والمراد أنها نار ملتهبة يهوى فيها ليلقى جزاء ما قدم من عمل وما أزلف من سيئات . وفيه إشارة إلى أن سائر النيران بالنسبة إليها مهما اشتدت وقويت كأنها ليست حامية إذا قيسَت إليها ووزنت بها ، وهذا القدر كافٍ في التنبيه على قوة حرارتها وشدة استعارها ، نفوذ بالله تعالى من النار الحامية ومن جميع أنواع العذاب ، ونسأله أن يمن علينا بنعمة التوفيق إلى العمل الذي ينحينا منها ؛ إنه سبحانه ولى التوفيق والمعونة آمين .

سورة التكاثر

[وهي مكية ، وآياتها ثمانُ آياتٍ ، ونزلت بعد سورة الكوثر^(١)]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْهُكُمُ التَّكَاثُرُ [١]

(١) لا خلاف بين العلماء في أن عدد آيات هذه السورة ثمانُ آيات ، وقد اختلفوا في مكان نزولها ؛ فقال قوم : هي مكية ، وقال آخرون : هي مدنية ؛ وقال أبو حيان : هي مكية عند جميع المفسرين ، وقال السيوطي : هي مكية على الأشهر ، وهو الحق

أخرج ابن أبي حاتم عن أبي بريدة ، قال : نزلت « ألهاكم التكاثر » في قبيلتين من قبائل الأنصار ، في بني حارثة وبني الحارث ؛ تفاخروا وتكاثروا ؛ فقالت إحداها : فيكم مثل فلان وفلان ؟ وقال الآخرون مثل ذلك ، تفاخروا بالأحياء ، ثم قالوا : انطلقوا بنا إلى القبور ، فجعلت إحدى الطائفتين تقول : فيكم مثل فلان ، وتشير إلى القبر ، ومثل فلان ، وفعل الآخرون مثل ذلك . فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى « ألهاكم التكاثر »

ووجه المناسبة بين هذه السورة والتي قبلها أظهر من أن يُشار إليه ؛ أفلا ترى أن السورة السابقة كانت في وصف القيامة وذكر بعض أهوالها ، وفيها ذكر جزاء الأخيار والأشرار جميعا ؛ وفي هذه السورة ذكر الجحيم — وهي الهاوية التي ذكرت في السورة السابقة — وذكر السؤال عما قدّم المرء من الأعمال في هذه الحياة الدنيا ، وهذه بعض أحوال الآخرة

قوله تعالى : (ألهاكم التكاثر) أصل اللهو الغفلة ، ثم شاع استعماله في كل

حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ [٢] كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ [٣]

ما يشغل الإنسان ، سواء أكان مما يُسر به أم لم يكن ، ثم خصَّصه العرف بعد ذلك بما يشغله مما يُسرُّ به . والتكاثر : التبارى في الكثرة والتباهى بها وذلك بأن يقول هؤلاء : نحن أكثر ، ويقول الآخرون : نحن أكثر ، ونحو ذلك . والمعنى شغلكم التفاخر والتباهى بكثرة الأنصار أو الأشياع وصرفكم ذلك عن الجد في العمل فكنتم في لهو بالقول عن الفعل وفي غفلة بالغرور والإعجاب بالآباء والأعوان ، فانصرفتم بذلك كله عن أن تصرفوا جهودكم وقواكم فيما خلقها الله له وفيما فرضه عليكم من العمل الصالح ، وما زال هذا دأبكم الذي استمررتم عليه (حتى زرتم المقابر) أى : حتى صرتم من الموتى ، والمعنى على ذلك أنكم بقيتم على ذلك طول حياتكم فلم تقلعوا عنه ، ويقال : المعنى أن الأمر في التكاثر قد ارتقى بكم من ذكر الأحياء وتعداد مفاخرهم من كثرة المال والولد وسائر ما يكون به الجاه في الدنيا إلى أن انتقلتم إلى القبور فتكاثرتم بالموات . وقد بينا في سبب نزول هذه الآية ما يستفاد منه هذا المعنى .

وقوله سبحانه : (كلا سوف تعلمون) كلا ردع لهم ولكل إنسان عن الاشتغال بما لا يعنيه ، وهو مع ذلك تنبيه على الخطأ لأن عاقبته وخيمة ، فكأنه سبحانه يقول : ارتدعوا عن مثل هذا العمل الباطل الذى لا تكون مغيبته إلا التفرقة والتقطيعة وهو مجلبة للأحقاد والضغائن ، ولا يفوز الإنسان بالتكاثر ، وإنما النصر الحقيقي والفوز الذى لا شك فيه بالتناصر على الحق والتكاتف على أعمال البر والتضافر على ما فيه حياة الأفراد والجماعات من تقويم الأخلاق وتطهير الأعراق . وقد حذف المفعول من قوله سبحانه « سوف تعلمون » وتقدير الكلام سوف تعلمون مغبة ما أنتم عليه من التكاثر إذا ما استمر حالكم عليه ، والعلم ههنا بمعنى المعرفة فلا يحتاج إلا إلى مفعول واحد ، وهو الذى قدرناه

ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ [٤] كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ [٥]

وقوله سبحانه : (ثم كلا سوف تعلمون) تكرر للسكلام السابق ، و صدر
 هذه الجملة بـثم للدلالة على أن الجملة الثانية أبلغ في الزجر عما لا ينبغي
 وقوله سبحانه : (كلا لو تعلمون علم اليقين) معناه لو تعلمون ما أنتم عليه
 وعاقبته الوخيمة علما يقيناً لا شك فيه ولا ارتياب ، فإضافة « علم » إلى « اليقين »
 من إضافة الموصوف للصفة ، ويقال : بل إضافة العلم إلى اليقين من إضافة المصدر
 إلى مفعوله ، واليقين : فاعل بمعنى مفعول ؛ وكأنه قيل : لو تعلمون ما أنتم عليه
 من سوء الحال علم الأمر الميقون الموثوق به ؛ وجواب « لو » محذوف لقصد
 التهويل : أي لو تعلمون عاقبة ذلك لشغلكم هذا العلم عن التكاثر و صرفكم
 إلى صالح الأعمال ، ونحو ذلك ، وإما ذكر سبحانه هذه العبارة زيادة في ردِّهم
 عما هم عليه من تغريرهم بأنفسهم ، فقد جرت عادة الغافلين أنك إذا نهتهم إلى
 ما هم عليه من الغفلة وذكرتهم بعواقب حالهم زعموا لك أنهم يعملون العواقب
 ويدركون ما يؤدي إليه حالهم ، وزعموا فوق ذلك أنهم لا يفعلون ما يفعلون إلا
 وهم في منتهى اليقظة والرشاد وسداد الفكرة ، وأنهم يرتقبون لأنفسهم منزلةً
 رفيعةً ومكانةً عاليةً تكون نتيجة صحيحة لما هم عليه . وكأنه سبحانه يقول لهم :
 ارتدعوا عما أنتم عليه ، ولا تحسبوا لأنفسكم أنكم تعلمون عواقبه ، فإن هذا الذي
 تظنونونه علما ليس على التحقيق علما ، بل هو وهم وظن لا يلبث أن يتبدد ويصير
 هباءً إذا صدمتكم الحقيقة

ثم إنه سبحانه بعد أن وصل بهم إلى هذا الحد استأنف القول في ذكر بعض
 ما ينتهي إليه هذا اللهو ، وهو العذاب الذي أعده لمن يفعل ذلك الذي لو علمته
 النفس علم اليقين لارتدعت عما تأتيه مما يجلبه عليها ويوقعها فيه ، فقال جل

لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ [٦] ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ [٧] ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ
عَنِ النَّعِيمِ [٨]

ثناؤه : (لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ) وهو جوابُ قسمٍ مقدرٌ قصد به تأكيد الوعيد والتشديد في التهديد ، وأوضح به ما أُنذروه بعد إبهامه ، والمعنى أن النار تكون دائماً في نظركم لا تغيب عنكم ، وقوله سبحانه : (ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ) أى سترونها رؤية هى نفس اليقين ، وذلك لأن انكشاف الأشياء بالرؤية والمشاهدة فوق سائر الانكشافات فهو أحق بأن يكون اليقين عَيْنَهُ ، قال الإمام : وعلم العيان والمشاهدة من أفراد اليقين يُسمَّى « عين اليقين » لأنه هو الذى تنتهى إليه جميع العلوم اليقينية ؛ لأن العلم البرهانى إن لم ينته إلى علم عيانى لا يعدّ يقيناً ، فالعيان هو ذات اليقين ، وبقية العلوم تضاف إليه متى استوفيت شرائطها ، وكفى برؤية الجحيم عن ذوق العذاب فيها ، وهى كناية شائعة فى الكتاب العزيز ؛ فإذا كان اللاهون بالتفاخر لابد أن يَصْلَوْا نار الجحيم إلى أى دينٍ أو إلى أى شخص كانت نسبتهُم فلم يبق عليهم إلا أن يتقوا الله فى أنفسهم وينتهوا عما يقذف بهم فى ذلك العذاب الأليم ، وينظروا إلى ما هم فيه من نعمة فيعروا حق الله فيها ويستعملوها فيما أمر الله أن تستعمل فيه ، ولا يكتفوا منها بالمتع بالذات ثم التفاخر بها . اهـ

وقوله سبحانه : (ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ) معناه أن هذا النعيم الذى أنعم الله تعالى به عليكم فانصرفتم عن شكره وصرتم تتفاخرون به ويكثر بعضكم بعضها ؛ سيكون يوم القيامة سؤالكم عنه ، فيسألكم الله عن كل نعمة أنعمها عليكم هل أدبتم واجبها من الشكر له ، فمن كان منكم قد أدى حق النعمة وعرف

فضل الله عليه فسيكون من أهل السعادة ، ومن يكن قد استبد بنعم الله ولم يؤد
حق السائل والمحروم فيها فهو من أهل العذاب الأليم

روى عن عمر رضى الله عنه أنه قال : أىُّ نعيم نسأل عنه يا رسول الله وقد
أُخِّرَ جَنَّا من ديارنا وأموالنا ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ظلال المساكين
والأشجار ، والأخبية التى تقيكم من الحر والبرد ، والماء البارد فى اليوم الحار »
وروى أنه صلى الله عليه وسلم قد قال : « مَنْ أَصْبَحَ آمِنًا فى سِرِّهِ مِعَافًى فى
بَدَنِهِ وعنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذاقيرها »

اللهم اجعلنا ممن أنعمت عليه فعرف لنعمتك حقها وأدّى ماوجب عليه
من شكرها ، آمين.

سورة العصر

[وهى مكية ، وآياتها ثلاث آيات ، ونزلت بعد سورة الشرح ^(١)]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَصْرِ [١]

(١) لاخلاف بين أحد من العلماء فى أن آى هذه السورة ثلاث آيات ، وقد اختلفوا فى مكان نزولها ؛ فروى عن مجاهد وقتادة ومقاتل أنها مدنية ، وروى عن ابن عباس وابن الزبير أنها مكية ، وهو ما اختاره الجمهور وجه المناسبة بين هذه السورة والتى قبلها أنه سبحانه قد ذكر فى السورة السابقة أنهم قد اشتغلوا بالتكاثر والمفاخرة بالمال والحسب والعدد الكثير وكل ماشأه أن يلهى الإنسان عن طاعة ربه والأخذ فى أسباب شكره على وافر نعمائه ، وقد ذكر فى هذه السورة أن شأن الإنسان وطبيعته التى جُبِلَ عليها داعية له إلى البوار ، وموقعة له فى أعماق بحار الدمار ؛ فكأنَّ هذا تعليل لما ذكر عنهم فى سورة التكاثر ، وكأنه سبحانه يقول : إنما حدث منكم ما حدث من التكاثر والتفاخر والتباهى لأن ذلك أمر مستقر فى طبيعة الإنسان إلا من عصمه الله تعالى وأزال عنه شرور نفسه ووقاه نوازعها الأخاذة به إلى ما لا يليق ، وشئ آخر من المناسبة بين السورتين ، وذلك أنه سبحانه قد ذكر فى السورة السابقة صفة من اتبع نفسه وهواه وجرى مع شيطانه حتى وقع فى التهلكة ، وذكر فى هذه صفة من تجمل بأحسن الطباع فأمن بالله وعمل الصالحات وتواصى مع إخوانه على الاستمساك بعرى الحق والاصطبار على مشاققة ومكارهه ، والشئ إذا قبل بضده تميز أكبر تميز ؛ فلا جرم ذكر صفة المؤمنين بعد ذكر صفة اللاهين الغافلين قوله تعالى : (والعصر) قد اختلف العلماء فى المراد من هذه الكلمة ؛ فروى

عن ابن عباس رضى الله عنهما أن المراد بالعصر الدهر ، وإنما أقسم سبحانه بالدهر لما فيه من العبر التى يُستدلُّ بها على عظيم قدرة الله وبالعظمى وحكمته وواسع علمه ؛ أَلَسْتَ ترى أن فيه يتعاقب الليل والنهار ، وهما من آيات قدرة الله ، ثم أَلَسْتَ ترى أن الإنسان يتداول عليه فى الدهر ما ليس يُحصى من سرِّاء وضراء ، ومن صحة وسقم ، ومن غنى وفقر ، ومن راحة وتعب ، ومن فرح وحزن ، وغير ذلك مما يتنبه به العاقل إلى أن للسكون ربًّا هو خالقه وهو مُدَبِّرُ أمره وهو المستحق للتوجه إليه بالعبادة والطلب . وشئ آخر يقتضى أن يُقسم الله تعالى بالدهر ، وذلك أن الكفار كانوا يضيفون ما يحدث لهم من سوء إلى الدهر ، وكانوا يقولون : هذا دهر سوء ، وهذا زمان بلاء ، وهذه نائبة من نوائب الدهر ، فأراد الله أن يبين لهم خطأ هذا الذى ذهبوا إليه فأقسم بالدهر ، وكأنه سبحانه يقول لهم : إن الدهر خلق من خلقى كما أنكم أنتم خلق من خلقى ، وإنه ظرف تقع فيه الحوادث خيرها وشرها كما أن فيكم من هو من أهل الخير ومن هو من أهل الشر ؛ فان وقعت لأحدكم مصيبة فليس للدهر فيها من سبب ولكنها بما كسبت أيديكم وبما جررتكم على أنفسكم . ومن العلماء من ذهب إلى أن المراد بالعصر أحد طرفى النهار ، وكان قائل ذلك قد نظر إلى أنه سبحانه قد أقسم بالضحى وهو جزء من النهار ، وأقسم بالليل وهو مقابل للنهار كله ؛ قال الأستاذ الإمام : وكان من عادة العرب أن يجتمعوا وقت العصر ويتحدثوا ويتذاكروا فى شئونهم ، وقد يكون فى حديثهم مالا يلىق ، أو ما يؤذى به بعضهم بعضا ؛ فيتهم الناس أن الوقت مذموم ، فأقسم الله به لينبهك إلى أن الزمان فى نفسه ليس مما يذم ويسب ؛ كما اعتاد الناس أن يقولوا : زمان مشئوم ، ووقت نحس ، ودهر سوء ، وما أشبه ذلك ، بل هو عادٌّ للحسنات كما هو عادٌّ للسيئات ، وهو ظرف لشئون الله الجليلة من خالق ورزق وإعزاز وإذلال وخفض ورفع ، فكيف يذم فى ذاته ، وإنما قد يذم ما يقع فيه من

إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ [٢]

الأفاعيل الممقوتة . ا هـ . ومن العلماء مَنْ ذهب إلى أن المراد بالعصر في هذه السورة صَلَاةُ هذا الوقت ، وهذا القول مرئى عن مُقاتل ، وإنما أقسم سبحانه بصلاة العصر لفضلها وشرفها ، لأنها هي الصلاة الوُسْطَى للمأمور بالمحافظة عليها في قوله سبحانه : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى » . وعلى أية حال فهذا قَسَمٌ أقسم الله سبحانه به على ما ذكره بقوله : (إن الإنسان لفي خسر) والمراد بالإنسان هذا الجنسُ من المخلوقات ^(١) والخسر مثل الخسران ، كالكفر والكفران ، وأصل معنى الخسر النقصان وذهاب رأس المال ، والمراد به ههنا ما ينغمس فيه الإنسان من الأسباب المُرْدية والآفات المهلكة . وتنكير « خُسْر » للدلالة على تعظيم خُسْرانه وأنه بلغ مبلغاً لا يدرك كنهه ولا يتوصل إلى معرفة حقيقته ، وذلك أن الذنب يَعْظُمُ بعضُه من يقع في حقه الذنبُ ، فذنب المرء مع بعض إخوانه ليس مثل ذنبه في حق سلطانه ، فكيف إذا كان في حق خالقه ورازقه والقادر على أن يأخذه ويبطِش به من غير أن يقدر على الدفاع عن نفسه ، وشيء آخر يدل على تعظيم خسران الإنسان ، وذلك أن الذنب قد يَهْوُنُ أمره إذا كان في مقابلة ذنبٍ حدث ممن يقع الذنب في حقه ، فإذا وقع الذنب من المرء في حق مَنْ لم يذنب إليه كانت جريرته أشد وذنبه أقوى ، فكيف إذا وقع الذنب منه في مقابلة ما يَمُنُّ به ربه عليه من نعمه الجليلة والآلئه

(١) وذهب ابن عباس إلى أن المراد بالإنسان ههنا أفراد معينة منهم الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والأسود بن عبد المطلب ، وذهب مقاتل إلى أن المراد به أبو لهب ، ويقال : المراد به أبو جهل ، وكل هذه الأقوال بعيدة عن سياق السورة أفلا ترى أنه سبحانه قد استثنى من الإنسان الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، والاستثناء دليل على أن المراد العموم .

الجسيمة؟! والتعبير بنفى خسر يدل على أن الإنسان كالمغمور في الخسران وأن هذا الخسران قد أحاط به من كل جانب . وانظر إلى تأكيد ذلك بإن وباللام تدرك مقدار ثبوت ذلك للإنسان . قال الأستاذ : يقسم الله بالزمان مطلقاً أو بذلك الوقت المخصوص إن الإنسان لفي خسر إلى آخر السورة ليؤكد بالقسم تلك القضية ، وهى أن جميع مَنْ يطلق عليه اسم الإنسان ممن هو معهود للمخاطبين — وهو الإنسان العاقل البالغ — خاسر في أعماله ضرباً من الخسران ، إلا من يستثنى منهم ؛ فأعمال الإنسان هى مصدر شقائه ، لا الزمان ولا المكان ، وتصوير الاستغراق بما قدمت لا ينافى الشمول والعموم ، كما رأيت ، فإن هذا هو الفرق بين الاستغراق بكل والاستغراق بأل ؛ فلا استغراق بأل إنما هو لما عهد عند المخاطبين من الأفراد ، يخطر بالبال عند ذكر الاسم مقروناً بها ، ولو قيل « كل إنسان في خسر إلا الذين آمنوا » لم يصح ، لأن من الإنسان الصبى الذى لا يميز ، وهو لا خسران له ولا ربح . اه . وقال الامام الرازى : واعلم أن هذه الآية كالتنبيه على أن الأصل فى الانسان أن يكون فى الخسران والخيبة ، وتقريره أن سعادة الانسان فى حب الآخرة والإعراض عن الدنيا ، ثم إن الأسباب الداعية إلى الآخرة خفية ، والأسباب الداعية إلى حب الدنيا ظاهرة وهى الحواس الخمس والشهوة والغضب ؛ فلهذا السبب صار أكثر الخلق مشتغلين بحب الدنيا مستغرقين فى طلبها ؛ فكانوا فى الخسران والبوار . فإن قيل : إنه تعالى قال فى سورة التين « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين » فهناك يدل على أن الابتداء من الكمال والانتهاى إلى النقصان ، وههنا يدل على أن الابتداء من النقصان والانتهاى إلى الكمال ، فكيف وجه الجمع ؟ قلنا : المذكور فى سورة التين أحوال البدن^(١)

(١) هذا على ما اختاره هو فى تفسير قوله تعالى : « لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين » من سورة التين ، ولم نرتض نحن هذا

إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا
بِالصَّبْرِ [٣]

وههنا أحوال النفس ؛ فلا تناقض بين القولين . اهـ .

وقوله سبحانه : (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) هو استثناء مما سبق ،
وفيه تسليية للمؤمن بأن العمل الصالح يوصله إلى ما يرغب من رضى ربه ، كما
أن فيه تنبيها على أن كل ما دعاك إلى طاعة الله فهو صلاح وكل ما شغلك عن الله
تعالى فهو فساد ، والتعبير عنهم بالموصول وصلته للدلالة على أن هذه الصفات التى
ذكرت فى الصلة هى سبب ما وصلوا إليه ، فكأنه سبحانه يقول : إن هؤلاء
القوم ناجون وليسوا ممن حكم عليهم بالخسار والبوار ؛ لأنهم صدقوا بأصل الخير
والشر واعتقدوا اعتقادا صحيحا بالفرق بين الفضيلة والرذيلة وبأن لأنفسهم وللعالم
كله خالقا قادرا وحاكما يرضى عن المطيع ويغضب على العاصى ويثيب أهل الطاعة
ويعاقب أهل المعصية . ثم لم يكن تصديق هؤلاء بذلك كله إلا ليدفعهم إلى أعمال
البر والخيرات ، فلم يكونوا ليعملوا عملا يخالف ما عليه اعتقادهم ولم يكونوا ليتروا
عملا تدعو إليه عقيدتهم .

وقوله سبحانه : (وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) هو من تكملة الصلة ، والحق :

التفسير ، بل رأينا أن المراد به أحوال النفس أيضا ، فلا يندفع الاشكال الذى
ذكره بما قاله ، ووجه اندفاعه على ما اخترناه أن نقول لك : إن الذى ذكره
سبحانه فى سورة التين هو بيان للفطرة التى فطر الله الناس عليها ، وأنه خلقهم
مستعدين لأكرم الخلال وأجل الأعمال وأفضل الأفعال ، وما فى هذه السورة
بيان لما اختاروه لأنفسهم وسلكوه من عند أنفسهم وأنهم استحبوا العمى على
الهدى ، وانظر ص ٢٥١ وما بعدها من هذا التفسير .

ما تقر به وثبت مما أرشد إليه دليل قاطع أو مشاهدة من حقيقة ثابتة أو شريعة صحيحة ،
والصبر : قوة للنفس تدعوها إلى احتمال المشقة في العمل الطيب وتهوّن عليها احتمال
المكروه في سبيل الوصول إلى شريف الأغراض ، فالتواصى بالحق يدخل فيه
الدين كله من علم وعمل . والتواصى بالصبر يدخل فيه حمل النفس على مشقة
التكليف في القيام بما يجب وفي اجتناب ما يحرم . وقد اشتملت هذه السورة
الكريمة على شديد الوعيد ، وذلك لأنه سبحانه حكم بالخسار على جميع الناس إلا
من كان متصفاً بهذه الأشياء الأربعة ، وهى الإيمان والعمل الصالح والتواصى بالحق
والتواصى بالصبر ، فدل ذلك على أن النجاة معلقة بمجموع هذه الأمور ، وأنه كما
يجب على الانسان أن يأتي من الأعمال ما فيه الخير والنفع يجب عليه أن يدعو غيره
إلى الدين وينصحه بعمل الخير والبر ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويجب
لأخيه ما يحب لنفسه وأن يثبت على ذلك فلا يحيد عنه ولا يُزحزحه عن الدعوة
إليه ما يلاقيه من مشقة وبلاء . والله سبحانه وتعالى أعلى وأعلم .

سورة الهمزة

[وهى مكية ، وآياتها تسعُ آياتٍ ، ونزلت بعد سورة القيامة] ^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ [١]

(١) أكثر المفسرين على أنه لاخلاف بين أحد من العلماء في أن هذه السورة مكية ولا في أن آياتها تسع آيات ، إلا شيئاً ذكره صاحب «فتح البيان» عن الحلبي من أنه قيل إنها مدنية .

وجه المناسبة بين هذه السورة والتي قبلها أنه سبحانه لما ذكر في السورة السابقة أن جميع أفراد الإنسان ممن عهدهم المخاطبون منغمسون في الضلال ذكر في هذه السورة بعض صفات بعض أهل الضلال .

قال عطاء والكلبي : نزلت هذه السورة في الأحنس بن شريق ، كان يلمز الناس ويغتابهم ، وخاصة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال مقاتل : نزلت في الوليد بن المغيرة ، كان يغتاب النبي صلى الله عليه وسلم من ورائه ، ويظعن عليه في وجهه . وقال محمد بن إسحاق : مازلنا نسمع أن هذه السورة نزلت في أمية بن خلف . وقد علمت مما ذكرناه مراراً أن سبب النزول لا يخص ، وأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

قوله سبحانه : (ويل لكل همزة لمزة) الويل : لفظ يدل على النهم والسخط والتقييح ، والمقصود به التنبيه على قبح ما يذكر من الأفعال ؛ والهمزة : مأخوذ من الهمز وهو الكسر ، واللمزة : مأخوذ من اللمز وهو الطعن ، ويقال : الهمز

الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ [٢]

ما يكون من حركات باليد والعين والشدق تدل على الهزء والسخرية ، والهمز ما يكون باللسان ، واعلم أن وزن فُعْلَةٌ - بضم الفاء وفتح العين - يؤتى به للدلالة على أن الموصوف به مُعْتَدٌ للأتیان بهذا الوصف والاكثر من فعله ، فتقول : فلان ضَحْكَةٌ لُئِنَ ، إذا كان يكثر من الضحك واللَّعْنُ ، ولا تقولها لمن أتى بذلك مرة واحدة ؛ وبناء فُعْلَةٌ - بضم الفاء وسكون العين - يؤتى به للدلالة على أن الموصوف به يكثر أن يُفْعَلَ به ذلك ؛ فتقول : رجل ضَحْكَةٌ ، إذا كان الناس يتخذونه أَضْحُوكَةً ؛ ولا تقولها لمن يُضْحِكُ منه مرة واحدة ، فالبناء الأول لوصف الفاعل ، والبناء الثاني لوصف المفعول ، وكلاهما يختص بمن حاله وشأنه واعتياده ذلك . والمراد ههنا بالهمزة والهمزة الذي يطعن في أعراض الناس ويُغَضُّ من شأنهم ويحقر من أعمالهم وصفاتهم وينسب إليهم السيئات وينفي عنهم المكارم ، يتلذذ بالخط منهم ويمجد في نفسه من الرغبة ما يدفعه إلى النيل من كرامتهم والازدراء بهم ليظهر للناس أنه أرفع منهم شأنًا وأسمى مكانة وأعلى منزلة .

وقوله سبحانه : (الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ) يَجْرِي جَرَى السبب والعلة في الهمز والهمز ، فكأنه سبحانه يقول : إنما دعاه إلى عيب الناس والخط منهم إعجابه بما جمع من المال وظنه أن الفضل في الناس إنما يكون بالمال لا بالمكارم والأخلاق . ومعنى « عَدَّدَهُ » جعله عُدَّةً وذخيرةً ، تقول : أَعَدَّدْتُ السيف للحرب ، وَعَدَّدْتَهُ لَهُ ، إذا جعلته عُدَّةً وذخيرةً له . ويقال : عَدَّدَهُ مِثْلَ عَدَّةٍ ، ومعناها أحصاه بِالْعَدِّ ، والفرق بينهما أن عَدَّدَ تدل على كثرة المعدود ، ويقال : عَدَّدَهُ معناه كثرة ونماء ،

يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ [٣] كَلَّا لِيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ [٤]

وقوله سبعانه : (يحسب أن ماله أخلده) معناه أن هذا الهمّاز العيّاب قد ظن أن ماله الذي جمعه قد ضمن له الخلود في الدنيا وأعطاه الأمان من الموت فهو لذلك يعمل عمل مَنْ يظن أن يبقى حياً أبداً الدهر . قال الأستاذ : أى أن الذى يحمله على الخط من أقدار الناس هو جمعه المال وتعيده : أى عدّه مرة بعد أخرى شغفا به وتلذّذاً باحصائه لأنه لا يرى عزّاً ولا شرفاً ولا مجداً فى سواه ، فكلما نظر إلى كثرة ما عنده منه انتفخ وظن أنه من رفعة المكانة بحيث يكون كل ذى فضل ومزية دونه ، فهو يهزأ به ويهمزه ويلمزه ثم لا يخشى أن تصيبه عقوبة على الهمز واللمز وتمزيق العرض ، لأن غروره بالمال أنساه الموت وصرف عنه ذكرى المال فهو يحسب أن ماله أخلده : أى يظن أن ما عنده من المال قد حفظ له حياته التى هو فيها وأرصدها عليه فهو لا يفارقها إلى حياة أخرى يعاقب فيها على ما كسب من سىء الأعمال . اهـ

ثم إنه سبعانه لما بين قببح هذه الأفعال وشناعتها ، وذكر أن صاحبها ومرتكبها من المقبوحين المرذولين ، وتوعّد مرتكبها باليم العذاب وشديد العقاب ، وبين مع ذلك السبب الذى حمله على ارتكاب هذه الخلال الممقوتة وأنه ظن كاذب وحسبان لا حقيقة له ولا ثبات ؛ أخذجل ذكره فى بيان العقاب الذى أعدّه له بيانا يشتمل على نوع من التفصيل مع تصدير هذا البيان بالقسم للدلالة على أنه أمر ثابت مُحَقَّقُ الوقوع ؛ فقال سبعانه : (كَلَّا لِيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ) وكلا : حرف ردّع وزجر يُراد به كفى هذا الفَحَّاش العيّاب عن ظنه الفاسد وحسابه الكاذب ، وكأنه سبعانه يقول له : ارتدع عما ظننت ولا تدُم عليه فليس الأمر كما خيّل لك من أن المال يخلدك ويبقيك ، بل الذى تبقى

وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْخُطْمَةُ [٥]

به وإن انتضى أجلك هو العلم والعمل الصالح ؛ لأن خزان الأموال يموتون وهم أحياء إذ يمتتهم الناس ويكرهونهم لأنهم لا ينالون منها شيئاً ، وأما العلماء والعاملون فذكرهم باقي ببقاء الدهر والثناء عليهم مستمر ما بقي على الأرض إنسان ينتفع بعلمهم ، ويقال : كلا في هذا الموضع بمعنى حقاً وتفيد معنى القسم ولذلك أتى بلام الجواب بعدها ، ولا دليل في الاتيان باللام لأنه يجوز تقدير قسم بعد كلا ، وكأنه سبحانه بعد أن زجره وكفّه عن البقاء على ظنه قد قال والله لينبذن في الخطمة . والنَّبَذُ : الطرح مع الاهانة والتحقير والتصغير من شأن المطروح ، والخطمة في أصل اللغة من الحُطْم ، وهو الشدة ، ويقال : رجل حُطْمَة ، إذا كان شديداً لا يبقى على شيء ، وقد قالوا : شرُّ الرعاء الحُطْمَة ، وهو الذي يحطم الماشية ويكسرهما بشدة سوقها وبعظم عنفه ، وقال الرازي :

قَدْ لَفَّهَا اللَّيْلُ بِسَوَاقٍ حُطْمَ لَيْسَ بِرَاعِي إِبِلٍ وَلَا غَنَمٍ

وَلَا يَجْزَارِ عَلَى ظَهْرٍ وَضَمَ

والمراد بالخطمة في الآية الكريمة النار ، قال مقاتل : هي تحطم العظام ، وتأكل اللحوم ، حتى تهجم على القلوب ، ومعنى قوله تعالى « لينبذن في الخطمة » ليُطرحن في النار الشديدة الإحراق طرح الذليل المهان الذي لا يؤبه به ولا ينظر إليه ولا يبالي بشأنه

وقوله سبحانه : (وما أدراك ما الخطمة) استفهام عنها يقصد به تعظيم أمرها وإكبار شأنها وبيان أنها مما لا تدركه العقول ولا يوقف عليها إلا بعد التعريف فكأنه سبحانه يقول لنبيه : إن هذه الخطمة مما لا تحيط به المعرفة ولا تقف على

نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ [٦] الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْنَدَةِ [٧]

حقيقته عقول البشر فمن ذلك الذى يُعلمك بمقدارها ويبين لك حالها ويقفك على كنهها غير الذى أَعَدَّهَا وهَيَّأَهَا لمن يستحقها

ثم بين سبحانه هذه الحطمة بعد إبهام أمرها فقال : (نار الله الموقدة) وإضافة النار إلى الخالق جل شأنه للتفخيم والتعظيم والمعنى أنها النار التى لا يجوز أن تنسب وتضاف لغير الله سبحانه وتعالى لأنه هو الذى أنشأها وأَعَدَّهَا لعقاب هذا النوع من العصاة والمذنبين . ووصفها بالموقدة يفيد أنها لا تحمد أبداً فهى ملتبئة التهاباً لا يدرك كنهه غيره سبحانه ولا يعتريها بعده خمود ولا فتور

ثم لما وصف الله سبحانه هذه النار بالانتقاد وبين أنها ناره ولا يصح نسبتها إلى غيره ، وذلك يدل على أنها تخالف نيران الدنيا المعروفة لنا أخذ فى وصفها بأوصاف أخرى تخالف أوصاف نيران الدنيا ليؤكد مخالفتها لها فقال : (التى تطلع على الأفئدة) وقد اختلف العلماء فى معنى « تطلع » فقال قوم : المراد أنها تتغلب على الأفئدة وتقهِّرها وتعلموها ، ومعنى ذلك أن هذه النار تدخل فى أجوافهم حتى تصل إلى صدورهم فتأكل أفئدتهم ، وقد علمت أنه لا شيء ألطف فى بدن الإنسان من القوادر الذى هو القلب ، وأنه أشد أجزاء البدن تألماً ، فإذا استولت النار عليه فأحرقته فقد بلغ العذابُ بالإنسان أعظم مبلغ ووقع عليه منه أكبر نصيب ، وقال قوم : الاطلاع ههنا بمعنى العلم والمعرفة ، وكأن هذه النار تدرك ما فى أفئدة الناس يوم البعث فتعرف العاصى من الطائع ، وتميز بين الطيب والخبيث ، وتعرف فرقاً ما بين أهلها الذين اجتروا السيئات فى حياتهم الأولى وأهل الجنة الذين أحسنوا أعمالهم ؛ فإذا عرفت النوعين وميزت بينهما أخذت من يستحقها ممن هو من أهلها ؛ وأنت خير بأن النار التى تدرك من يستحق العقاب ممن يستحق المغفرة والرحمة

إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ [٨]

لا تكون من نيران الدنيا المعروفة لنا ولا من أشباهها ؛ فذلك وصف يميز هذه النار عما نعرفه من النيران ، وعلم حقيقتها وكنهها عند علام الغيوب الذى له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما ، والذى لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى السواء ولا فى الأرض ، والذى خلق الطاعة وخلق لها أهلها وخلق لهم النعيم المقيم جزاء عليها وخلق المعصية وخلق لها أهلها وخلق لهم العذاب المقيم جزاء عليها ؛ كما أنه لا يخفى عليك أن الكلام على تفسير الاطلاع بالادراك والمعرفة لا يخلو من تجوُّز

فان قلت : فما السر فى تخصيص الأفئدة بالطلاع النار عليها سواء أكان الاطلاع بمعنى الغلبة أم كان بمعنى الإدراك ؟

فالجواب عن ذلك أنه إذا كان الاطلاع بمعنى التغلب فالسر فى تخصيص الأفئدة بالذكر القصد إلى وصف هذه النار بقوة الغلبة لأنها إذا كانت تصل إلى القلوب التى أودعت باطن الإنسان فى أخفى مكان منه فهى إلى غيره أشد وصولاً ، وإن كان الاطلاع بمعنى المعرفة والادراك فالسر فى تخصيص الأفئدة أنها مواطن الكفر والعقائد الخبيثة والنيات الفاسدة وهى منشأ الأعمال السيئة التى استحق بسببها الانسان العقاب

ثم وصف سبحانه هذه النار بوصف آخر فقال : (إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ) ومُّوَصَّدَةٌ بمعنى مُطْبَقَةٌ ، وهو اسم مفعول من قولك : أَوْصَدْتُ البابَ ، إذا أغلقته وأطبقتة ، وقال الشاعر :

تَحْنُ إِلَى أَجْبَالِ مَكَّةَ نَاقَتِي وَمِنْ دُونِهَا أَبْوَابُ صَنْعَاءَ مُّوَصَّدَةٌ

والمراد بذكر إحصائها على أهلها بيان أنهم لا يخرجون منها ولا يستطيعون الخروج إن أرادوه كما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها ، وقد تضمنت

فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ [٩]

هذه الآيات المبالغة في العذاب وبيان أنه عذاب شديد ألِيم ، وذلك من وجوه :
أحدها يدل عليه قوله تعالى « لينبذن » والنَّبَذُ معناه الطرح ، وإنما يكون الطرحُ
إذا كان المكان الذي يطرح فيه بعيد القعر شديد العمق ، والثاني تسمية هذا
المكان بالخطمة وهذا يفيد بأصل اشتقاقه أنها تكسر أجسامهم وتحطمها ، والثالث
جعلها ذات باب مُوصَد عليهم ، فوجود الباب يلفت أذهانهم إلى الخروج منها
لأن الباب إنما يجعل ليتوصل به من داخل إلى خارج ومن خارج إلى داخل
وهم إذا تذكروا الخروج وهموا به لم يستطيعوا السبيل إليه ، فذلك أشد تنكيلا
بهم وأبعث إلى الحسرة والأسى في قلوبهم

وقوله سبحانه : (فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ) معناه كما قال مقاتل أن الأبواب
أُطْبِقَتْ عليهم ثم شُدَّتْ بأوتادٍ من حديدٍ فلا يفتح عليهم باب ولا يدخل
عليهم روح . ومعنى كون العمدة ممددة أنها مطولة تمتد من أول الباب إلى آخره
وقد قرئ « فِي عَمَدٍ » بفتح العين والميم جميعا ، وقرئ « فِي عَمَدٍ » بضم
العين والميم جميعا ، أما العَمْدُ بضمّتين فلا خلاف في كونه جمع عَمُود ، مثل
سرير وسُرُر وزُبُر وزُبُر وكتاب وكُتُب ورسول ورُسُل وصحيفة وصُحُف ،
وذلك لأن فعلاً من جموع التكسير يطرّد في جمع كل اسم على أربعة أحرف
ثلاثها مدة ، بشرط أن تكون اللام صحيحةً ، وإذا كانت المدة ألفا اشترط أن
تكون اللام غير مضاعفة نحو هلال وسنان ؛ وأما عَمْدٌ بفتح العين والميم جميعا
فقال الفراء : هو أيضا جمع عَمُود مثل أديم وأَدِيم ، وقال أبو عبيدة : هو جمع
عماد ، وقيل : هو اسم جمع لعمود وليس جمعا له

والمقصود من الآية الكريمة تصوير شدة إطباق النار على هؤلاء وإحكام

إطباقها عليهم وتأكيد ذلك كله والمبالغة فيه ليودع قلوبهم اليأس من الخلاص منها
وما ينبغي أن تعلمه في هذا المقام أن كون هذه العمد من نار أو من حديد ، وأنها
مشبهة لعمد الدنيا التي تطبق بها الأبواب في كونها تمتد عرضاً أو طولاً ، وغير
ذلك من الصفات التي يمثلها لك الوهم والخيال ، مما لم يذكره الله تعالى في
كتابه ولا تعرض له رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيانه ؛ كل أولئك مما
لا يسوغ أن تتعرض له أو تتدخل فيه ، فانك إن فعلت ذلك كنت ممن يفترى
على الله الكذب ، وليس أشنع جرماً من أن تفعل ذلك
نسأله سبحانه أن ينجيننا من النيران ومن عذاب النيران ، وأن يوفقنا إلى العمل
الصالح ويجعله ذخيرتنا يوم لقائه ، آمين .

سورة الفيل

[وهي مكية ، وآياتها خمس آيات ، ونزلت بعد سورة
الكافرين] ^(١)

(١) لاخلاف بين أحد من العلماء في أن هذه السورة مكية ، كما أنه لاخلاف
بينهم في أن آياتها خمس آيات

حدث ابن إسحاق في السيرة ^(١) قال : بنى أبرهة الأشرم القليس ^(٢)
بصنعاء ، فبنى كنيسة لم يُرَ مثلها في زمانها بشيء من الأرض ، ثم كتب إلى
النجاشي : إني قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يُبْنَ مثلها لملك كان قبلك ،
ولست بمُنْتَهٍ حتى أصرف إليها حجّ العرب . فلما تحدثت العرب بكتاب أبرهة
ذلك إلى النجاشي غضب رجل من بني فُقيّم بن عدى بن عامر بن ثعلبة فأتى
القليس فقعده فيها ^(٣) ثم خرج فلحق بأرضه ، فأخبر بذلك أبرهة ، فقال :

(١) انظر كتاب سيرة النبي صلى الله عليه وسلم لابن هشام (ج ١ ص ٤٣
وما بعدها)

(٢) قال السهيلي : وكان أبرهة قد استندل أهل اليمن في بنيان هذه الكنيسة ،
وجشمهم فيها أنواعا من السخر ، وكان ينقل إليها العدد من الرخام المجزع والحجارة
المنقوشة بالذهب ، من قصر بلقيس صاحبة سليمان عليه السلام وكان من موضع
هذه الكنيسة على فراسخ وكان فيه بقايا من آثار ما سكها ، فاستعان بذلك على
ما أَراد في هذه الكنيسة من بهجتها وبهائها ، ونصب فيها صابانا من الذهب والفضة ،
ومنابر من العاج والابنوس ، وكان أراد أن يرفع من بنائها حتى يشرف منها
على عدن . اهـ

(٣) قعد فيها : أحدث

من صنع هذا ؟ فقيل له : صنع هذا رجل من العرب من أهل هذا البيت الذي
 يحج العرب إليه بمكة ، لما سمع قولك أصرف إليها حج العرب غضب فجاء ففعل
 فيها ، فغضب عند ذلك أبرهة وحلف ليسيرن إلى البيت حتى يهدمه ، ثم أمر
 الحبشة فتهيأت وتجهزت ، ثم سار وخرج معه بالقيط ، وسمعت بذلك العرب
 فأعظموه وفظعوا به وراوا جهاده حقا عليهم ، حين سمعوا بأنه يريد هدم الكعبة
 بيت الله الحرام ، فخرج إليه رجل كان من أشرف أهل اليمن وملوكهم يقال
 له ذو نقر ، فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وجهاده عن بيت
 الله الحرام وما يريد من هدمه وإخراجه ، فأجابه إلى ذلك من أجابه ، ثم عرض له
 فقاتله ، فهزم ذو نقر وأصحابه ، وأخذ له ذو نقر فأتى به أسيرا ، فلما أراد قتله
 قال له ذو نقر : أيها الملك ، لا تقتلني فإنه عسى أن يكون بقائى معك خيرا لك
 من قتلى ، فتركه من القتل وحسبه عنده في وثاق ، وكان أبرهة رجلا حليما
 ثم مضى أبرهة على وجهه ذلك يريد ما خرج له ، حتى إذا كان بأرض خثعم
 عرض له نقيط بن حبيب الخثعمي في قبيل خثعم شهران وناهس^(١) ومن تبعه
 من قبائل العرب ، فقاتله ، فهزمه أبرهة وأخذ له نقيط أسيرا ، فأتى به ، فلما هم
 بقتله قال له نقيط : أيها الملك ، لا تقتلني فإني دليلك بأرض العرب وهاتان يدائ
 لك على قبيل خثعم شهران وناهس بالسمع والطاعة ، فحلى سبيله ، وخرج به
 معه يداً ، حتى إذا مر بالطائف خرج إليه مسعود بن مئتب بن مالك بن كعب
 ابن وعمر بن سعد بن عوف بن ثقيف في رجال ثقيف ، فقالوا له : أيها الملك ،
 إنما نحن عبيدك سامعون لك مطيعون ، ليس عندنا لك خلاف ، وليس يبتئنا هذا

(١) ويقال : قبائل خثعم ثلاث : شهران ، وناهس ، وأكلب . لكن الراجح

هو ما ذكره ابن إسحاق لأن أكلب عند أهل النسب هو ابن ربيعة بن نزار ، ولكنهم

دخلوا في خثعم فانتسبوا إليهم

البيت الذى تريد (يعنون اللات) إنما تريد البيت الذى بمكة ، ونحن نبعث
معهك من يدلك عليه ، فتجاوز عنهم ، فبعثوا معه أبا رِغَالٍ يدلّه على الطريق
إلى مكة ؛ فخرج أبرهة ومعه أبو رِغَالٍ حتى أنزله المغمس ، فلما أنزله به مات
أبورغال هنالك ، فرجعت قبره العرب ، فهو القبر الذى يرجم الناس بالمغمس . فلما
نزل أبرهة المغمس بعث رجلا من الحبشة يقال له الأسود بن مقصود على خيل له ،
حتى انتهى إلى مكة فساق إليه أموال تهامة من قريش وغيرهم ، فأصاب فيها
مائتى بعير لعبد المطلب بن هاشم ، وهو يومئذ كبير قريش وسيدها ، فهبت قريش
وكنانة وهذيل ومن كان بذلك الحرم بقتاله ، ثم عرفوا أنهم لا طاقة لهم به ،
فتركوا ذلك . وبعث أبرهة حُنَاطَةَ الحِميرى إلى مكة وقال له : سل عن سيد
أهل هذا البلد وشريفها ، ثم قل له : إن الملك يقول لك : إني لم آت لحر بكم ، وإنما
جئت لهدم هذا البيت ، فإن لم تعرضوا لنا دونه بحرب فلا حاجة لى فى دماءكم ، فإن
هو لم يرد حربى فأنتبى به ؛ فلما دخل حُنَاطَةُ مكة سأل عن سيد قريش وشريفها ،
فقال له : عبد المطلب بن هاشم ، فجاءه ، فقال له ما أمره به أبرهة ، فقال له
عبد المطلب : والله ما يريد حربى ، ومالنا بذلك من طاقة ، هذا بيت الله الحرام ،
وبيت خليله إبراهيم عليه السلام ؛ فان يمنعه منه فهو بيته وحرمة ، وإن يُحَلَّ
بينه وبينه فوالله ما عندنا دَفْعُ عنه ، فقال حُنَاطَةُ : فانطلق معى إليه فانه قد
أمرنى أن آتية بك ، فانطلق معه عبد المطلب ومعه بعض بنيهِ ، حتى أتى العسكر
فسأل عن ذى نَفَرٍ ، وكان له صديقا ، حتى دخل عليه وهو فى مَحْبَسَةٍ ، فقال
له : يا ذا نَفَرٍ ، هل عندك من غَنَاءٍ فيما نزل بنا ؟ فقال له ذو نفر : وما غَنَاءُ رجل
أسيرٍ بيدي ملك ينتظر أن يقتله غَدُؤًا أو عَشِيًّا ؟ ما عندى من غَنَاءٍ فى شىء
مما نزل بك ، إلا أن أنيسا سائس الفيل صديق لى وسأرسل إليه فأوصيه بك
وأعظم عليه حَقَّك وأساله أن يستأذن لك على الملك فتكلمه بما بدالك ويشفع

لك عنده بخير إن قدر على ذلك ، فقال : حسبي ، فبعث ذو نَفرٍ إلى أنيس فقال له : إن عبد المطلب سيد قريش وصاحب عير مكة ، يطعم الناس بالسهل والوحوش في رءوس الجبال ، وقد أصاب له الملك مائتي بعير ، فاستأذن له عليه ، وانفعه عنده بما استطعت ، فقال : أفعُلُ . فكلَّم أنيس أبرهة فأذن لعبد المطلب ، وكان عبد المطلب أوسَمَ الناس وأجملهم وأعظمهم ؛ فلما رآه أبرهة أجَلَّ وأعظمه وأكرمه عن أن يجلسه تحته ، وكره أن تراه الحبشة يجلس معه على سرير ملكه ، فنزل أبرهة عن سريره فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جنبه ، ثم قال لترجمانه : قل له حاجتك ، فقال له ذلك الترجمان ، فقال : حاجتي أن يرد على الملك مائتي بعير أصابها لي ، فلما قال له ذلك قال أبرهة لترجمانه : قل له : قد كنت أعجبتي حين رأيتك ثم قد زهدت فيك حين كلمتني ، أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك قد جئتُ لهدمه لا تكلمني فيه ؟ فقال له عبد المطلب : إني أنا رب الإبل وإن للبيت ربًّا سيمنعه ، قال : ما كان ليمتنع مني ، قال : أنت وذاك . فردَّ أبرهة على عبد المطلب الإبل التي أصاب له . ثم انصرف عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر وأمرهم بالخروج من مكة والتحرُّز في شَعَفِ الجبال والشعاب ، تخوفا عليهم من معرة الجيش ، ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده ، فقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة :

لَا هُمْ إِنْ أَعْبَدَ يَمْنَعُ رَحْلَهُ فَأَمْنَعُ حِلَالَكَ
لَا يَقْلِبَنَّ صُلَيْبُهُمْ وَمِحَالُهُمْ أَبَدًا مِحَالَكَ
إِنْ كُنْتَ تَارِكُهُمْ وَقَبْلَتُنَا فَأَمْرٌ مَا بَدَا لَكَ

ثم أرسل عبد المطلب حلقة باب الكعبة وانطلق هو ومن معه من قريش

إلى شَعَف الجبال فتحرّزوا فيها ينتظرون ما أبرهة فاعل بمكة إذا دخلها . فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة وهياً فيله وعبأ جيشه ، وكان اسم الفيل محموداً ، وأبرهة جُمِعَ لهدم البيت ثم الانصراف إلى اليمن ، فلما وجهوا الفيل إلى مكة أقبل نفيل بن حبيب الخثعمي حتى قام إلى جنب الفيل ثم أخذ بأذنيه فقال : أبرك محمود أو أرجع راشداً من حيث جئت فانك في بلد الله الحرام ، ثم أرسل أذنه ، فبرك الفيل ، وخرج نفيل بن حبيب يشتم حتى أصعد في الجبل ، وضربوا الفيل ليقوم فأبى ، فضربوا رأسه بالطَّبْرَين ليقوم فأبى ، فأدخلوا محاجن لهم في مَرَّاقه فبزغوه بها ليقوم فأبى ، فوجهوه راجعا إلى اليمن فقام يهرول ، ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك ، ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك ، ووجهوه إلى مكة فبرك ، فأرسل الله تعالى عليهم طيرا من البحر أمثال الخطاطيف والبكاسان مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها : حجر في منقاره ، وحجران في رجله ، أمثال الحمص والعفس ، لاتصيب منهم أحدا إلا هلك ، وليس كلهم أصابت ، وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق الذي منه جاءوا ويسألون عن نفيل بن حبيب ليدلهم على الطريق إلى اليمن . فخرجوا يتساقطون بكل طريق ، ويهلكون بكل مَهْلِكٍ على كل مَهْلِكٍ ، وأصيب أبرهة في جسده ، وخرجوا معه يسقط أُمْلَةٌ أُمْلَةٌ ، كلما سقطت أُمْلَةٌ أتبعها منه مِدَّةٌ تَمَتْ قِيَحًا وَدَمًا ، حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر ، فامات حتى انصدع صدره عن قلبه . وحدثني يعقوب بن عتبة أنه حدث أن أول مارؤيت الحصبة والجدرى بأرض العرب ذلك العام وأنه أول مارؤى بها مرائر الشجر الحرمل والحنظل والعشر ذلك العام اه كلام ابن إسحاق

وهنا أمران نريد أن ننبهك إليهما : الأول أنا خالفنا عادة في تفسير الآيات الكريمة بالوقوف عند ما تدل عليه من غير أن نتعرض لذكر شيء

الطائر الذي
يحمل الحجار
التي ترمى
بالفيل

من القصص الذي ذكره المفسرون ، فحُتْنَا ههنا بقصة طويلة مفصلة ؛ ولهذا سرٌّ ينبغي أن تعلمه ، وهو أن شأن قصة أصحاب الفيل ليس كشأن غيرها من القصص ، فإن قصة أصحاب الفيل قريبة عهد برسالة النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه عليه السلام قد وُلِدَ في نفس العام الذي حَدَّثَتْ فيه ، وقد كان أمرها مستفيضاً وذكرها ذائعاً شائعاً عند مبعث الرسول الأكرم صلوات الله وسلامه عليه وكان العرب يعرفونها معرفة المتحقق المثبت ويروونها رواية الواثق الخبير ، وكانت عندهم من أمهات الحوادث وجسامها ، حتى لقد كانوا يؤرخون بها قبل التأريخ بالهجرة النبوية ؛ فكانوا يقولون : حدث الأمر الفلاني لسنة مضت من عام الفيل ونحو ذلك . فقرب عهدها واشتهار أمرها وذيوعها بالروايات المستفيضة كل أولئك جعلنا لا نتخرج من ذكرها على وجه التفصيل ، وليس شأن غيرها من القصص بهذه المثابة فلذلك أعرضنا عن الخوض في تفصيلاتها التي لا يشير إليها كتاب الله ولا ما صح عن رسوله من الموثوق به من الأخبار . والأمر الثاني أن العلماء قد اختلفوا في إهلاك الله أصحاب الفيل أكان بقذف حجارة عليهم تنفذ فيهم كما هو ظاهر النص أم كان بمرض فتاك من الأمراض المعروفة بشدة الفتك كالجدري والحصبة ونحوهما من أنواع الأمراض ؛ فذهب قوم إلى الأول ، وأنكره جماعة فقالوا : لو جوزنا أن يكون في الحجارة الصغيرة التي تكون مثل العدسة من الثقل ما يقوى به على أن ينفذ من رأس الإنسان ويخرج من أسفله لجاز أن يكون الجبل العظيم خالياً عن الثقل وأن يكون في وزن الريشة ، وذلك يرفع الثقة عن المشاهدات ويضعف الأمان بها^(١) ، وذلك أنه متى جاز أن تنقلب المشاهدات ويبطل ما يثبت عند الانسان من أوصافها فانه يجوز أن نتصور أن بحضرتنا مشاهدات أخرى لانراها

(١) قال الامام الرازي : واعلم أن كل ذلك جائز على مذهبنا إلا أن العادة

جارية بأنها لا تقع . اهـ

ولا نحس بها بحاسة ما ، وكل ذلك مما تبطله بديهية العقل ، فيجب أن يكون ما
يؤدى إليه باطلا بالبداهة . وهؤلاء الذين ذكروا ذلك ذهبوا يتماسون سبباً
معقولا وعلّة مما جرت به العادة لإهلاك هؤلاء القوم ؛ فمنهم من قال : إنما أهلكهم
الله تعالى بمرض الجدري والحصبة ، وهذه الطير التى أرسلها الله تعالى عليهم هى
البعوض الذى يحمل ميكروب هذين المرضين وهذه الحجارة التى كانت الطير
تقدّم بها هى ميكروبات هذين المرضين ، وفى آخر عبارة ابن إسحاق التى
قلناها لك ما يصح أن يؤخذ منه ذلك . وإلى ذلك ذهب الأستاذ رحمه الله ، قال : وفى
اليوم الثانى فشا فى جند الحبشى داء الجدري والحصبة ، قال عكرمة : وهو أول
جدريّ ظهر ببلاد العرب ، وقال يعقوب بن عتبة فيما حدث : إن أول ما رويت
الحصبة والجدري ببلاد العرب ذلك العام ؛ وقد فعل ذلك الوباء بأجسامهم ما يندر
وقوع مثله ، فكان لحمهم يتناثر ويتساقط ، فذعر الجيش وصاحبه وولوا هاربين
وأصيب الحبشى ولم يزل يسقط لحمه قطعة قطعة وأتملة أتملة حتى انصدع صدره ومات
فى صنعاء . هذا ما اتفقت عليه الروايات ، ويصح الاعتقاد به ، وقد بينت لنا هذه
السورة الكريمة أن ذلك الجدري أو تلك الحصبة نشأت من حجارة يابسة سقطت
على أفراد الجيش بواسطة فرق عظيمة من الطير مما يرسله الله مع الريح ، فيجوز
لك أن تعتقد أن هذا الطير من جنس البعوض أو الذباب الذى يحمل جراثيم
بعض الأمراض وأن تكون هذه الحجارة من الطين المسموم اليابس الذى تحمله
الرياح فيعلق بأرجل هذه الحيوانات فاذا اتصل بجسد دخل فى مسامته فأثار فيه
تلك القروح التى تنتهى بافساد الجسم وتساقط لحمه ؛ وإن كثيرا من هذه الطيور
الضعيفة يُعدّ من أعظم جنود الله فى إهلاك من يريد إهلاكه من البشر ، وإن
هذا الحيوان الصغير الذى يسمونه الآن بالمكروب لا يخرج عنها ، وهو فرق وجماعات

لا يحصى عددها إلا بارئها ، ولا يتوقف ظهور أثر قدرة الله تعالى فى قهر الطاغين على أن يكون الطير فى ضخامة رءوس الجبال ، ولا على أن يكون من نوع عتقاء مغرب ؛ ولا على أن يكون له ألوان خاصة به ، ولا على معرفة مقادير الحجارة وكيفية تأثيرها ، فله جند من كل شىء

وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد

وليس فى الكون قوة إلهوى خاضعة لقوته ؛ فهذا الطاغية الذى أراد أن يهدم البيت أرسل الله عليه من الطير ما يوصل إليه مادة الجدرى أو الحصبة فأهلكته وأهلكت قومه قبل أن يدخل مكة ، وهى نعمة من الله غمر بها أهل حرمه على وثنيهم حفظا لبيته حتى يرسل من يحميه بقوة دينه صلى الله عليه وسلم ، وإن كانت تقمة من الله حلت بأعدائه أصحاب الفيل الذين أرادوا الاعتداء على البيت بدون جرم اجترمه ولا ذنب اقترفه . اهـ . ولا شك أن هذا الذى ذهبوا إليه أمر مقبول موافق لما جرت به العادة ولما يكثر وقوعه ويشاهده الناس فى كل جهة ، فالذباب يحمل كثيرا من جراثيم الأمراض ووقوع ذبابة واحدة ملوثة بالمكروب على الإنسان كافٍ فى إصابته بهذا المرض ، ثم هو نفسه كفيل بأن ينقل هذا المرض إلى الجمل الغفير من الناس ، فإذا اقتضت إرادة الله أن يهلك جيشا كثير العدد وافر العدد ببعوضة واحدة لم يكن ذلك بعيدا عن الإلف والعادة ، وذلك أقوى فى الدلالة على قدرة الله وعظيم سلطانه من أن يكون هلاكهم بكبار الطيور وغرائب الأمور ؛ وهو أدل على ضعف الإنسان ودله أمام القهر الإلهى والجبروت العلوى وكيف لا هو مخلوق تبيده ذبابة وتقض مضجعه بعوضة ويؤذيه هبوب الرياح ، وإذا عرفت كله ذلك فاستمع لتفسير كلمات السورة الكريمة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ [١] أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ

فِي تَضَلِيلٍ [٢]

قوله تعالى : (أَلَمْ تَرَ) معناه في الأصل أَلَمْ تَبْصُرْ ، والمراد به هُنَا أَلَمْ تَعْلَمْ ، وإنما عُبِّرَ عن العلم بالرؤية إشارة إلى أن الخبر بهذه القصة متواتر مستفيض فالعلم الحاصل به علمٌ ضروريٌ مُساوٍ في قوة الثبوت وجلالته ووضوحه للعلم الناشئ عن الرؤية والمشاهدة (كيف فعل ربك) أى الحالة والكيفية التى وقع عليها عملُ الله الذى يتولَّى أمرَك ويتعهَّدك بالتربية ، وإنما وقع الاستفهام عن رؤية الكيفية التى وقع عليها الفعل ، لاعتن الفعل نفسه ، لأن الكيفية هى التى تدل على قدرة الصانع وعلمه وحكمته ، أَلَسْتَ ترى أنه سبحانه وتعالى يقول فى معرض توجيه أنظار الكفار إلى الاستدلال على وجود الصانع وتمايم قدرته : « أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا » فالكيفية التى يقع الفعل عليها هى التى تكون طريق الدلالة على ما ذكرنا ، وكيفية صنع الله تعالى بأصحاب الفيل من هذا القبيل ، أَلَسْتَ ترى أنه ليس فى شئ من الطبائع والحيل وإيجاد العلل والأسباب أن يجيء طير فيقصد إلى قوم دون قوم معهم فى جهة واحدة ، فذلك أَمارة أنه من صنع الله القادر الحكيم (بأصحاب الفيل) الذين قصدوا تخريب مكة وهدم البيت ، والفيل : حيوان معروف . والهمزة للاستفهام التقريرى والمعنى إنك قد علمت ذلك علماً جليلاً واضحاً لا لبسَ فيه

ثم أخذ سبحانه فى بيان تلك الحالة التى وقع عليها فعله بهم بياناً إجمالياً فقال : (أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فى تَضَلِيلٍ) والكيد : هو إرادتك وقوع ضررٍ بغيرك

وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ [٣] تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ [٤]

على خفاء ، وإنما سمي الله تعالى عمل أصحاب الفيل كيداً مع أن أمرهم لم يكن خافياً وقد كان أبرهة يصرح بأنه جاء ليهدم البيت الحرام لأن ما في قلبه مما لم يظهر على لسانه أكثر مما ظهر ، فقد كان يُضمر لأهل مكة من الحقد والحسد على مامتازوا به من الشرف بسبب الكعبة الشيء الكثير . والتضليل : التضييع والابطال ، تقول : ضللت كيد فلان ، إذا جعلته باطلاً ضائعاً . والمهزمة للاستفهام التقريرى مثل التي قبلها ، والمراد لقد جعل ربك كيد هؤلاء في ضياع و بطلان .

وقوله سبحانه : (وأرسل عليهم طيراً أبابيل) الطير : اسم لكل ما طار في الهواء ، صغيراً كان أو كبيراً ، مرئياً كان أو غير مرئى ، والأبابيل : الجماعات ، وقد اتفقوا على أن هذا اللفظ جمع لأنه على وزن من أوزان جموع الكثرة ، ثم اختلفوا فقال الفراء والأخفش : لا واحد من لفظه ، وفي اللغة كثير من الجموع التي لا واحد لها من لفظها مثل الشمايط والعباديد والمذاكير والملاح ، وقال أبو جعفر الرواسي : واحده إبالة ، ومنه قولهم : زادنى ضِعْفاً على إبالة ، وأصل الإبالة الحزمة الكبيرة من الحطب ونحوه ، سميت الجماعة من الطير في نظامها بهذا اللفظ ، على التشبيه ، وقال الكسائي : واحده إبُول ، مثل عَجَّوَل وعجاجيل ، وقيل : واحده إبالة^(١) مثل دينار ودنانير

وقوله سبحانه (ترميهم بحجارة من سجيل) السَّجِيلُ : الطين الذي تحجر ، قال ابن عباس : السجيل المطبوخ كما يطبخ الآجر ، وهو معرب عن سنك وكل ، فيفيد أنه جمع إلى الطين ييوسة الحجر

(١) وأصل إبالة إبالة ، كما في قول الرواسي ، فقلب أحداً المثلين ياء ، كما أن أصل دينار دنار — بتشديد النون — ومثله قيراط ودوان في قول

فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ [٥]

وقوله سبحانه : (فجعلهم كعصف مأْكول) العصف : ورق الزرع الذي يبقى في الأرض بعد الحصاد وتعصفه الرياح فتأْكله الماشية ، وقيل : العصف هو التَّبْنُ ، ويقال : العصف هو أطراف الزرع قبل أن يدرك السنبيل ، ويقال : العصف هو الحب الذي أكل لُبُّهُ وبقى قِشْرُهُ ، ومعنى كونه مأْكولا أنه مما تأْكله الدواب . ويقال لكل شيء صالح للأكل : هذا مأْكول ، والمعنى أنه جلت قدرته قد جعل هؤلاء القوم كعصف تأْكله الدواب ، ويقال : معنى مأْكول أنه قد وقع فيه الأكل ، وهو السُّوس ، ويقال : معنى مأْكول أن الدواب قد أكلت بعضه وتناثر بعضه الآخر من بين أسنانها . والله سبحانه وتعالى أعلى وأعلم

سورة قريش *

[وهى مكية ، وآياتها أربع آيات ، ونزلت بعد سورة التين ^(١)]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ قُرَيْشٍ [١] إِلَافِهِمْ

* ويقال : سورة لإيلاف قريش

(١) اختلف العلماء فى عدد آى هذه السورة ، وفى مكان نزولها ؛ فأما عن الأول فقد عدّها الحجازيون خمس آيات ، وعدّها غيرهم أربع آيات ؛ وأما عن الثانى فقد روى عن الضحاك وابن السائب الكلبى أنها مدنية ، وروى عن غيرهم أنها مكية ، وهو اختيار الجمهور .

ووجه المناسبة بين هذه السورة والى قبلها أظهر من أن يدل عليه أو يشار إليه ، أفلا ترى أن هذه السورة مثل التى قبلها فى أن كلا منهما قد تضمن ذكر نعمة من نعم الله تعالى على أهل مكة ، فالسورة السابقة تضمنت نعمة إهلاك عدوهم الذى جاءهم يبغيهم الغوائل ويحاول هدم بيتهم الذى هو أساس مجدهم ودعامة عزهم ، وفى هذه السورة ذكر نعمة أخرى هى إيلافهم واجتماع أمرهم والتئام شملهم ليتمكنوا من الارتحال صيفا وشتاء فى تجارتهم وجلب الميرة لبلادهم . ولشدة الارتباط بين السورتين ووثيق الاتحاد بينهما كان أبى بن كعب يعتبرها سورة واحدة حتى روى عنه أنه لم يفصل بينهما بيسملة

قوله تعالى : (لإيلاف قريش إلفهم) الإيلاف : مصدر آلفت الشيء كما لائف مصدّر ألفته ، وتقول : ألفت الشيء إلفاً وإلafa وآلفته إيلافاً ، ومعناه لزمته وعكفت عليه ، ويقال : الإيلاف اجتماع الشمل مع الالتئام . وقد

اختلفت كلمة العلماء في متعلق اللام التي في قوله سبحانه « لا يلاف » فذهب
 سيبويه والخليل وتبعهما جارا الله في الكشف إلى أن اللام متعلقة بقوله سبحانه
 « فليعبدوا رب هذا البيت » الذي يأتي فيما بعد ؛ وتقدير الكلام على هذا فليعبدوا
 رب هذا البيت لا يلاف قريش ، والمعنى على هذا ليجعلوا عبادتهم شكراً لله على
 هذه النعمة التي أسداها إليهم واعترافاً بما أثره سبحانه عليهم . فان قلت : فكان
 من حق الكلام على هذا ألا تدخل الفاء في « فليعبدوا » ولا يفصل بها بين
 العامل والمعمول ، فالجواب أن هذه الفاء عندهم دخلت الكلام لأنه تضمن معنى
 الشرط ، وكأن أصل النظم : إن كان هؤلاء لا يعبدون ربهم اسبب من الأسباب
 فليعبدوه لأنه آفهم . وذهب قومٌ إلى أن اللام متعلقة بشيء في السورة السابقة
 وهؤلاء اختلفوا في تحديد هذا المتعلق ؛ فذهب الزجاج وأبو عبيدة إلى أن المتعلق
 هو قوله سبحانه « فجعلهم كعصف مأكول » والمعنى أن الله أهلك أصحاب الفيل
 لتبقى قريش مؤتلفة مجتمعة الشمل وليتيسر لهم الارتحال إلى اليمن والشام ؛ وذهب
 غيرهما إلى أن المتعلق هو « فعل ربك بأصحاب الفيل » وكأنه قد قال : كل ما فعلنا
 بأصحاب الفيل فقد فعلناه لا يلاف قريش . فان قلت : فكيف يصح هذان
 القولان وهو سبحانه إنما فعل بأصحاب الفيل ما فعل لكفرهم وطفيتهم وتجيبرهم
 وما ذكرتم يدل على أنه فعل بهم ما فعل لا يلاف قريش ؟ فالجواب أن تقول لك :
 إنا لانسلم لك ما زعمت من أنه تعالى فعل بهم ما فعل لكفرهم لأن عقاب
 الكفر مؤخر إلى يوم القيامة بدليل قوله سبحانه « اليوم تجزى كل نفس بما
 كسبت » وقوله : « ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا مترك على ظهرها من دابة »
 ولئن سلمنا لك أنه سبحانه فعل بهم ما فعل لكفرهم فإن ذلك لا يمنع أن يكون
 قد فعل بهم ما فعل لا يلاف قريش أيضاً ؛ فيكون سبب فعله بهم مجموع الأمرين ؛
 فان قلت : فكيف صار ما فعله الله بأصحاب الفيل سبباً في إيلاف قريش ؟

رَحْلَةُ الشَّاءِ وَالصَّيْفِ [٢]

فالجواب أن تقول لك : إنك تعلم أن مكة وما حولها بلاد خالية عن الزرع وأسباب المعيشة ، ويدل لذلك قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام : « ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » وتعلم أن هذه الحالة اقتضت أن يرتحل أشراف أهل مكة للتجارة إلى اليمن تارة وإلى الشام تارة أخرى ، وهم إنما كانوا يربحون في تجارتهم وأسفارهم لأن الناس كانوا يعظمونهم ويحترمونهم لأنهم جيران بيت الله وسكان حرمه وولاية الكعبة ، فلو أنه تم لأهل الحبشة ما كانوا قد عزموا عليه من هدم البيت لضعف احترام الناس لهم وزال عنهم عزهم وبطلت الأسباب الموجبة لتعظيمهم وتبجيلهم ، فلما أهلك الله أصحاب الفيل ورد كيدهم في نحرم أزداد شرف أهل مكة وعظمت منزلتهم في القلوب فزادت بذلك منافعهم وعظم ربحهم ، وقريش : هم أبناء النضر بن كنانة ، وسماو بذلك أخذاً من القرش وهو الكسب لأنهم كانوا كاسبين بتجاراتهم وضريرهم في البلاد

وقوله سبحانه : (رحلة الشتاء والصيف) الرحلة : اسم لارتحال القوم : أي شدّهم الرحال للمسير ، ونصب « رحلة » بالمصدر الذي قبله . وقد اختلف العلماء في المراد برحلة الشتاء والصيف ؛ فقال الجمهور : كانت لقريش رحلتان : رحلة بالشتاء إلى اليمن ، ورحلة بالصيف إلى الشام ، وكان تجارهم يذهبون فيهما للكسب واجتلاب الربح واستدراار الرزق والاستكثار من الميرة ، ووجه الامتنان عليهم بذلك ما قدمنا من أن قوافلهم كانوا يعتمدون في معاملاتهم مع الناس على ما أودعه الله قلوب الناس من احترامهم لكونهم سكان مكة وجيران بيت الله وحجّته فلونزلت منزلة البيت من نفوس العرب ونقصت حرمة

فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ [٣] الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ
خَوْفٍ [٤]

عندهم لاستطاعت الأيدي بالتعدى على سفارهم فكانوا لا يرتحلون ولا
يتجرون فتقل حينئذ وسائل الكسب عندهم فيتفلقون ويتركون بلادهم لكونها
بلاداً قاحلة لا تنبت زرعاً ولا تقام فيها صنائع مما يحتاجه الناس فتصير حالهم
كحال اليهود الذين قطعهم الله في الأرض أمماً . ومن العلماء من ذهب إلى أن
المراد برحلة الشتاء والصيف رحلة الناس إلى أهل مكة ؛ فرحلة الشتاء الحج ، ورحلة
الصيف العمرة التي تكون في رجب ، ووجه الامتنان عليهم بذلك أن في وفود الناس
عليهم منافع لهم ، ولو أنه تم لأهل الفيل هدم البيت لا تقطع الناس عنهم فتزول
عنهم هذه المنفعة

ولما ذكر سبحانه نعمته عليهم أتبع ذلك بأمرهم بعبادته لأن العبادة شكر
للنعمة وقد تقرر أن الانعام لابد من مقابلته بالشكران ، فقال جل شأنه : (فليعبدوا
رب هذا البيت) أى : ليوحّدوا الله وليخصوه بالتوجه إليه والصمود نحوه كما
خصوه بالتوجه حين حزمهم الأمر وخافوا سطوة عدوهم ، وهو الذى حفظ لهم بيتهم
الذى به عزهم وعليه مدار مجدهم ، ولا يد للأوثان التى يدعونها فى حفظه ومنعه
وقوله سبحانه : (الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) هو من أوصاف رب
هذا البيت الذى يستحق بها العبادة ، ومعنى إطعامهم أنه أوسع لهم الرزق ومهد
لهم سبيله وآمن طريقهم إليه وأورثهم القبول عند الناس فاستطاعوا بذلك أن يجدوا
أقواتهم ، ولو أنه لم يجعل لهم ذلك لعاشوا فى ضيق وضنك شديدين ، ومعنى « آمنهم
من خوف » أنه سبحانه جعلهم فى مأمن من التعدى عليهم والتطاول إلى أموالهم
وأ أنفسهم ، ولولا ذلك لأخذهم الخوف من كل مكان . وتنبؤين « جوع » و « خوف »

للتعظيم : أى أطعمهم من جوع شديد لا يقادر قدره وآمنهم من خوف عظيم لا يدرك مداه . وإنما أفرد « رحلة » فى قوله « رحلة الشتاء والصيف » مع أنهما رحلتان بدليل المضاف إليه وماعطف عليه لأن ذلك معروف فى لسان العرب ، انظر إلى قول المسيب بن زيد مناة الغنوى :

لَا تُنْكِرِ الْقَتْلَ وَقَدْ سُمِينَا فِي حَلَقِكُمْ عَظْمٌ وَقَدْ شَجِينَا
أَفَلَا تَرَاهُ قَدْ قَالَ « فِي حَلَقِكُمْ » فَأَفْرَدَ الْمُضَافُ مَعَ أَنَّ الْمُضَافَ إِلَيْهِ جَمْعٌ ، ثُمَّ
انْظُرْ إِلَى قَوْلِ عِلْقَمَةَ بْنِ عَبْدِ :

بِهَا جَيْفُ الْحُسْرِى ، فَأَمَّا عِظَامُهَا فَبَيْضٌ ، وَأَمَّا جِلْدُهَا فَصَلِيبٌ
أَفَلَا تَرَاهُ قَدْ قَالَ « وَأَمَّا جِلْدُهَا » وَهُوَ يَرِيدُ الْجَمْعَ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ قَبْلَ ذَلِكَ
« فَأَمَّا عِظَامُهَا » ، ثُمَّ انْظُرْ إِلَى قَوْلِ الشَّاعِرِ :

* سَحَامَةُ بَطْنِ الْوَادِيَيْنِ تَرْتَمَى *

فَإِنَّكَ تَجِدُهُ قَدْ قَالَ « بَطْنِ الْوَادِيَيْنِ » فَأَفْرَدَ الْمُضَافُ مَعَ أَنَّ الْمُضَافَ إِلَيْهِ مثنى ،
وَانْظُرْ إِلَى قَوْلِ الْآخَرِ :

كُلُّوا فِي بَعْضِ بَطْنِكُمْ تَعَفُّوا فَإِنَّ زَمَانَكُمْ زَمَنٌ خَمِصٌ
فَإِنَّكَ تَرَاهُ قَدْ قَالَ « بَطْنِكُمْ » وَلَمْ يَقُلْ بِطُونَكُمْ ؛ فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ هَذَا
الِاسْتِعْمَالَ سَائِعٌ جَائِزٌ فِي الْعَرَبِيَّةِ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِيهِ وَلَا شَذُوزٌ . وَاللَّهُ سَبِيحَانَهُ وَتَعَالَى
أَعْلَى وَأَعْلَمُ

سورة الماعون *

[وهى مكية ، وآياتها سبع آيات ، ونزلت بعد سورة التكوير ^(١)]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْدينِ [١]

* ويقال : سورة أُرِيت ، وتسمى أيضاً سورة الدين ، كما تسمى سورة التكذيب

(١) اختلف العلماء فى عدد آى هذه السورة وفى مكان نزولها ، أما عن

الأول فعدّها قوم ست آيات ، وعدّها آخرون سبع آيات ، وعليه الجمهور ، وأما

الثانى فروى عن الجمهور وابن الزبير أنها مكية ، وروى عن قتادة والضحاك أنها

مدنية ، واختلفت الرواية عن ابن عباس ؛ فذكر فى الدر المنثور أنها عنده مكية ،

وذكر فى البحر أنها عنده مدنية ، وقال هبة الله الضرير : نزل نصفها بمكة فى

العاص بن وائل ونصفها فى المدينة فى عبد الله بن أبى المنافق ، وهذا هو الذى

اختاره مصححو مصحف الحكومة المصرية حيث قالوا : « مكية ثلاث الآيات

الأول مدنية البقية » ، وقال العلامة الشهاب : وقيل : نصفها الأول مكى والثانى

مدنى ورجحه بعض المفسرين والمحدثين . اهـ

ووجه المناسبة بين هذه السورة والتى قبلها أنه سبحانه لما ذكر فى السورة

السابقة « أطعمهم من جوع » ذمّ فى هذه السورة من لم يحضّ على طعام

المسكين ، وأيضاً لما قال سبحانه فى السورة السابقة « فليعبدوا رب هذا البيت »

ذمّ هنا من سها عن صلاته ؛ ووجه آخر من المناسبة ، وذلك أنه سبحانه لما عدّد

نعمه على قريش ، وكان ذلك الامتنان لا يصرفهم عما هم عليه من إنكار البعث

وجحد الجزاء على الأعمال ؛ أتبعه سبحانه بتهديدهم وتحذيرهم من عذابه

قوله سبحانه : (أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدينِ) الهمة للاستفهام ، والمراد به

تشويق السامع إلى تعرف ما يذكر بعد ، وهو أيضا يتضمن التعجب منه ؛ مثل أن تقول لصاحبك : أرأيت فلانا ماذا صنع ، أو تقول : أرأيت فلانا كيف عرّض نفسه للمخاطر ، فأنت تريد بذلك وما أشبهه أن تبعث الخطاب على العجب ممن تذكره بعد الاستفهام ؛ والمراد بالخطاب هو النبي صلى الله عليه وسلم أولاً ثم ينصرف إلى كل من يرى ، والدين ههنا هو البعث والجزاء والحساب ، ويقال : المراد به الإسلام ، والتكذيب بالدين على الأول إنكار أن الله يبعث الناس ليوم تشخص فيه الأبصار ، وجحد أنه سبحانه يجازي الناس على ما قدمت أيديهم ويحاسبهم على ما أزلقوا في هذه الحياة الدنيا ، وعلى الثاني معناه إنكار عقائد الإسلام كتوحيد الخالق ونبوة رسوله صلى الله عليه وسلم . هكذا قال المفسرون ، والأولى أن تجعل الدين بمعنى ذلك كله وهو الخضوع لما وراء الحسوس من الشؤون الإلهية التي لا يمكن للإنسان أن يدركها ويعرف حقيقتها وإنما يجد آثارها مشهودة في الكون باعثة على التصديق والإذعان ، ومن ذلك وجود الصانع ووحدانيته وحكمته وعلمه وإرادته ، ومنها بعثة الرسل مبشرين ومنذرين مؤيدين بالمعجزات الباهرة والآيات الخارقة الدالة على صدقهم فيما يدعون ، ومنها ما أخبر به الرسل عن ربهم من أن للناس حياة أخرى يعرضون فيها على ربهم فيجازيهم ويحاسبهم . ومعنى الآية هل عرفت ذلك الذي يكذب بما وراء إدراكه من الأمور الإلهية بعد أن ظهر له بالدليل القاطع ووضح أمام عينه بالبرهان الساطع ؟ أهو يفعل ذلك لغير غرض أو يفعله لغرض دنيوى ؟ فإن كان يفعله لغير غرض فهو من الجهالة وشناعة الحال بالمكان البعيد ؛ لأن العاقل لا ينبغي أن يعرض نفسه لخطأ خاظه وعقوبته الأبدية لغير غرض ، وإن كان يفعل ما يفعل لأجل منفعة دنيوية ولينال عرّضا تافها من أعراض الحياة الزائلة فهو أيضا جاهل مغرور ؛ لأن العاقل لا ينبغي له أن يبيع الكثير الباقي بالقليل الفانى ؛ وإن كنت لاتعرفه

فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ [٢] وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ [٣]

بذاته فنحن نعرفه لك بصفاته ، وذلك قوله سبحانه : (فذلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ولا يحض على طعام المسكين) ومعنى « يدعُ اليتيم » يدفعه ويزجره زجرا عنيفا إن جاءه يطلب منه حاجة ؛ احتقاراً له ، واستصغاراً لشأنه ، وتكبراً عليه ، ودعشه شامل لدفعه عن ماله وحقه ظالماً وهضماً ، وتركِ المواساة له وإن لم تكن المواساة واجبة ، وزجره وضربه والاستخفاف به . وقد قرئ « فذلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ » ومعناه يترك اليتيم ولا يدعوه بدعوة : يعنى أنه يدعو الناس ويتركه ، وقوله سبحانه « ولا يحض على طعام المسكين » معناه لا يحث عليه ولا يدعو الناس إليه ، وإذا كان لا يحث غيره عليه ولا يدعو سواه إليه فانه لا يفعله عادةً ، ولهذا كان ذلك كناية عن كونه لا يطعم المساكين ولا يوجد لهم بشئ من ماله ، والسر في الاتيان بهذه الكناية الارشاد إلى أنه إذا عَرَضَ لك مسكين ولم تجد ماتعطيه كان عليك أن تطلب إلى غيرك معاونته وتدفعه إلى ذلك وتحثه عليه ؛ فقد ذكر سبحانه في وصف المكذب بالدين صفتين : إحداهما التي أشار إليها قوله « فذلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ » والثانية التي يشير إليها قوله « ولا يحض على طعام المسكين » فكان المكذب بالدين هو الذي يحتقر الضعفاء ويتكبر عليهم ، ويأخذ الصلف والعتو حتى يدفعاه إلى زجر الضعفاء وتعنيفهم وإهانتهم ، وهو الذي يبخل بماله على الفقراء والمحاويج ، ويبخل مع ذلك بسعيه لدى الأغنياء ، حتى يُعِينُوا الفقراء وَيُسَدُّوا حاجاتهم

ثم إنه لما كانت الصلاة عنواناً للخشوع لبارئ السموات والأرض ، ودليلاً على قهر النفس لعظمة مَنْ بيده ملكوت كل شيء ؛ حتى تنطبع النفس على النذل له سبحانه والاستكانة لجبروته وكبريائه ، وذلك يستدعى أن يصير الإنسان

فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ [٤] الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ [٥] الَّذِينَ هُمْ
يُرَاءُونَ [٦] وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ [٧]

خاضعاً منكسراً متواضعاً فلا يتكبر على الفقراء ولا يتعاضم عليهم ، ولا ينهر المساكين ولا يذجرهم ، لما كان ذلك شأن الصلاة ، وكان مَنْ يُصَلِّي الصلوات كلها من غير أن تنهاه صلاته عن التكبر والتعاضم وتدعوه إلى المرحمة والاشفاق فهو مُرَاءٍ فِي عَمَلِهِ كاذب في دَعْوَاهُ التَّدِينِ ، فهذا كله ناسب أن يقول الله سبحانه وتعالى بعد وصف المكذب بيوم الجزاء : (فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون) فكأنه سبحانه يقول : إنَّ مَنْ يُوْدِي الصلوات بحسبه ولسانه من غير أن يكون لها أثر في نفسه ومن غير أن تؤتي ثمرتها التي شرعت من أجلها ، لا ثواب له عليها ، بل هو مُعَاقِبٌ عليها عقاباً شديداً ، أولئك هم الذين غفلت قلوبهم وَلَهَتْ أَفْئِدَتُهُمْ عما تقول ألسنتهم وتفعل جوارحهم ؛ فأحدهم يركع وهو لاهٍ عن ركوعه ، ويسجد وهو ذاهل عن سجوده ، ويكبر وهو لا يعي ما يقول ، ويسبح وهو بعيد عن تدبر معنى التسبيح ، ويتشهد وهو غير متفكر ولا متنبه ؛ وإنما هي حركات اعتادها وكلمات حفظها فهو يأتي بها كما يدور الدولاب وكما تسير الآلات ؛ فمن ثمة لا تدرك نفسه معناها ولا تصل إلى ثمرتها .

وقوله سبحانه : (الذين هم يراءون) معناه أنهم يفعلون أفعالا ظاهرة بقدر ما يرى الناس من غير أن تستشعر قلوبهم ونفوسهم بها وتُسَبِّحُهَا حِكْمُهَا وَأَسْرَارُهَا وقوله سبحانه : (ويمنعون الماعون) قد اختلف العلماء في بيان الماعون ؛ فروى عن أبي بكر وعلى وابن عباس وابن عمر وابن الحنفية والحسن وسعيد بن جبير وعكرمة وقتادة والضحاك أن المراد بالماعون الزكاة ، وكأنهم ذهبوا إلى ذلك لأنه ذكر بعد الصلاة ، وذكر أكثر المفسرين أن الماعون اسم لما لم تجر عادة الناس بمنعه ، وقد جرت العادة بأن يسأله الفقير والغنى وينسب من يمنعه إلى

سوء الخلق ولؤم الطبع ، مثل القدر والدلو والغاس والمقدحة والقدر ، وحكى
 الفراء أن الماعون هو الماء ، وقيل : الماعون هو حسن الانقياد ، ومنه يقال : رضى
 بعيرك حتى يعطيك الماعون ؛ قال الأستاذ : فأولئك الذين يصلون ولا يأتون من
 الأعمال إلا ما يرى للناس مما لا يكلفهم بذل شيء من مالهم ولا يحشون منه
 ضرراً يلحق بأبدانهم أو نقصاً يلثم بجاههم ، ثم يمنعون معونتهم ولا ينهضون بباعث
 الرحمة إلى سد حاجتهم وتوفير ما يكفل راحتهم وأمنهم وطمانينتهم ، أولئك لا تنفعهم
 صلاتهم ، ولا تخرجهم من حد المكذبين بالدين ، لافرق في ذلك بين من وسّموا
 أنفسهم بسميّة الاسلام أو غيره ، فان حكم الله واحد ، لا محابة فيه للأسماء المنتحلة
 التي لا قيمة لها إلا بمعانيها الصحيحة المنطبقة على مراده تعالى من تحديد الأعمال
 وتقرير الشرائع . فخاصة المصدق بالدين التي تميزه عن سواه من المكذبين هي العدل
 والرحمة وبذل المعروف للناس ، وخاصة المكذب التي يمتاز بها عن المصدقين هي
 احتقار حقوق الضعفاء ، وقلة الاهتمام بمن تلذّعهم آلام الحاجة ، وحُب الأثرة
 بالمال ، والتعزز بالقوة . ومنع المعروف عن يستحقه من الناس . اه . وقال جار
 الله : ولا يكون الرجل مُرائياً بإظهار العمل الصالح إن كان فريضة ، فمن حقّ
 الفرائض الإعلان بها وتشهيرها ؛ لقوله عليه السلام : « ولا غمة في فرائض الله »
 لأنها أعلام الإسلام وشعائر الدين ، ولأن تاركها يستحق الذم والمقّت ، فوجب
 إمطة التهمة بالإظهار ؛ وإن كان تطوعاً فحقه أن يخفى ؛ لأنه مما لا يلام بتركه
 ولا تهمة فيه ، فإن أظهره قاصداً للاقتداء به كان جميلاً ، وإما الرياء أن يقصد
 بالإظهار أن تراه الأعين فيثنى عليه بالصلاح ، وعن بعضهم أنه رأى رجلاً في
 المسجد قد سجد سجدة الشكر وأطالها فقال : ما أحسن هذا لو كان في بيتك !!
 وإما قال هذا لأنه توسّم فيه الرياء والسمعة ، على أن اجتناب الرياء صعب إلا
 على المرتاضين بالاخلاص ، ومن ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الرياء
 أخفى من ديب النملة السوداء في الليلة الظلماء على المسح الأسود » اه . والله أعلم

سورة الكوثر *

[وهي مكية ، وآياتها ثلاث آيات ، ونزلت بعد سورة العاديات] ^(١)

* وتسمى أيضاً سورة النحر

(١) لاختلاف بين العلماء في عدد آي هذه السورة ، فكلهم مجمعون على أنها ثلاث آيات وأنها أقصر سورة في القرآن ، وقد اختلفوا في مكان نزولها ؛ فروى عن ابن عباس والكلبي ومقاتل أنها مكية ، ونسبه صاحب البحر إلى الجمهور ، وروى عن الحسن وعكرمة وقتادة ومجاهد أنها مدنية ، وذكر في الاتقان أن هذا هو الصواب ، وذكر الخفاجي أن من العلماء من رجح أنها نزلت مرتين وحينئذ يزول الإشكال .

وجه المناسبة بين هذه السورة والتي قبلها أن الله تعالى وصف في السورة السابقة الذي يكذب بالدين بأربعة أمور : البخل ، والإعراض عن الصلاة ، والرياء ، ومنع المعونة ؛ وقد ذكر سبحانه في هذه السورة مأمِنه رسوله صلى الله عليه وسلم من الخير والبركة ، فذكر أربعة أشياء ، وهي الكوثر الذي هو الخير الكثير على ماسيأتي بيانه ، والحرص على الصلاة والدوام على فعلها ، والاخلاص المستفاد من قوله « لربك » ، والتصديق الذي يشير إليه قوله سبحانه « وأنحر » فكانت هذه السورة في مقابلة السورة السابقة

كان الكفار من أهل مكة والمنافقون من أهل المدينة يعيبون النبي صلى الله عليه وسلم ويهزون به بأشياء منها أن أتباعه من الفقراء الذين ليس لهم بينهم مكانة ، وكانوا يقولون : لو كان ماجاء به محمد صحيحاً لاتبعه السادة والكبراء ولما كان أنصاره من ضعاف الناس وذوي الحاجة منهم ؛ وهذه حجة لجأ إليها من قبلهم

كثير من الأمم مع أنبيائهم ، فقد قصَّ الله تعالى علينا في قصة نوح مع قومه قولهم له : « ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل ، بل نظنكم كاذبين » وقص علينا سبحانه جواب نوح عليه السلام لهم على ذلك فقال : « قال يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أن أنزلهم كموها وأنتم لها كارهون ويا قوم لا أسألكم عليه مالا إن أجرينى إلا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقور بهم ولكنني أراكم قوما تجهلون ، ويا قوم من ينصرني من الله إن طردتهم أفلا تذكرون ، ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ، ولا أقول إني ملك ، ولا أقول للذين تردى أعينكم أن يؤتيهم الله خيرا الله أعلم بما فى أنفسهم إني إذا لمن الظالمين » فهذه سنة الله فى خلقه ، كلما رسل رسولا كان أسرع الناس اتباعاً له هم الضعفاء والمهضومون ذلك بأنهم لا يملكون مالا فهم يخافون عليه أن يضيع فى سبيل الدعوة الجديدة ، وليس لهم جاه ولا نفوذ ولا سلطان فهم يخافون أن يضيع جاههم ونفوذهم وسلطانهم أمام الجاه الذى منحه الله صاحب الدعوة الجديدة ، وإذا اتبعه أحد من كبراء القوم وعليتهم وذوى الجاه فيهم كان ذلك لسمو أنفسهم وزهدهم فى متاع الدنيا وزينتها ، ومن سنة الله فى خلقه أن يبقى كبراء القوم وسادتهم متخلفين عن الإيمان حرصاً وبخلاً وضناً ، حتى يدخلوا فى دين الله وهم كارهون ، أو يأخذهم الله بعذابه فيصبحوا من الهاكسين . ومن سنة الله فى خلقه أن يظل الجدال بين هؤلاء السادة والكبراء ورسل الله وأن يأخذوا فى انتقاصه وكيل التهم له تهمة بعد تهمة ، والله يؤيد رسله وينصرهم ، ومن ينصره الله فلا غالب له . وعلى هذه السنن كلها جرى أهل مكة مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد تخلف ساداتهم وكبرائهم وأهل اليسار منهم عن اتباعه ، حسداً له ولقومه الأذنين أن تكون فيهم النبوة ، وحرصاً على تفوذهم واستبدادهم أن يزول ويصبحوا سواسية مع عبيدهم وأتباعهم ، وكانوا يعيرون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ [١]

الرسول بفقر أتباعه وضعفهم ، وأحيانا يطلبون إليه أن يطردهؤلاء الأتباع الفقراء فيأمره الله بالابقاء عليهم والصبر معهم في نحو قوله سبحانه : « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً » وكانوا إزاراً وأبناء يموتون قالوا : قد انقطع ذكر محمد وصار أتر ، يحسبون ذلك عيباً فيأخذون في الطعن عليه ولمزه ويحاولون بذلك تغيير الناس من أتباعه ، وكانوا إذا رأوا شدة نزلت بالمؤمنين طاروا بها فرحاً وانتظروا أن تدول الدولة عليهم وتذهب ربحهم فتعود لهم مكانتهم التي زعزعاها الدين الجديد ، وكان إلى جوار هؤلاء قومٌ حديثو عهدٍ بإيمان تمرُّ بأنفسهم خواطر السوء عند ماتشتد عليهم حلقات الضيق من إعنات الكفار فلا يجد ذلك من قوة النفس وصلابة اليقين ما يزيله ويعفى آثاره

أمام هذه العوامل كلها وفي وسط هذه الزعازع الموحجاء أنزل الله تعالى على رسوله سورة الكوثر ليؤكد لرسوله أن ما يُرجفُ به المشركون وهم للاحقيقة له ، ولیمحص من نفوس الذين لم تصلب قناتهم ، وليكتب الكفار ويرد كيدهم إلى نحورهم ، ويعلمهم في أدق عبارات التأكيد أن الرسول هو الفائز المنتصر ذو الخير الكثير والفضل العميم ، وأن أتباعه هم الظافرون المفلحون الناجحون ، وأن أعداءه هم الخائبون الذين تذهب ربحهم وينزل بهم الفشل فينمحي ذكرهم ويزول عن الوجود أثرهم ؛

وذلك قوله سبحانه : (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ) وأصل الكوثر في لغة

العرب بمعنى المُفْرِط في الكثرة ؛ وقد قيل لأعرابية رجع أبناها من السفر : بم
آب ابنك ؟ فقالت : آب بكوثر ؛ ويقال للرجل الكثير العطاء : كوثر ، ومن
ذلك قول الكميّ بن زيد الأسدي :

وَأَنْتَ كَثِيرٌ يَا أَبْنَ مَرْوَانَ طَيِّبٌ وَكَانَ أَبُوكَ ابْنُ الْعَقَائِلِ كَوْثَرًا

وقد اختلف العلماء في المراد من الكوثر في هذه الآية ؛ فقال قوم : الكوثر
هو النبوة ، وهي خير فوق كل خير وعزة دونها كل عزة ؛ وقال قوم : الكوثر
هو القرآن الذي لا تحصى فضائله ؛ وقال قوم : الكوثر الأتباع والأشباع وذلك
أن له عليه الصلاة والسلام من الأتباع مالا يحصيهم إلا الله تعالى وهم لا يزالون في
ازدياد إلى يوم القيامة ، وهو عليه الصلاة والسلام مُبَاهٍ بِأَتْبَاعِهِ الْأَمَمِ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ ، وقال قوم : الكوثر الفضائل التي حباها الله بها مما لم يجتمع مثله ولا
ما يقرب منه في أحد سواه ، وقال قوم : الكوثر رفعة الذكر التي ذكرها سبحانه
في قوله : « ورفعنا لك ذكرك » وقال قوم : الكوثر هو العلم ، وذلك لأن العلم
هو الفضل والخير الكثير ، وقد امتن الله تعالى على رسوله به في قوله : « وعلمك
مالم تكن تعلم » وأمره بطلب الزيادة منه في قوله : « وقل رب زدني علما »
وجعل الحكمة خيراً كثيراً في قوله : « ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً
كثيراً » وقال قوم : الكوثر هو المقام المحمود الذي هو الشفاعة ، وقال قوم :
المراد من الكوثر جميع نعم الله تعالى على رسوله ، من النبوة والقرآن والذكر
الحسن وفضائل الأخلاق والنصرة على الأعداء ودوام دينه إلى قيام الساعة وغير
ذلك مما لا يحصيه العد ، والمعنى إنا أعطيناك من المواهب الشيء الذي يعجز
التعداد عن البلوغ إلى نهايته ، ومنحك من الفضائل مالا سبيل إلى استكناها
والوصول إلى حقيقتها ، وإن استخف أعداؤك به واستقلّوه فإما هو من فساد
عقولهم وضعف إدراكهم

فَصْلٌ لِرَبِّكَ وَانْحَرُ [٢] إِنَّ شَانِيكَ هُوَ الْأَبْتَرُ [٣]

وقوله سبحانه : (فصل لربك وانحر) معناه اجعل صلاتك وخضوعك وتوجهك لله الذي ربّك وانحر ذبيحتك وما هو نُسُكُكَ لك الله أيضا ؛ وذلك على حدّ قوله تعالى : « قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لاشريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين »

فان قلت : فما الارتباط بين هذه الآية والتي قبلها ؟

فالجواب عن ذلك أن تقول لك : إنه سبحانه بعد أن أكد لنبيه الخبر بأنه أعطاه الخير الذي لا يُقَدَّرُ قدره ولا يبلغ مداه ، ومنحه من الفضل ما يتضاءل بجانبه كل فضل ، ورزقه من القواضل ما تُعَدُّ كل منقبة إذا قيسَتْ إليها حقيرة ؛ لما أكد له الخبر بذلك طالبه بشكر نعمته عليه ، ولما كان أفضل الشكر الاخلاص في العبادة وجعلها له وحده بحيث لا يشرك مع الله أحداً في التوجه إليه ، وأظهر ما يمثل فيه التواضع والخشوع الصلاة ، لما كان الأمر كذلك طالبه بالصلاة ، ولما كان من تمام شكر الله على نعمه بذل الموجود للفقراء والاحتاجين من خلقه عطف الأمر بالانحر على الأمر بالصلاة

ثم إنه سبحانه لما بَشَّرَ رسوله صلى الله عليه وسلم بأعظم البشارة ، وأخبره أنه منحه الفضل العميم والخير الكثير وطالبه بشكره على ذلك ، وكان من تمام النعمة وكال المنّة أن يصبح عدوه الذي يبغيه الفوائل مقهوراً ذليلاً مردوداً كيده في نحره ؛ لاجرم عقب الله تعالى ذلك بقوله : (إن شَانِيكَ هُوَ الْأَبْتَرُ) والشانئ : الْمُبْغِضُ ، والأبتر في الأصل : هو الحيوان الملقوع الذنب ، والمراد به ههنا الذي لا يبقى له ذِكْرٌ ولا يدوم له أثر ، شبه بقاء الذكر الحسن واستمرار الأثر الجميل بذنب الحيوان لأنه تابع له وهوزينة ، وشبه الحرمان من ذلك ببت

الذنب وقطعه . وأنت تعلم أن شائتيه صلى الله عليه وسلم ما كانوا يشنأون ذاته
الكريمة ولا كانوا يبغضون شخصه ؛ لأن شخصه قد كان محبباً إلى أنفسهم معظماً
عندهم حتى لقد كانوا يلقبونه بالصادق الأمين ، وإنما كانوا يبغضون ما جاء
به من الهدى والحكمة لأنه سقّه أحلامهم ، وعاب عباداتهم ، وضللّ آباءهم ، ونادى
بفراق ما ألفوه ونشأوا عليه ووجدوا أسلافهم يعكفون عليه ويؤثرونه ، فأحسن
ما يحمل عليه قوله سبحانه « إن شئتُك هو الأبر » ما قاله الحسن رحمه الله : عني
الكنارُ بكون النبي صلى الله عليه وسلم أبرُّ أنه ينقطع عن المقصود قبل بلوغه
والله تعالى بين أن خصمه هو الذي يكون كذلك اهـ . وقد صدق الله رسوله
ما وعده به ، فانه جعل ذكر رسوله باقياً ببقاء السموات والأرض ، ورفع منزلته
فوق كل منزلة ، ونصر أتباعه ، وجعل كلمتهم هي العليا ، وقهر أعداءه وأذلّهم
وجعل الدبرة عليهم ، والله عزيز ذو انتقام . والله سبحانه وتعالى أعلى وأعلم .

الرد على الخصم

سورة الكافرون *

[وهي مكية ، وآياتها ست آيات ، ونزلت بعد سورة الماعون] ^(١)

* وتسمى أيضا سورة المناذرة ، كما تسمى سورة الاخلاص ، وكما تسمى سورة العبادة ، وتسمى المَقْشَقْشَة : أى العُبْرَةُ

(١) لاخلاف بين أحد من العلماء فى عدد آى هذه السورة ، فكلهم مجمعون على أنها ست آيات ؛ وقد اختلفوا فى مكان نزولها ؛ فهى عند ابن عباس والجمهور مكية ، وروى عن ابن الزبير أنها مدنية ؛ واختلف النقل عن قتادة ، فذكر فى البحر أنها عنده مدنية كقول ابن الزبير ، وذكر فى مجمع البيان أنها عنده مكية كقول ابن عباس والجمهور ، ولا صحة لما قيل : إنها مكية بالاجماع وجه المناسبة بين هذه السورة والى قبلها أن الله تعالى أمر رسوله صلى الله عليه وسلم فى السورة السابقة بعبادته والشكر له على نعمه الضافية وقد تضمن هذا الأمر الإشارة إلى إخلاص العبادة له سبحانه ، وفى هذه السورة التصريح بما أشارت السورة السابقة إليه

روى أن الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والأسود بن عبد المطلب وأمّية ابن خلف وغيرهم من صناديد المشركين ورؤسائهم أتوا النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا له : تَعَالَ حتى نعبد إِلَهَكَ مدة وتعبد آلهتنا مدة فيحصل بذلك الصلح بيننا وبينك وتزول العداوة من بيننا ؛ فإن كان أمرك رشيدا أخذنا منه حظا ، وإن كان أمرنا رشيدا أخذت منه حظا ، فنزلت هذه السورة ردّا عليهم ، كما نزل فى هذا الشأن أيضا قوله تعالى : « قل أغير الله تأمرونى أعبد أيها الجاهلون . ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكوننَّ من

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ [١] لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ [٢] وَلَا أَنْتُمْ
عَبِدُونَ مَا أَعْبُدُ [٣]

الخاسرين ، بل الله فاعبد وكن من الشاكرين ، وما قدروا الله حَقَّ قدره والأرض
جميعاً قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه ، سبحانه وتعالى عما
يشركون .

هؤلاء الناس نشأوا على ما وجدوا عليه آباءهم : من عبادة الأصنام ، ودعائهم
إذا نزلت بهم نازلة ، واتخاذهم شفعاء إلى الله ، مع ثقتهم بأنه لا يخلق ولا يرزق
إلا الله تعالى ، فلما دعاهم الرسول إلى إفراد الله بالعبادة والتوجه إليه والصمود
نحوه والاختصاص له عزَّ عليهم فراق ما ألفوه ، وشق على أنفسهم أن يتركوا ما ألفوا
عليه آباءهم وإن كان آبؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون به ، فلما قرعتهم الحجة
ولزمهم الدليل وأصبح الإنكار مع وضوح الشواهد عاراً وسباً أخذوا يتلكأون
ويحاورون ويداورون ، والتمسوا لأنفسهم الخروج من المأزق فراحوا يعرضون على
الرسول أن يشاركهم فيما هم عليه لئلا يتركوا ما وجدوا عليه آباءهم ويشاركوه فيما هو
عليه ليكون لهم نصيب من الفوز ؛ وهم جسدٌ واثقين أنه لن يوافقهم على ذلك ،
ولكنها المداورة عن الحق وارتكاب الشطط ، فهم يقولون قول الجهال وإن
كانوا عالمين ، ولهذا وصفهم الله تعالى بالجهل في الآية التي تلونا عليك ، وإنما قلوبهم
في إصرار على عباداتهم الباطلة ، ولهذا وصفهم الله بالكفر في هذه السورة بياناً
لحقيقتهم ، وأكد أنهم لا يقلعون عما هم عليه ولا يتركونه ، فقال سبحانه : (قل
يأيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد) ومعنى ذلك أن
الإله الذي تزعمون أنكم تعبدونه ليس هو الذي أعبد ، وذلك لأنكم تعبدون

من يتخذ الشفعاء أو الولد أو يظهر في شخص أو يتجلى في بعض الصور ، وأنا أعبد إلهاً لا مثيل له ولا ند له ولا ولد له ولا صاحبة له ولا يحل في جسم ولا تدرك كنهه العقول ولا تحويه الأمكنة ولا تمر به الأزمنة ولا يتقرب إليه بالشفعاء ولا تقدم له الوسائل ، فبين معبودي الذي أعبده ومعبودكم الذي تعبدونه فرق عظيم وبؤن شاسع ، وأنتم تصفون معبودكم بصفات لا يحمل بمعبودي أن يتصف بها ؛ ومحال أن يكون هذا هو ذاك للاختلاف العظيم بينهما ، وكيف يكون الذي يتوسل إليه بالشفعاء هو الذي لا يتوسل إليه إلا بالعمل الصالح والإخلاص له في العمل وإفراده بالتقرب إليه ، وكيف يكون من يظهر في شخص أو يتجلى في صورة هو الذي لا يحويه المكان ولا يحتاج إلى الحل أو الخصاص ؟ ! وكيف نلتقي في العبادة مع اختلاف المعبود ؟ !

واعلم أن « ما » في قوله سبحانه : « قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد » موصولة بمعنى الذي ، والغرض من هذه العبارة بيان الاختلاف التام بين الذي يعبده النبي صلى الله عليه وسلم والذي يعبده الكفار ؛ وهذا المعنى واضح تمام الوضوح مما قررناه في شرح الآية ، فإن قلت : فكان حق الأسلوب أن يقال « لا أعبد من تعبدون ولا أنتم عابدون من أعبد » لأن « من » هي الموضوعة لأولى العلم ، فالجواب عن ذلك أن نقول لك : إنهم ما كانوا يشكون في ذات الذي يعبدونه وذات الذي يعبده النبي صلى الله عليه وسلم ، وإنما كانوا يشكون في أوصاف هذا المعبود ، فهم كانوا يزعمون أنه يتقرب إليه بالوسائل والشفعاء وكانوا يقولون : « وما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » ويقولون : « هؤلاء شفعاؤنا عند الله » ونحو ذلك ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يصف ربه بما يليق بعظمته من التفرد والكبرياء والعظمة والبعد عن مشابهة الحوادث ، وينعى عليهم التوسل له بغير صالح الأعمال ، فلما كان الاختلاف بينهم وبينه على الصفات

وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ [٤] وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ [٥] لَكُمْ
دِينَكُمْ وَلِي دِين [٦]

التي يوصف بها المعبود لا جرم أتى بما التي هي لصفات أولى العلم ، وأما « ما »
في قوله سبحانه : (وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ) فليست اسما
موصولا كالتى فى الآيتين السابقتين ، ولكنها حرف مصدرى يسبِك ما بعده بمصدر
وكأنه قيل : وَلَا أَنَا عَابِدٌ عِبَادَتِكُمْ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ عِبَادَتِي ؛ فهاتان تدلان على
الاختلاف التام بين النبي صلى الله عليه وسلم والكفار فى نفس العبادة ، والآيتان
السابقتان دالتان على الاختلاف بين الفريقين فى المعبود ؛ فالمعنى على ذلك إنا
لسنا سواء لأن الذى تعبدونه غير الذى أعبده ولأن عبادتكم غير عبادتى ، فكيف نتفق ولا
وَجَه من المناسبة بيننا ؟ أفلسم ترون أن معبودى هو ذلك الإله الواحد الأحد
الفرد الصمد الذى تنزه عن الأشباه والأمثال وتعالى عن الوسائل والشفعاء وتقدس
عن الظهور فى شخص أو الحجابة لأحد ، وهو الذى يبسط فضله على كل من أخلص
له العبادة ، وهو القاهر فوق عباده الآخذ بناصيتهم ، ومعبودكم على خلاف معبودى
فى ذلك كله ، ثم ألسم ترون أن عبادتى مُخْلِصَةٌ لله وحده لا يشوبها شرك ولا
تصحها غفلة عن المعبود ، وعبادتكم مشوبة بالشرك مصحوبة بالغفلة ؟ ؟

وقوله سبحانه : (لَكُمْ دِينَكُمْ وَلِي دِين) معناه أن الدين الذى أدعو إليه
ويتضمن الاقرار لله تعالى بالوحدانية ونفى الشركاء والأنداد عنه سبحانه
ويستوجب العمل له وحده ، هو الدين الذى يُنسَبُ إلىَّ لأننى أبلغه عن ربى ،
ولا يُنسَبُ لى سواه ، والدين الذى تُصِرُّون عليه وتلزمونه ويتضمن اتخاذ الشفعاء
إلى الله هو دينكم الخاص بكم الذى لأقرم عليه ولا أشارككم فيه .
وقد قيل : إن الدين فى هذه الآية بمعنى الحساب ، وإن المعنى لكم حسابكم

على أعمالكم ولى حسابى على أعمالى ، ولا يرجع إلى كل واحدٍ منّا
من عمل صاحبه أثر البتة . وقيل : إن الدين باقٍ على معناه وإن الكلام على
حذف مضاف ، والتقدير لكم جزاء دينكم ولى جزاء دينى . ويقال : الدين معناه
العادة ، والمعنى لكم عادتكم المأخوذة عن أسلافكم وعن شياطين الانس والجن
الذين يزينونها لكم ، ولى عادتى التى أتلقاها عن الله تعالى

والتقديم مع معونة لام الاختصاص فى قوله سبحانه « لكم دينكم ولى دين »
يفيد الحصر ، وكأنه قيل : لكم دينكم لاغيركم ولى دينى لاغيرى ؛ فان كان على
المعنى الذى ذكرناه أولاً فالأمر ظاهر ، وإن كان على ما بعده فهو مثل قوله تعالى :
« وأن ليس للانسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى » وقوله « ولا تزر وازرة
وزر أخرى » . والله سبحانه وتعالى أعلى وأعلم .

سورة النصر *

[وهي مَدَنِيَّة ، وآياتها ثلاث آيات ، ونزلت بعد سورة التوبة] ^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ [١]

* ويقال : سورة إزاجاء ، وتسمى أيضا سورة التوديع ، وهذا الاسم مروي عن ابن مسعود .

(١) لاخلاف بين أحد من العلماء في أن عدد آي هذه السورة ثلاث آيات ، ويقال : نزلت هذه السورة بمَنَى في أوسط أيام التشريق والنبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع ، ويقال : بل نزلت عند مُنْصَرَفِ النبي صلى الله عليه وسلم من غزاة خيبر ، وعلى كل حال تكون هذه السورة مدنية ، بناءً على أن المديني هو ما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة ، سواء أنزل في المدينة أم في غيرها .

وجه المناسبة بين هذه السورة واتي قبائها أنه سبحانه لما بين اختلاف دين الرسول الذي يدعو إليه ودين الكفار الذي يلازمونه ويعكفون عليه أشار في هذه السورة إلى أن دينهم سيضمحل ويزول ، وأن دين الله ورسوله سيظهر ويتغلب عليه وسيكون هو دين السواد الأعظم من سكان الأرض

قوله سبحانه : (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ) أصل النَّصْر في اللغة العَوْنُ ، وهم يقولون : قد نَصَرَ الغيثُ الأرضَ ، يريدون أنه أعان على إظهار نباتها ، ويقولون : نصر فلان فلانا على عدوه ، إذا أعانه عليه ، ويقولون : استنصر فلان فلانا ، إذا

وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا [٢] فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ

سأله أن يُعينه عليه ، والمراد به ههنا إعانة الله رسوله على المشركين وإمداده إياه حتى يظهر عليهم ، والفتح يحتمل معنيين : الأول أن يكون من فتح البلاد ، ومعناه الظفر بهاء عَنَوَةٌ والتغلب على أهلها ، والثاني أن يكون من الفتح في القضية ، ومعناه الْفَصْلُ والحكم بين المتخاصمين ومنه قوله سبحانه وتعالى : « ربنا افتتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين » وقد اختلف العلماء في بيان المراد منه ههنا ؛ فذهب قوم إلى أن المراد به فتح البلاد ، وهؤلاء اختلفوا ؛ فمنهم من قال : المراد فتح مكة ، ومنهم من قال : المراد فتح خيبر ، ومنهم من قال : المراد فتح الطائف ، ومنهم من قال : المراد فتح بلاد الشرك على الإطلاق ؛ وذهب قوم إلى أن المراد ما فتح الله على رسوله من العلوم والمعارف ، وذهب قوم إلى أن المراد بالفتح الفصلُ بينه وبين أعدائه والحكم عليهم له بأعزاز دينه وإظهار كلمته ، وهذا أحسن الوجوه .

وقوله سبحانه : (ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا) رأيت : معناه أبصرت ، وعلى ذلك تكون جملة « يدخلون » في محل نصب حال من الناس ، والأفواج : جمع فوج ، وهو الجماعة والطائفة ، والمعنى عندما ترى نصر الله لدينه وفصله بينك وبين قومك بأن يجعل الغلبة لك عليهم وترى عند ذلك الناس يدخلون في دينك جماعات ، لا أفراداً كما كان ذلك في مبدأ أمرك (فسبح بحمد ربك) أي : فترزه ربك وقدسَه عن أن يُهمَل الحق ويدعاه للباطل يتغلب عليه ونزّهه كذلك عن أن يُخَفَّ وعده الذي وعدك به من أن يجعل كلمتك هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ويتم نوره ولو كره الكافرون ؛ وليكن تنزيهك لربك وتقديسك له بحمده على ما أولاك وشكره على ما منحك والثناء عليه بما هو

وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا [٢]

له أهل فانه القادر الذي لا يقف في سبيله أحد الحكيم الذي لا يضيع عباده المخلصين الخبير الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور (واستغفره) أى أسأله أن يغفر لك ^(١) ولقومك الذين اتبعوك في أول الأمر ما كان منكم من القلق والضجر والحزن لتأخر النصر والفتح ، ويقال : إن المعنى أستغفر ربك لمن يدخلون في دينك ، وأسأله أن يعفو عنهم ولا يعاقبهم على تأخرهم في اعتناق دينه ، وقيل : المراد استغفره لأمتك لما يحدث منهم من تقصير .

وقوله سبحانه : (إنه كان توابا) معناه أن ربك لا يزال موصوفا بأنه كثير القبول لتوبة عباده . قال الأستاذ : وكأن الله يقول : إذا حصل الفتح وتحقق النصر وأقبل الناس على الدين الحق فقد ارتفع الخوف وزال موجب الحزن ، فلم يبق إلا تسبيح الله وشكره والنزوع إليه عما كان من خواطر النفس ؛ فلن تعود الشدة تأخذ نفوس المخلصين ماداموا على تلك الكثرة في ذلك الاخلاص ومن هذا أخذ النبي صلى الله عليه وسلم أن الأمر قد تم ولم يبق له إلا أن يسير إلى ربه فقال فيما روى عنه : إنه قد نعت إليهِ نفسه . اهـ . والله سبحانه أعلى وأعلم .

(١) قال في فتح البيان : أى اطلب منه المغفرة لذنبك ، وسله الغفران هضم لنفسك واستقصارا لعملك واستدرا كما لما فرط منك من ترك ما هو الاولى ، وقد كان صلى الله عليه وسلم يرى قصوره عن القيام بحق الله ويكثر من الاستغفار والتضرع وإن كان الله قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وقيل : إن الاستغفار منه صلى الله عليه وسلم ومن سائر الأنبياء هو تعبد تعبد هم الله به لالطلب المغفرة لذنب كائن منهم ، وقيل : إنما أمره الله سبحانه بالاستغفار تنبيها لآئمه وتعريضا بهم فكأنهم هم المأمورون . اهـ

سورة المسد *

[وهي مكية ، وآياتها خمس آيات ، ونزلت بعد سورة الفاتحة] ^(١)

* وتسمى سورة أبي لهب ، كما تسمى سورة تبت .

(١) لا خلاف بين أحد من العلماء في أن آي هذه السورة خمس آيات ، كما أنه لا خلاف بين أحد منهم في أن هذه السورة مكية .

وجه المناسبة بين هذه السورة والتي قبلها ما ذكره الإمام الرازي بقوله :
اعلم أن الله تعالى قال : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » ثم بين في
سورة « قل يأيتها الكافرون » أن محمدا عليه الصلاة والسلام أطاع ربه وصرح
بنفى عبادة الشركاء والأضداد وأن الكافر عصى ربه واشتغل بعبادة الأضداد
والأنداد ، فكأنه قيل : إلهنا ، ما ثواب المطيع ؟ وما عقاب العاصي ؟ فقال :
ثواب المطيع حصول النصر والفتح والاستعلاء في الدنيا والثواب الجزيل في
العقبى ، كما دل عليه سورة « إذا جاء نصر الله » ، وأما عقاب العاصي فهو الخسار
في الدنيا والعقاب العظيم في العقبى ، كما دلت عليه سورة « تبت » .

ذكروا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان في أول المبعث يكتم أمره
فكان يخرج إلى شعاب مكة يتعبد فيها ، حتى نزل عليه قوله تعالى « وأنذر
عشيرتك الأقربين » فصعد الصفا ونادى : يا آل غالب ، فخرجت إليه غالب من
المسجد ، فقال أبو لهب : هذه غالب قد أتتك فما عندك ؟ ثم نادى : يا آل لؤى ،
فرجع من لؤى ، فقال أبو لهب : هذه لؤى قد أتتك فما عندك ؟ ثم
قال : يا آل مرة ، فرجع من مرة ، فقال أبو لهب : هذه مرة قد أتتك
فما عندك ؟ ثم قال : يا آل كلاب ، ثم قال بعده : يا آل قضى ، فقال أبو لهب :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ [١]

هذه قصي قد أتتك فما عندك ؟ فقال : إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقرين ، وأنتم الأقرين ، اعلّموا أنّي لا أملك لكم من الدنيا حظا ولا من الآخرة نصيباً إلا أن تقولوا لا إله إلا الله فأشهد بها لكم عند ربكم ، فقال أبو لهب : تَبّاً لك الهَذَا دَعَوْتُنَا ؟ فزلت هذه السورة . وفي رواية للبخاري عن ابن عباس قال : خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى البطحاء فصعد الجبل فنَادَى « يَا صَبَاحَاهُ » فاجتمعت إليه قريش ، فقال : أَرَأَيْتُمْ إِنْ حَدَّثْتُكُمْ أَنَّ الْعَدُوَّ مُصِيبُكُمْ أَوْ تُمَسِّمُكُمْ أَكُنْتُمْ تَصَدَّقُونِي ؟ قالوا : نعم ، قال : فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ، فقال أبو لهب : أَلَهَذَا جَمَعْتُنَا ؟ تَبَالُك !! وفي رواية أنه قام ينفُضُ يديه وهو يقول : تَبّاً لك سائر اليوم ! أَلَهَذَا جَمَعْتُنَا ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ » فهذا بعض ما يروى عن سبب نزول هذه السورة .

قوله تعالى : (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ) التَّبَابُ فِي الْأَصْلِ : الْهَلَاكُ وَالْخُسْرَانُ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : « وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ » وَقَوْلُهُ جَلِ شَأْنُهُ : « وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ » وَفِي آيَةٍ أُخْرَى « وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَخْسِيرٍ » وَقَدْ ذَكَرُوا فِي الْمُرَادِ مِنْ « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ » عِبَارَاتٍ كُلُّهَا يَرْجِعُ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى ؛ فَقِيلَ : الْمُرَادُ خُسْرَانًا يُفْضَى بِهِ إِلَى الْهَلَاكِ ، وَقِيلَ : الْمُرَادُ خَابَتَا ، وَقِيلَ : الْمُرَادُ غُلِبَتَا ، وَقِيلَ : الْمُرَادُ صَفَرَتَا مِنْ كُلِّ خَيْرٍ ، وَأَبُو لَهَبٍ : هُوَ أَحَدُ أَعْمَامِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَاسْمُهُ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ عَبْدِ الْمَطْلَبِ بْنِ هَاشِمٍ ، وَيُقَالُ : اسْمُهُ هُوَ كُنْيَتُهُ ، فَإِنْ قُلْتَ : فَمَا سَرُّ ذِكْرِ الْيَدَيْنِ ؟ فَالْجَوَابُ عَنْ ذَلِكَ أَنَّهُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ قَدْ ذَكَرَ الْيَدَيْنِ وَأَرَادَ جَمَلَتَهُ كُلَّهَا ، مِنْ بَابِ إِطْلَاقِ اسْمِ الْجُزْءِ وَإِرَادَةِ الْكُلِّ ،

مَا غْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ [٢]

مثل إطلاق العين على الجاسوس ، وهذا استعمال شائع في لغة العرب ، ومنه قولهم « يَدَاكَ أَوْ كَتَا » ومنه قوله تعالى : « ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ » وقوله « مما عملت أيدينا » ، وإما أن يكون المراد اليدين على الحقيقة ، وذلك لأن أبا لهب كان يقول : يَعدُّني محمدٌ أشياء لا أرى أنها كائفة يزعم أنها بعد الموت فلم يضع في يَدَيَّ شيئاً من ذلك ، ثم ينفخ في يديه ويقول : تبا لكما ما أرى فيكما شيئاً ، فأنزل الله الدعاء عليه على وفق ما اختاره لنفسه ، ويقال : اليدان عبارة أول أمره وآخره ، فكأنه قيل : خسر أبو لهب في أول أمره وخسر في آخر أمره ، فإن قلت : فإذا كان ذكر اليدين مراداً به جملة كلها على ما هو الوجه الأول فكيف قال بعد ذلك « وَتَبَّ » وهل هو من باب التكرار للتأكيد ؟ فالجواب عن ذلك أن الجملة الأولى وهي قوله سبحانه « تبت يدا أبي لهب » دُعَاءٌ على أبي لهب بالخسران والهلاك ، والجملة الثانية إخبارٌ عن وقوع هذا الدعاء وحصوله ، والدليل على ذلك أن ابن مسعود قد قرأ « تبت يدا أبي لهب وقد تَبَّ » فذلك مثل قول الشاعر : —

جَزَانِي جَزَاهُ اللَّهُ شَرَّ جَزَائِهِ جَزَاءَ الْكِلَابِ الْعَاوِيَاتِ وَقَدْ فَعَلَ
ويجوز أن يكون كل من الجملتين خبراً ، ولكن المقصود بالأول هلاك
أعماله والمقصود بالثاني هلاك ذاته .

ثم استأنف سبحانه الكلام لبيان أن ما كان أبو لهب يتعزز به من ماله وجاهه لم يمنع عنه ما أراد الله به من الهلاك والخسران ، فقال جل شأنه : (ما غنى عنه ماله وما كسب) والمعنى أنه لم يفده ماله الكثير وأعماله التي عملها معاداةً للرسول وتنفيراً منه وإبعاداً للناس عنه ، ولم يجد ذلك عليه شيئاً ، فإنه لم يتغلب على الرسول ولم يستطع أن يقطع ما أراد الله أن يوصل .

وقد كان أبو لهب هذا شديد العداوة للنبي صلى الله عليه وسلم شديد التحريض عليه شديد الصدّ عنه ، روى أحمد بن حنبل بسند له عن ربيعة بن عباد قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في الجاهلية في سوق ذي المجاز وهو يقول : يا أيها الناس ، قولوا لا إله إلا الله تفلحوا ، والناس مجتمعون عليه ، ووراءه رجل وضىء الوجه أحول ذو غديرتين يقول : إنه صابئ كاذب ، يتبعه حيث ذهب ، فسألت عنه فقالوا : هذا عمه أبو لهب ، وروى محمد بن إسحاق بإسناد له عن ربيعة بن عباد أيضا قال : إني لمع أبي رجل شاب أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يتبع القبائل ووراءه رجل أحول وضىء الوجه ذو جُمّة ، يقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على القبيلة فيقول : يا بني فلان ، إني رسول الله إليكم أمركم أن تعبدوا الله لا تشركوا به شيئا وأن تصدقوني وتمنعوني حتى أنقذ عن الله ما بعثني به ، وإذا فرغ من مقالته قال الآخر من خلفه : يا بني فلان ، هذا يريد أن تسلخوا اللات والعزى وحلفاءكم من الجن من بني أقيش إلى ما جاء به من البدعة والضلالة فلا تسمعوا له ولا تتبعوه ، قال ربيعة : فقلت لأبي : من هذا ؟ فقال : عمه أبو لهب ؛ ومن هنا تعلم أن أبا لهب ما كان يعادى النبي صلى الله عليه وسلم ويكيدله ويجاهر بدمه والتنفير منه لكرهه شخصه ، وكيف يكره شخصه وهو ابن أخيه والعصبية العربية ماهي ؟ وإنما كان يكره ما جاء به عن ربه مما سماه أبو لهب بدعة ، فاذا ما ذمه الله تعالى ونهى عليه فأنما يذم أعماله التي كان يعملها في الصد عن الدين وتنفير الناس من اتباع الرسول ؛ فالدعاء الذي تضمنته هذه الآية الكريمة وإن توجه إلى أبي لهب بذاته لا يقتصر عليه ، بل هو موجه إلى كل من يصد عن الدين الحق وينفر عن اتباعه ويأمر بمخالفته ، وقد جعل أبو لهب مثالا لذلك لأنه كان قد اشتهر به وذاع عنه تكذيب الرسول وتحدّيه واتباعه في خطواته كلها ليحلى الناس عنه .

سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ [٣] وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ [٤]

وقوله سبحانه : (سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ) يَصْلَى النَّارَ : يجدحرها ويذوقه ؛ ولهبُ النار : ما يَسْطَعُ منها عند اشتعالها وتوقدها وأراد سبحانه من وصف النار بأنها ذات لهب أنها نار شديدة الحرارة ، والمراد من هذه النار التي يصلها نار الآخرة التي أعدها الله تعالى لعذاب الكفار والمعاندين .

والمعنى خسر أبو لهب وضل عمله وبطل سعيه الذي كان يسعاه للصدِّ عن دين الله ولم يُغْنِ عنه ماله الذي كان يتباهى به ولا جدُّه واجتهاده ؛ فإن الله أعلى كلمة رسوله ونشر دعوته وأذاع ذكره ، وإن أبا لهب سيعذب يوم القيامة بنار ذات شرر وهيب وإحراق شديد أعدها الله لمثله من الكفار والمعاندين ، فوق تعذيبه في الدنيا بإبطال سعيه ودخض عمله ، وسيعذب معه امرأته التي كانت تعاونه وتساعد على كفره وجحدته ، وكانت عضدَّه في معاكسة الرسول صلى الله عليه وسلم وإيذائه وكانت تمشي بالنميمة والوقعة للإفساد وإيقاد نار الفتنة والعداء ، وذلك قوله تعالى : (وامرأته حمالة الحطب) وارتفاع « امرأته » بالعطف على الضمير المستتر العائد إلى أبي لهب في قوله سبحانه « سيصلى » وانتصاب « حمالة الحطب » بفعل مضمر واجب الحذف لأن المقصود به ههنا الذم ، واسم امرأة أبي لهب أروى بنت حرب بن أمية ، وكنيته أم جميل ، وهى أخت أبي سفيان بن حرب بن أمية ، وهى عمة معاوية بن أبي سفيان ، وقوله سبحانه « حمالة الحطب » إما حقيقة فقد روى أنها كانت تحمل حزمة من الشوك والحسك والسعدان فتنثرها بالليل في طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يذائه به ، وإما مجاز والمراد به أنها كانت تمشي بالنميمة ، ويقال لمن يمشى بالنميمة ليفسد بين الناس : هو يحمل

في جيدها حبلٌ من مسدٍ [٥]

الخطب بين الناس : أى أنه يوقد بينهم النائرة ويؤرث الشر ، ومنه قول الشاعر :
 مِنَ الْبَيْضِ لَمْ تَصْطِدْ عَلَى ظَهْرِ لَامَةٍ وَلَمْ تَمْشِ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَطَبِ الرَّطْبِ ^(١)
 وقد زاد سبحانه وتعالى في تبشيع صورتها بقوله : (في جيدها حبلٌ من مسدٍ)
 والجيد : العنق ، والمسد : الليف ، وهو أيضا الخوص ، وهو أيضا
 جلد الابل ، ويقال : المسد ما قتل فتلا شديدا ، والمعنى في جيدها حبلٌ مما مسد من
 الحبال وأحكم قتله ، بين سبحانه أنها تحمل تلك الحزمة من الشوك وتربطها في
 جيدها كما يفعل الخطابون ؛ تحسيسا لحالها ، وتحقيرا لها ، وتصويرا لها بصورة
 بعض الخطابات من المتهنئات ؛ لمتعض من ذلك ويتمتع بعضا بها . ويحتمل أن
 يكون المراد أن حالها في نار جهنم تكون على الصورة التي كانت عليها حين كانت
 تحمل حزمة الشوك ، وأنها لا تزال في النار تحمل حزمة من حطب النار ولا يزال
 في جيدها حبلٌ مما مسد من سلاسل النار ، وذلك أن كل مجرم يعذب يوم القيامة
 بما يجانس حاله في جرمه . وهذا المعنى الذى أشرنا إليه أخيرا مروى عن جماعة من
 العلماء ؛ فقد روى عن سعيد بن المسيب أنه قال : كانت لأم جميل قِلادة فاخرة
 فقالت : لأنفقنها في عداوة محمد ، فأعقبها الله منها حبلا في جيدها من مسد النار .
 قال بعض العلماء : وفي هذه السورة معجزة ظاهرة ودليل واضح على النبوة ؛
 فانه منذ نزل قوله تعالى : « سيصلى نارا ذات لهب وامرأته حمالة الحطب في جيدها
 حبل من مسد » فأخبر عنهما بالشقاء وعدم الإيمان لم يقيض لهما ولا لأحدهما أن
 يؤمن ، لا باطنا ولا ظاهرا ، ولا مسررا ولا معلنا ، بل بقي الشقاء مكتوبا لهما جميعا
 حتى فارقا هذه الحياة على ما يفارقها الجاحد الكنود ؛ فكان هذا من أقوى
 الأدلة وأبهر الآيات على صدق الرسول فيما جاء به عن ربه ؛ والله أعلى وأعلم .

(١) قال جار الله : جعل الحطب رطبا ليبدل على التدخين الذى هو زيادة في الشر .

سورة الإخلاص

[وهي مكية، وآياتها أربع آيات، ونزلت بعد سورة الناس] ^(١)

* لهذه السورة أسماء كثيرة؛ فيقال : سورة الاخلاص ، ويقال : سورة التفريد ، ويقال : سورة التحديد ، ويقال : سورة التوحيد ، ويقال : سورة النجاة ، ويقال : سورة المعرفة ، ويقال : سورة الأساس ، ويقال : سورة النور ؛ ويقال غير ذلك ،

(١) اختلف العلماء في عدد آي هذه السورة وفي مكان نزولها ؛ فأما عن الأول فقد عدّها المكيون خمس آيات وعدّها الشاميون أربع آيات ، وأما عن الثاني فعن الحسن وعكرمة وعطاء ومجاهد وقتادة أنها مكية ، وعن محمد بن كعب وأبي العالية والضحاك أنها مدنية ، وذكر صاحب البحر عن ابن عباس أنها مدنية ، واستظهر بعض العلماء عنه أنها مكية ، وذهب بعض العلماء إلى أنها نزلت مرتين إحداهما بمكة والثانية بالمدينة ، وزعم الدواني أنها مكية بالاتفاق ، وهو قول مَنْ لم يطالع على شيء مما ذكرنا .

روى الضحاك أن المشركين أرسلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عامراً ابن الطُّفَيْل ، فقال له عنهم : شَقَقْتَ عَصَانَا ، وَسَبَبْتَ آلَهُتَنَا ، وخالفت دين آبائنا ، فان كنت فقيراً أغنييناك ، وإن كنت مجنوناً داويناك ، وإن كنت قد هويت امرأة زوجنا كها ؛ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : لستُ بفقير ، ولا مجنون ، ولا هويت امرأة ، أنا رسول الله أدعوكم من عبادة الأصنام إلى عبادته ، فأرسلوه ثانية وقالوا : قل له بَيِّنْ لنا جنس معبودك ، أمن ذهب أو فضة ، فأُنزل الله تعالى هذه السورة ؛ وروى عطاء عن ابن عباس قال : قدم وفدُ نَجْرَانَ فقالوا :

صف لنا ربك مَنْ زَبَرَ جَدَّ أَوْ ياقوت أَوْ ذهب أَوْ فضة ، فقال : إن ربي ليس من شيء لأنه خالق الأشياء ، فنزلت « قل هو الله أحد » فقالوا : هو واحد وأنت واحد ، فقال : ليس كمثل شيء ، قالوا : زدنا من الصفة ، فقال « الله الصمد » فقالوا : وما الصمد ؟ فقال : الذي يَصْمَدُ إليه الخلق في الحوائج ، فقالوا : زدنا ، فقال « لم يَلِدْ » أى كما وَلَدَتْ مريم « ولم يُولَدْ » أى كما وُلِدَ عيسى ؛ « ولم يكن له كفوا أحد » يريد أنه ليس له نظير من خلقه . وكان وفد نجران من النصارى .

هكذا رَوَوْا في سبب نزول هذه السورة ، وقال الأستاذ : هذه السورة تشتمل على أهم الأركان التي قامت عليها رسالة النبي صلى الله عليه وسلم ، وهي ثلاثة ، الأول : توحيد الله وتنزيهه ، والثاني : تقرير الحدود العامة للأعمال ببيان الصالحات وما يقابلها ، وذلك هو الشريعة ، والثالث : أحوال النفس بعد الموت من البعث وملاقاة الجزاء من ثواب وعقاب ، وأول هذه الأركان هو التوحيد والتنزيه لإخراج العرب وغيرهم من الشرك والتشبيه ، وهو ركن الأركان ، وأول مأموره من أصول الإيمان ، فيصح أن يكون الأمر بتبليغ مافى هذه السورة صادرا من الحق جل شأنه تحقيقاً لأمر رسالته صلى الله عليه وسلم ولإرشاد الناس إلى ما يجب أن يعتقدوه في جانب الله ، ولا حاجة إلى أن يسأل بعض العرب النبي صلى الله عليه وسلم ما هو نسب الله حتى تنزل السورة جواباً لهذا السؤال ، وإنما حاجة القوم ، بل العالم الانساني ، كانت ماسةً إلى بعثة النبي صلى الله عليه وسلم لدعوة المشركين من العرب وأهل الكتاب في سورة واحدة ، وتعريفهم بالله في أوجز عبارة وأجزأها ، ولما بيننا لا يستغرب ماورد في الخبر من أنها تعدل ثلث القرآن ^(١) ؛ لأن من عرف معناها حق

(١) لأن العباس تقي الدين أحمد المعروف بابن تيمية جزء لطيف سماه « جواب

المعرفة وأدرك ما أشارت إليه إدراك صاحب البصيرة المستنيرة لم يكن بقية
 ما جاء في التوحيد والتنزيه عنده إلا تفصيلا لما علم وشرحا لما حصّل . اه
 وفي عبارة جاز الله الزخشرى في الكشف إشارة إلى استنباط تفاصيل
 التوحيد من السورة قال : سألوه أن يصفه لهم ، فأوحى إليه ما يحتمى على صفاته ،
 فقوله « هو الله » إشارة لهم إلى من هو خالق الأشياء وفطرها ، وفي طى ذلك
 وصفه بأنه قادر عالم ؛ لأن الخلق يستدعى القدرة والعلم لكونه واقعا على غاية
 الأحكام والأنساق والانتظام ، وفي ذلك وصفه بأنه حى سميع بصير ، وقوله « أحد »
 وصف بالوحدانية ونفى الشركاء ، وفي قوله « الصمد » وصفه بأنه ليس إلا محتاجا
 إليه ، وإذا لم يكن إلا محتاجا إليه فهو غنى ، وفي كونه غنيا مع كونه علما أنه
 عدل غير فاعل للقبائح لعلمه بقبح القبيح وعلمه بغناه عنه ، وقوله « لم يولد »
 وصف بالقدم والأولية ، وقوله « لم يلد » نفي للشبه والمجانسة ، وقوله « ولم يكن
 له كفوا أحد » تقرير لذلك وبت للحكم به . اه .

أهل العلم والايان بتحقيق ما أخبر به رسول الرحمن من أن قل هو الله أحد تعدل
 ثلث القرآن » وقد استهل هذا الكتاب بذكر الطرق التي روى بها هذا الحديث عن
 عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وروى معه أحاديث أخرى رويت في شأن سور
 أخرى تماثل هذا الحديث ، كالحديث الذي روى في سورة الزلزلة « أنها تعدل نصف
 القرآن » والحديث الذي روى في شأن سورة الكافرون « أنها تعدل ربع القرآن »
 ثم عقد فصلا استوفى فيه الكلام على كلام الله تعالى وهل يفضل بعضه بعضا ، ثم
 ذكر بعد كلام طويل أقوال العلماء وتوجيهاتهم في هذه المسألة ، والاساس الذي
 درج عليه جمهورهم هو تقسيم الأصول التي هي محور الدين والتي تعرض القرآن
 الكريم لبيانها إلى ثلاثة أقسام ، وبيان أن سورة الاخلاص قد شرت قسمين من
 هذه الاقسام الثلاثة : فلا جرم كانت عدل ثلث القرآن ، ولكن العلماء يختلفون
 نوع اختلاف في ذكر الاقسام الثلاثة ، والمؤلف يناقشهم في الاقسام ، وإن أفضل هذه
 الوجوه وأبعدها عن الاعتراض هو ما جاء في كلام الأستاذ الذي تراه في صدر
 هذا المبحث .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ [١] اللَّهُ الصَّمَدُ [٢]

قوله تعالى : (قل هو الله أحد) هذا الضمير هو المسمى عند النحاة ضمير الشأن ، وهو مبتدأ ، والجملة التي بعده خبر عنه ، والأحد : هو الواحد الذي لا كثرة له في ذاته ، نعى أنه ليس مركبا من جواهر مختلفة ، ومعنى هذه العبارة : قل لهم : الخبر المؤيد بالدليل القاطع والبرهان الذي لا يقع معه الريب ولا يشوبه شائبة شك هو الله واحد في ذاته ليس مركبا من جواهر تكون له أجزاء مادية ولا هو من أصول متعددة غير مادية ، والسر في تصدير هذه الجملة بضمير الشأن التنبيه من أول الأمر على غفلة مضمونها مع مافيه من زيادة التحقيق والتقرير ، وذلك أن الضمير لا يفهم منه من أول الأمر إلا شأن مبهم له خطر جليل ، فيبقى الذهن مترقبا لما يأتي بعده مما يفسره ويوضحه ويزيل مافيه من الإبهام ، فإذا جاء ذلك تمكن المراد منه عند ورود التفسير أبلغ تمكن ، وجيء بالخبر نكرة وهو « أحد » لأن المقصود هو الإخبار عن الله بأنه واحد ، ولو قيل « الله الأحد » لأفاد أنه لا واحد سواه ، وليس ذلك مقصودا ، ألت ترى أن الذي كان يعتقد المخاطبون بهذا الكلام هو أنه متعدد في ذاته ، فالمقصود إنما هو نفي هذا التعدد المزعوم وإثبات أنه واحد ،

وقوله سبحانه : (الله الصمد) قال ابن الأنباري : لاختلاف بين أهل اللغة في أن الصمد هو الذي ليس فوقه أحد وهو الذي يصمد إليه الناس في حوائجهم وأمورهم ، وقال الزجاج : هو الذي ينتهى إليه السؤدد ويقصده كل شيء ، ومن ذلك قول الشاعر :

أَلَا بَكَرَ النَّاعِي بِحَيْرِ بَنِي أَسَدٍ بِعَمْرٍو بَنِ مَسْعُودٍ وَبِالسَّيِّدِ الصَّمَدِ

وقول الآخر :

عَاوَنُكَ بِحُسَامٍ ثُمَّ قُلْتُ لَهُ خُذْهَا إِلَيْكَ وَأَنْتَ السَّيِّدُ الصَّمَدُ

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : الصمد هو السيد الذي قد كمل في سؤدده والشريف الذي قد كمل في شرفه والعظيم الذي قد كمل في عظمته والحليم الذي قد كمل في حلمه والعليم الذي قد كمل في علمه والحكيم الذي قد كمل في حكمته وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد ؛ وقال الأستاذ : وهذه القضية « الله الصمد » من الكلمات الجامعة التي تملأ النفس مما قصد بها بدون جهد ولا تعب ؛ لأن تعريف الصمد مع العلم بأن لفظ الجلالة معرفة صير الجملة معرفة الطرفين ، وهي تفيد الحصر ، كما تقول : زيد العالم ، إذا كان مخاطبك يعتقد أن غيره يشاركه في العلم ، فتدفع ظنه بذلك ، تريد لا عالم سواه ؛ فهذه الآية تقول لك : إن حاجة ما في الوجود لا تتوجه إلى غيره ، وإن محتاجاً لا يجوز له أن يتوجه في طلب حاجته إلى سواه ، فقد أفادتنا أن جميع المسببات تنتهي إليه وجميع ما يسرى فيها من الوجود فهو من إيجادها ، وإن صاحب الاختيار كالإنسان إذا أراد أن يُحَصِّلَ مُسَبَّباً من سبب فعليه أن يبحث عن طريقة ارتباطه به على حسب ما أمره الله بالبحث والنظر والتدبر في مخلوقاته ليعلم كيف يسرى الوجود الموهوب من واجب الوجود من الأسباب إلى المسببات ، ثم يذهب بها حتى يسندوها إلى مبدئها وهو الأمر الإلهي ، هذا فيما يظهر فيه السبب والمسبب ويظهر فيه أثر الكسب وعمل الإرادة والقوى الممنوحة البشرية ، أما ما هو وراء ذلك مما لا دخل للإدارة فيه فعلى صاحب الحاجة ألا يتوجه في المعونة عليها بعد الأخذ بالأسباب إلا إلى الله وحده فهو المستأثر بالعمل فيما وراء ما جعل لك فيه عملاً ، وقوله « الصمد » يشعر بأنه الذي ينتهي إليه الطالب مباشرة بدون واسطة ولا شفيع

لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ [٣] وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ [٤]

وقوله سبحانه : (لم يلد ولم يولد) تنزيه له سبحانه عن أن يكون له ولد أو بنت ، وعن أن يكون له أب أو أم ؛ فليس هو والد ولا مولودا ، والأول ردُّ لمزاعم مشركي العرب الذين زعموا أن الملائكة بنات الله ، والثاني رد على ماذهب إليه النصارى من أن ابنا الله يكون هو أيضا إلهًا فيعبد عبادة الإله وَيُقَصَّدُ في قضاء الحوائج ويتوجه إليه . وقرأ إن شئت قوله تعالى « وقالوا اتخذ الرحمن ولدا : لقد جئتم شيئا إدا ، تكاد السموات يتفطرن منه وتشق الأرض وتخر الجبال هداً ، أن دَعَوْا للرحمن ولدا ، وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا ، إِنَّ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَ الرَّحْمَنِ عَبْدًا ، لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ، وَكَلَّمَهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا » وقرأ كذلك قوله سبحانه : « فاستفتهم الربك البنات ولهم البنون ، أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون ، ألا إنهم من إفكهم ليقولون وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ، أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ، مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ، أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ، فَآتُوا بَكْتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسْبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ، سبحانه الله عما يصفون »

وقوله سبحانه : (ولم يكن له كفوا أحد) الكفو : معناه المكافئ والمماثل والنظير في العمل والقدرة ، وهذا ردُّ لما زعمه المشركون من أن الله تعالى ندًّا في أفعاله

وقد تضمنت هذه السورة نفي الشرك بجميع أنواعه ؛ فقد نفي الله تعالى عن نفسه أنواع الكثرة بقوله « الله أحد » ، ونفي عن نفسه النقص والاحتياج والمغلوبة بقوله « الله الصمد » ، ونفي عن نفسه العلية والمعلولية بقوله « لم يلد ولم

يولد » ونفى عن نفسه الأنداد والأشباه والأضداد بقوله « ولم يكن له كفوا أحد » ؛
وتضمنت السورة من ناحية أخرى إبطال مذاهب المشركين كلهم ؛ فقوله سبحانه
« الله أحد » إبطال لمذهب التَّنَوِيَّة القائلين بالظلمة والنور ، وإبطال لمذهب
النصارى القائلين بالتثليث ، وإبطال لمذهب الصابئة في الأفلاك والنجوم ،
وقوله سبحانه « الله الصمد » إبطال لمذهب بعض مشركى العرب الذين
زعموا أن غير الله يُقَصَّد في طلب الحوائج ، وقوله سبحانه « لم يلد ولم يولد »
إبطال لمذهب اليهود في عزير حيث قالوا : عزير ابن الله ، وإبطال لمذهب النصارى
في المسيح حيث قالوا : المسيح ابن الله ، وفي مريم حيث قالوا : هى أم الله القادرة ،
وإبطال لمذهب بعض مشركى العرب في الملائكة حيث قالوا : الملائكة بنات
الله ، وفي الجن حيث جعلوا بينها وبين الله نسبا ؛ وقوله سبحانه « ولم يكن
له كفوا أحد » إبطال لمذهب بعض مشركى العرب حيث جعلوا الأصنام شركاء
لله وأكفاء له ، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا . والله سبحانه
أعلى وأعلم .

سورة الفلق

[وهي مكية ، وآياتها خمس آيات ، ونزلت بعد سورة الفيل^(١)]

(١) لاخلاف بين أحد من العلماء في عدد آي هذه السورة ، وقد اختلفوا في مكان نزولها ؛ فعن الحسن وعطاء وعكرمة وجابر أنها مكية ، وعن قتادة وجماعة أنها مدنية ، واختلف النقل عن ابن عباس ؛ فروى عنه كريب أنها مكية ، وروى عنه أبو صالح أنها مدنية ، واختلف العلماء في الترجيح ؛ فرجح قوم أنها مكية ، وهو الذي اعتمدناه ناشرو المصحف الكريم في مصر ، ورجح قوم أنها مدنية ، وهذا هو الذي عليه الثقات الأثبات من العلماء ، وهو الذي يوافق ما ذكره في سبب النزول وإن كنا لا نقر هذا السبب على ما سيأتي لنا بيانه .

روى المفسرون أن لبید بن أعصم اليهودي سَجَرَ النبي صلى الله عليه وسلم ؛ فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث ليال ، واشتد عليه ذلك حتى كان يُخَيَّلُ له أنه يفعل الشيء وهو لا يفعله ، ثم أتاه جبريل فأخبره بالسحر وبموضعه الذي وضع فيه ، وتلا عليه المعوذتين ، وأرسل النبي صلى الله عليه وسلم عليا وطاحه فأتياه بالسحر ؛ فقرأ المعوذتين ؛ وكان كلما قرأ آية انحلت عقدة من عقد السحر وَوَجَدَ بعض الخِفَّةِ والراحة ، حتى إذا انتهى من تلاوتهما عاد إليه نشاطه ، ورجعت له حالته

وهذا كلام لا ينبغي أن يقال في حق الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكيف يجوز أن يقال مثل ذلك في حق المعصوم من الناس بنص قوله تعالى : « والله يعصمك من الناس » ؟ وهل ذلك القول إلا أبعد ما رامه به أعداؤه الذين كانوا يكيدون له في قولهم « إن تسمعون إلا رجلا مسجوراً » وكيف والقول إنه عليه الصلاة والسلام قد سَجِرَ حتى خيل له أنه يفعل الشيء وهو لا يفعله تكذيب لقوله تعالى :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ [١] مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ [٢] وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ [٣]

« ولا يفلح الساحر حيث أتى » ولو جاز ذلك لكان بابا من أبواب القدح في النبوة لا يقدر أحد على إيصاده وسد ثلمته ؟ ! !

قوله سبحانه : (قل أعوذ برب الفلق) أصل الفَلَقُ شق الشيء وإبانة بعضه عن بعض ، تقول : فلقت الشيء فانفلق ، ومنه قوله تعالى : « إن الله فالق الحب والنوى » وقوله تعالى : « فالق الإصباح » وقوله : « فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم » والشيء المفلق يقال له فَلَقٌ ، ومنه قيل للمطمئن من الأرض بين ربوتين فَلَاقٌ ، واختلف العلماء في المراد منه في هذه الآية ، فقيل : المراد من الفلق الصبح ، وقيل : المراد به كل ما يفلقه الله كالأرض التي تنفلق عن النبات والجبال التي تنفلق عن عيون المياه والسحاب التي تنفلق عن ماء الأمطار والأرحام التي تنفلق عن الأولاد ، وأنت إذا تأملت تبين لك أن أكثر العالم يحدث عن انقلاب وانفلاق ، فكانه قيل : قل أعوذ برب جميع الممكنات ومبدع كل المحدثات والمبتدعات .

وقوله سبحانه : (من شر ما خلق) معناه من كل شر وأذى يصيبك من أي شيء من خلقه ؛ سواء أكانوا من المكلفين أم لم يكونوا

وقوله سبحانه : (ومن شر غاسق إذا وقب) الغاسق : الليل إذا اعتكر ظلامه وذلك من قوله سبحانه : « إلى غسق الليل » ووُقُوبه : دخول ظلامه في كل شيء ، ويقال : وقبت الشمس ، إذا غابت ، والاستعاذة من الليل المظلم الذي يغطي كل شيء بظلامه لأنه مخوف باعث للرَّهْبَةِ وهو سِتَارٌ يَتَسَرَّعُ تَحْتَهُ ذُووُ الْإِجْرَامِ

وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ [٤] وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ [٥]

فاذا قصدوك بأذى لم تتبينهم ؛ فكان بذلك جديرا بأن يُستَعَاذَ منه بالله الواقى من شروره .

وقوله سبحانه : (ومن شر النفاثات في العقد) أصل النفاثات جمع نفّاثَة ، وهى صيغة مبالغة من النَّفَثَ ، وهو النفخ مع ريقٍ يخرج من الفم ، والعقد جمع عُقْدَة ، وهى معروفة ، وقد اختلف العلماء في المراد من النفاثات في العقد ؛ فقيل : المراد به الساحرات ، وهو مبنى على ما ذكرنا مما روى في سبب النزول ، وقيل : المراد النساء اللاتى يَكِدْنَ للرجال تشبيها لكيدهن بالسحر ، وقيل : المراد بالنفاثات في العقد النَّمَامُونُ الْمُقْطَعُونَ ^(١) لروابط الحبة المحرقون لأواصر الألفة المبددون أشمل المودة ، تشبيها لعملهم بالنفث ولرابطة الوداد بالعقدة ، أفلمت ترى أنهم يضرمون بين المتحابين نيرانَ التفرقة حتى تنفصم عروة وداهما ؟ ثم ألسنت ترى أن الارتباط الوثيق يسمى عُقْدَة ، ومنه تسمية الله تعالى ما بين الرجل وزوجه «عُقْدَة النكاح» وقوله سبحانه : (ومن شر حاسد إذا حسد) الحاسد : هو الذى يتمنى زوال نعمة المحسود ، ولا شك أن الحاسد إذا حسدك وعمل بمقتضى حسده لك فبغى لك الغوائل ، وأراد بك سوء ، وأعمل لذلك الحيلة ، ونصب شباكه لإيقاعك في المضايق ، وألقى حبال الضغن والسكيد ، وتمرّس بالذى تتفتقُ عنه حيلته من وسائل الأذى ؛ لم يكن فى وسعك أن تترضاه لأنه لا يرضى إلا بزوال النعمة عنك ؛ كما لم يكن فى طوقك أن تدفع كيدَه وترد عَوَادِيَهُ ؛ فلم يبق إلا أن تستعين عليه بالخلاق الأكرم فهو الذى يردُّ كيدَه إلى نحره ويدفع ضَبَّ ضغنه إلى صدره نسأله تعالى أن يعيذنا من شرور الحاسدين ويدفع عنا كيدهم ويرد عدوانهم عليهم ؛ إنه السميع الحبيب . والله سبحانه أعلى وأعلم

(١) وعلى ذلك تكون الناء في النفاثَة للبالغة مثل علامة وفهامه ، لا للتأنيث

سورة الناس

[وهي مكية ، وآياتها ست آيات ، ونزلت بعد سورة الفلق ^(١)]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ [١] مَلِكِ النَّاسِ [٢] إِلَهِ النَّاسِ [٣]

(١) قد اختلف العلماء في عدد آي هذه السورة ، وفي مكان نزولها ؛ فأما الأول فقال قوم : آياتها سبع ، وقال آخرون : آياتها ست ؛ وأما الثاني فإن الخلاف في مكان نزولها هو نفس الخلاف في سورة الفلق ؛ لأن الاتفاق على أنهما نزلتا معا على الترتيب بينهما كما في المصحف

قوله سبحانه : (قل أعوذ برب الناس ملك الناس إله الناس) أعوذ به : أي ألتجأ إليه وأستعين به وأستمد منه العون ، والرب : الذي قام بتدبير أمرك وإصلاح حالك ، والربوبية من أوائل نعم الله تعالى على عباده ولذلك بدأ بها ، وثني بذلك المالك لأنه إنما يدرك ذلك بعد أن يصير عاقلاً مدركاً ، وختم بذكر الألوهية لأن الإنسان بعد أن يدرك ويتعقل يعلم بالاستدلال أنه عبد مملوك لربه الذي أنشأه وصوره وحفظه في جميع أحوار حياته ومن ثمة يدرك أن الذي فعل به ذلك كله مستوجب للخضوع لقيصره وعزته مستحق لعبادته ، وإثما خص هذه الصفات بالاضافة إلى الناس مع أن الله رب كل شيء وملك كل شيء وإله كل شيء لأن الناس هم الذين أخطأوا في صفاته ، وارتكبوا فيها طريق الشطط ، وضلوا فيها الصراط السوي ، وجعلوا حقيقة معانيها ، وذلك لأنهم جعلوا لهم أرباباً ينسبون إليهم بعض النعم ، ويضرعون إليهم في استدراار بعض النعم ، وانظر إلى قوله تعالى : « اتخذوا أحيارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم ،

مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ [٤]

وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو ، سبحانه عما يشركون » ثم انظر إلى قوله جل ذكره : « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا أرباباً من دون الله ، فإن تولّوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » ثم انظر إلى قوله تعالت كلمته : « ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ، ولكن كونوا ربّانين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ، ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً ، أياّمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون » تُدْرِكُ كيف أن الناس اتخذوا بعض الخلائق أرباباً من دون الله ، وكيف كان ذلك مخالفاً لما أمرهم الله به ، وكيف أن هذا يخرج بهم عن الحدود التي رسمها الله لهم وبين لهم أن مخالفتها تخرج بهم عن الدين الذي ارتضاه لهم ؛ والناس قد تخيلوا لهم ملوكاً روحانيين ظنوا أنهم هم الذين يدبرون حركاتهم ويرسمون لهم حدود أعمالهم ، وآثروا رضا هؤلاء ، وساروا خلفهم لا يخالفون لهم رأياً ولا يترسمون غير ما يرسمونه لهم من الطرق ؛ فكانوا آلهتهم وإن لم يخلعوا عليهم هذا الاسم ، فأراد الله تعالى باضافة هذه الصفات إلى الناس أن يوبخ هؤلاء الذين حادوا عن الطريق المستقيم باثبات أن رب الناس وملك الناس وإله الناس هو الذي لا إله إلا هو الحى القيوم الذى فلق الحبة وبرأ النسمة .

وقوله سبحانه : (من شر الوسواس الخناس) الْوَسْوَاسُ : اسم للوسوسة ، والمصدر الْوَسْوَاسُ بالكسر ، والمراد به ههنا الوصف ؛ فإما أن يكون من باب إطلاق اسم المصدر على الفاعل ، وإما أن يقال : هو وصف مثل الثرثار ، والخناس : صيغة مبالغة من الخنوس ، وهو الرجوع والتأخر ، والمراد الذى يلقى

الَّذِي يُوسَّوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ [٥] مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ [٦]

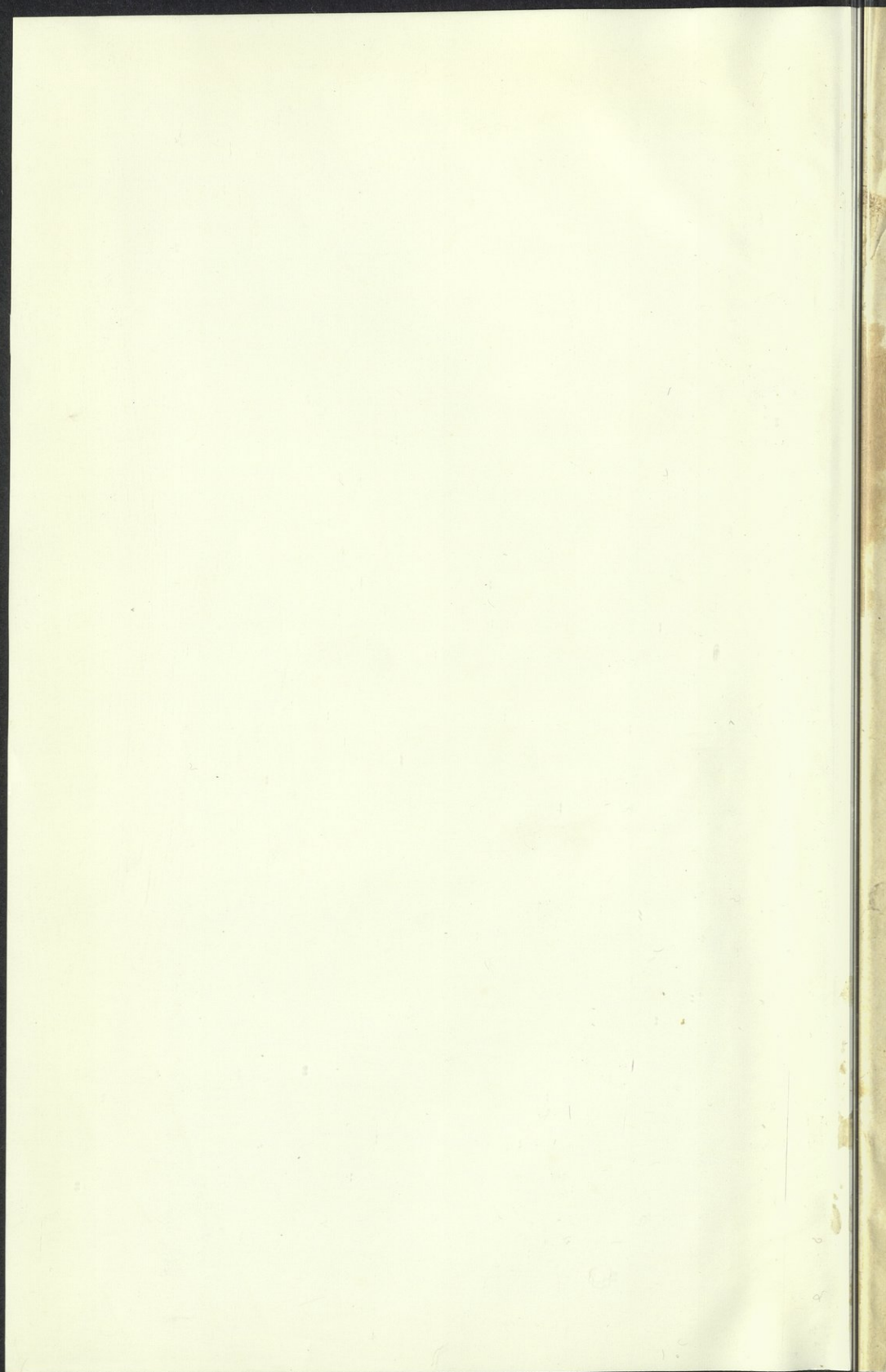
في نفس الإنسان أحاديث السوء ، وقد وصفه سبحانه بقوله : (الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس) وقوله سبحانه « من الجنة والناس » بيان للوسواس الخناس ، وكأنه سبحانه يقول : إن الوسواس الخناس قد يكون من الجنة وقد يكون من الناس ، كما ورد قوله سبحانه : « شياطين الإنس والجن » وكما أن شيطان الجن قد يوسوس تارةً ويخنس أخرى فشيطان الإنس يكون كذلك ، وذلك لأنه يُريك نفسه ناصحاً شفوفاً فإذا زجرته خنس وترك هذه الوسوسة ، وإذا أصغيت إلى كلامه بالغ فيه واستمر ؛ قال الأستاذ : فالموسسون قسمان : قسم الجنة وهم الخلق المستترون الذين لا نعرفهم وإنما نجد في أنفسنا أثراً ينسب إليهم ، ولكل واحد من الناس شيطان ، وهي قوة نازعة إلى الشر يتحدث منها في نفسه خواطر السوء ، وإنما جعل الوسوسة في الصدور على ما عهد في كلام العرب من أن الخواطر في القلب ، والقلب مما حواه الصدر عندهم ، وكثيراً ما يقال : إن الشك يحوك في صدره ، وما الشك إلا في نفسه وعقله ، وأفاعيلُ العقل في المخ وإن كان يظهر لها أثر في حركات الدم وضربات القلب وضيق الصدر وانبساطه ، اهـ

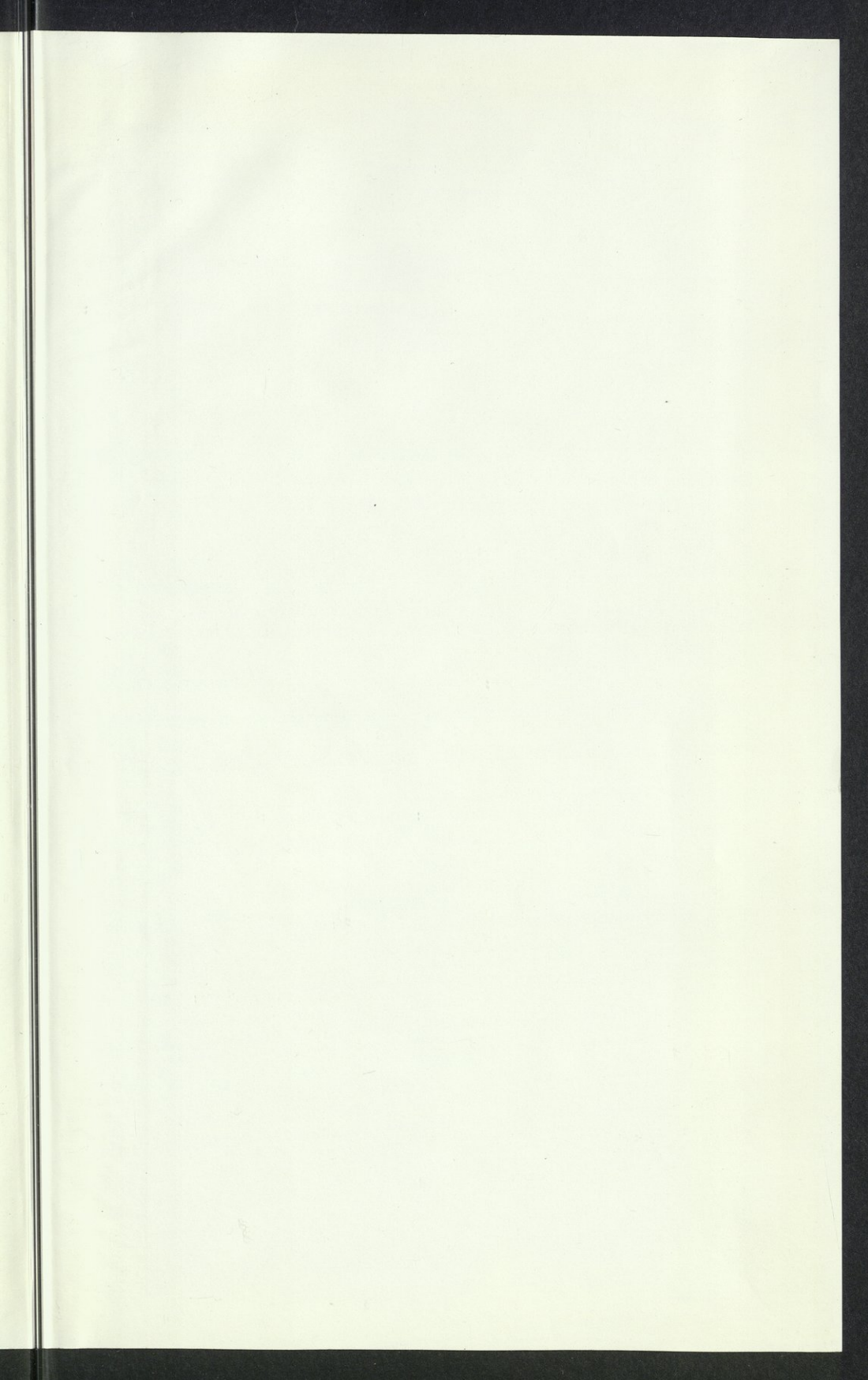
اللهم إني ألبأ إليك وأستعيز بك من شر نفسي ومن شر شياطين الجن والإنس . وأسألك أن تجعل رضاك غاية ما نسعى إليه ، وصلاة الله وسلامه على ختام المرسلين وإمام المتقين سيدنا محمد رسول رب العالمين .

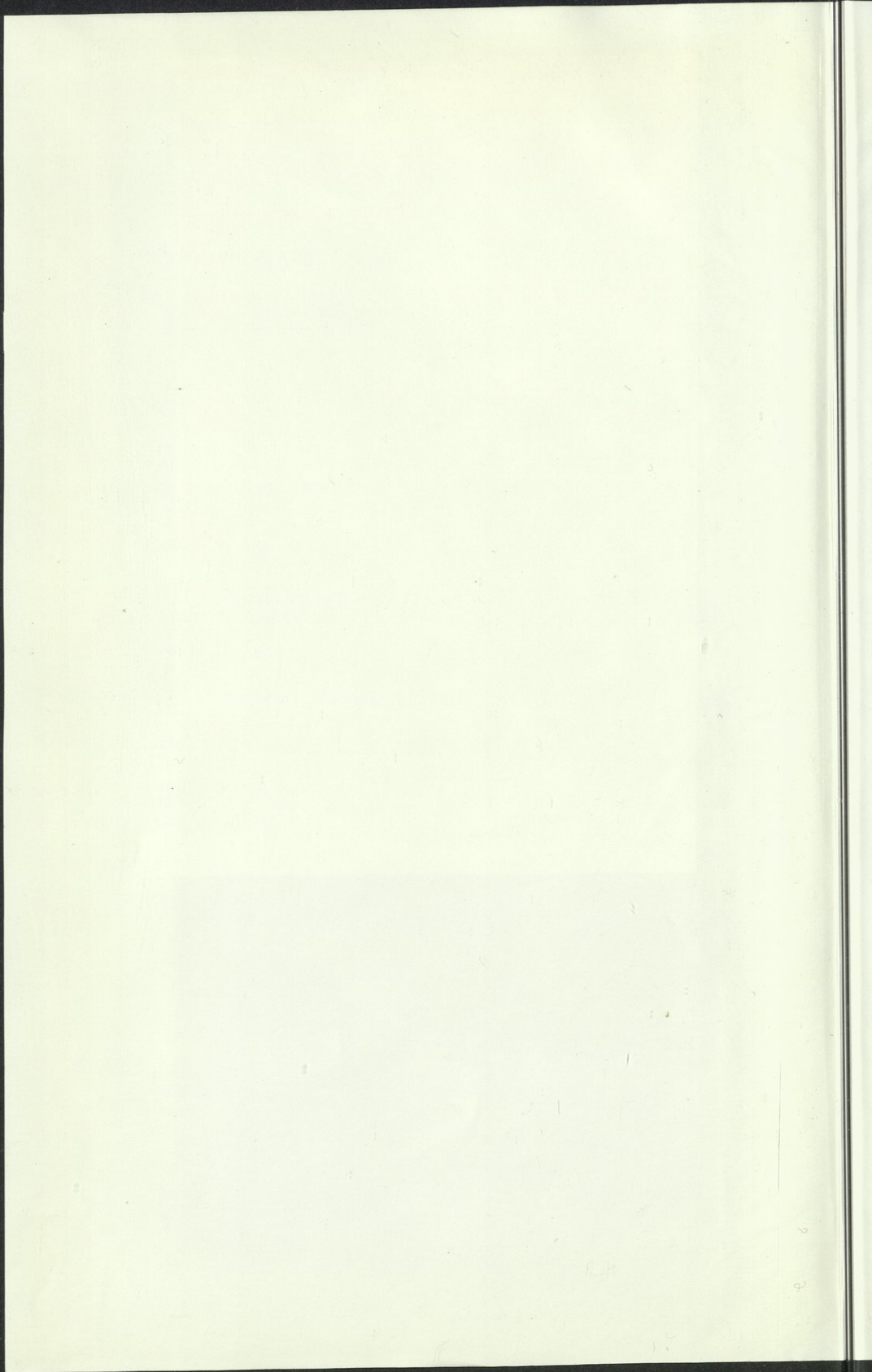
فهرست

تفسير جزء « عم يتساءلون »

ص	الموضوع	ص	الموضوع
٢٥٦	تفسير سورة العلق	٣	خطبة مؤلف التفسير
٢٦٨	» »	٦	تفسير سورة النبأ
٢٧٣	» »	٢٣	» »
٢٨٣	» »	٤٣	» »
٢٨٩	» »	٥٩	» »
٢٩٨	» »	٧١	» »
٣٠٣	» »	٨٢	» »
٣٠٨	» »	١٠١	» »
٣١٤	» »	١١٦	» »
٣٢٢	» »	١٣١	» »
٣٣٣	» »	١٤٤	» »
٣٣٨	» »	١٦٠	» »
٣٤٤	» »	١٧٥	» »
٣٥٠	» »	١٩٦	» »
٣٥٥	» »	٢١٠	» »
٣٥٨	» »	٢٢١	» »
٢٦٥	» »	٢٣٣	» »
٣٧٠	» »	٢٤١	» »
٣٧٣	» »	٢٤٨	» »







DATE DUE

JAFET LIB.

28 SEP 1978



297.207:A133tA:c.1

عبد الحميد، محمد محي الدين
تفسير القرآن العظيم. جزء عم يتساءلون

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01009128

297.207:A133tA

عبد الحميد، محمد محي الدين.

تفسير القرآن العظيم.

BIND

9. 9. 77

74-1362

297.207

A133tA

